
الإلحاد .. والدجل
(١)
ما قاله الملاحدة..
ولم يسجله التاريخ
مناقشات علمية لأطروحات كبار الملاحدة في التاريخ
د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

هذه الرواية الحوارية محاولة لاستنطاق أصوات الفطرة التي لم يستطع كبار ملاحدة التاريخ أن ينطقوا بها، أو يسجلوها في كتبهم، أو يسجلها التاريخ عنهم.. بينما كل شيء يدل عليها، فالإنسان مهما انحرف عن فطرته، فسيبقى فيه ما يصرخ بالحقيقة التي يغض طرفه عنها.

وقد استلهمنا هذه الأحاديث من تلك الصرخة التي صرخها فرعون الطاغية المستبد الذي كان يجاهر كل حين بمعارضته لربه، وتكذيبه به.. لكنه في اللحظة التي تنكشف فيها الحقائق راح يصرخ بالاعتراف بالله، والإذعان له.. وهذا يدل على أنه كان في قرارة نفسه يعترف بالله، ولكن كبرياءه حال بينه وبين الإذعان له، كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: 14]

وهكذا يحكي لنا القرآن الكريم قصص أولئك المشركين الذين يقرون بالله، ويخلصون له، ويتخلصون من كل الأوثان التي تحول بينهم وبينه في ساعات الشدة والضيق، قال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: 65]

الإلحاد .. والدجل

(1)

ما قاله الملاحدة..

ولم يسجله التاريخ

مناقشات علمية لأطروحات كبار الملاحدة في التاريخ

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1438 . 2017

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة السلسلة

تحاول هذه السلسلة المعنونة بـ [الإلحاد .. والدجل] مواجهة الموجة الإلحادية الجديدة التي تكتسح مجتمعاتنا الإسلامية خصوصا، والمجتمعات الإنسانية عموما، لتحقق مشروع الشيطان الأكبر: صرف الإنسان عن الله، وصرفه بعد ذلك عن كل القيم الإنسانية والدينية النبيلة، [illegible] [أسفل سافلين]، حيث يفقد الإنسان إنسانيته، ويفقد معها قيمه وكرامته، وينضم بعدها إلى معسكر الشياطين.

وقد استثمر هذا الإلحاد الجديد الدجل الديني الذي وقع فيه أصحاب الأديان، وخصوصا المسلمين في عصرنا، من إعطائهم صورا مشوهة للدين تمتلئ بالتطرف والعنف والإرهاب وكل القيم الشيطانية، كما استغل سلفهم من ملاحدة التنويريين أخطاء الكنيسة ودجلها وانحرافها عن رسالتها المثالية الرفيعة، لتصبح دين خرافة وإقطاع واستبداد.

وقد رأينا أنه لا يمكن لأحد من الناس أن يواجه هذين النوعين من الإلحاد [التنويري والجديد] من دون أن يعترف بوجود الدجل الديني، فلا يمكن لمن يظل محتفظا بالخرافات والضلالات المتسربة للدين أن يواجه الحقائق العلمية والعقلية التي يدل عليها كل شيئا.

ولذلك كتبنا سلسلة [الدين .. والدجل] قبل أن نكتب هذه السلسلة الجديدة، لنحطم بذلك أكبر الأسس التي تقوم عليها البراهين الإلحادية، والمعتمدة على نقد التراث الديني، واستغلال أخطائه وضلالاته ودجله، ولكنا لا نلتزم بكل ما يريد دعاة الإلحاد التنويري أو الجديد من إلزامنا به، فدين الله أعظم من أن يمثله البشر، وإنما يدل على نفسه بنفسه من خلال مصادره المقدسة.

وبما أن هذا النوع من الإلحاد لا يكتفي باللغة الفلسفية أو العلمية، وإنما يستعمل كل الوسائل والأساليب ليصل لعوام الناس وخواصهم، فهو يستعمل اللغة الأدبية في رواياته وقصصه القصيرة والطويلة، ليصل إلى الجماهير العريضة من الناس، كما يستعمل الكتابة العلمية والأكاديمية ليصل إلى نخبة المثقفين، فإنه

هذا الكتاب

هذه الرواية الحوارية محاولة لاستنطاق أصوات الفطرة التي لم يستطع كبار ملاحدة التاريخ أن ينطقوا بها، أو يسجلوها في كتبهم، أو يسجلها التاريخ عنهم.. بينما كل شيء يدل عليها، فالإنسان مهما انحرف عن فطرته، فسيبقى فيه ما يصرح بالحقيقة التي يغض طرفه عنها.

وقد استلهمنا هذه الأحاديث من تلك الصرخة التي صرخها فرعون الطاغية المستبد الذي كان يجاهر كل حين بمعارضته لربه، وتكذيبه به.. لكنه في اللحظة التي تنكشف فيها الحقائق راح يصرخ بالاعتراف بالله، والإذعان له.. وهذا يدل على أنه كان في قرارة نفسه يعترف بالله، ولكن كبرياءه حال بينه وبين الإذعان له، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]

وهكذا يحكي لنا القرآن الكريم قصص أولئك المشركين الذين يقرون بالله، ويخلصون له، ويتخلصون من كل الأوثان التي تحول بينهم وبينه في ساعات الشدة والضيق، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65]

يلزم على من يريد أن يواجه هذه المنظومة الشاملة لأخطر أنـواع الأسلحة أن يستعمل نفس أساليبها ووسائلها حتى يصل إلى عوام الناس ونخبتهم.

ولـذلك اسـتعملت هـذه السلسـلة كلا الأسـلوبين: الأسـلوب العلمي الـذي يصـف الواقـع بدقـة، ويـرد عليـه، والأسـلوب الأدبي الذي يصف الواقـع ببعض الرمزيـة ليقـرب الصـورة، ويحولهـا إلى واقع مشاهد بدل أن يكون واقعا مسموعا أو موصوفا.

وبما أن هذا النوع من الإلحـاد لا يكتفي باللغـة الجـادة، وإنمـا يضم إليها الكثير من السخرية الممتلئة بالبذاءة والوقاحة مستثمرا الواقع الديني المزيف، فلا مناص لنا من أن نستعمل السخرية من باب المشاكلة، ولكنا نربـأ بأنفسـنا أن نقـع في البـذاءة الـتي يقـع فيها، وإنما نستعمل السخرية التي نص عليهـا قولـه تعـالى حكايـة عن نوح عليه السلام: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِـهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْـخَرُونَ﴾ [هود: 38]

وهي سـخرية ممتلئـة الأدب، ومضـمخة بعطـر السـلام، فلا نقصد منها إهانة لهؤلاء الملاحدة أو تحقيرا لهم، وإنما قصـدنا منهـا أن ينتبهوا إلى أنفسهم، وما تريد بهم الشياطين.

وهكذا فإننا لا نريد من استعمال كلا اللغتين الجادة والساخرة سـوى الخـير لهـؤلاء الضـحايا المغـرر بهم، فهم فريسـة الجهـل، وتعطيل العقل، كما هم فرائس للواقع الـديني المزيـف، ولـو أنهم أبصروا الحقيقة الجميلة الصافية، لكانوا أول المدافعين عنها.

وبمـا أن هـذا الإلحـاد الجديـد يسـتمد مصـادره من الإلحـاد التنويري ومن الصراع بين المتدينين، فهكذا سـنفعل في مناقشـتنا له من الاستفادة من كل المصادر التي تناقشـه أو تـرد عليـه بلغـة هادئة أو لغة قاسية.. مع فارق بسيط، وهو أننا لا نعتمد إلا الصـدق والحقيقة، فالغاية لا تبرر الوسيلة.

ولـذلك سـيرى القـارئ الكـريم أننـا نسـتفيد من الكثـير من المراجع الـتي اهتمت بنقـد الإلحـاد، بغض النظـر عن الجهـة الـتي أصدرتها.. فهي جميعا مراجع لها قيمتها العلميـة، ويشـكر أصـحابها

عليها، ونحن نعتبرهم شركاءنا في الحرب على هذا الدجل الخطير الذي يريـد أن يقضـي على كـل القيم الإنسـانية، فالإلحـاد مقدمـة لانهيار الإنسانية.

ولا ينبغي للمسلم العارف بدينه أن تضيق نفسه بهـذا، فاللـه تعالى أخبرنا أن هنـاك الكثـير من القواسـم المشـتركة بيننـا وبين أهل الكتاب، كما قال تعـالى: ﴿وَلَا تُجَـادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَـابِ إلا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ﴾ [العنكبـوت: 46]

ولكن ذلك لا يمنعنـا من نقـد الـدجل الـديني الـذي وقـع فيـه بعض رجال الأديان المختلفة، والذي كان سببا من أسباب الإلحـاد، مثلما نقدنا الدجل الديني الذي وقع فيه بعض المسلمين.

وفي الأخير قد يعتبر البعض البحث في هـذا نوعـا من الـترف العقلي الذي لا مبرر له، وأن المسلمين بخـير، ولا يحتـاجون لمثـل هـذا الأبحـاث، وقائـل هـذا لا يعـرف الواقـع، وليس لـه تفكـير استشرافي مستقبلي ليعرف ما يراد بالمسلمين.

فمعسكر الاستكبار العالمي الـذين اسـتثمر جهـل المسـلمين ليغزو أرضهم، ويسرق خيراتهم، هو نفسه الذي لا يزال يخطـط، لا للعودة من جديـد، وإنمـا لتحويـل المسـلمين إلى خـدم مسـخرين لخدمته، ولا يتمكن من ذلك إلا إذا استأصـل منهم إنسـانيتهم، ولن يتـاح لـه ذلـك إلا إذا استأصـل منهم عقيـدتهم.. وأول عقائـدهم إيمانهم بالله.

ونحب أن ننبه في مقدمة هذه السلسلة كما نبهنا في مقدمة سلسلة [الدين .. والدجل] إلى أن هدفنا منها هو النصيحة الصادقة المخلصـة الـتي لا تتضـمن أي نـوع من العـداوة أو الحقـد، فنحن نعتقد أن هـؤلاء الملاحـدة إخواننـا في الإنسـانية، وأنـه يجب علينـا جميعا أن نبحث عن الحقيقة، وأن نسلك في حياتنا مـا تـدعو إليـه من غير أن يشنع بعضنا على بعض، أو يلغي بعضنا بعضا.

مقدمة الكتاب

من الأساليب التي يستعملها الملاحدة قديما وحديثا في مناقشاتهم مع المؤمنين من أهل الأديان المختلفة، ما يطلق عليه (الشخصنة)[1]، وهي التركيز على الأشخاص بدل الحقائق، على الرغم من نقدهم الشديد لما يسمونه التيارات السلفية والراديكالية والأصولية، وعلى الرغم من تبجحهم بكونهم من أهل العلم والحقيقة والعقل.

إلا أننا عندما نستقرئ كتاباتهم نجد ذلك التضخيم المبالغ فيه لكل ملحد مهما كانت رتبته من الثقافة والفكر.. فهو عندهم عبقري ما دام قد صرح بالإلحاد.. وهو عندهم أبله وغبي ورجعي ما دام محافظا على إيمانه.. بغض النظر عن طروحاته التي يطرحها.

وكمثال على ذلك موقفهم من الملحد العربي [عبد الله القصيمي]، فهو مع كونه قبل إلحاده كان أصوليا سلفيا متطرفا، كتب يدافع عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والطروحات السلفية المتشددة، ويشن هجوماته على المخالفين لهم، إلا أنه وبمجرد تصريحه بإلحاده تحول عندهم إلى رمز للعبقرية والتفكير المنطقي.

وهكذا نراهم يضخمون [إسماعيل مظهر] ذلك الشاب البسيط الذي لم يخلف أي ثروة علمية، ولا أي إنتاج فكري، لسبب بسيط، هو تأليفه لرسالة هزيلة لا تمت بصلة للفلسفة ولا للعلم عنونها بـ [لماذا أنا ملحد]، وتراهم يستعملون كل الوسائل للدفاع عنه، وعن كونه لم ينتحر، بل يتهمون المؤمنين بقتله من غير بينة ولا دليل.

وهكذا نراهم يمجدون الحداثيين، لا لشيء، وإنما لموقفهم المتشدد من الدين، ومن مصادره المقدسة، على الرغم من أن

---

[1] تُعرّف الشخصنة على أنها الحكم على الآخرين، أو على أفكارهم، ووجهات نظرهم، وتصرفاتهم، من مُنطلق شخصيّ أو رؤية شخصيّة، ويُقال في اللغة العربية شَخْصَنَ الفكرة؛ أي شرحها من وجهة نظره الشخصيّة، أو أعطى الأمر صبغةً شخصيّة.

هؤلاء الذين يمجدونهم لم يقدموا أي بديل لأطروحـاتهم إلا البـديل الذي تلقفوه من الغرب، ومن الأساتذة الذين تتلمذوا عليهم.

ونفس الشـيء نجـده في مـوقفهم من العلمـاء من غـير العرب.. فهم يمجدون الملاحدة منهم، ويحتقـرون المؤمـنين حـتى لو كانوا من أصحاب تخصص واحد، ومدرسة واحدة.

ومن الأمثلـة على ذلـك أنهم يقـدمون كـل أسـاتذة نظريـة التطور من الملاحدة على نفس القائلين بهذه النظرية من غـيرهم حـتى لـو كـان دارون نفسه[1] .. فهم يشـيدون بالعـالم الألمـاني [أرنسـت هايكـل]، لا بسـبب دقتـه العلميـة، وإنجازاتـه في هـذا المجال[2]، وإنما بسبب تصريحه بالإلحاد، ولهذا نراهم يرددون كل حين اعتباره أن أصل الحياة هو [المونيرا] التي تـركبت اتفاقـا من الأزوت والهيدروجين والأكسجين، ومنها تكونت الحيـاة.. ويـرددون معها قوله: (ائتوني بالهواء وبالمـاء وبـالأجزاء الكيماويـة وبـالوقت

---

[1] يقول العقاد: (أما داروين فلم يزعم قط أن ثبوت التطور ينفي وجود الله، ولم يقل قط أن التطور يفسر خلق الحياة، وغاية ما ذهب إليه أن التطور يفسر تعدد الأنواع الحيوانيـة والنباتية، وفي ختام كتابه عن أصل الأنواع يقول أن الأنواع ترجع في أصولها إلى بضعة أنـواع تفرعت على جرثومة الحيـاة الـتي أنشـأها الخلاق) [عقائـد المفكـرين في القـرن العشـرين، عباس محمود العقاد، ص54]

ثم ينقل عن شريكه في تأسيس نظرية التطور [والاس] من كتابه [عالم الحيـاة] متحـدثا عن عقيدة داروين: (إنه على ما يظهر قد صار إلى نتيجة واحدة، وهي أن الكـون لا يمكن أن يكون قد وجد بغير علة عاقلة، ولكن إدراك هذه العلـة على أي وجـه كامـل يعلـو على إدراك العقل البشري)

ثم عقب [والاس] عليه بقوله: (وإني لأولي هذه النظرة كل عطفي وشعوري، ولكنني مع هذا أرى أننا مستطيعون أن نلمح قبسا من القـدرة الـتي تعمـل في الطبيعـة، يسـاعدنا على تذليل الصعوبة البالغة التي تحول دون العلم بحقيقة الخالق الأبدي الذي لا أول له ولا آخر)

[2] اعتبر الكثير من العلماء المنتقدين لنظرية التطور هايكل بالخداع،.قـد نشـرت مجلـة ساينس مقالاً للباحثة بنيسي عام 1997 بعنوان: (أجنّة هايكـل: إعـادة الكشـف عن الـتزييف اتهمت فيها هايكل بالتضـليل المتعمـد وتزويـر مراحـل التطـور الجنيـني (1997)، وصـرّحت المقالة بأن أعمال الباحث مايكل ريتشاردسون قدّمت أدلةً واضـحةً على تزويـر هايكـل من خلال مقارنة رسوماته للأجنّة في المراحل المبكرة مع صـورٍ حديثـةٍ لأجنّـة نفس الأنـواع في نفس المرحلة الجنينية)

وسأخلق الإنسان)[1]

وهكذا نراهم يمجدون كاهن الإلحاد الأكبر في العصر الحديث [ريتشـارد دوكيـنز] الـذي راح يحـول من نظريـة دارون من مجـرد كونها محاولـة لفهم سـر نشـأة الحيـاة وتعـدد أنواعهـا إلى نظريـة فلسفية تحاول أن تزيح الله من إيجـاد الحيـاة، بـل من إيجـاد كـل شيء.

ولـذلك نجـد كتب دوكيـنز تحظى من الشـهرة والانتشـار بين الملاحدة ما لا تحظى به كتب أعلام نظرية التطور الكبار أنفسهم، ونحسب أنه لولا امتطاؤه لهذه النظرية واستثمار لهـا في الـدعوة للإلحاد ما كانت له هذه الشهرة، ولا المقروئية.

وهكذا نجدهم في تعاملهم مع أعلام الفيزياء الحديثـة، والـتي صرح كبار أعلامها بإيمانهم باللـه، بـل ألفـوا في ذلـك المؤلفـات.. لكن مرض الشخصنة الذي أصيب به دعـاة الإلحـاد الجديـد جعلهم يغفلـون عن هـؤلاء، وعن غـيرهم كثـير، ويركـزون على سـتيفن هـوكينج الـذي يحـاول الملاحـدة أن يلغـوا بـه كـل الفيزيـائيين التقليـديين والمحـدثين، كمـا عـبر عن ذلـك الملحـد التطـوري [ريتشارد دوكيـنز] بقولـه: (لقـد طـرد داروِن الإلـه من البيولوجيـا، ولكن الوضع في الفيزياء بقي أقل وضوحاً، ويُسدد هوكينج الضربة القاضية الآن!!)

وقد عبر [هوكينج] عن هـذا الـدور الـذي وكـل إليـه في نشـر الإلحاد باسـم الفيزيـاء بقولـه: (تمامـا مثلمـا فسـر داروِن ووالاس كيــف أن التصــاميم المعجــزة المظهــر في الكائنــات الحيــة من الممكن أن تظهــر بــدون تــدخل قــوة عظمى، فمبــدأ الأكــوان المتعـددة من الممكن أن يفسـر دقـة القـوانين الفيزيائيـة بـدون الحاجة لوجـود خـالق سـخر لنـا الكـون، فبسـبب قـانون الجاذبيـة فالكون يستطيع ويمكنه أن يُنشـيء نفسـه من اللاشـيء، فـالخلق الذاتي هو سبب أن هناك شيء بدلا من لاشيء، ويفسر لنـا لمـاذا

---

[1]() العقيـدة الإسـلامية في مواجهـة التيـارات الإلحاديـة، فـرج اللـه عبـد البـاري، ص77 بتصرف.

الكون موجود، وكذلك نحن)[2]

انطلاقا من هذه الشخصنة التي يعالج بها الملاحدة أخطر قضية في الوجود [وجود الله]، يحاول هذا الكتاب، وهو مقدمة هذه السلسلة، أن يحطم هذه الأسطورة عبر مناقشته لأطروحات كبار الشخصيات التي يتبناها الملاحدة، ويدافعون عنها، ويعتبرونها نماذج للتفكير المنطقي، والبحث العلمي، ونحن لا ننكر أن يكون لتلك الشخصيات إسهاماتها في البحث العلمي، ولا كونها تفكر تفكيرا منطقيا في الكثير من القضايا، ولكنا ننكر اعتماد الشخصنة بدل اعتماد البحث العلمي والعقلي في كل القضايا، وخاصة في هذه القضية الخطيرة.

وبما أن الملاحدة الجدد يعرضون أمثال هذه الشخصيات وعليها الكثير من تيجان الوقار والانبهار، وبلغة تصل للعام والخاص، فقد حاولنا في هذا الكتاب أن نستعمل نفس الأسلوب، ونعرض هذه الشخصيات بطريقة مبسطة سهلة لتصل إلى عوام الناس وخواصهم.

وحتى لا تكون ردودنا قاسية أو تحمل أي إساءة لأشخاص هؤلاء الملاحدة والمتعلقين بهم، فقد اعتمدنا منهج الاعتراف والإقرار، أي أننا حاولنا أن نستنطق الفطرة التي جبل عليها كل خلق الله بما فيهم الملاحدة أنفسهم، ليقوم الملاحدة أنفسهم بذكر أخطائهم والرد عليها بعد اكتشافهم للحقيقة، كما قال تعالى معبرا عن حال الكفار بعد معاينهم للحقائق: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27 ـ 29]

ولهذا فإن هذه الرواية الحوارية محاولة لاستنطاق أصوات الفطرة التي لم يستطع كبار ملاحدة التاريخ أن ينطقوا بها، أو يسجلوها في كتبهم، أو يسجلها التاريخ عنهم.. بينما كل شيء يدل عليها، فالإنسان مهما انحرف عن فطرته، فسيبقى فيه ما يصرخ بالحقيقة التي يغض طرفه عنها.

---

[2] () مختصر تاريخ الزمن، ستيفن هوكينج، ص 165.

وقد استلهمنا هذه الأحاديث من تلك الصرخة التي صرخها فرعون الطاغية المستبد الذي كان يجاهر كل حين بمعارضته لربه، وتكذيبه به.. لكنه في اللحظة التي تنكشف فيها الحقائق راح يصرخ بالاعتراف بالله، والإذعان له.. وهذا يدل على أنه كان في قرارة نفسه يعترف بالله، ولكن كبرياءه حال بينه وبين الإذعان له، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]

وهكذا يحكي لنا القرآن الكريم قصص أولئك المشركين الذين يقرون بالله، ويخلصون له، ويتخلصون من كل الأوثان التي تحول بينهم وبينه في ساعات الشدة والضيق، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65]

وجمعنا بين المشركين والملحدين في محل واحد ليس غريبا، ولا مستبعدا، فالملحد ليس سوى مشرك، أشرك الطبيعة بالله، ونسب الصنعة لغير أهلها، ونسب التدبير لغير أهله.. فلذلك كانت آيات الرد على المشركين هي نفسها آيات الرد على الملحدين.. فالمشرك الذي نسب الكون لصنم لا عقل له ولا تدبير، لا يختلف عن الملحد الذي ينسب الكون للطبيعة العمياء الصماء البكماء التي لا عقل لها ولا تدبير.

وقد اخترنا لتحقيق هذا الغرض سبعة أصناف من المدارس التي تضم كبار الملاحدة في التاريخ، غير مراعين في اختيار الشخصيات البعد الزماني، وهي:

التنويريون: ونقصد بهم أعلام التنوير في عصر النهضة الأوروبية، والذين اكتفى بعضهم بإبداء موقف سلبي من الكنيسة والمسيحية، بينما ذهب آخرون إلى إلغاء الأديان جميعا، بل صرح الكثير منهم بالإلحاد.. وقد ناقشنا في هذا الفصل استثمار الملاحدة لأخطاء المتدينين في الدعوة للإلحاد، أو كون الدين المزيف سببا في ظهور الإلحاد، وحاولنا أن نثبت عدم علاقة الإيمان ولا الإلحاد بالتنوير.. وأن كليهما يمكن أن يساهم في التنوير، أو يساهم في الظلامية.

الوجوديـون: ونقصـد بهم أعلام المدرسـة الوجوديـة، وهي المدرسة التي تـدعو إلى الحريـة التامـة في التفكـير بـدون قيـود، وتؤكـد على تفـرد الإنسـان، وأنـه صـاحب تفكـير وحريـة وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجه خارجي، وبالتـالي لا يحتـاج إلى إلـه.. ومع علمنا بكون الوجودية ذات تيارات مختلفة منها مـا هـو ملحـد، ومنهـا مـا لا علاقـة لـه بالإلحـاد، إلا أننـا هنـا ركزنـا على الملاحـدة خصوصا، وعلى العلاقة بين الأخلاق والإلحاد.

الحسـيون: ونقصـد بهم أعلام المدرسـة الوضـعية ودعـاة المنهج التجريـبي الـذين طـالبوا بالتعامـل مـع الحقـائق الدينيـة بأساليب المنهج التجريبي المادي.

العبثيون: ونقصد بهم أعلام المدرسة العبثية، والتي تتصـور الحياة بصـورة ممتلئـة بـالعبث واللامعـنى، وهي لـذلك لا تـرى أي مضمون حقيقي وراء السلوك الإنساني، بـل وراء الحيـاة نفسـها.. وقد ناقشنا من خلالهم التصورات الإلحادية للحياة، وعبثيتها، لنـبين من خلال ذلك قيمة الإيمان ومدى فاعليته في الحياة.

المصارعون: ونقصـد بهم أعلام الماديـة الديالكتيكيـة، وهي التفسير المادي الجدلي للمادة وللظواهر الطبيعيـة.. وقـد ناقشـنا من خلالهم هذه الطروحـات، وبينـا مـدى مـا تحملـه من مصـداقية علمية.

المتجــبرون: ونقصـــد بهم أعلام العنصـــرية في التـــاريخ، والمرتبطين بالكثير من أعلام الملاحدة من أمثال نيتشـة وسبنسـر وهتلر وغيرهم.. وقد ناقشـنا من خلالهم مـدى الظلم الـذي يلحـق بالإنسان جراء الإلحاد، وإلغاء القيم الدينية والإنسانية.

الطبـائعيون: ونقصـد بـه علمـاء الفيزيـاء والبيولوجيـا من أصحاب النظرة الماديـة والتفسـير المـادي للكـون والحيـاة سـواء كـانوا من أعلام النظـرة العلميـة القديمـة، أو النظـرة العلميـة الجديدة.. وقد ناقشنا من خلالها مدى دقـة مـا طرحـوه من أفكـار إلحادية.

ونحب أن ننبـه إلى أن هـذا العمـل ـــ مـع اعتمـاده العلميـة والعقلانية في طرح الأفكار ومناقشتها ـ إلا أنـه من حيث الصـياغة

عمل فني، لا تراعى فيه الدقـة في الوقـائع التاريخيـة، فلـذلك قـد نضع بعض الشخصـيات في أمكنـة أو أزمنـة لا علاقـة لهـا بهـا من الناحية الواقعية، ذلك أن الهدف هو الفكرة، وليس الأحداث.

وبناء على هذا اعتمدنا الرمز وسيلة لطرح الكثير من الأفكـار أو تقريبها، ومن أمثلة ذلـك رمـز [فنـدق الملاحـدة]، والـذي يمتلئ بكل ألوان الترف والزينة، لكن الملاحدة يحجبـون عنـه، ويعيشـون حياة ممتلئة بالأسى، ومتوافقة مع ما اختـاروه من مواقـف.. وهـو جزاء وفاق لحقيقة الملاحدة الذين تنعمت أجسادهم بزينـة الحيـاة الـــدنيا، وشـــقيت أرواحهم بالانقطـــاع عن النعيم الحقيقي: نعيم التواصل مع الله.

ونحب أن ننبه أيضا إلى أننا في نقد بعض الطروحات العلمية نكتفي بالرد المجمل، لا المفصل، لأننـا خصصـنا كتبـا خاصـة بـالرد المفصل على الطروحات الإلحادية المختلفـة.. فهـدف هـذا الجـزء هـو التعريـف بكبـار مـروجي الإلحـاد، مـع ذكـر عوامـل إلحـادهم، والتعريف بطروحاتهم ومناقشتها مناقشة عامة لا تفصيلية.

البداية

تبدأ حكايـة رحلـتي هـذه مـع [معلم الإيمـان] عنـد زيارتـه لي لأول مرة، وقوله ـ بشدة ممزوجة لينا، وقسـوة ممتلئـة رحمـة ــ: قم لتتعلم الإيمان.

فرددت عليه بتلقائية: أنا مؤمن بحمد الله، وقد ورثت إيمـاني عن أجداد كثيرين، كلهم يلهجون بالشهادتين، وماتوا وهم يرددونها.

قال: ذلك إيمان الوراثة.. وهو إيمان لا يفرقك عن غـيرك، ولا يميزك عن سواك.. فكلهم ورثوا عقائدهم، كما ورثوا أموالهم.. ولا ينفعهم في اليوم الـذي تبلى فيـه السـرائر إلا ذلـك الإيمـان الـذي اكتسـبوه، وعاشـوه، وتحققـوا بـه.. فعـدل اللـه يـأبى أن يحاسـب الإنسان إلا على ما اختاره واكتسبه.

قلت: لكني سمعت مشايخي من العلماء والمحققين يسألون ربهم أن يرزقهم إيمانا كإيمان العجائز.. وقـد حكى لي بعضـهم أن الإمام الهمام شيخ الإسـلام فخـر الـدين الـرازي مـر مـع نفـر من أصـحابه على عجـوز تعجبت من احـترامهم لـه، فسـألت عن سـر ذلك، فقال لها بعضهم: هذا إمام وجد ألف دليل على وجـود اللـه.. فتعجبت وقالت: لو لم يكن عنده ألف شك، لما احتـاج إلى البحث عن ألف دليل.

قال: وهل تعرف دين العجائز، وإيمانهم؟

قلت: أجل.. فهو إيمان فطري بسـيط لا يحتـاج أي تكلـف ولا استدلال.. هومثل حياتهم تمامـا، ممتلئ بالبسـاطة.. ليس فيـه أي تعقيد.. ولا يحتاج بذلك أي بحث.

قال: فكيف يميز هؤلاء الحق من الباطل، والخير من الشر؟

قلت: هم ورثوا ذلك وراثة.

قال: فهل ورثوه عن معصومين لا يخطئـون ولا ينحرفـون، أم ورثوه عن بشر مثلهم يخطئون ويصيبون؟

قلت: بل ورثوه عن بشر مثلهم، يخطئون ويصيبون.

قال: فهل ترى موازين الله الممتلئة بالعدالة تقبل باطلهم الممزوج بالحق، وشرهم الممزوج بالخير، لكونهم ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، ولا مسؤولية لهم في ذلك؟

لم أدر ما أجيبه، لأني إن خالفته في ذلك قرأ علي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإلى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تنعى عليهم تقليد المشركين لآبائهم، ووراثتهم الدين منهم.

وإن وافقته فيما ذكر أكون قد تخليت عن مبدئي الذي تعلمته وورثته.. لكني وجدت حيلة للفرار، فقلت: لك أن تقرأ علي ما شئت من آيات القرآن الكريم التي تنعى على المشركين اتباعهم لآبائهم وأجدادهم.. لكن الأمر مختلف هنا، فنحن مسلمون بحمد الله، وقد ورثنا الإسلام من أشخاص كثيرين كلهم مسلمون.

قال: الحق أعظم من أن يتعلق بالأشخاص.. الحق اسم الله، واسم الله لا يسمى به غيره.. فلذلك ابحث عنه تجده..

قلت: فكيف أبحث عنه؟

قال: بالبحث عن أهله.

قلت: ها قد عدت بنا إلى الأشخاص..

قال: عندما تسلم للأشخاص، وتنقاد لهم، وتجثو بين أيديهم كالميت بين يدي الغسال، لا تناقش لهم رأيا، ولا ترد عليهم وهما، حينها تكون عبدا للأشخاص.. وحينها ستسد الحجب بينك وبين الحقيقة.

قلت: أتقصد أن أناقش الأشخاص؟

قال: تناقش أفكارهم، لا ذواتهم.. وحججهم، لا أعيانهم.

قلت: بم؟

قال: بحجج الله التي أودعها الله في عقلك، لتميز الحق من الباطل، والخبيث من الطيب.

قلت: هذا كلام جميل.. فمن أنت .. ومن الذي أرسلك لي؟

قال: ما دمت قد جئت لأعلمك الإيمان.. فأنا [معلم الإيمان]

قلت: لا شك أن الذي أرسلك لي هو معلمي [معلم السلام]

قال: كلنا نقطة تحت الباء[1] .. فلا تسأل عمـا لا يعنيـك.. ولا تسأل عما يعجز عقلك عن فهمه.

قلت: معذرة .. نسـيت أنـني أتحـدث مـع النقطـة الـتي تحت الباء..لكن أخبرني عن المنهج الذي تريـد أن تعلمـني بـه الإيمـان.. هــل على منهج الأشــاعرة .. أم على منهج الماتريديــة .. أم على منهج المعتزلـــة .. أم على منهج أهـــل الحـــديث.. أم على منهج الإماميـة .. أم على منهج الإباضـية.. أم على منهج المتكلمين .. أم على منهج الفلاسفة.. أم على منهج الإشـراقيين والروحـانيين.. أم على منهج ..؟

قاطعني، وقال: ألم تتعلم من معلمك معلم السلام أن تــترك مثل هذه الأسماء.. فلا يمكن إدراك الحقائق لمن سجن عقلـه في سجون الأسماء؟

قلت: بلى .. لــك الحــق في ذلــك .. فــالحق أعظم من أن يسجن في سجون الطوائف والمذاهب والأشخاص.

***

لست أدري هل كنت نائما أم يقظان حين جـرى هـذا الحـوار بيني وبين معلمي الجديد [معلم الإيمـان]، لكن الـذي أدركـه جيـدا أنـني كنت في قمـة يقظـتي، ومعهـا في قمـة حـزني، قبـل تلـك اللحظات السعيدة التي التقيت فيها معلمي الجديد.

كنت حينها مستلقيا على أريكـتي أشـاهد شـريطا وثائقيـا عن ظاهرة الإلحاد الجديد، وسـيطرته على الشـباب المسـلم، وتحـول الإلحاد إلى موضة جديدة لا تختلف عن موضة الأكل واللباس.

---

[1] هذه إشارة كان يستعملها كثير من الصـالحين للدلالـة على العبوديـة، وقـد جعلناهـا رمزا لمعلم السلام، ولمن تحقق بمعاني السلام الشامل.

وقد آثر معدو الشريط الوثائقي تصويب الكاميرا على مجموعة من الشباب الملحد، مع ترك الفرصة لهم للحديث كما يشتهون من غير أي تدخل خارجي يوجه دفة الحديث.

وهذا أسلوب صحفي اعتمدته بعض الوسائل، الإعلام ورأت مدى نجاعته في نقل الصور والحقائق بدقة.. وقد أصابوا في ذلك.. فقد صور أولئك الشباب هذا الواقع الإلحادي الجديد بكل دقة، وبكل ألم.

كان أول من بدأ الحديث شاب في مقتبل العمر، راح يردد بين أصدقائه بفخر واعتزاز ـ مجيبا من سأله عن سر إلحاده ــ: وكيف لا ألحد .. وأنا أرى أن البشرية لم تزدهر، والعقول لم تنور إلا بعد أن تخلصت من قيود الإيمان الممتلئ بالخرافة .. انظروا إلى كبار عمالقة التاريخ من أمثال هولباخ وفولتير وهيغل وانجلز وماركس ونيتشه وفرويد ودركايم ولينين وتروتسكي وسارتر.. وغيرهم .. ترونهم جميعا نبذوا أديانهم وكل الخرافات التي تقيد بها سلفهم، ليؤمنوا بإله العقل والعلم.

قال آخر: وانظروا إلى عمالقة العرب تجدونهم جميعا من الذي أقروا بإلحادهم، بل انتصروا له رغم القمع الذي واجههم به الخرافيون.. هل سمعتم بإسماعيل مظهر، والزهاوي، والرصافي، والعظم، والقصيمي.. كل هؤلاء العمالقة، وغيرهم كثير، تمردوا على الخرافة، واعتنقوا الإلحاد.

قال آخر: هل سمعتم بعبقري العصر، بل نبي الإلحاد الجديد [ريتشارد دوكنز] صاحب القرآن البديل عن قرآن الخرافيين.. إنه صاحب كتاب [وَهْم الإله]، ذلك الكتاب العبقري الذي استطاع أن يحطم به أسطورة الدين وكل عقائده الخرافية.. لقد عبر في كتابه ذلك عن الحقيقة التي تاهت البشرية عنها لأجيال طويلة، لقد أثبت فيه أن (الملحدين يجب أن يكونوا فخورين، لأن الإلحاد دليل على عقل صحي ومستقل) .. وأثبت (أن الملحدين يمكن أن يكونوا سعداء، متّزنين، ذوي أخلاق، وراضين فكريًا).. وأن (الانتقاء الطبيعي والنظريات العلمية المشابهة تتفوق على فرضية الإله

في تفسير وجود الكائنات الحية والكون)[1]

قال آخـر: ومثلـه ذكـر [روبـرت بيرسـيغ]، فقـد اكتشـف أنـه (عندما يعاني شخص من وهم يسـمى ذلـك جنونـاً، وعنـدما يعـاني مجموعة أشخاص من وهم يسمى ذلك ديناً)

قال آخر: وهل سمعتم بذلك العبقري العظيم [سام هـاريس] صاحب الكتاب الأسطورة [نهاية الإيمان] الذي تصـدر قـوائم أكـثر الكتب مبيعًا في العالم، وصاحب المحاضـرات والفيـديوهات الـتي يسمعها ويشاهدها مئات الآلاف حول العـالم، وصـاحب المؤسسـة العظيمة [المعرفة العلمية] التي حطمت كل خرافات المتدينين.

قال آخر: وهل سمعتم بذلك الفلكي الأمريكي العظيم [كارل ساغان] صاحب كتـاب [عـالم تسـكنه الشـياطين: العلم الطـبيعي كشـمعة في الظلام] ذلـك الكتـاب الـذي قضـى على الخرافـة والأسطورة، وبشـر بملـة الإلحـاد الجديـد ..هـذه النِّحلـة الطبيعيـة المعاصرة التي قضت على كل الأديان.. ورفعت شـعارات التنـوير والعلم الطبيعي والعقلانية.. لقد استطاع أن يكمل بجهوده الجبارة ما قام به ريتشارد دوكيـنز في كتابـه [وهم الإلـه]، وسـام هـاريس في كتابه [نهاية الإيمان]، وهيتشنز في كتابه [الإله ليس عظيمًا]

قـال آخــر: لا تنســوا أن تــذكروا أعظم فيزيـائي في التـاريخ [سـتيفن هوكينـغ] الــذي اسـتطاع أن يجيب عن كــل تســاؤلاتنا المرتبطة بنشأة المادة، مثلما أجاب دوكينز عن أسـئلتنا المرتبطـة بالحياة.. ولذلك لا نحتاج أي دين ليجيبنا عن تساؤلاتنا.. فـالعلم هـو مصدر الحقيقة لا الدين.

قال آخر، بصوت ممتلئ بالانبهار والدهشة، وهو يحمل صورة هوكينغ وهو مقعد على كرسيه: لقد توصل هذا المقعد إلى معادلـة عالميــة تجمــع بين النظريــة العامــة للنســبية الــتي توصــل إليهــا أينشتاين وبين علم ميكانيك الكم.. واستطاع بــذلك أن يحطم كــل الخرافات التي تعلق بها المتدينون.

---

[1] هذه النصوص الإلحادية نقتبسها عادة من المنتديات والمواقع الإلحادية، وهي كثيرة، لا نحتاج إلى بيان المصدر كل مرة، ويمكن لمن يـرغب في التوثيـق أن يسـجل النص، ويـرى مصادره في محركات البحث.

فجأة تغير حديث الشباب المجتمعين من الحديث عن الإلحاد وأسبابه إلى الحديث عن هوكينغ الذي امتلأوا إعجابا به إلى حد الثمالة، قال أحدهم: ألم تسمعوا ما أوردته القنوات الفضائية هذه الأيام من أن أطروحة الدكتوراه التي أعدها هوكينغ عام 1966، لاقت إقبالا كبيرا من الجمهور في يوم نشرها، ما أدى إلى تعطل قسم النشر بالموقع الإلكتروني لجامعة كامبريدج.. بل حاول أكثر من 500 ألف شخص تحميل البحث العلمي، المعنون بـ [خصائص الكون المتمدد]

قال آخر: أجل.. وقد وصف الدكتور أرثر سميث، من جامعة كامبريدج، تلك الأرقام بأنها مهولة.. وأضاف الدكتور سميث، نائب مدير الاتصالات العلمية بالجامعة: (هذه الأعداد أكبر بكثير من الأعداد التي حققها أي موضوع في مستودع جامعة كامبريج للأبحاث (أبوللو).. وأضاف: (ربما أجازف بالتخمين أن أطروحة البروفيسور هوكينغ تعد أكثر الموضوعات التي لاقت إقبالا، في أي مستودع للأبحاث على الإطلاق. لم نشهد أرقاما مثل تلك من قبل)

قال آخر: ألم تعلموا أن الأطباء قدروا في شبابه أنه لن يعيش سوى فترة محدودة بعدما تم تشخيص حالته عندما كان في الثانية والعشرين من عمره، بأنه مصاب بمرض عضال لا شفاء منه في العضلات والجهاز العصبي.. لكنه عاش رغما عنهم، ليذهل البشرية باكتشافاته العجيبة.

بعد أن ملوا من الحديث عن هوكينغ، وبعدها عن دوكينز.. قال أحدهم: دعونا من كل هذه الأحاديث.. وهلم أسمعكم آخر إبداعاتي التي نشرتها على صفحتي.. لقد وضعت آذانا جديدا للملاحدة[1] ..

ضحك أصحابه، وقالوا: هلم أسمعنا إياه.. فصوتك جميل جدا.

راح الشاب يرفع صوته مثل المؤذنين بكلمات في قمة البذاءة لا أستطيع ذكرها لكم.. بعد انتهائه من سخريته قال بعض

[1] هذه النصوص الساخرة منقولة من مواقع مختلفة من صفحات الملاحدة واللادينيين العرب، وهي تعبر عن مظهر من مظاهر الإلحاد الجديد.

الحاضرين: رب هذة الدعوة التامة و الصلاة القائمة آتي سيدنا نيوتن الوسيلة و الفضيلة، و ابعث داروين المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

قال آخر: و اللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى، لو قرأت هذا الآذان علي برج إيفل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية نيتون.

قال آخر: تعالوا لأسمعكم سورة جديدة من قرآن الملحدين، سميتها سورة الفاتحة.. اسمعوا لها..

ثم راح يقلد بعض المقرئين: أعوذ بداروين من الله الرجيم .. باسم نيوتن العالم العظيم.. الحمد لداروين العالم الفهيم.. هاتك عرض الدين.. إياك ندرس و إياك نستعين.. اهدنا الفهم السليم. فهم الذين أنعمت عليهم.. غير الذين ضحكت عليهم و لا المهبولين.

قال آخر: وقد وضعت سورة سميتها سورة داروين.. اسمعوا لها.

راح يقرأ: بسم العلم العظيم.. ألم.. والعلم العظيم.. هل اتاك حديث داروين.. اذ قال ياقوم انا كنا قردة خاسئين.. فتتطورنا إلى بشر عاقلين.. كذلك التطور يفعل لو كنتم موقنين.. فكذبوه وقالوا عجوز سمين.. أإذا كنا قرودا نتطور إلى بشرا إن هذا إلا أساطير الاولين.. ومابال القرود لم تتطور إن كنت من الصادقين.. قال ياقوم إنا نشترك معهم بسلف مشترك لو كنتم تعقلون.. قالوا مانراك إلا خرفت ياداروين.. فأرسلنا عليهم عذابا مهين.. وكذلك نجزي الظالمين.. فسبح بحمد العقل إنه لك دليل متين.. صدق العقل العظيم.

***

بقي الشباب الملحد فترة يمزج بين الجد والسخرية من القرآن الكريم، ومن كل الشعائر الدينية إلى أن كدت أنفجر ألما وحزنا وغضبا.. وقد زاد في ألمي أن هذا الشريط يراه ويسمعه ملايين الناس، والكثير منهم لا اهتمام له بالدين، ولا علاقه له به.. وقد خشيت أن ينتقلوا به من واقع الغفلة إلى واقع الجحود..

لتنتشر بذلك موضة الإلحاد، وتنتشر معها قيم الملاحدة.

وقــد زاد في ألمي أن الفــرص كلهــا كــانت متاحــة لهــؤلاء الدجالين لينشروا سمومهم، فالكثير من الوعـاظ والخطبـاء تخلـوا عن الحديث عن العقائد والقيم، ليتحدثوا عن طوائفهم ومذاهبهم.. ليكفر بعضهم بعضا، ويبيح بعضهم دماء بعض لتخلو الفرصة بعــدها لهذا الجيل من المنحرفين والملحدين.

في تلك اللحظات الأليمة، جاءني معلم الإيمان.. وطلب مـني الاستعداد للقيام بأول رحلة لتثبيت الإيمان.. وطلب مني أن أحمل قلمي، لأسجل كل ما أراه وأسمعه بدقة.

سألته عن وجهتنا، فقال: سنذهب إلى فندق الملاحدة.

قلت متعجبا: فندق الملاحدة..ماذا تقول.. لعلك أخطأت.. قل جحيم الملاحــدة.. لا فنــدق الملاحــدة.. ألم تســمع ســخريتهم من القرآن الكريم.. ألم تر صـلافتهم ووقـاحتهم.. هـل تـرى أن أمثـال هؤلاء المجرمين يجازون بالفنادق.. لعل الأمر اختلط عليك؟

لم يأبه معلم الإيمان لكلامي.. بل سار بي في متاهات عجيبة لا أستطيع وصفها، حتى وصل بي إلى عمارة ضخمة، ممتلئـة بكـل ألوان الزينة، وفيها كـل أنـواع الرفـاه.. وقـال لي: هـذا هـو فنـدق الملاحدة.. فسر إليه، وستجد من يرشـدك في رحلتـك هـذه .. ولا تنس أن تكتب كل ما تسمع.. وتسجل كل ما ترى.

امتلأت دهشة لما رأيت.. وقلت في نفسي: هل هذا هو فندق الملاحدة.. ألأجل هذا الفندق راح أولئك الشباب يتركون دينهم؟

قال لي معلم الإيمان: لا تستعجل.. وسر.. فلن ترى العجائب إلا بالسير.

قلت: وأنت .. ألن تسير معي؟

قال: أنا دوري الهدايــة والدلالــة.. وقــد انتهى الآن .. وســترى في الطريق من يرشدك.. فلكل وجهة إمام.

قال ذلك، ثم غاب عني، كما تعود معلم السلام أن يغيب.

سرت في الطريق المؤدية إلى فندق الملاحدة، وكانت ممتلئة بالزهور الجميلة، لكنها لم تكن تصدر أي رائحة.. بل كانت ممتلئة بالحزن والكآبة.. وكانت أول مرة أرى فيها الزهور بتلك الحالة.. وكانت أول مرة أشعر فيها بالأسى والألم، وأنا أعاين جمالها..

في مدخل الفندق.. رأيت شابا ممتلئا بأنوار الإيمان، استقبلني بأدب، وراح يقول لي: لاشك أن الذي أرسلك هو معلمي معلم الإيمان.

قلت: أجل.. هل تعرفه؟

قال: وهل يمكن لي أن أنساه.. لقد جعله الله واسطة الهداية التي أخرجتني من ظلمات الغواية.

قلت: عجبا.. وهل مررت بظلمات الغواية.. لا يبدو عليك ذلك.

قال: هل رأيت الشباب الذين امتلأوا إلحادا وغفلة؟

قلت: أولئك المجرمين أصحاب القلوب المظلمة، والعقول المعطلة.. لا تحدثني عنهم.

قال: لقد كنت أحدهم.. لكن الله من علي بمعلم الإيمان.. فخرجت من التيه إلى الرشاد.. ومن الضلال إلى الإيمان.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد رحل بي إلى هذا الفندق.. وفيه عاينت الحقيقة التي كان عقلي غافلا عنها..

قلت: إن ما تقوله عجيب.. فكيف يكون فندق الملاحدة مدرسة للإيمان .. وكيف يكون مركز الضلالة منبعا للهداية .. أتراكم أخطأتم التسمية.. أم ترى الإلحاد عندكم ليس سوى الإيمان؟

قال: لا هذا ولا ذاك.. هذا فندق الملاحدة، لأن نزلاءه جميعا ملاحدة..

قلت: لم تزدني إلا عجبا.. فكيف يكون أساتذة الإلحاد هم أساتذة الإيمان.

قال: عندما تراهم وتسمع كلامهم ستعرف حقيقة ذلك.

قلت: وهل سمعتهم أنت؟

قال: أجل.. ولولاهم لكنت الآن في هاوية الإلحاد التي أوقعتني فيها غفلتي.

قلت: لا أزال لا أفهم ما تقصد؟

قال: لقد كان هؤلاء النزلاء هم سبب غوايتي.. وأبى الله إلا أن يجعلهم سبب هدايتي.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كنت في فترة إلحادي وغفلتي معجبا بهم، فانيا فيهم، فكنت أتلقى كل ما يقولونه بتسليم مطلق، لا أناقش لهم رأيا، ولا أطلب منهم دليلا.. فقد كانت أقوالهم وحدها كافية لإقناعي.. وكانت أسماؤهم وحدها كافية لتسليمي.

قلت: ولم كان الأمر كذلك؟

قال: لقد ابتليت بأساتذة وأصدقاء زينوهم في عيني.. وصوروهم لي كما يصور الأنبياء والقديسون للمؤمنين.. وقد جعلني ذلك أقع في شباكهم.. ولولا أن من الله علي بمعلم الإيمان الذي عرفني حقيقتهم لكنت الآن في حفرة من حفرهم، وسجن من سجونهم.

قلت: فكيف وظفوك مرشدا في هذا الفندق؟

قال: هم لم يوظفوني.. بل أنا الذي تطوعت لذلك .. حتى أصلح ما كنت أفسدت، وأرقع ما كنت مزقت.. فقد كنت داعية ضلالة.. وأبى الله إلا أن يجعلني داعية هداية.

قلت: وما ذلك على الله بعزيز.. فهلا دللتني على سر وجودي في هذا الفندق.

قال: لاشك أنك أحضرت قلمك وقراطيسك معك، كما طلب منك معلم الإيمان.

قلت: أجل.. هل تريدون توثيق عقود هذا الفندق؟

ابتسم، وقال: بل نريد تسجيل أحاديث نزلائه.

قلت: كيف ذلك.. وأنى لي بذلك؟

قال: في هذا الفندق أجنحة كثيرة.. يوجد في كل جناح منها مجموعة متجانسة من الملاحدة.. وهم يتحدثون ويناقشون أسرار الإلحاد وأسبابه ودوافعه.. وأنت مطالب بأن تسجل كل ما يقولونه بدقة من غير أن تتدخل في شيء.

قلت: وما الحاجة لكل هذا التعب.. لقد ترك الملاحدة تراثا ضخما، يمكن الرجوع إليه، فهو أدق من كل ما سأكتبه.

قال: ذلك ما سجلوه.. أما أنت فستسجل ما لم يسجلوه.. هناك أشياء كثيرة صاحت بها فطرتهم وعقولهم.. لكنهم لم يجرؤوا على تسجيلها.. ولا النطق بها.. وفي هذا الفندق من الأسرار ما يجعلهم يذكرون الحقيقة كما هي من دون طلاء ولا دجل.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لا تسأل عن الكيف، فلن تفهمه.. فالله قادر على كل شيء.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 21، 22]

قلت: بلى.. لكن ذلك في الآخرة.

قال: ربك رب الدنيا والآخرة..

قلت: لكن الله ذكر جلودهم؟

قال: من أنطق جلودهم قادر على أن ينطق ألسنتهم.

قلت: فهل هناك جلادون يجبرونهم على النطق بالحقيقة التي كانوا لا يجرؤون على النطق بها.

قال: لا تقل هذا فـ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ [البقرة: 256]

قلت: أتقصـد أنهم ينطقـون بالحقـائق من تلقـاء ذواتهم، من دون أن يجبرهم على النطق أحد؟

قال: أجل.. فقد تبين لهم في هذا الفندق الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ [البقرة: 256]

قلت: فقد فازوا إذن؟

قال: لو قالوا ذلك في غير هـذا الفنـدق لفـازوا.. لكن الحـال هنا مختلف.. حتى الشيطان نفسه لو جاء هنا لنطق بالحقيقة التي راح يكابر في الاعتراف بها.

قلت: أنا لا أزال كليلا دون فهم كل ما يحصل .. ما دام هـؤلاء لم يفوزوا فلم كان جزاؤهم النزول في هذا الفندق الفخم.

قال: هو فخم بالنسبة لناظرك.. لأنك لم تنكـر الحقـائق، ولم تجادل فيها.. لكن النازلين في هذا الفنـدق من الملاحـدة يتعـذبون عذابا شديدا.. هم يتعذبون بقدر ما تتنعم أنت.

قلت: لم أفهم كيف يكون النعيم عذابا.

قال: ألم تقرأ قوله تعالى: قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ [الأنبياء: 69]؟

قلت: بلى.. ولكن تلك النار.. وذلك إبراهيم.

قال: من قدر أن يحول النار بردا وسلاما قادر على أن يحـول هذا الفندق نارا وجحيما.

قلت: أتقصد أن سكان هذا الفندق لا يعاينون النعيم؟

قال: بل يعاينونه كما نعاينه.. لكنهم يرونـه جحيمـا، ولا يرونـه

نعيما.

قلت: لقد كل فهمي دون هذا.

قال: ألم تـر في طريقـك الأزهـار كئيبـة حزينـة، لا تصـدر أي رائحة؟

قلت: بلى.. وقد تعجب من ذلك.

قال: ذلك لتفهم أن النعيم منه، لا من الأزهار..

قلت: ما تعني؟

قـال: اللـه تعـالى هـو الـذي يرزقـك السـعادة عنـد رؤيتـك للأزهـار.. لا الأزهـار هي الـتي ترزقـك ذلـك.. فهي ليسـت سـوى مخلوق مثلك.

قلت: ألهذا إذن يعاين هؤلاء الملاحدة النعيم، ولا يذوقونه؟

قال: أجل.. أبى الله أن يذيق السعادة من جحده.. فالسـعادة ثمرة التواصل مع الله.. وبقدر تواصلك معه تكون سعادتك به.

قلت: أجل.. أعـرف هـذا.. وقـد مـررت في رحلاتي السـابقة بمن علمني علوم هذا.

قال: فهلم بنا لنزور أجنحة الملاحدة.

قلت: لقــد ذكــرت لي أن الأجنحــة كثــيرة.. فهــل ســنزورها جميعا؟

قال: لا .. سنكتفي بسبعة منها..

سرنا إلى الجناح الأول في فندق الملاحدة، وقد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16]

سألت المرشد عن الآية، وعلاقتها بهذا الجناح، فقال: هذا جناح التنويريين..

قلت: فمن هم؟

قال: هم الذين اختلط عليهم الأمر، فتصوروا ظلمات الغواية أنوارا.. كما تصوروا أنوار الهداية ظلمة.

قلت: أعرفهم .. إنهم أولئك الذين اكتووا بنار الاستبداد، ورأوا كيف يعلق العلماء والمطالبون بالعدالة على أعواد المشانق، فراحوا يكفرون بالسلطتين الزمنية والدينية، ويصيحون: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)

قال: ليسوا كلهم كذلك.. فبعضهم لم ير شيئا من ذلك.. وإنما راح يحقد على الدين وعلى الله.. ويربط كل تخلف واستبداد وجور وجهل بالله.. وكأن الله هو الذي أمر عباده بذلك.

قلت: صدقت في هذا.. وقد رأيت من قومي من يربط الدين بالتاريخ الأسود للطغاة والمجرمين.. فيسقط عليه كل ما أحدثوه من جرائم.. وكأن الله هو الذي أمر بذلك.

قال: لقد اتخذ الشيطان من ذلك وسيلته للدعوة للإلحاد.. فربط الإيمان بالتخلف، وربط الإلحاد بالتحضر، مع أن الله وضع للتحضر والتخلف سننه التي من راعاها وتحقق بها تحققت له نتائجها سواء كان مؤمنا أو كافرا، وقد قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20]

قلت: صدق الله العظيم.. بل إن الله تعالى أخبر أن الحضارة

والتطور والرفاه متحقق للمؤمنين الذين يقيمون الكتاب حق إقامته، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة: 66]، وضرب لنا المثل على ذلك بسليمان عليه السلام الذي آتاه الله من خير الدنيا والآخرة من غير أن يحرمه ذلك من الإيمان.

قال: وضرب له المثل بذي القرنين الذي اتبع سنن الله، وسعى في الأرض ليحقق العدل والرفاه، وقد تحقق له ذلك.. فكل من سعى وصل.

قلت: وعيت هذا.. ووعيت ذلك الكبر الذي يعاني منه أمثال هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم متنورين.. فيضعون من مقاييس الحقيقة ما لا علاقة له بالعقول.

التفتّ إلى باب الجناح الضخم، وقلت: ألا يسكن في هذا الجناح إلا المتنورون؟

قال: بلى ..

قلت: إنه جناح ضخم.. فهل هم كثيرون لهذه الدرجة؟

قال: هم أكثر مما تتصور.. كل الملاحدة يكادون ينزلون فيه.. أو لهم جزء فيه.. أو لهم زيارة له بين الحين والحين.

قلت: أتقصد أن من الملاحدة من يسكن هذا الجناح، وفي نفس الوقت يسكن جناحا آخر؟

قال: أجل.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ [الحجر: 43، 44]؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: لقد أخبر الله تعالى أن سكان الجحيم تتعدد منازلهم بحسب تعدد جرائمهم.. فيعذب في كل محل بالعذاب المناسب لجريمته.

قلت: وعيت هذا.. فهل ستفتح لي الباب لأعاين هؤلاء

التنويريين؟

قال: أجل.. سأفتحه.. ولكنك لن ترى أحدا منهم.. بل ستمع كلامهم فقط.

قلت: لم .. أتراهم يضعون على رؤوسهم طاقية الإخفاء؟

قال: لا.. ولكن جناحهم مظلم تماما..

قلت: ولم لم تصلح إدارة الفندق إضاءة جناحهم؟

قال: هي صالحة.. ولكنهم يرفضون استعمال الإضاءة.. هم يحبون الظلام المطبق.. فلا يحلو لهم الحديث إلا فيه..

قلت: فهمت ذلك.. أنا أيضا لا يحلو لي الحديث إلا في الظلام المطبق؟

قال: ظلامهم ليس خاصا بعيونهم فقط.. بل هو ممتد إلى قلوبهم وبصائرهم.. وما الظلمة الحسية إلا صورة من صور الظلمة التي تحجبهم عن رؤية الحقائق.

فتح المرشد الباب.. فإذا بظلمة مطبقة.. لا ينطبق عليها إلا قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40]

بارون دي هولباخ:

فجأة سمعت صوتا يقول: سيتقدم الآن [بول هينري ثيري] المعروف بـ [بارون دي هولباخ](1).. لا شك أنكم تعرفونه .. إنه كاتب وفيلسوف وموسوعي فرنسي ألماني.. عرف بكونه أحد رواد عصر التنوير الفرنسي.. كما عرف بالصالونات الأدبية.. وهو موجود بيننا طبعا بسبب إلحاده.. فلا ينزل فندق الملاحدة إلا

---

(1) بارون دي هولباخ: [1723-1789] كاتب وفيلسوف وموسوعي فرنسي ألماني، عرف عن كونه واحدا من رواد في عصر التنوير الفرنسي، وقد عرف بتواجده في الصالونات الأدبية، وعرف بإلحاده، وقد كانت له عدة كتابات ضد الدين، وقد كان كارل ماركس واحد من المتأثرين بأفكاره..انظر في ترجمته د. رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب ص 136.

الملاحدة.. وهو ملحد جلد كانت له كتابات مهمة ضد الدين، ساهمت في نشر الإلحاد بين ثلة كثيرة من الناس..

سكت قليلا، ثم قال: نسيت أن أذكر لكم أن كارل ماركس العظيم كان واحدا من المتأثرين بأفكاره .. ولذلك كلاهما موجود بيننا.. لن أطيل عليكم.. سيصعد إلى هذه المنصة ليحدثكم بنفسه عن سر إلحاده.

سمعت قرع أقدام تتقدم نحوي، ثم سمعت بعدها صوتا خشنا باردا يقول: ربما لا أحتاج لكلام كثير.. فكلكم تعرفونني.. وكلكم ربما قرأتم كتبي.. فأنا من أوتاد الإلحاد الكبار.. ولعل الكثير من الملاحدة الذين يتبجحون بإلحادهم لم يكونوا سوى تلاميذ طيعين على أفكاري وكتبي..

ولعلمكم، فقد كنت من أسرة غنية.. وكان لي ضيعة ضخمة.. إلى درجة أن أطلق علي المحيطون بي لقب البارون.. وقد أهدرت جزءا كبيرا من تلك الثروة في نشر الإلحاد والدعوة إليه، فقد أقمت صالونا كبيرا كنت أدعو إليه كبار التنويريين لنسخر من الدين..

في ذلك الصالون كان الكلام مباحًا في كل شيء، وضد كل شيء.. ضد الألوهية.. وضد القيامة .. وضد الغيب.. وضد المعجزات.. وكان الكل في ذلك الصالون يفخرون بإلحادهم، أو مواجهتهم للدين.

أذكر جيدا أني خطبت كثيرا في ذلك الصالون، وصفق الكثير إعجابا بخطبي وبجرأتي.. ومن تلك الخطب التي لا أزال أذكرها .. والتي نالت استحسان الجميع قولي في إنكار المعجزات التي كان رجال الدين المسيحي يعتمدونها في التبشير بالمسيح: (ما هي المعجزة؟ قيل لنا إنها عملية مضادة لقوانين الطبيعة التي ثبتها الله بنفسه؛ وأرُد وأقول إنه وفقاً للأفكار التي كونتها عن الحكمة الإلهية، يظهر لي أنه من المستحيل على إله لا يتغير أن يغير القوانين الحكيمة التي أسسها هو بنفسه.. وأستنتج من ذلك أن المعجزات مستحيلة، متأكداً من أنها غير متفقة مع أفكارنا عن حكمة وثبات خالق الكون.. وبجانب ذلك فإن مثل هذه المعجزات

لا نفع منها للإله.. فإذا كان كلي القدرة، ألم يكن قادراً على تغيير عقول مخلوقاته وفق إرادته؟ فكي يقنعهم يكفيه أن يقتنعوا.. إذ لم يكن عليه إلا أن يقول لهم أشياء واضحة ومعقولة، أشياء يمكن البرهنة عليها؛ وكانوا سيجدون أنفسهم قابلين لما هو على بينة واضحة.. وكي يفعل ذلك لم يكن بحاجة إلى معجزات أو متأولين؛ فالحقيقة وحدها كانت كافية لفوزه بتصديق الإنسانية كلها)(1)

لقد قلت ذلك، وأنا ممتلئ زهوا وفرحا وخيلاء، وكأن الله كان بين يدي مثل ذلك القطيع من الخدم الذي كنت أتحكم فيه.. بل إنني كنت أتصور نفسي أعظم من الله نفسه، فأنا لم أكن أتقيد بالقوانين أبدا .. لا التي أضعها، ولا التي وضعها غيري.. كنت متمردا على كل شيء.. ومع ذلك كنت أطالب الله ألا يخرق القوانين التي يضعها.

لاشك أن في كلامي ذلك مغالطات كثيرة ليس هذا محل الرد عليها.. ولكني أردت أن أشهد بين أيديكم فقط، بأني لم أقل ذلك إلا لأستمطر منهم الثناء والمديح، ولأبين لهم أني متنور متحرر لا يصدق بالخوارق، ولا يؤمن بها.

لم يكن ذلك وحده ما كنت أقوله عن الله .. بل كنت أقول كلاما أكثر خطرا.. كنت أقول مثلا: (إله حكيم لا يصل تدبيره إلى النجاح أبداً؛ إنه إله عظيم، يشغل نفسه دائماً بصغائر الأمور وأتفهها؛ إله مكتف بذاته، لكنه عرضة للغيرة؛ إله قوي، لكنه شكاك ومنتقم وقاس؛ إله عادل، لكنه يسمح بحدوث أكثر الأفعال ظلماً)(2)

وكنت أقول: (إن الأزلي [الإله] بعد أن ملَّ من عدم الفعل، قدر ذات يوم أن يخلق عالماً ضرورياً لمجده. وكي يحقق ذلك فقد خلق مادة من العدم؛ روح خالصة تنتج جوهراً ليست بينه وبينها أي نسبة؛ وعلى الرغم من أن هذا الإله يملأ كل المكان بعظمته، إلا أنه لا يزال يجد مكاناً فيه يسمح بوجود الكون، بالإضافة إلى كل

(1) هذا النص من كتابه [رسائل إلى يوجينيا، أو الحامي من التحاملات الدينية]

(2) المرجع السابق، ص 45.

الأجسام التي يحتويها)(3)

هذا الكلام لم يكن وليد قناعات عقلية، وبحوث محايدة، وإنما كان وليد قراءتي للكتاب المقدس، وما رأيت فيه من النصوص التي تصور الله بصور لا تليق به..

لقد ذكرت ذلك في بعض خطبي، فقلت: (كل الصفات التي يصف بها الكتاب المقدس الإله مستقاة دائماً من الإنسان أو من حاكم فخور؛ ونجد فيه دائماً أنه بدلاً من أن يخلق الإله الإنسان على صورته، فإن الإنسان هو الذي خلق الإله على صورته، وأنه هو الذي ألحق بالإله طرقه في التفكير وفضائله ومساوئه)

لقد دفعني إلى قول هذا ما رأيته في الكتاب المقدس من صفات لا تتناسب مع الله الذي يدل عليه العقل والعلم.. فهو إله يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويضحك ويبكي، غضوب متعطش للدماء، يحب ويبغض، متقلب الأطوار، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبه عن قصد أو ارتكبه عن غير قصد، ويأخذ الأبناء والأحفاد بذنوب الآباء، بل يحس بالندم ووخز الضمير، وينسى ويتذكر، وهو ليس عالماً بكل شيء، ولذا فهو يطلب من أعضاء جماعة إسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريق الخطأ.. وهو إله متجرِّد، ولكنه في الوقت نفسه يأخذ أشكالاً حسية محددة، فهو يطلب إلى اليهود أن يصنعوا له مكاناً مقدَّساً ليسكن في وسطهم، كما يسير على شكل عمود دخان في النهار كي يهديهم الطريق، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نار كي يضيء لهم.

هذا بعض ما صرفني عن الله، وألجأني إلى الإلحاد عند قراءتي للكتاب المقدس.. لا أقول لكم هذا لأبرر لنفسي أخطاءها في حق الإله.. ولكني أقوله لأبين لكم سببا من أسباب إلحادي.. مع أنني كنت ولا زلت أوقن أنه كان في إمكاني ألا أكون ملحدا، مثل الكثير من الفلاسفة الذين انتقدوا الكتاب المقدس، ومع ذلك ظلوا على إيمانهم بالله ..

---

(3) المرجع السابق، ص47.

كان في إمكاني أن أعتبر كل تلك النصوص تحريفا بشريا للكتاب المقدس.. كما نص على ذلك الكتاب المقدس نفسه.. فقد كان موسى يردد كثيرا الوصية بعدم الكذب على الله.. لأنه كان يعلم ما سيلحق كتابه.. لقد كان يقول:(لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه لتحفظوا وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها)(التثنية: 4/ـ 2).. وهكذا كان النبي إرميا يقول:(فقال الرب لي: بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي..لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم.. برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم) (إرميا: 14:14)، وكان يقول: (الأنبياء يتنبأون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم وشعبي هكذا أحب.. وماذا تعملون في آخرتها)(إرميا:5:ـ 31)، وكان يقول: (وأقاوم الأنبياء الذين يسخرون ألسنتهم قائلين: الرب يقول هذا.. ها أنا أقاوم المتنبئين بأحلام كاذبة ويقصونها مضلين شعبي بأكاذيبهم واستخفافهم) (إرميا: 23 /31 ـ 32)

وكان في إمكاني أن أعتبرها من النصوص المتشابهة، وأردها إلى المحكم الذي ورد في الكتاب المقدس.. فقد ورد فيه أوصاف كثيرة لله ممتلئة بالجمال.. كما في (اللاوين 11:ـ 44-45): (أنا الرب إلهكم، فكرسوا أنفسكم وتقدسوا، لأني أنا قدوس، ولا تنجسوا أنفسكم بشيء من الدبيب المتحرك على الأرض. لأني أنا الرب الذي أخرجكم من ديار مصر لأكون لكم إلها. فكونوا قديسين لأني أنا قدوس)

وكان في إمكاني أن أبحث في الديانات المختلفة لأعرف الله الحقيقي..

وكان في إمكاني أن أستعمل العقل الذي استعمله كبار الفلاسفة في التاريخ لأصل إلى صفات الله بعيد عن تحريفات الأديان..

وكان في إمكاني أن أستعمل الإشراق والتوجه الروحي لأعرف الحقيقة مثلما فعل الكثير من رجال الإشراق..

كان في إمكاني أن أفعل كل ذلك وغيره.. فلله طرائق بعدد الخلائق.. لكني كنت كسولا عن كل ذلك لسبب بسيط، وهو أنني

كنت أبغض الكنيسـة.. وبمـا أن الكنيسـة لهـا علاقـة باللـه.. فقـد صرت أبغض الله لأجل بغضي لها.

لقد أفرز بغضي للكنيسة وحقدي عليها كتبا كثيرة، كانت نواة لمن كان بعـدي من الملاحـدة، لينسـجوا عليهـا، وليؤسسـوا عليهـا مقولتهم الشهيرة [الدين أفيون الشعوب]

هي ليست مقولتهم.. بل هي مقولـتي، فأنـا الـذي كتبتهـا في كتابي [المسيحية في خطر]، وحتى أتجنب خطر محـاكم التفـتيش نسبته إلى بولانجيه، الذي مات من سنوات.. وقد مُنع هـذا الكتـاب من التداول.. بل إنهم عندما ضـبطوا أحـد الباعـة المتجـولين وهـو يبيع الكتاب حُوكم، وحُكم عليه بالتجديف في المـراكب الشـراعية لمدة خمس سنوات، كما حُكم على غلام آخر أشترى الكتاب ليعيد بيعه، بنفس الحكم السابق لمدة تسع سنوات.

لم يكن ذلك كتابي الوحيد حول المسيحية.. فقد كـان حقـدي عليها أعظم من أن يضمه كتاب واحد.. فمن كتبي [الأدب المعادي للكنيسـة].. و[قائمـة القديسـين].. و[الوقفـة المقدَّسـة].. و[آبـاء الكنيسة بغير قناع].. و[القساوسة الدينية وتحطيم الجحيم]

وفي سـنة 1770م أصـدرت أخطـر كتـبي ضـد المسـيحية، والذي نـال شـهرة كبـيرة عنـد التنـويريين .. كتـاب [فضـح أسـرار المسيحية ومنهج الطبيعة] .. كتبته طبعا باسم مستعار، وهو مسيو ميرابو .. وهو اسم لرجل كان يشـغل منصـف سـكرتير الأكاديميـة الفرنسية من قبل، ومات منذ عشر سنوات..

لقد قام رجال الدين بحملة قاسية شديدة على هذا الكتـاب.. أذكر أنـه في تلـك السـنة بعـد أن قـررت جمعيـة رجـال الـدين أن تجمع كل أربـع سـنوات منحـة ماليـة للملـك، وأهـابت بـه أن يمنـع تداول المؤلفـات المعاديـة للمسـيحية، والـتي انتشـرت كثـيراً في فرنسا، أصدر لويس الخامس عشـر أوامـره إلى النـائب العـام أن يتخذ الإجراءات فوراً.. وشجب برلمان باريس سبعة كتب من بينها كتابي [فضح أسرار المسيحية ومنهج الطبيعة]

وقـد كـان من المـبررات الـتي وضـعها لمصـادرة كتـابي هـذا وكتبي الأخرى: كونها مليئة بالتخريف، محرضة على الفتنة، نزاعـة

إلى القضاء على كل فكرة عن الألوهية، وإلى إثارة الشعب للتمرد على ديانته وحكومته، والقضاء على كل مبادئ الأمن العام والأخلاق، وصرف الناس عن واجب الطاعة والإذعان لمليكهم.

كان يمكن أن أكون قد ذبحت أو أحرقت أو اعتقلت بسبب كتبي تلك .. لكن كل ذلك لم يحصل .. وكأن الله كان يعطيني الفرصة تلو الفرصة لأصحح معتقداتي، وأترك أحقادي، وأتعامل مع الحقيقة بكل شفافية وموضوعية.. لقد عرف الكثير من الناس أنني أنا [دي هولباخ] هو المؤلف .. لكنهم كتموا السر لمدة عشرين عاماً.. ولم أتب طيلة تلك المدة.

لقد وصل كتابي [منهج الطبيعة] مهرباً من هولندا، وتهافت على شرائه جمهور كبير يشمل ــ كما ذكر لي صديقي العزيز المتنور [فولتير] ـ العلماء والباحثين والجهّال والسيدات.. وسر به ديدرو، وقال عنه: (إن ما أحب هو فلسفة واضحة محددة صريحة مثل تلك الموجودة في كتاب [منهج الطبيعة]، والمؤلف ليس ملحداً في أي من الصفحات، وهو ربوبي في بعضها، وفلسفته تجري على نسق واحد)[1]

لست أدري هل كان يكذب على نفسه أم على القراء، أم أنه لم يقرأ الكتاب إطلاقا، أو لم يكن لديه أدوات فهمه.. فأنا كنت ملحداً في كل صفحات الكتاب.. وكنت أصرح بذلك، لكن حقدي على رجال الدين كان طاغيا على الكتاب..

لقد قلت في مقدمة الكتاب أبين فيه دوافعي لتأليفه: (إن مصدر شقاء الإنسان وبؤسه هو جهله بالطبيعة.. إن إصراره على التمسك بالآراء الخاطئة العمياء التي تلقنها في طفولته .. وما نتج عن ذلك من تحيز وهوى ظللا عقله وأفسدا ذهنه .. يبدو أنهما قضيا عليه بالاستمرار على الخطأ .. أنه يستمد أسلوب تفكيره من الآخرين تحت مسئوليتهم، ثقة منه بهم، وهم أنفسهم مخطئون، أو أن لهم مصلحة في تظليله وخداعه. ولإزالة هذه الغشاوة وإخراجه من هذه المتاهة فإن الأمر يتطلب يداً حانية وحباً شديداً.. كما يقتضي أعظم الشجاعة التي لا يعتريها خوف ولا

---

[1]() انظر المواقف من الكتاب في: قصة الحضارة (38/ 140)

وجل وتصميماً أكيداً لا يكل ولا يمل.. ومن ثم يكون أهم واجب علينا أن نفتش عن الوسائل التي نقضي بها على الأوهام التي تظللنا وتخدعنا)(1)

لاشك أن هذا كلام صحيح.. وهو يدعو إلى إعمال العقل، ونبذ التقليد، والشجاعة في مواجهة التقاليد البالية، والأفكار الخرافية.. لكن الحكمة التي دعوت إليها لم أنفذها، بل رحت أستأصل بحقد شديد شجرة المسيحية بجذورها وأغصانها وثمارها.. وكل ما يرتبط بها.. وبذلك تغلب الحقد على العقل، ومنعه من الرؤية البصيرة للحقيقة.

لذلك ما إن أقنعت القارئ بالرجوع للعقل، ونبذ الدين حتى رحت أبشره بأفكاري الممتلئة بالمادية والإلحاد.. لقد عبر عن ذلك مؤرخ الحضارة الكبير [ويليام جيمس ديورَانت]، فقال عني: (بعد أن انتهى دي هولباخ من بيان برنامجه على هذه النحو تقدم في ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والاعتبارات والأفكار الخارقة للطبيعة. ويحبذ الطبيعة بكل ما فيها من جمال وقسوة وتقييد وإمكانات، وليختزل كل الحقيقة والواقع إلى مادة وحركة، ويبني على هذا الأساس المادي منهجاً للفضيلة والأخلاق يأمل أن يكون في مقدوره أن يحول المتوحشين إلى مواطنين، ويشكل الخلق الفردي والنظام الاجتماعي ويضفي سعادة معقولة على حياة مقرر لها الموت المحتوم. إنه يبدأ ويختتم بالطبيعة، ولكنه ينكر أية محاولات لتشخيصها أو تجسيدها، إنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذي ينتج من اجتماع المادة في مجموعاتها المختلفة. وهذا هو الاسم المحبب لدى دي هولباخ للكون، فهو يعرف المادة في حرص وحذر بأنها بصفة عامة، كل ما يؤثر على حواسنا بأي شكل كان)(2)

ثم اقتبس من كتبي هذه القوانين التي لا يزال الملاحدة يتعلقون بها: (كل شيء في الكون في حركة دائبة.. وجوهر المادة

---

(1) نقلا عن: قصة الحضارة (38/ 140)

(2) قصة الحضارة (38/ 142)

هو أن تعمل، وإذا تأملناها في يقظة تامة لاكتشفنا أنه ليس ثمة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلق، وكل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو للحظة واحدة على نفس الحالة، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر وتتناقص وتتفرق باستمرار.. إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمام لمسات الهواء.. إن هذا الكل لا يقدم لمجال تأملنا وتفكيرنا إلا مجرد تعاقب ضخم متصل غير متقطع لأسباب ونتائج.. وكلما ازدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها. وقد يكون من العسير أن ندرك كيف أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة، ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفي خارج عن الكون المادي)

هذا بعض ما ذكرته في ذلك الحين، وأنا أعزل عقلي تماما عن الحقيقة العظمى .. حقيقة وجود الله .. ذلك أني أعطيت الطبيعة ما لا تستحق، وما لا تقدر عليه.. فكيف تكون القوانين الطبيعية فاعلة، وهي صماء بكماء عمياء (1) .

لهذا كنت شديد النفور من اسم [الله]، وكنت شديد الحساسية منه، مع أني كنت أعطي الطبيعة جميع وظائف الله.. ولو أني أبدلت اسم الطبيعة باسم الله لتخلصت من إلحادي، لكني كنت أرفض ذلك.. وكنت أذكر لمحدثي أن لفظتي [الله] و[يخلق] ينبغي أن تختفيا تمامًا من لغة الذين يريدون أن يتحدثوا بلغة مفهومة، فهاتان اللفظتان أبتدعهما الجهل، و(أن صديق الجنس البشري لا يمكن أن يكون صديقًا للإله الذي كان في كل الأوقات سوطًا مُسلطًا على الأرض)

أذكر جيدا أنه في سنة 1704م عندما أصدر [صامويل كلارك] كتابه [مبحث عن وجود الله وصفاته]، ونسب لله الصفات الواجبة له مثل الخلود والقدم واللامحدودية واللانهائية، ضحكت من ذلك، وقلت بكل كبرياء ردا عليه: (إن جميع الصفات التي نسبتها يا كلارك لله غير قابلة للفهم، بل هي تنطبق على المادة والطبيعة بصورة أوضح)

---

(1) انظر التفاصيل المتعلقة بالرد على هذه الشبهة في سائر أجزاء السلسلة.

لم يتوقف تأليهي للطبعية عند ذلك الحد، بل رحت أناجيها كما يناجي المؤمنون الله، فقد قلت في فقرة ختامية من كتابي [منهج الطبيعة] أناجيها، وكأنها الله نفسه: (أيتها الطبيعة، يا سيدة كل الكائنات.. إن بناتك الفاتنات الجديرات بالتوقير والعبادة.. الفضيلة والعقل والحقيقية.. يبقين إلى الأبد معبوداتنا الوحيدات.. إن إليك تتجه كل تسابيح الجنس البشري وينصب عليك ثناؤه، وإليك يقدم كل ولائه وإجلاله)

وكان من تجليات تأليهي للطبعية قولي: (إن صديق الجنس البشري لا يمكن أن يكون صديقاً للإله الذي كان في كل الأوقات سوطاً مسلطاً على الأرض.. إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المظللة التي تجعل الدنيا مقراً للخداع.. إن من يقدس الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل.. إنه يعلم أن سعادة الجنس البشري تقتضي بشكل لا رجعة فيه، تقويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه، لكي يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائماً للسلام.. هيكلاً مقدساً للفضيلة.. فإذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يبث الشجاعة في الكائنات التي اعتادت أن ترتعد فرائصها جبناً، فإن له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة)

لذلك كله أطلق علي المعاصرون لي.. والذين شاهدوا صلفي وكبريائي على الله هذا اللقب الذي كنت أتصف بكل مقتضياته [العدو الشخصي لله].. بل أنني أنا الذي كنت أدعوهم إلى إطلاقه، وأفرح بذلك.

وقد سرى موقفي من الله إلى موقفي من الإنسان .. ذلك الكائن المعقد العجيب.. فقد قلت فيه: (الإنسان كائن مادي صرف خاضع لنفس القوانين التي تحكم سائر العالم.. وكيف يتسنى لجسم مادي وذهن غير مادي أن يتفاعل كل منهما مع الآخر؟)

وذكرت أن (الروح مجرد تنظيم الجسم ونشاطه، ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل.. وأن القول بأن الروح ستحس وتفكر وتنعم وتعاني بعد فناء الجسم مثل الزعم بأن الساعة التي تتهشم إلى ألف قطعة تستمر في دقاتها ساعة بعد ساعة!)

قلت هذا طبعا مدفوعا بمعارفي الطبيعية المحدودة، وإلا فإن قدرة الله التي أوجدت كل شيء لا يستحيل عليها أن تربط الـروح بالجسد، أو بأي شيء آخر..

لكن كـبري وغـروري ومـالي الكثـير والوجهـاء الـذين كـانوا يملأون علي قصري .. حجبونني عن رؤية الحقيقة التي يدل عليهـا كل شيء.

لقد رحت ـ أنا القزم الحقير ـ أصور قدرة اللـه المطلقـة من خلال معارفي العلميـة البسـيطة الـتي ثبت جهـل الكثـير منهـا في العصور التالية..

لقد أنتجت تلك التصورات التي ألغيت فيها الله، وعبدت فيهـا الطبيعة تصورات كثيرة منحرفة، كان لها أثرها بعـد ذلـك على من بعدي من الملاحدة والماديين واللادينيين، منهـا ــ مثلا ــ مـا ذكرتـه في الفصـل الحـادي عشـر من كتـابي.. فقـد ذكـرت فيـه رؤيـتي للحتمية الطبيعية.. أو القضاء والقـدر الـذي تفرضـه الطبيعيـة.. أو الجبرية الطبيعية.

لقد قلت موضحا لهـذا المـذهب المصـادم للحريـة الإنسـانية: (إن حياة الإنسان قضت عليه الطبيعـة برسـنه على سـطح الأرض دون أن يكون لديه القدرة على الانحراف عنه قيد أنملة.. أنـه ولـد دون رضاه.. أن كيانه أو تنظيمـه لا يتوقـف البتـة على نفسـه.. إن الأفكار الـتي تخالجـه تـأتي قسـراً لا طوعـاً، وعاداتـه واقفـة تحت سيطرة الذين يحملونه على التخلي عنها.. ويتعدل الإنسان ويتغـير بلا انقطاع نتيجة أسـباب وعلـل مرئيـة أو خفيـة ليس لـه سـلطان عليها ولا تحكم فيها، وهي بالضرورة تنظم أسلوب وجـوده وتصـبغ تفكيره بصبغة معينة، وتقرر طريقة تصرفه وأفعالـه، فهـو طيب أو رديء، سعيد أو تعس، عاقل أو أحمق، ومتعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل في أي من هذه الحالات المختلفة)(1)

طبعا لم يكن لي بد من هـذا القـول.. بـل ليس هنـاك بـد لأي ملحد إلا أن يقول هذا .. ذلك أن الحرية الحقيقية لا تتناسب إلا مع

---

(1) نقلا عن: قصة الحضارة (38/ 143)

القول بوجود الله .. واعتقاد إرادته المطلقة وقدرته المطلقة.. في ذلك الحين فقط نتخلص من أسر الطبيعة وقوانينها.

ولهذا نرى المؤمنين الـذي تـنزلت عليهم الأمـراض الشـديدة التي يحكم الطب باستحالة علاجهـا، لا ييأسـون من علاجهـا، لأنهم يعلمون أن هناك إله قادر على كل شيء.. وما دام قد خلق الـداء، فلا يعجز عن خلق الدواء.

سكت قليلا، ثم راح يصرخ: ما أشد غـروري، وغـرور العلمـاء المعاصرين لي.. لقد كنا نتصور أن ما وصلنا إليـه هـو كـل شـيء.. لكن جاء من بعدنا، ليثبت، وبالعلم والعقل أن كل تلـك التصـورات التي كنا نتيه بها كانت خاطئة، ولا حظ لها من العلمية.

لقد أثبتت الحقائق العلمية في القرون التاليـة، وبالضـبط في القرن العشرين أن مبدأ الحتمية الذي كنا نادي به، ونعتبره حقيقة مطلقـة، ليس مطلقـا، ولا يصـدق إلا على العناصـر الأوليـة الـتي تتكون منها الظواهر الطبيعيـة، أو عـالم الماكروفيزيـاء، أمـا عـالم الميكروفيزيـاء، أي الظـواهر المتناهيـة في الصـغر فهـو يفلت من قيود الحتمية، ويدخل في مجال آخر، هو مجال اللاحتمية.

لقد عبر عن هذه الحقيقة [لويس دوبري] في كتابه [المتصل والمنفصل] قائلا: (حين نريـد في المجـال الـذري أن نحصـر حالـة الأشياء الراهنة حـتى نتمكن من الإخبـار عن الظـواهر المسـتقبلية بدقّة أشدّ خسرنا بعض المعطيات الضرورية)

ومن الأمثلــة الــتي تؤكــد مبــدأ اللاحتميــة أن انشــطار ذرة الراديـوم لا يخضـع لقاعـدة ثابتـة كمـا أن الـذرة تصـدر طاقـة في شكل صدمات غير منتظمة يصعب معها التنبؤ الدقيق[1] ..

سكت قليلا، ثم قـال بـألم: لقـد كنت أنكـر هـذا الـذي أصـبح يردده العلم.. وكنت حزينـا لإنكـاري، لأني كنت أشـعر أني سـجين في سجون القـوانين الماديـة الـتي لا تعـرف الرحمـة.. ولكـني لم أستطع أن أتخلص من كبريائي لأعترف بالله.. وكيـف أعـترف بـه، وأنا ـ كما يذكر أصدقائي ـ [العدو الشخصي لله]

---

[1] سنرى تفاصيل أكثر في الرد على مبدأ الحتيمة الطبيعية في سائر السلسلة.

لقـد عـبرت عن هـذا الألم بقـولي: (إن الإنسـان من عمـل الطبيعة، وهو يوجد في الطبيعة، خاضع لقوانينها، ولا يملك تخليص نفسه من هذه القوانين، ولا يمكنه أن يخطـو فيمـا وراءهـا خطـوة واحدة حتى في فكره.. ولذلك فأنـه بـدلاً من البحث خـارج العـالم عن كائنات توفر له السعادة التي تنكرها عليـه الطبيعـة يحمـل بـه أن يدرس هذه الطبيعة ويعرف قوانينها، ويتأمل في قواها ويراعي القواعد الثابتة الـتي تعمـل بمقتضـاها.. فليطبـق الإنسـان كـل مـا يتصل إليه على هناءته هو ويخضع في صمت لما تفرضه عليــه من الحماية أو الوصاية التي ليس في مقـدور أحـد تبـديلها أو تغييرهـا، ويرتضي مبتهجاً أن يتجاهل الأسباب والعلل التي يحول بينه وبينهـا حجـاب كـثيف لا يمكن اختراقــه، ويستسـلم دون تـذمر لقــوانين الضرورة الكونية التي يستحيل عليه إدراكها إطلاقاً. ولا تحرره أبداً من تلك القوانين التي فرضت عليه بحكم ماهيته أو جوهره)

لقـد كنت أعلم النتـائج الخطـيرة الـتي تحملهـا هـذه الجبريـة الطبيعية، كنت أعلم أنها قد تؤدي إلى القول بأنـه لا فائـدة تـرجى من وراء محاولتنا تفادي الشرور أو السيئات والأعمال المخزيــة أو المـرض.. وتجعلنـا نكـف عن بـذل أي جهـود، أو عن الطمـوح أو التطلع وأن ندع الأمور تجري في أعنتها؟

كنت أعلم أن طـرح مثـل هــذه التسـاؤلات قــد يــؤدي إلى ضرورة العودة إلى الدين، وإلى الله، لأنه وحده من يوجه مســيرة الإنســان نحــو القيم الرفيعــة.. لهـذا رحت أسـتعمل كـل الحيــل للانصـراف عن الـدين، وإعطـاء بـدائل طبيعيـة لـه .. فـذكرت (أن الجبرية لا توحي بعدم معاقبـة الجريمـة بـل إنهـا على النقيض من ذلك ستؤدي بالشـرع والمعلم والـرأي العـام أن يصـنعوا بمقتضـى القــوانين أو الأخلاق عوائــق أفضــل في ســبيل ارتكـاب الجــرائم، ويوفروا الـدوافع والمغريـات بالسـلوك الاجتمـاعي القـويم، وهـذه العوائق والـدوافع والمغريـات ستنضـم إلى العوامـل البيئيـة الـتي تشكل سلوك الإنسان)

لقد ذكرت هـذا وغـيره، لأصـرف عن كـل تفكـير في العـودة للدين، ولو على سبيل الاستفادة من قيمه وأخلاقه وتصوراته، كمـا قال صديقي العزيز فولتير الذي كان أرجح عقلا مـني.. فقـد قـال:

(لو لم يكن الله موجوداً لكان لابد من اختراعه)

وقلت هـذا لأني أعلم أنـه لا يمكن أن تكـون هنـاك أخلاق ولا قيم من دون أن يكون هناك جزاء مرتبط بهـا.. فلا يمكن أن تتولـد قيم الصّـدق والنّزاهـة والاسـتقامة والرّحمـة والسّـماحة والتّعـاون والعدالة والكرم والإيثار وحبّ الخـير ومسـاعدة المحتـاج والعنايـة بالضّـعيف من الطبيعـة وحـدها.. ومن دون أن يكـون هنـاك علم بالجزاء المرتبط بمثل هذه التضحيات.

وأنا لم أكن أؤمن باليوم الآخر.. بل كنت أعتبر الإيمان بوجـود حياة أخرى لا يعـدو أن يكـون سـرابًا خادعًـا من شـأنه أن يصـرف أنظار الناس عما هو أهم منها، وهو المجتمع في الـوقت الحـالي.. ولهذا لم أكن أملك أي مبرر لدعوة الناس لتلك القيم.

بل لا توجد أي فلسـفة أخلاقيـة تجعـل الملحـد يرهـق نفسـه بمـا تتطلبـه القيم الأخلاقيـة من تضـحية وبـذل وإيثـار، ذلـك أنـه لا يـؤمن بالحياة الأخروية، ولا بالجزاء الأخروي، وهذا مـا جعـل الـدكتور [جـون لينكس] يذكر أن الملحد ليس بعاجز عن أن يكون خيراً، ولكن الإلحاد لا يـدعم أي أسـس فكريـة للأخلاق، لأن فرضـية الإلحـاد ليس لـديها تأسيس لمبادئ الخير والشر[1].

ويعبر عن ذلك بقوله: (كيف تستطيع في عالم مادي أن تفسر لي عدم السرقة والقتـل إن كـان فيهمـا مصـلحة (أي منفعـة) وإذا أمنت العقاب (عدم الضرر) أو أن يكشـف أمـرك أحـد؟ كيـف تفسـر عـدم غواية زوجة جارك أو أخيك أو صديقك واستغلال غيابه عنها إذا تأكدت من عدم الفضيحة؟ كيف تفسر عدم خيانتـك لزوجتـك؟ كيـف تفسـر أمانتك في العمل؟ بـل مـا هـو الـدافع المـادي لـديك مثلاً للمخـاطرة بنفسـك لإنقـاذ طفـل يغـرق؟ هـل يمكن (اخـتراع) أي فكـرة مقنعـة ساعتها للإجابة عن مثل هذه الأسئلة بالغاً ما بلغت من الخيال؟)[2]

ويقول: (من الصـعب جـداً أن نـرى كيـف للعمليـة التطوريـة غـير

---

1 () أقوى براهين د.جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، جمعه وعلق عليه م.أحمد حسن، ص509.

2 () المرجع السابق، ص507-508.

الواعية أن تشرح لنا حالة الإيمان بالأخلاق ذات المكانة المتأصلة والشاملة في البشر والتي توجب علينا دعم الناس الذين ـ في طبيعة الأمور ــ مسؤولين عن إيقاف أو حتى تهديد التقدم التطوري كالضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة والمرضى والكبار في السن)(1)

قال ذلك.. ثم راح يصرخ: هل رأيتم معشر الملاحدة ما فعلت بنا عقولنا .. هل رأيتم الأوهام التي كنا نتعلق بها، والتي لم تنفعنا، لا في دنيانا ولا في أخرانا.. كم تمنيت لو ظللت عاميا أبله بسيطا، ولم أدخل في هذه المتاهات التي حجبتني عن حقيقتي، وأبعدتني عن ربي..

لم يتمالك نفسه بعد أن قال هذا، فراح يبكي مثل الأطفال الصغار، وراحت القاعة كلها تضج بالبكاء.. كنت أسمع صراخهم ونحيبهم من غير أن أرى أحدا منهم.

جان مسلييه:

بعدها عم سكون عميق القاعة، قطعه قرع أقدام، ثم سمعت بعدها الصوت الأول يقول: من خلال الاعترافات التي أدلى بها زميلنا في الإلحاد [بارون دي هولباخ] يمكننا أن نكتشف سببين كبيرين لإلحاده: أولهما تلك المواقف الخاطئة لرجال الدين من العقل والعلم، والذي برز خصوصا في موقف الكنيسة من النهضة العلمية.. والثاني هو ذلك الاستبداد السياسي والاجتماعي الذي تغطى بغطاء الدين.

ولمزيد من التفصيل حول هذين السببين، سيتقدم الكثير من أساتذة الإلحاد في التاريخ، والذين اتخذوا من هذين السببين قنطرة لجحود الله.

وسيتقدم الآن أستاذ من أساتذة [بارون دي هولباخ] الكبار، بل أستاذ من أساتذة التنوير المتقدمين، لاشك أنكم تعرفونه جيدا، بل ربما تكونون من تلامذته المباشرين أو غير المباشرين.. فلا يمكن لملحد بعد عصر النهضة أن لا يكون قد عرفه، أو سمع

(1) المرجع السابق، ص532.

باسـمه، أو تتلمـذ على من تتلمـذ عليـه.. إنـه القس [جـان مسلييه(1)].. قد تتعجبون من كونه قسا وملحـدا.. لن أشـرح لكم سر ذلك.. بل سـأدعه للقس نفسـه، فخـير من عـبر عن الإنسـان لسانه.

سمعت قرع أقدام .. بعدها سـمعت صـوتا ممتلئـا حزنـا، راح يقول: لست أدري ما أقول لكم، وكيف أعبر لكم عن نفسي، وعن الأزمة الفكرية الحادة التي مررت بها، لا في أيام معدودة، بـل في جميع حياتي..

لقد كنت راعي أبرشية (أتربيني) في شمبانيا.. وكنت محبوبـا جدا بينهم.. وحق لهم ذلك، فقـد كنت أمنح الفقـراء كـل مـا يتبقى من راتبي بعد تسديد نفقات حياتي البسيطة البعيدة عن الإسراف والتبذير..

وبعدما أن ألقيت جسدي عني.. أي بعد ثلاثين عامـاً من حيـاة هادئـة مثاليـة في وظيفـة الـراعي.. كـان عمـري حينهـا خمسـة وخمسين سنة .. وقـد أو صـيت بكـل مـا أملـك لأهـالي الأبرشـية، الذين دفنـوني بكـل إجلال وتعظيم، ولم يعرفـوا أي شـيطان كـان يختبئ في ثيابي.

طبعـا لم أكن أغشـهم ولا أكـذب عليهم بتمثيـل دور القس الورع، ولكني كنت خائفا من التصريح بأفكـاري بينهم، لأن محـاكم التفتيش كانت ستقضي علي، وتقتلني شر قتلة.. لهذا كنت أخـزن كل أفكاري في مذكرات خاصة، سميتها (عهدي الجديد)(2)

لقـد كتبت مجموعـة نسـخ منهـا.. وجهت إحـداها إلى شـعب

---

(1) القس جان مسلييه (1678ـ 1733 م) راعي أبرشية (أتربيـني) في شـمبانيا الـذي كان في كل عام يمنح الفقـراء كـل مـا يتبقى من راتبـه بعـد تسـديد نفقـات حياتـه المعتدلـة البعيدة عن الإسراف والتبذير)، ولكنه عاش أزمة فكرية حادة بقيت فيها أفكاره محبوسة في زنزانة الجمجمة طوال حياته في حالة خوف وتـرقب من أن يفتضـح أمـره ويقـرأ النـاس مـا كتب من هرطقة.

(2) نشر فولتير أجزاء من [العهد الجديد] 1762 وأصدر ديدروا ودي هولباخ خلاصـة لـه في 1772 تحت عنوان [رجاحة عقل الكاهن مسلييه] ولم يطبـع النص الكامـل حـتى 1861، 1864.

الأبرشية، توسلت فيها إليهم على المظروف الذي وضعت فيه المخطوطة، أن يغفروا لي، لأني خدمت الخطيئة والأهواء طوال مقامي بينهم.. أي قبل أن أترسم كاهناً.. وذكرت لهم (أنني لم أتقلد عملاً يتعارض مع مشاعري بشكل صريح طمعاً في المال، بل أني امتثلت في هذا لأبوي)

طبعا بعد أن اطلع شعب الأبرشية على ذلك ــ بعد إلقائي لجبة جسدي ـ صبوا علي كل لعناتهم.. وحق لهم ذلك.

سأذكر لكم بعض الجنون الذي سطرته في اعترافاتي، وسأبين لكم موقفي منها الآن.. لقد قلت في عهدي الجديد: (لن أضحي بعقلي؛ لأنه وحده الذي يمنحني التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والضلال! لن أتخلى عن الخبرة؛ لأنها خير مرشد وهاد، وهي أفضل بكثير من الخيال أو من سلطان المرشدين! لن أرتاب في حواسي، ولست أتجاهل أنها يمكن أحياناً أن تؤدي بي إلى الخطأ، ولكنني من جهة أخرى أدرك أنها لن تضللني دائماً. إن حواسي تكفي لتصحيح الأحكام والقرارات المتسرعة، التي ملت إلى اتخاذها)

ربما تشبه هذه الاعترافات ما حدث للغزالي.. ذلك العلم الكبير من أعلام المسلمين، والذي مر بتجربة شك خطيرة، ولكنه استطاع أن يتخطاها، واستطاع أن يتخطى معها كل الأطروحات المتلبسة بلباس الدين وغير الدين..

لكني لم أفعل ذلك.. لقد كانت تصوراتي للدين والحياة قاصرة على البيئة التي كنت أعيش فيها.. فتصورت أن الأخطاء الدينية التي وقعت فيها الكنيسة، لا تلزمها فقط، بل تلزم الله نفسه.. ذلك أن الكنيسة كانت تنشر بين جماهيرها أن (ابن الله هو الذي أقامها، وأنه هو الذي وضع عقائدها الأساسية)[1] .. ولذلك فإن أي حركة تنتقدها بغض النظر عن الأخطاء التي يرتكبها الذين يصرفون شئونها إنما هي خروج على السلطة القدسية، وخيانة للدولة الزمنية التي كانت الكنيسة درعها الأخلاقي الواقي.

---

[1] قصة الحضارة.

لقــد كنت أقــرأ الكتــاب المقــدس، وأمتلئ من العجب من التناقضات التي يمتلئ بها، والـتي لا يسـمح لأحـد بمناقشـتها، لقـد كنت أتساءل دوما (لماذا يختلف نسب السـيد المسـيح في إنجيـل متى اختلافاً كبيراً عن إنجيل لوقا.. إذا كان كلاهمـا مـنزلا من عنـد اللـه؟ .. لمـاذا لم تنتـه سلسـلتا النسـب هاتـان بيوسـف إذا كـان سيعفي سريعاً من إنجاب يسوع.. لمـاذا يمتـدح ابن اللـه بأنـه ابن داود الـذي صـوره الكتـاب المقـدس بأنـه كـان زانيـاً بكـل معـنى الكلمة؟ .. وهل تنطبق نبوءات العهد القـديم على المسـيح، أم أن هذه التطبيقات مجـرد للقـوة اللاهوتيـة؟ .. وهـل كـانت معجـزات العهـد الجديـد حيلاً أو خـداعات ورعـة، أم كـانت عمليـات طبيعيـة أسئ فهمها؟ .. وهل نصدق هذه لحكايات أم نتبع العقل؟)(2)

كنت كلما قرأت أمثال هذه التناقضات أصـيح بكـل قـوة: (لن أضـحي بعقلي، لأن عقلي وحـده يمكنـني من التميـيز بين الخـير والشر وبين الحق والضلال..)

وكنت أكذب في ذلك..فقد كنت أتحكم في عقلي كما أشاء.. لأن وجود خطأ ما في مكان ما لا يلغيه، وإنما يدعو إلى تصـحيحه.. فوجود أخطاء في الكنيسة، أو حتى في الكتاب المقدس نفســه لا علاقة له بوجود الله، أو بالقيم التي يرتبط بها.

ولو طبقنـا ذلـك المقيـاس الـذي حكمت بـه على اللـه نتيجـة أحقـادي على الكنيسـة لألغيت كـل العلـوم، لأنـه لا يوجـد علم من العلوم، ولا حقيقة من الحقـائق إلا ارتبطت بالخرافـة في يـوم من الأيام.

لم يكتـف عقلي الممتلئ بالحقـد على الكنيسـة بـذلك، وإنمـا راح إلى الحقائق التي نطق بها الفلاسفة قبل أن ينطق بهـا الـدين والمرتبطـة بوجـود الـروح، وخلـود النفس.. ليجحـدها مثلمـا جحـد الله.. لقـد كنت أقـول: (يجـدر بنـا أن نكـون شـاكرين أن تهيـأ لنـا جميعـاً نـوم أبـدى بعـد نصـب وصـخب الحيـاة الـدنيا الـتي تسـبب المشقة أكثر مما تسبب اللذة لغالبيتنـا.. عـودوا جميعـاً في سـلام إلى المستقر العام الذي جئتم منه، ومروا دون ضجة أو تذمر مثل

---

(2) قصة الحضارة.

كل الكائنات التي حولكم)

وكنت أقول للمؤمنين الذين يدعون الجنة، ويعتبرونها عزاء لهم عن الآلام التي يعانونها في الدنيا: (إن أقلية ضئيلة، حققت هذا الهدف، على حين كان مآل الأغلبية إلى الجحيم. فكيف إذن يمكن أن تكون فكرة الخلود عزاء؟ إن العقيدة التي تخلصني من المخاوف الرهيبة تبدو مرغوباً فيها أكثر من الشك الذي تركني مؤمناً باله يتحكم في عطفه، فلا يمنحه إلا لذوي الحظوة لديه، ويهيئ للآخرين السبيل ليكونوا جديرين بالعذاب الأبدي، فكيف يمكن لأي إنسان متحضر أن يؤمن باله يحكم على المخلوقات بالخلود في الجحيم؟ هل هناك في الطبيعة إنسان بلغ من القسوة حداً يتعمد فيه تعذيب، لا أقول رفاقه من الكائنات، بل أي كائن واعٍ حساس أياً كان؟ فأقروا إذن يا رجال اللاهوت أن إلهكم طبقاً لمبادئكم، شرير أكثر بكثير من أي شرير من بني الإنسان.. إن القساوسة ورجال الدين جعلوا من الإله كائناً خبيثاً ماكراً صارماً إلى حد أن فئة قليلة في هذه الدنيا هي التي لا تود أن يكون الإله موجوداً .. وأية أخلاق نتحلى بها إذ كنا نقلد هذا الإله)

لاشك أنكم لاحظتم هذه الحدة التي في كلامي، والتي تتناقض مع العقل الذي أدعيه، لأني كنت أحكم على الله من خلال موقفي من القساوسة ورجال الدين..

ولم أتساءل أبدا حينها عن المانع الذي يمنع الله من أن يفعل في ملكه ما يشاء.. أن يعذب من يشاء، أو ينعم من يشاء.. وأي سلطة لي عليه.. وكيف أفرض عليه قوانيني وأنا عبده الضعيف الحقير.

ولم أتساءل، ولو من باب الاحتياط عن إمكانية أن يكون ذلك الجزاء صحيحا، وأن هناك جنة فعلية ونار فعلية.. وحينها كيف يكون الحال..

أتذكر حينها أبياتا سمعتها من بعض المسلمين يقول فيها:

زعم المنجم ... لا تبعث الأجساد

إن صح قولكما ... أو صح قولي

طبعا لم أهتم لكل هـذه الصـيحات.. ولا كـل هـذه الـبراهين.. لأني كنت غارقا في أوحال أحقادي على الكنيسـة ورجـال الـدين.. وكانت كل همتي منصرفة للفرار من الله، لذلك كنت أطرح الكثير من الإشكالات على أمثـال تلـك الـبراهين لأفـر من الحقيقـة الـتي يدل عليها كل شيء[1] .

لقد كنت أصيح كل حين: (إن إلـه المسـيحية هـو منشـئ كـل الشرور، لأنه حيث أنه قادر على كل شئ يتم دون رضاه وموافقه، فإذا وهبنا الحياة فإنه كذلك كتب علينا المـوت، وإذا وهبنـا الصـحة والثروة، فإنه يعوض منهما بالفقر والقحط والمصائب والحروب)

وكنت أقول: (إن في العالم دلائل كثـيرة على تصـميم بـارع، ولكن هلا توجـد فيـه علامـات كثـيرة بنفس القـدر على أن العنايـة الإلهية، إن وجدت، قادرة على إيقـاع أشـد أذى شـيطاني؟ إن كـل الكتب زاخرة بأشد المديح والثناء رياء ونفاقـاً على العنايـة الإلهيـة التي أفرطوا في الثناء على رقابتهـا اليقظـة، ومهمـا يكن من أمـر فإننـا إذا تفحصـنا كـل أجـزاء الكـرة الأرضـية لوجـدنا أن الإنسـان المتحضر وغير المتحضر على السـواء في صـراع دائم مـع العنايـة الإلهيـة، فهـو مضـطر إلى أن يصـد الضـربات الـتي تنزلهـا بـه في صورة أعاصير وعواصف وصقيع وبـرد وفيضـانات وجـدب وغيرهـا من مختلف النازلات التي تجعل كد الإنسان وجده غير ذي جدوى.. وفي إيجاز أرى أن البشر جميعـاً مشـغولون باسـتمرار في حمايـة أنفسهم من الحيل الشـريرة الخبيثـة الـتي تـدبرها العنايـة الإلهيـة التي يقال إنها ساهرة على توفير السعادة لهم)

كنت أقـول هـذا وغـيره لأهـرب من الإيمـان باللـه، وإلا فـإن

[1] من الأمثلة على تلك الإشكالات السخيفة الواردة على رهان باسـكال قـول بعضـهم في بعض الموقع الإلحادية: (يفترض المؤمنون بطرحهم لهذا الرهان أنه في صورة ملاقاة إله ما بعد الموت سيكون بلا شك هو إلههم الواحـد، فإمـا العـدم أو اللـه الـذي يؤمنـون بـه وهم بذلك يجعلون الرهان مقتصرا على إحتماليـن فقط بينمـا تعـرض لنـا الميثولوجيـا آلاف الالهـة والديانات التي تعد أتباع الآلهة والمعتقدات الأخرى بالجحيم والعـذاب الأبـدي ! فلنفـترض إذا وجود 3999 الهة مقترحة و احتمـالا واحـدا في عـدم وجـود الهـة، احتمـال أن يكـون اعتقـاد المؤمن صحيحا هو 1/4000 مساو لإحتمـال أن يكـون الملحـد على حـق للنجـاة من الجحيم يملك المؤمن نسبة 2/4000 أي في أن يكون إلهه موجودا أو عـدم وجـود آلهـة بينمـا يملـك الملحد نسبة 1/4000 للنجاة من العقاب)، وهو إشكال لا يحتـاج للـرد عليـه، لأن كـل الأدلـة العقلية تدل على الله الواحد.

تسليمي للتصميم البديع للكون، والـذي يـدل على وجـود المصـمم كاف في دفعي للإيمان به، والإيمان بمدى حكمته.

لكني كنت أردد ما يذكره كل الملاحدة قبلي وبعـدي من غـير شعور، ولا تريث، ولا بحث.. كنت أردد مـا ذكـره أبيقـور عن اللـه: (هل هو يريد منع الشر لكنه لا يقدر؟ إذن هو عاجز. هـل هـو قـادر لكنه لا يريد؟ إذن هـو بغيض . هـل هـو قـادر ويريـد معًـا؟ إذن هـو شرير)

وكنت أردد ما قال ماكلوسكي: (يعتبر الشر مشكلة للمــؤمن من جهة أن هناك تناقضًا بين حقيقة وجود الشر من جهة والإيمـان بكمال الله، وعدم محدودية قدرته من الجهة الأخرى)

وكنت أردد ما قال ماكي: (مشـكلة الشـر ــ بـالمفهوم الـذي سأستعمله هنا ـ هي مشكلة فقط لمن يـؤمن بوجـود إلـه مطلـق القدرة ومطلـق الخيريـة، وهي مشـكلة منطقيـة في التوفيـق بين عدد من الاعتقادات، وليسـت مشـكلة علميـة يمكن حلهـا بالمزيـد من الملاحظة العلمية أو مشكلة عملية يمكن حلها بقرار أو إجــراء عملي)

لكني لم أردد أبدا ما يقوله المؤمنون [1] ..

سكت قليلا، ثم قال: أتذكر حينهـا أني طـرحت هـذا الإشـكال على بعض أهل قريتي من البسطاء قصـد تشـكيكه في معتقداتـه، وقد ذكرته له بطريقة لبقة ذكيـة حـتى لا يسـبب لي أي مشـكلة.. فقـال لي: إن وقـوع الشـر في العـالم لا ينـاقض رحمـة اللـه، ولا يعارض اتصافه بصفات الخير، نظـرًا لكـون هـذا الشـر سـبيلٌ إلى خيرٍ أكبر وأعظم؛ فارتكاب الذنب سبيلٌ إلى التوبـة، والبلاء سـبيلٌ إلى الصبر والصمود والتحمـل، والقتـل والشـهادة في سـبيل اللـه سبيلٌ إلى أعلى الدرجات في الجنة .

قلت له حينها: ما دام الله قادرا على إيصـال هـذا الخـير دون وقوع الشر، فلم يفعل ذلك؟

---

[1] سـنرى التفاصـيل الكثـيرة المرتبطـة بـالرد على هـذه الشـبهة في سـائر أجـزاء السلسلة.

فأجابني ببداهة: هذا غير ممكن، فلا يتصور عقلاً وجود صفات الصبر والصمود وتحدي الصعاب ــ وهي من معاني الخير ــ دون وقوع البلاء .. وكذلك لا يتصور حدوث التوبة دون ذنب، فقد ربط الله تعالى الأسباب بمسبباتها .. وجعل الأسباب محل حكمته، فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات العقلية وقدح في العقول والفطر.

قلت له: لا شك أنك تؤمن بأن العالم العلوي .. أي عالم الملائكة .. ليس فيه شر.. فلم لا يكون عالمنا كذلك؟

قال لي: يلزمك في هذه الحالة أن تثبت أن الخير المجرد أعظم وأفضل من الخير الممزوج بالشر، وهذا صعب جدًا، بل مستحيل في حقيقة الأمر، وعقيدة المؤمن أن الله يسمح بالشر في هذا العالم لأجل تحصيل الخير الناتج عنه أو المترتب عليه شريطة أن تكون المحصلة العامة هي زيادة الخير على الشر بقدر أكبر من القدر الذي يمكن تحصيله من الخير البحت، وأن في وجود الشر من المصالح والمنافع والخيرات ما يبرر وقوعه [1].

كان لكلامه من القوة والحجة ما لم أملك أي سبيل لدفعه أو للرد عليه، لكني بعد أن رجعت إلى نفسي وشياطيني رحت أثير شبها أخرى لأهرب من الإيمان.. لقد رحت أصيح: (هل وجد إله أغرب وأبعد عن التصديق من هذا؟ أنه لآلاف السنين ظل مختفياً عن أعين البشر، وأستمع دون استجابة واضحة بريئة لصلوات آلاف الملايين ودعواتهم وثنائهم عليه. والمفروض أنه حكيم بالغ الحكمة، ولكن ملكه يسوده الخلل والاضطراب والخراب. والمفروض أنه خير ولكنه يعاقب شيطان مجرد من الروح الإنسانية. والمفروض أنه عادل وهو يهيئ للأشرار سبل الرخاء والازدهار، على حين يتعذب القديسون حتى الموت. إنه منهمك دائماً في الخلق والتدمير)[2]

---

[1] ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص414، فما بعدها.

[2] نقلا عن: قصة الحضارة.

وهكذا رحت أطالب الله بأن يرني نفسه حتى أؤمن به.. وهذا من المستحيلات التي يدل عليها العقل.. فالله يستحيل أن يرى لأنه ليس جسما، ولا محدودا، وليس له مكان ولا محل.. وكيف يمكن أن يرى أو يدرك أو تحيط به الحواس؟

وهذا دليل على أنني لم أكن أعمل عقلي أبدا.. أو أنني لم أنكر الله المطلق، وإنما أنكرت ذلك الله المجسم الذي عبده الوثنيون، أو صورته الكثير من النصوص المحرفة في الكتاب المقدس..

وكان في إمكاني أن أتخلص من تلك الأوهام كما تخلص منها الفلاسفة بالبحث العقلي في صفات الله.. وكان في إمكاني أن أسير في الأرض لأبحث عن الحقيقة .. لكنني لم أفعل ذلك.. بل ظللت في قريتي آكل من رزق الله.. في نفس الوقت الذي أقوم بمحاربته.

وقد بلغ من حقدي على الله أني كنت ــ خلافا لما ذكره فولتير من أن الإيمان بالله أمر طبيعي فطري عام ــ أقول عكس ذلك.. بل كنت أقول: (إن مثل هذا الإيمان أمر غير طبيعي، وأنه يجب أن يصب في أذهان المراهقين أن: كل الأطفال ملحدون، ليس لديهم فكرة عن الإله.. ويؤمن الناس بالله بناء على كلام أولئك الذين لا يعرفون عنه أكثر مما يعرف الأولون، إن مربياتنا هن أول معلمي اللاهوت.. إنهن يتحدثن إليهم عن الإله كما يتحدث عن آدميين تحولوا إلى ذئاب .. إن قلة قليلة من الناس كانت تتخذ إلهاً لولا ما يبذل من جهد في أن يجعلوا لهم إلهاً)[1]

بل إن حقدي على الله وصل إلى درجة لا تطاق.. لقد كنت أصيح من خلال عهدي الجديد: (اتركوا لرجال اللاهوت علتهم الأولى وليس للطبيعة من حاجة بهذا لإحداث كل الآثار والنتائج التي تراها.. وإذا كان لزاماً أن تعبدوا أحداً، فاعبدوا الشمس، كما تفعل شعوب كثيرة، فإن الشمس هي الخالق الحقيقي لحياتنا وللصحة والضوء والدفء والبهجة والسرور)

---

[1] من قصة الحضارة.

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق امتلأ بأنات كثيرة..

عبد الله القصيمي:

ساد بعدها صمت عميق ممتلئ بالأحزان، قطعه قرع أقـدام.. سـمعت بعـدها الصـوت الأول يقـول: سـيتقدم الآن علم من أعلام الإلحاد الكبـار.. لـه قصـة غريبـة لا تختلـف كثـيرا عن قصـة [جـان مسلييه].. فقد كـان هـو الآخـر رجـل دين.. وكتب كتبـا في نصـرة الدين.. ثم تحول عنه إلى الإلحاد.. وكتب كتبا في نصـرة الإلحـاد.. إنـه عبـد اللـه القصـيمي(1) .. لاشـك أنكم سـمعتم بـه، وبالضـجة الكبيرة التي أثارتها كتبه التي يدعي فيها أنه تنويري مثلنا، وأنه مـا قام بحركته إلا ليبدد الظلمات التي تنشرها الأديان..

قد تتعجبون من هذا التحول العجيب.. لن أشـرح لكم سـره.. بل سأدعه للقصيمي نفسه، فخير من عبر عن الإنسان لسانه.

سمعت قرع أقدام .. بعـدها سـمعت صـوتا ممتلئـا ألمـا، راح يقول: ما عساي أقول لكم، أنا المتـألم الحـزين الـذي قضـى على نفسه، بعد أن قضى على حقيقته.. لقد أعطـاني اللـه من الفـرص ما لم يعط الكثير منكم، ولكنني ــ ولغـروري وكبريـائي ــ فـرطت فيها جميعا، ورحت أبحث في القمامة عما يسـد رمـق شـهواتي .. فلم أجد في القمامة إلا ما ملأ حياتي بالضنك والضيق الــذي رحت أفرزه في كتبي التي تعرفونها..

وأنـا أريـد من خلال مـوقفي هـذا بين أيـديكم أن أذكـر لكم الأسباب الحقيقية لإلحـادي، والـتي حـاولت أن أتسـتر عليهـا بتلـك الدعاوى العريضة من التحرر والتنوير الـتي كنت أزعمهـا لنفسـي، مـع أني في حقيقــة أمــري لم يكن لي من دافــع ســوى عقــدي

(1) عبد الله القصيمي (1907ـ 1996) كاتب سعودي يُعتبر من أكثر الكتاب العرب إثارة للجدل بسبب انقلابه من موقع النصير والمدافع عن السلفية إلى الإلحاد، وبسبب مؤلفاته المثيرة للجدل.. من كتبه في الدعوة للإلحاد: (هذه هي الأغلال).. (الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات).. (لئلا يعود هارون الرشيد مرة أخرى).. (فرعون يكتب سفر التاريخ).. (كبرياء التاريخ في مأزق).. (هذا الكون ما ضميره؟).. (أيها العار إن المجد لك)..(العرب ظاهرة صوتية).. (العالم ليس عقلاً) وقد استفدت المعلومات الخاصة بعبد الله القصيمي وحياته من مقالة بعنوان [عبدالله القصيمي... قصة إلحاد وحكاية ملحد]، من موقع صيد الفوائد، وغيرها.

النفسية التي ولدتها البيئة الاجتماعية والفكرية الـتي عشـت فيهـا، والتي غذتني بلبان التدين المتطرف.

وأنا لا أرمي بأخطائي على بيئتي فقـط.. بـل أبـدا بنفسـي .. نفسـي الأمـارة بالسـوء.. فقـد كـانت تـراودني كـل حين.. وكـانت تتزين لي .. ولم أكن أملك إلا أن أخضع لهـا.. فكنت أملأ صـفحات كتبي مدحا لها وثناء عليها، وكبرياء بها..

لقد كنت مزهوا بها لدرجة أنني رحت أطالب الجميـع ــ حـتى في فترة إيماني ـ بأن يروا نفسـي المتكـبرة، ويقـدروها، ويعرفـوا مكانتها..

لقــد كتبت في تلــك المرحلــة قصــائد كثــيرة في مــدحها وتعظيمها.. منها قولي(1):

لو أنصفوا كنت المقدم	ولم يطلبوا غيري لدى
ولم يرغبوا إلا إليّ إذا	رشاداً وحزماً يعزبان عن
ولم يذكروا غيري متى	ولم يبصروا غيري لدى
فما أنا إلا الشمس في	وما أنا إلا الدر في لجج
متى جريت فكل	وإن وقفت فما في

وقلت مرة يثني على نفسه بأبيات ركيكة بعدما قـرأت كتابـاً للمتنبي فكتبت على هامشه:

كفى أحمداً أني	لأن يدعي أن الإله
ولو شامني أني	لقال إله الكون إني

وقلت:

حاشا لهم أن يعدلوا	من بعد ما وضحت
وأُعيذهم من أن	وأديب كل الناس في
عابوا عليَّ تحدُّثي	بأصالتي وشجاعتي

---

(1) انظر مقدمة كتابه الفصل الحاسم.

إن لم يُبح مدح بيضًا فأي تمدح وثناءِ

لقد قلت هذا في المرحلة الأولى من حيـاتي، وبقي معي في المرحلة الأخرى التي أقمت فيها معابد لأعبد فيها نفسي وأنانيتي.. لقـد كتبت في الغلاف الخـارجي لكتـابي (هـذه هي الأغلال) هـذه العبارة المشحونة بكل أصناف الكبرياء: (سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل!)

وقلت في ثناياه: (إن مافي هذا الكتـاب من الحقـائق الأزليـة الأبدية التي تفتقدها أمة فتهوى، وتأخذ بها أمـة فتنهض، ولن يوجـد مسلم يستغني عن هذه الأفكار إذا أراد حياة صحيحة)

ولم تكن هذه الأنانية حبيسة نفسي أو كتبي، بـل إن روائحهـا المنتنـة فـاحت لكـل من حـولي، وخاصـة لمن خـالفني أو اختلـف معي..

لعلكم تذكرون مـوقفي من أسـتاذي الكفيـف الشـيخ يوسـف الدجوي، والذي اختلفت معه في بعض المسائل.. فرحت أشنع بـه في الكتب والصحف والمجلات، وأتهمه بالغرور لأنـه خـالفني، ولم يخضع لأفكاري.. لقد قلت فيه: (وكـأني بالـدجوي المغـرور عنـدما يرى هذه البراهين إن كان يرى التي مـا كـانت تخطـر على فـؤاده إن كان له فؤاد يغضب ويصخب، ويشتم، ويقول ماهذه البلوى؟ ما هذه المحنـة الـتي خصصـت بهـا؟ مـا هـذا النجـدي الـذي يريـد أن يـأكلني ويشـربني؟ مـا هـذا العـربي الـذي مـنيت بـه لينزلـني من منزلتي التي ارتقيتها بلقبي وكتبي وراتبي ورتبي وغفلة أهـل العلم والفهم عني؟ ويقول يا ليتنا أرضينا هذا النجدي وأسكتناه عنـا ولـو بملء فيه دراً، ولو بكل ما نأخذه من راتب، وما نملكه من متاع)

أصدقكم القول بأنه كان يمكنـني ألا أكـون بهـذه الصـورة لـو أنـني لم أعش بين قـوم نفخـوا في من روح الكبريـاء مـا جعلـني أستعلي على أستاذي الدجوي وغـيره من علمـاء الأزهـر، بـل كـل علماء الأمة.. لقد كانوا يصورون لي أننـا وحـدنا ــ أتبـاع محمـد بن عبد الوهاب على الحق ـ وأننا ينبغي أن نعـتز بكوننـا كـذلك.. وأننـا ينبغي أن نتهم كل مخالف لنا بالشـرك والكفـر الجلي.. بـل ينبغي لنا أن نفتي بسفك دمه..

لقد كان لإدماني على قراءة كتب ابن تيمية وابن عبد الوهاب ومشايخ نجد وغيرهم ممن يسمون أنفسهم الفرقة الناجية أثره الكبير على نفسي، فلذلك راح عقلي الضعيف يصور لي أنني أحمل الحق المجرد، وغيري يحمل الباطل المجرد.

لذلك رحت، ولأجل خلافات فرعية بسيطة بين مذهبي الذي ربيت عليه، وبين البيئة العلمية الجديدة التي انتقلت إليها، أتهم الأزهر ومشايخه بالإلحاد والضلال والكفر.. وأولهم شيخي الدجوي الذي اختلفت معه حول كفر القائلين بزيارة الأولياء، والتوسل بالصالحين، وطلب الشفاعة منهم، وكان شيخي ينهاني عن تكفير من يقول بهذا وتضليله، ورحت بالكبرياء التي نفختها في طائفتي أرد عليه بكل قوة وصلافة وحقد.. بل ألفت في ذلك كتابي [البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية]

وبعدها.. وبعد أن قرر مشايخ الأزهر فصلي منه، لسوء أدبي مع أساتذتي (1) .. رحت أصب جام حقدي عليهم، وكتبت في ذلك كتابي [شيوخ الأزهر والزيارة في الإسلام]، و[الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم]

ولم أكتف بالتشنيع على الأزهر، وعلى المناهج الصوفية والكلامية التي كان يتبناها، بل رحت إلى طوائف المسلمين الأخرى، أصب عليهم جام حقدي وأنانيتي.. فأرميهم ـ كما ترميهم الوهابية التي كنت أنتمي إليها ـ بالوثنية.. وقد كتبت في ذلك كتابي الكبير [الصراع بين الإسلام والوثنية]، والذي لقي قبولا كبيرا من أبناء طائفتي، حتى قال فيه إمام الحرم المكي في ذلك الوقت (2):

---

(1) جاء في البيان الذي أصدره الأزهر في فصله: (صدر كتاب ينسب إلى طالب من نجد في جامعة الأزهر، ويوجد في الكتاب شتائم وإهانات موجهة إلى أستاذ من هيئة كبار العلماء، وعلى أثر ذلك كلفت هيئة المدرسين أحد الأساتذة بإجراء تحقيق ضد الطالب فيما تضمنه الكتاب من افتراءات وشتائم، وقام الأستاذ بتقديم نتائج تحقيقه إلى مجلس إدارة الأزهر والتي قررت في جلستها المنعقدة في 13/9/1932م قرارًا بفصل الطالب من انتسابه إلى الأزهر) انظر (من أصولي إلى ملحد) ص42، 24.

(2) دراسة عن القصيمي ص25..

صراعٌ بَين الشر الرُّ يقوم به القصيميُّ
ألا لله ما خط البنانُ لنصر الدين

بل أخبرني بعضهم أن الملك عبد العزيز قال عني، وعن كتابي: (لقد دفع القصيمي مهر الجنة بكتابه هذا)(1)

هذا هو السبب الأول لإلحادي.. وهو السبب الذي نجتمع فيه جميعا.. فالكبرياء والغرور والعقد النفسية هي التي تحرمنا من تفضل الله علينا بالإيمان.. ذلك أن الإيمان هدية إلهية غالية، لا يستحقها إلا أصحاب القلوب المتواضعة، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]

أما السبب الثاني، فهو قومي الذين جنوا علي، فجنبت بعدهم على كل الناس.. وأنتم تعرفون قومي من النجديين أولئك الذين ذكر رسول الله ﷺ بلادهم، واعتبرها موطن الفتن والزلازل، وأن منها يطلع قرن الشيطان(2).

وصدق في ذلك، فلاشك أنكم سمعتم أن كل ذلك الإرهاب والعنف والتطرف والخرافة بدأت من تلك النجود العالية، لتشوه الإسلام، وتحارب الدين، وتنشر الإلحاد.

وكان أول ما لقنني قومي هو تحطيم كل الرموز والمقدسات التي أمر الله أن تعزر وتوقر وتحترم.. ابتداء من رسل الله، وانتهاء بأوليائه.. لقد أشاع قومي أن التعلق بهؤلاء والتمسك بهم والعشق لهم ليس سوى شرك مغلف.. ولهذا رحت أصب جام غضبي على الصوفية والشيعة وعامة المسلمين الذين امتلأت قلوبهم محبة لأولياء الله ورسله.. وفاحت تلك المحبة بكل تلك

---

(1) دراسة عن القصيمي ص25..

(2) ففي الحديث، قال ﷺ: (اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا)، فقالوا: وفي نجدنا يا رسول الله، قال رسول الله a: (اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا)، فقال الناس: وفي نجدنا يا رسول الله؟ فقال رسول الله a: (الزلازل والفتن هناك: وهناك يطلع قرن الشيطان) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الألوان من السلوكات التي لم أفهمها، ولم يفهمها قومي، فراحـوا يحاربونها ويكفرون أصحابها.

لقد حصل لنا ما حصـل لإبليس عنـدما رفض السـجود لآدم .. فوقع في كل ألوان الضلالة، وصبت عليه جميع ألوان اللعنات.

لم تكن عقولنا الصلبة لتفقه سر تلك المحبة الـتي تفـوح من قلـوب الصـوفية أو الشـيعة أو العـوام لرسـل اللـه وأليائـه، كنـا نتصورها شركا، بينما لم تكن سوى التوحيـد المقـدس.. لأن محبـة الرسـل والأوليـاء ليسـت سـوى فيض من محبـة اللـه.. فمن أحب أولياء الله، لا شك أنه يحب الله.

ولم تكن عقولنـــا لتفقـــه أن في كـــل إنســـان نزوعـــا لحب الأبطال، لاتخـاذهم مثلا عليـا، يقتـدى بهـا، ويهتـدى بهـديها، لأنـه لا يكفي الهدي النظـري دون أن تكـون هنـاك معـالم عمليـة يتخـذها الناس منارات هدى يهتدون بها.

لم نكن نفقـه أن الأوليـاء الـذين يعشـقهم النـاس لم يكونـوا سوى منارات هدى.. بل تصورناهم بجهلنـا أصـناما رحنـا نحطمهـا، فحصل لنا من الكبرياء والغرور ما حصل لإبليس..

لقـد عـبرت عن ذلـك في بعض قصـائدي الـتي أمجـد فيهـا نفسي، فقلت:

ولو أن ماعندي من العلم والفضل   يقسم في الآفاق أغنى عن الرسل!

هذه هي صورة الرسـل عنـدي، وهي صـورة باهتـة ضـعيفة.. حـرص قـومي على أن يلقنـوني إياهـا حـتى يحمـوني من الشـرك الأكبر.. فوقعت في الإلحاد.

لعل هـذا هـو السـبب الأكـبر فيمـا حـاق بي.. وهنـاك أسـباب أخرى كثيرة، منها أنني، وبعد تأليفي لمجموعة كتبي في الرد على الصـوفية والشـيعة.. وحـول تمجيـد الوهابيـة وتعظيمهـا.. وبعـد أن لاقيت القبول الحسن من قومي الـذين راحـوا يمجـدونني ويثنـون علي.. دعيت ونفـر من قـومي الـذين التحقـوا بـالأزهر مـع كبـير

مشايخ قومنا.. لن أسميه لكم.. فلن ينفعكم اسمه.. طلب منا أن نجلس إليه ليحمي عقائدنا مما تسرب إليها من ضلالات الأزهر.

وقد كان ذلك المجلس وحده كافيا لأطلق تلك الآراء الرعناء المتخلفة الوثنية التي ينشرها قومي، لأستبدلها بعقائد أفضل وأكرم وأكثر عقلانية.. لكني لم أفعل.. لأني كنت أتصور أن الإله إما أن يكون بالصورة التي صورها قومي.. وإما أن لا يكون موجودا.

وقد كانت الصورة التي صورها قومي، والتي وضحها لنا الشيخ في منتهى الدجل والخرافة .. فلذلك رحت أنفر منها، لأقع في الإلحاد.

سأذكر لكم بعض ما قال.. لقد روى لنا حديثا في منتهى الغرابة .. وهو أن حبرا من الأحبار جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: (أنا الملك)، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67][1]

ذكر هذه الرواية ليبين عظمة الله، وأن رسول الله ﷺ ضحك تصديقا لليهودي، فقلت له: ألا ترى يا شيخا أن تفسير ضحك رسول الله ﷺ بذلك لا يستقيم مع الآية الكريمة التي قرأها.. ولهذا فقد يكون رسول الله ﷺ ضحك لخفة عقول اليهود، ولعدم تقديرهم لله حق قدره.

وقد كنت قرأت في الأزهر أن الفخر الرازي قال ــ تعليقا على الرواية ـ نقلا عن الزمخشري صاحب (الكشاف) ــ: (وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

فهمه وقع أول كل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام ولا تكتنهها الأذهان هينة عليه)

غضب الشيخ غضبا شديدا لترديدي لأسماء يمقتها ويكفرها من أمثال الرازي والزمخشري، وقال: أرى أن لوثات الأزهر علقت في رأسك.. وتحتاج إلى التخلص منها حتى يخلص لك دينك، وحتى لا تقع في الشرك الأكبر.

قلت له: وما علي أن أفهم من الحديث حتى يخلص لي ديني؟

قال: أن تفهمه كما هو .. كما يفهمه العوام.. فهذا الحديث قد نص على عقيدة من العقائد الكبرى التي اتفق عليها سلف أهل السنة وخلفهم.. وهي أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع.. أي أن الله له خمس أصابع.. ويوزع عليها كل أولئك المخلوقات.. ألا يكفيك هذا لبيان عظمة الله؟

كبر أصحابي لقول الشيخ إلا أنا.. فقد رحت أقول له: ولكن عند عرض هذا الحديث على العلم يتبين لنا مدى ضحالة ما طرحه اليهودي من معان.. فقد ذكر أن الله تعالى (وضع السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع)، انطلاقا من أن السموات في حجمها ـ في تصوره ـ تساوي الأرض، ولذلك وضعت السموات جميعا بنجومها ومجراتها في أصبع، والأرض في أصبع أخرى.. وكأنها تساويها في الحجم أو الكتلة .. وهذا خلاف الحقائق العلمية التي تنص على أن الأرض لا تساوي شيئا أمام هذا الكون الواسع..

غضب الشيخ غضبا شديدا، وقال: ومن أين عرفت حجم وكتلة الأرض أو السموات حتى تتكلم عنها؟

قلت: لقد ذكر الفلكيون هذا..

قاطعني بشدة، وقال: ومن أين للفلكيين هذا.. ألم تقرأ ما

كتبه علماؤنا في حرمة تعلم علم الفلك.. ألم تقرأ وأنت في الأزهر تلك الكتب الكثيرة التي ألفوها في الرد على أباطيل الفلكيين الكفرة المنجمين.. ألم تقرأ كتاب (الصواعق الشديدة على أتباع الهيئة الجديدة) للشيخ التويجري، وغيرها من الكتب؟

قلت: إن قولك هذا يوقعنا فيما وقع فيه رجال الدين المسيحي حينما تبنوا بعض النظريات العلمية، وربطوها بالدين، ثم حاربوا كل من يقول بخلافها واعتبار القول به هرطقة.

قال: مثل ماذا؟

قلت: مثل دوران الأرض حول الشمس.. فقد اعتبروا القول بهذا هرطقة.

قال: وصدقوا في ذلك.. ألم تقرأ كتاب (دوران الأرض حقيقة أم خرافة) لعادل العشري، وكتاب (هداية الحيران في مسألة الدوران) لعبد الكريم بن صالح الحميد، وكتاب (الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب) لابن باز.. وقد قال بعض علمائنا في ذلك: (ومن قال بدوران الأرض وعدم جريان الشمس فقد كفر وضل، ويجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتداً، ويكون ماله فيئاً لبيت مال المسلمين)

وقد نصَّ على (أن كثيراً من مدرسي علوم الفلك ذهبوا إلى القول بثبوت الشمس ودوران الأرض، وهذا كفرٌ وضلال وتكذيبٌ للكتاب والسنة وأقوال السلف،وقد اجتمع في هذا الأمر العظيم النقل والفطرة وشاهد العيان فكيف لا يكون مثل هذا كافراً)

وقد حاجَّهم بقوله:(لو أن الأرض تتحرك لكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد، لذلك فالقول بهذه المعلومات الطبيعية وتدريسها للتلاميذ على أنها حقائق ثابتة يؤدي إلى أن يتذرع بها أولئك التلاميذ على الإلحاد حتى أصبح كثير من المسلمين يعتقدون أن مثل هذا الأمر من المسلمات العلمية)

واستدل لهذا بأنَّه (لو كانت الأرض تدور كما يزعمون لكانت البلدان والأشجار والأنهار لا قرار لها، ولشاهد الناس البلدان

المغربية في المشرق والبلدان المشرقية في المغـرب، ولتغـيرت القبلــة على النــاس، لأن دوران الأرض يقتضــي تغيــير الجهــات بالنسبة للبلدان والقارات هذا إلى أنه لـو كـانت الأرض تـدور فعلاً لأحسَّ الناس بحركة كما يحسون بحركة الباخرة والطائرة وغيرهـا من المركوبات الضخمة)

وقد وصـف المسـلمين الـذين يؤمنـون بكرويـة الأرض بـأنهم بعيـدون عن اسـتعمال عقـولهم وأنهم أعطـوا قيـادهم لغـيرهم، فأصبحوا كبيهمة الأنعام العجماء بعد أن فقدوا ميزة العقل.

وقد خلص في الأخير إلى أن (القائل بدوران الأرض ضال قـد كفر وأضل كذَّب القرآن والسنة، وأنه يستتاب فـإن تـاب وإلا قتـل كافراً مرتداً، ويكون ماله فيئاً لبيت مال المسلمين).

ثم قــام من مكانــه، وأخــرج لي كتابــا بعنــوان (الصــواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديـدة)، ثم راح يقـرأ منـه: الـرد على من قال: (الأرض سابحة في الجو معلقة بسلاسل الجاذبية وقائمة بها.. ونقول أما قولهم إن الأرض سابحة في الجو فهذا باطل ترده الآيات والأحاديث الدالة على سـكون الأرض وثباتهـا. ويـرده أيضـاً إجماع المسلمين على ثبات الأرض وسكونها. وقد تقـدم كـل ذلـك فليراجع وأما قولهم إنها معلقة بسلاسل الجاذبية فهذا باطل يــرده قــول اللــه تعـالى (إن اللـه يمسـك السـموات والأرض أن تـزولا) وقوله تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) فالسـماء قائمة بأمر الله تعالى وإمسـاكه لهـا من غـير عمـد والأرض قائمـة بأمر الله تعالى وإمساكه لها من غير سلاسل)[1]

بعد أن قال لي هـذا.. انهـار كـل البنيـان الـديني الهش الـذي كنت بنيته لنفسي، وبنـاه لي قـومي.. وكـان في إمكـاني أن أعـود إلى الأزهر لأصحح الأخطاء الكثيرة التي أوقعني فيها قومي.. فقــد كــان فيــه أعلام كبــار يجمعــون بين الــدين والعلم، ولا يقولــون بالتنــاقض بينهمــا.. وكــان في إمكــاني أن أذهب إلى الحــوزات العلمية، لأستمع لكلام المتكلمين والفلاسفة عن تنزيه الله عن كل سمات الجسمية والحدوث.. لكني لم أفعـل.. لأني كنت قـد بـدأت

[1] الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 58).

بالصراع معهما، قبل أن أكتشف الخدعة الكبرى التي كنت ضحية لها.

لقد كتبت معبرا عن ذلك، وعن التصورات التي بثها في نفسي مشايخ طائفتي، أقول: (إن البشر يضعون في اذهانهم صورة للإله، لو انها تجسدت كائناً حياً خارجياً مرئياً يعمل في الكون والحياة والمجتمع الذي يعيشون فيه على المكشوف والرؤية، ويعاملهم بالصفات التي تخيلوها وتمنوها له لأصبح لديهم أبشع كائن لا يمكن أن يقبلوا التعامل معه، ولا أن يكون لهم صديقاً وعليهم حاكماً، ولا أن يكون مجرد مواطن لهم، بل لكان محتوماً ان يحكموا عليه بالإعدام. ولا يوجد بين المؤمنين بهذا الإله على النحو الذي تصوروه من يرضى لنفسه بأن يعيش بالصفات التي اختاروها وألفوها له، أو يرضى بأن يكون إلهاً هذا الإله)[1]

وقلت: (كل الناس يعبرون عن عقائدهم ومذاهبهم ويفسرونها باستعداداتهم ورغباتهم لا بنصوص ولا بروح تلك العقائد والمذاهب ــ بل لا يوجد من يعبر عن دينه أو مذهبه حين يعمل أو يفكر وإنما يعبر عن وجوده، فصفات المجتمع هي التي تفسر دينه وتعبر عنه لا روح ذلك الدين ولا نصوصه، كما أنها هي التي تصوغه، اذن فالأديان والمذاهب ليست مذمومة ولا ممدوحة إذا هان أهلها أو عظموا، وكذا إذا انحرفوا أو استقاموا) [2]

كان في إمكاني بعد قولي هذا أن أقوم برحلة للبحث عن الدين الحقيقي، أو عن الحقيقة في الأديان والمذاهب، لكنني لم أفعل .. بل اعتزلت الدين كليا، واعتزلت أهله جميعا المحق منهم والمبطل، ورحت ألتمس أصحابا جددا.. كان من أولهم تلك المرأة المتحررة [هدى الشعراوي]، التي جلست إليها كما يجلس المريد إلى شيخه، فراحت تشنع على تلك العادات السخيفة التي ربطها قومي بالدين، فاستعبدوا المرأة وأذلوها.. وكان في إمكاني أن أصحح لها الخطأ الذي وقعت فيه.. وأذكر لها بأن ما عليه قومي

---

[1] هذا الكون ما ضميره، ص366.

[2] هذا الكون ما ضميره، ص383.

ليس سوى عادات جاهلية بائدة لا علاقة لها بالـدين.. لكن نفسـي نفرت أن تسب قومي، فراحت تسب الدين نفسه، وتتمـرد عليـه، على الرغم من أن تشريعاته تحوي كل التكريم والصيانة والاحترام للمرأة وللإنسان ولكل شيء.

لقد سألني بعض أصـحابي عنـد خـروجي من عنـدها: من أين أقبلت؟ فقلت: من عنـد هـدى شـعراوي، فقـال مسـتغربًا: هـدى شعراوي؟ قلت: نعم، قال: ومـا تصـنع عنـدها؟ قلت: تعلمت منهـا علمًا لا يعرفه علماء الأزهر، قال: ماذا تعلمت منهـا؟ قـال: تعلمت منها كيف أحطم هذه الأغلال[1].

بعد ذلك اللقاء كتبت مجموعة كتب لي .. أزعم أنها شـريكتي فيها.. فقد كنت أضع صورتها بين عيـني، وهي تحـدثني عن تحطيم الأغلال.. وبعدها أحول قلمي إلى معـول، وأحطم بـه مـا كنت أرى أنه أغلال .. ومن تلك الكتب كتـابي (هـذه الأغلال).. و(أيهـا العقـلُ مَن رَآك).. و(الإنسان يَعْصِي لهذا يَصْنَعُ الحَضَاراتِ).. و(هذا الكون ما ضميره)

لقـد بلـغ من جنـوني وتمـردي أني رحت أخـاطب الشـمس، وأطالبها بالتمرد على إلهها الذي خلقها، وعلى الوظيفة التي جبلت عليها، وتقبلتها وهي طائعة.. لقد قلت في كتـابي [هـذا الكـون مـا ضـميره]: (إن الشـمس ـ هـذا الجـرم الأبله الهائل الـذي هو أكـبر وأضـخم وأجمل كـائن دميم نـراه في هـذا الكـون ـ لو أنها كـانت تسـتطيع الاحتجـاج على نفسـها، وعلى كينونتها، وعلى سـلوكها المثير في بلادته، لكان من المحتوم أن تبحث عن بحر كوني يتسع لبدانتها الجوفاء، لكي تموت فيه منتحرة غرقاً!)

وقلت بجنون وبلاهة: (لقد ظلت الشـمس ـ مجد هـذا الكـون الـذي نـراه ـ في وقفتها الطويلة الخرسـاء، وفي دورتها الغبية المتسكعة، تعرض بافتضاح جسـدها المزخـرف، مثلما تفعل أجهل غانية رخيصة مستهترة، وتبدد طاقاتها الجزافية التي لا تعرف كيف ولا لماذا ملكتها بلا حساب، أو ذكاء، أو تدبير. وتواجـه هـذا الكـون،

[1] الرد القويم ص19.

والنـاس، والآلهـة، واالحشـرات، والفـراغ الـرهيب العقيم دون أن تـرفض، أو تغضـب، أو تبكي، أو تحـزن، أو تمـرض، أو تقـاوم، أو تسأل: لماذا أنا، إلى أين أساق، من فعـل بي ذلـك. لمصـلحة من، ما الهدف، ما البداية، ما النهاية، متى الاستراحة، من أين؟)

وقلت مخاطبا الكون جميعا أدعوه للتمـرد: (لمـاذا لم يـرفض الكـون نفسـه، لمـاذا لم يمت انتحـاراً، أو اشـمئزازاً ممـا يمـارس ويواجه ويـرى؟ لمـاذا لم يمت حزنـاً على المتـألمين والمقهـورين، وعلى الباحثين عن العزاء؟ إنه لم يفعل، لأنه لايحتج)

هـل رأيتم المـدى الـذي يصـل إليـه العقـل الملحـد.. العقـل المغرور المكابر الذي يتعدى حده وطوره، ليتـدخل فيمـا لا يعنيـه، وفيما لا قدرة له عليه..

كان في إمكاني، وأنـا العـربي البليـغ، أن أرجـع إلى الرسـالة التي أرسـلها اللـه لي، وبين لي من خلالهـا سـر الكـون، ووظـائف المكونات، وأنها في عبوديـة تامـة للـه، وأنهـا في منتهى السـعادة والسلام لأدائها لأدوارها التعبدية التي لا نفقهها.

وكان في إمكاني أن أرجع إلى عقلي، فأرى قصوره وضـعفه، فلا أتجاوز به حدوده..

وكان في إمكـاني أن أرجـع إلى العلمـاء الكبـار الـذين أفنـوا أعمارهم في صحبة الكـون، وكيـف هـداهم اللـه بـالنظر إليـه إلى الإيمان..

لكني لم أفعـل ذلـك، لأني كنت خزانـا مملـوءا بالحقـد الـذي أعماني عن رؤية الحقائق، وعن التعبـير عنهـا.. فـرحت أدعـو إلى التمرد على كل شيء.. ليصدق علي ما ذكره بعضهم عـني من أن إلحادي [إلحاد انتقامي]، لا أساس لـه من العقلانيـة، ولا البحث ولا النظر..

لقد كـان مخائيـل نعيمـة محقـا حين قـال عن كتـابي (العـالم ليس عقلا): (إنه كتاب هدم ونفي من الطـراز الأول.. هـدم الآلهـة والأخلاق والفضـائل والثـورات والمثـل العليـا والغايـات الشـريفة، ولاعجب فأنت في أول فصـل تنفي أن يكـون لوجـود الإنسـان أي

معنى، والذي لا يعرف لوجود الإنسان ولعبقريته أي معنى كيف يكون لكلامه أي معنى؟ إن قلمك ليقطر ألما ومرارة واشمئزازا وحقدا على خنوع الجماهير لا العباقرة، ولو كان لمثل حقدك أن تصنع قنبلة لكانت أشد هولا من قنبلة هيروشيما)

لم يكن ميخائيل وحده من اكتشف جنوني وعقدي.. بل كل المتنورين الذي كنت أحاول التقرب إليهم ضاقوا مني، ومن حماقاتي.. لقد قال حسين مروة، الاشتراكي القومي عني: (يبدو لي أن أول ما ينبغي إيضاحه منذ الآن، هو أنه لم يكن عسيرا علي، وليس عسيرا على أي قارئ غيري، اكتشاف كون المؤلف [عبد الله القصيمي] خاضعا في معظم أفكاره وتأملاته وخواطره إلى عدد من الضغوط النفسية والفكرية العنيفة، التي يصح أن نجعلها كلها في حالة أو وحدة تؤلف ما نسميه بالأزمة، إذا لم نسمها عقدة)

هل رأيتم كيف اعتبرني مجنونا ومعقدا .. يحق له أن يقول ذلك .. فأنا لم أكن إلا كذلك.. لكن غروري منعني أن أكتشف حقيقتي..

ومثله قال أدونيس.. شيخ الحداثيين .. عني، فقد قال: (عبد الله القصيمي لا تستطيع أن تمسك به، فهو صراخ يقول كل شيء ولا يقول شيئا، يخاطب الجميع ولا يخاطب أحدا، إنه الوجه والقفا)

بل أنا عبرت عن نفسي، وعن أمراضها .. فقلت في كتابي (العالم ليس عقلا): (إن كل دموع البشر تنصب في عيوني، وأحزانهم تتجمع في قلبي، وآلامهم تأكل أعضائي .. ليس لأني قديس، بل لأني مصاب بمرض الحساسية)

وقلت: (دعوني أبكي، فما أكثر الضاحكين في مواقف البكاء، دعوني أحزن فما أكثر المبتهجين أمام مواكب الأحزان، دعوني أنقد فما أكثر المعجبين بكل التوافه، دعوني احتج على نفسي)

ليسوا كلهم انتقدوني.. بل فيهم من بالغ في مدحي والثناء علي، واعتبرني بطلا كبيرا.. وفيهم من هو موجود بينكم.. لكن الذي آلمني منهم صديق من أصدقائي قرأ كتابي [الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات]، وتأثر به كثيرا.. لهذا راح يرتكب جميع

المعاصي ليتحضر ويتنور..

لاشك أنكم تعرفونه، ولعله الآن بينكم .. إنه صديقي(1) [فهد بن صالح بن محمد العسكر (2)] ذلك الشاعر الكويتي الماجن، الذي سلك سبيلي في الدعوة إلى التمرد على الأخلاق والفضيلة .. وكان من كبار المتشككين والساخرين بالأديان في شعره.

كان في بدايته محافظا مثلي.. لكنه عندما قرأ كتبي، وبعض كتب المتنورين من أمثالكم أصابته الحيرة والشك، فمال معها، وتعاطى الخمر وأدمنها، وطفح شعره بالكفر والاستهزاء والعهر والمجون .. إلى أن عمي في آخر عمره، ونصحه الأطباء بترك الخمرة فأبى، فساءت صحته جدا، وأدخل المستشفى فمات بعد فترة، ولم يصل عليه أحد من أهله، وقاموا بإحراق جميع أوراقه وبقايا شعره.

وكيف يحتفظون بأمثال قوله:

ليلة ذكرياتها ملء   وهي في ظلمة

ليلة لا كليلة القدر   خير وخيرٌ والله من

أنا ديني الهوى   حين أصبو ووحيه

ليس هذا هو صديقي الوحيد الذي أعجب بأفكاري، وراح ينشرها بين الحمقى والمغفلين، بل منهم آخرون كثيرون .. أذكر الآن منهم بطلا من أبطال الإلحاد.. لاشك أنه الآن بينكم.. إنه أحمد حسن علي القبانجي(3).. إنه لا يقل عني ولا عنكم كبرياء

---

(1) طبعا لا نقصد الصداقة الزمانية، للفارق الزمني بينهما، وإنما نقصد به الصداقة التي نص عليها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: 7]

(2) هو فهد بن صالح بن محمد الظفيري، من مواليد 1917م في سكة عنزة في مدينة الكويت، وتوفي في 15 أغسطس 1951م، وهو شاعر كويتي، ويعد من الشعراء الرواد في الكويت، نشأ في عائلة متدينة، وكان والده إمام مسجد الفهد ومدرس للقرآن، ودرس في المدرسة المباركية في عام 1922 وخرج منها في عام 1930 ثم درس في المدرسة الأحمدية، قام بتأليف قصيدة مدح لعبد العزيز بن سعود، اتهم في حياته بالكفر بسبب أشعاره الممتلئة بالسخرية والمجون من الدين من أمثال الأبيات التي ذكرناها.

ولا غرورا.. لاشك أنكم سمعتم سخريته من الجنة والنـار .. وقولـه عن الجنة أنها حظيرة الأغنام.. وغير ذلك من الهرطقات التي أراد أن يتقرب بها إلى التنويريين.. فخسر دينه، وخسرهم.

في آخر هذه الاعترافات الـتي أدليت بهـا إليكم، أود أن أذكـر لكم بعض كلمـاتي التافهـة الـتي قلتهـا، وأنـا في تلـك النشـوة الموهومة التي زينها الشيطان لي، كان بـودي أن أنـزه أسـماعكم عنها، ولكن لا مناص لي من ذكرها، ففي هذا الفندق لا يمكن لأحد أن ينكر أي جريمة من جرائمه.

من كلماتي الـتي ربمـا تـدلكم على بعض أسـباب انتكاسـتي، وإلحادي قولي في كتابي [هـذي هي الاغلال] الـذي نشـرته عـام (1946م): (من المعلوم أن أوروبا يوم أن كـانت مؤمنـة بالكنيسـة متدينة كانت في ذلك الهوان والضعف والعجز الذي نعرفه ونقرأه، فلمـا أن فـرت من إيمانهـا وتنـازلت عن ذلـك الأمـل الأخـروي ! وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القويـة هي آلهتهـا الـتي وحدتها، وأبت الإشراك بها، صعدت بالحياة)[1]

وهذا كلام في منتهى الكذب والـتزوير، وهـو دليـل على أنـني كنت ضحية لمجتمعي وبيئتي، ولم أستعمل عقلي يومـا في البحث المستنير عن الحقيقة، لقد كتبت ذلك الكلام بعد زيارة لي للسويد التي أخبرني أصدقائي من الملاحدة أنها المثال النمـوذجي للدولـة الملحدة، وأنها مثال التحضـر الـذي ينشـره الإلحـاد..ولأجلهـا كتبت كتابي [الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات]

لكني.. وبعد كتابة ذلـك الكتـاب.. وبعـد أن تـوهمت أنـني قـد ألقمت الإيمان والتدين حجرا لن يتكلم بعده أبدا.. في ذلــك الحين التقيت رجلا سويديا عليه كـل ملامح الأوروبـيين الـذين كنت أراهم نماذج للتحضر والتنوير والعقلانية.. ولكني فوجئت أنه كـان مؤمنـا، وأنه زار بلدي ليؤدي فريضة الحج.

3() كاتب عراقي ملحد (ولد في النجف في 2 يناير 1958).

1() الأغلال ص319.

سألته حينها ساخرا: كيف تهبط من فردوسك الأعلى إلى هذا الجحيم الذي نعيش فيه؟

قال لي: وكيف لا يهفو قلبي للمكان الذي دعا له إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37].. وأنا أرجو أن يجعل الله قلبي من تلك الأفئدة التي تهفو إلى بيته.

ضحكت ساخرا، وقلت: لو أنك أجريت مقارنة بسيطة بين بلدك، والبلاد التي تهفو إليها .. لعرفت أن الحق لا يمكن أن يكون إلا للعقول التي تسكن بلدك.

قال: في بلدي يوجد المؤمن والملحد.. والطيب والخبيث.. والمنحرف والمستقيم.. هو كسائر بلاد الله.. ولا يمكننا أن نبحث عن الحق في الجغرافية ولا في التاريخ.. وإنما نبحث عنه في عقولنا.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]

ولو أن الحق كان تبعا للبلاد التي تنتشر فيها الحضارة، لكانت الروم وفارس هي بلاد النبوة، لا الصحراء التي ولد فيها رسول الله ﷺ..

ضحكت حينها كثيرا من طريقة تفكيره، وقلت: نحن لا نتحدث عن فارس ولا عن الروم.. بل نتحدث عن السويد؛ أيقونة الإلحاد، وكاتدرائية الحرية في العالم.. ومحراب الديمقراطية(1) .

ابتسم بأدب وقال: إن كان الأمر كذلك فلم لا تنظر إلى بتسوانا وناميبيا وجامبيا وموريشيوس والسنغال .. فهي كلها دول أفريقية تُدار بأنظمة ليبرالية علمانية رأسمالية ديمقراطية منذ عشرات السنين ومع ذلك لا تزال تعيش في قمة التخلف..

لم لا تنظر إلى دولة ليبريا الإفريقية، فهي دولة تعمل بالدستور الأمريكي مباشرًة، وعملتها الدولار، وبها مجلس شيوخ، ومجلس نواب منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، وهي علمانية

(1) استفدت الرد المرتبط باستدلالات الملاحدة العرب بالسويد، وعلاقتها بالإلحاد من مقال حول الموضوع للدكتور هيثم طلعت.

ليبرالية عتيقة، وأهلها ليبراليون جدًا.. يرقصون الشارلستون.. ويأكلون لبان تشكلس.. ويرتدون أحذية نايكي.. ومع ذلك فهي مُصنفة كأفقر دول العالم على الإطلاق.

قلت: لكن السويد وأوروبا تختلف تماما.

قال بأسف: وكيف لا تكون كذلك، وقد ملأت خزائنها من ثروات الشعوب الفقيرة المستضعفة التي استعمرتها؟

قلت: مع ذلك، فإن السويد من أكثر ديموقراطيات العالم نجاحاً .

قال: كلامك صحيح، لكن الذي لا تعرفه، ولا يعرفه الملاحدة العرب أن السويد دولة ملكية دستورية، يحكمها الملك كارل السادس عشر غوستاف، والحكم وراثي في السويد.. وهذا يعني أن القيادة والحُكم مرتبطة بالدم، لا برجاحة العقل أو الاختيار.

قلت: لكن دولة السويد دولة محايدة تماماً، وآخر حرب دخلتها كانت عام 1814 .

قال: نعم هي لم تدخل حربا منذ آخر حملة عسكرية شنتها على النرويج عام 1814، لكنها في واقع الأمر ارتكبت جريمة خطيرة لا تقل عن جرائم الحرب نفسها، فقد سمحت للنظام النازي باستخدام سككها الحديدية لنقل الجنود والعتاد، وأمدت هتلر بالحديد والصلب من مناجمها التي تقع في شمال البلاد، بل إن عِماد الصناعة العسكرية النازية اعتمد بشكل أساسي وجوهري على حديد السويد..

قلت: يكفي أن أنها دولة مستقرة، وهي من أقل دول العالم جريمة.. وهذا دليل على القيم العظيمة التي يحملها الملاحدة.

قال: أخطأت في كلامك من جهتين.. من جهة معدلات الجريمة.. فهي في السويد مرتفعة للغاية مثلها مثل الكثير من البلاد التي يفخر بها الملاحدة.. حتى أن معدلات الاغتصاب في السويد هي الأعلى عالمياً، حيث تأتي في المرتبة الرابعة بعد فرنسا وألمانيا وروسيا، بل إنها تشرفت بأن تكون في عام 2009

دولة الإغتصاب الرسمية في أوربا.. وفي نفس العام ذكرت الإحصائيات أنه تم ارتكاب مليون ونصف جريمة، مع العلم أن عدد السكان في ذلك الوقت كان 9 مليون نسمة، وهذا ما يجعلها من أكثر دول العالم جريمة.

وأما خطؤك الثاني، فهو حكمك على جميع السويديين بالإلحاد.. وهذا خطأ كبير، فطبقاً لإحصائية 2012 فإن 67 بالمائة من الشعب السويدي مسيحيون، إلى جانب 5 بالمائة مسلمون، والباقي يؤمنون بوجود خالق.. ونسبة ترك المسيحية بالفعل في ارتفاع ليس في السويد وحدها، وإنما في الاتحاد الأوربي كله، لأن الصورة التي تقدمها المسيحية للإله تجعل النسبة في ارتفاع باضطراد، وهذا لا علاقة له بالإلحاد الذي يتشوق إليه ملاحدتكم.

هذا بعض حديثي مع ذلك السويدي المسلم الذي أبصر الحقيقة بقلبه، فآمن بها، وسلم لها، ولم تشغله عنه كل الشهوات التي تمتلئ بها بلده.

هذا بعض ما جرى لي مع ذلك الرجل السويدي.. وقد كان رسالة من الله لي، لأستعيد وعيي، لكني لم أفعل.. بل رحت أصر على رأيي مدفوعا بكبريائي وغروري.

أذكر جيدا أنه بعد انصرافه عني، رحت إلى دفاتري أكتب أمثال هذه العبارات، لأنتقم منه، ومن انهيار حججي أمامه: (من الهزل أن الكون أو الإنسان مخلوق بمشيئة إله أو بعدله أو برحمته أو بقدرته أو بذكائه)(1)

وقلت: (فكيف يكون وجود الإله أفضل لنا؟ إن وجوده يعني محاسبتنا، ومراقبتنا، ويعني الثواب والعقاب، ويعني الجنة والنار) (2)

وقلت: (إن الأفضل لنا إلا تكون فوقنا قوة هائلة مطلقة مثل قوة الإله تسلبنا الحرية وتحاسبنا أقصى محاسبة، وتضعنا تحت

(1) الأغلال ص90.

(2) هذا العالم ما ضميره ص 93..

أقوى رقابة وتخيفنا بمشيئتها، ثم تحكم علينا بالخلود في الجنة، أو في الجحيم.. إن وجود الإله يجعلنا محكومًا علينا أن نعيش عـراة ونشعر بأننا عراة) [1]

وقلت: (فهل من الأفضل حقًّا للإنسان أن يكون فوقه إلـه.. كيف يكون الأفضل للبشر أن يكون فوقهم طاغية ..لأحـد لقدراتـه ولغيرته ولغضبه ولحبه لذاته ولبحثه عن المجد الذاتي)[2]

وقلت: (إننا في حالة آلية الكون نكون فيه سادة، نحكمه ونوجهه كما نشاء بقدر ما نستطيع، أما في حالة روحانيته وعبوديته، فإننا نكون فيه عبيدا مقهورين بقوة غيبية مثله لا نستطيع أن ننتصر عليها، ولا أن نتفاهم معها، أو نعرف متى تفعل، أو تكف عن الفعل، متى توقف النهر أو إلى متى تتركه جاريا)[3]

وقلت: (إني أتشاءم بحرارة ومعاناة وإيمان.. تشاؤمي نوع من الاحتجاج ضد الكون، وضد الآلهة وضد نفسي.. إني أتشاءم لأني لا أستطيع أن أكون إلهًا) [4]

وقلت: (إن الدعاء والصلاة اتهام لله بليد ! إنك إذا دعوت الله، فقد طلبت منه أن يكون أو لا يكون.. إنك تطلب منه حينئذ أن يغير سلوكه، ومنطقه وانفعالاته.. إنك إذا صليت لله فقد رشوته لتؤثر في أخلاقه، ليفعل لك طبق هواك، فالمؤمنون العابدون قوم يريدون أن يؤثروا في ذات الله، أو يصوغوا سلوكه، لأن الصلاة والدعاء ليستا إهانة لله فقط؛ إنهما أيضًا إفساد للداعي والمصلي، وإنهما تقوية له على الرشوة وعلى نفي القانون والعدالة، والذي يتعلم رشوة الله، وينكر قوانين الأشياء،

---

[1] هذا العالم ما ضميره ص 94..

[2] هذا العالم ما ضميره ص 94..

[3] هذا العالم ما ضميره ص33.

[4] هذا العالم ما ضميره ص 94..

هـل يمكن أن يكـون في سـلوكه أو تفكـيره فاضـلاً أو ذكيًّا؟.. إن الـذي يصـلي للـه لا يريـد أن يتصـدق على اللـه بصـلاته.. إذن هـو يرشوه، إنه يريد منه أن يغير سلوكه، وإرادتـه وأن يفعـل مـا ليس فاعلاً.. أن يفعل إرادة المصلي ثمنًا لصلاته) [1]

هذا بعض مـا سـطرته يـداي في كتـبي عن اللـه، وأنـا ممتلئ حقدا عليه، وعلى قـومي الـذين كنت أسـتحيي منهم، ومن بلادتهم وتخلفهم، فـرحت بـدل أن أصـب جـام غضـبي عليهم، أصـب جـام غضبي على الله.

أما مقولاتي عن القرآن الكريم، والذي تجلى الله فيه لعبــاده ليعرفوه، ويعرفوا عدله ورحمته وحكمته، ويعرفوا من خلاله أسرار الوجود والكون والحياة والإنسان، فقد رحت ـ بكبريائي، وبــدواعي الانتقام التي أنشأها في قومي ـ أصب عليه كل ألوان حقدي، لقـد قلت فيه: (إن معارضة القرآن ومحاولة التفوق عليه شــيء واجب على المؤمنين أن يوجدوه ليحققوا للقرآن رغبة الضجيج، والاعلان والتوتر، والمخاصمة)[2]

سأكون صادقا معكم ومع نفسي، فإن الذي دعاني إلى قــول هذا هم أولئك الأدعياء من قومي الذين راحـوا يعارضـون الحقـائق العلمية الثابتة بما تفهمه عقـولهم البسـيطة من القـرآن الكـريم.. في نفس الوقت الذي راحوا يتهمون فيه كل مسـلم مـؤمن عـالم بكونـه ضـحية للعلـوم الحديثـة.. وبمـا أني وضـعت خيـارين فقـط لنفسي: إما الإلحاد أو دين قـومي، فقـد اخـترت الإلحـاد على دين قومي.

في تلـك الأيـام سـمعت بطـبيب فرنسـي أسـلم يقـال لـه [موريس بوكاي]، وقد تعجبت من إسـلامه.. بـل عجبت من إيمانـه بالله.. وعندما أتيحت لي الفرصة سألته عن سره، فقال لي، وهــو يشير إلى كتاب في يده يحمل عنوان [القـرآن والتـوراة والإنجيـل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعـارف الحديثة]: هـذا

---

[1] هذا العالم ما ضميره ص 94..

[2] هذا العالم ما ضميره ص 702.

الكتاب يجيبك عن سؤالك.

فقلت: أجبني أنت.. وسأقرأ الكتاب لاحقا.

فقـال: لقـد كنت في يـوم من الأيـام ملحـدا، وأردت أن أثبت إلحادي بنقد المصادر المقدسة للأديان الكبرى، ووجدت أن أحسن طريقة لذلك هي عرضها على منتجـات العلم الحـديث.. وبالفعـل، قمت بدراسة مقارنة للكتب السـماوية الثلاثـة.. واسـتغرقت مـني الدراسة عشرين عاماً.

قلت: فما النتيجة التي خلصت إليها؟

قال: لقـد قمت أولاً بدراسـة القـرآن الكـريم، وذلـك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثاً عن درجـة اتفـاق نص القـرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعـرف قبـل هـذه الدراسـة، وعن طريـق الترجمـات، أن القـرآن يـذكر أنواعـاً كثـيرة من الظـواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجـيزة، وبفضـل الدراسـة الواعيـة للنص العربي استطعت أن أحقق قائمـة أدركت بعـد الانتهـاء منهـا أن القرآن لا يحتـوي على أي مقولـة قابلـة للنقـد من وجهـة نظـر العلم في العصـر الحـديث، وبالموضـوعية نفسـها قمت بـالفحص نفسه على العهد القديم والأناجيل.

أما بالنسبة للعهد القـديم فلم تكن هنـاك حاجـة للـذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكـوين، فقـد وجـدت مقـولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسـوخاً في عصـرنا، وأما بالنسبة للأناجيل فإننا نجد نص (إنجيـل مـتى) ينـاقض بشـكل جلي (إنجيل لوقا)، وأن هذا الأخير يقدم لنا صـراحةً أمـراً لا يتفـق مع المعارف الحديثة)[1]

قلت حينهـا لنفسـي: (لـو كـان كـاتب القـرآن إنسـاناً، كيـف استطاع في القرن السابع الميلادي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق مع المعارف العلمية الحديثة، في الخلق وعلم الفلـك، وعلـوم الأرض والحيوان والنبات، والتناسل الإنساني التي تعكس التـوراة أخطـاء علمية ضخمة بشأنها؟ ليس هناك أي مجـال للشـك، فنص القـرآن

---

[1] القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (ص 13)

الذي نملك اليوم هو فعلاً النصّ الأوّل نفسه، ما التعليل الإنساني الذي يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة؟ في رأيي ليس هناك أي تعليل، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية استطاع ـ يومها ـ أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات) [1]

قلت: لكن قومك من الباحثين المحققين يذكرون أن محمدا نقل كتابه من الكتب السابقة.

قال: دعني من ترهاتهم وأحقادهم.. ولتفترض معي أن محمداً تلقى كتابه عن الآخرين من أهل الكتاب، فمن الذي أعطاه القدرة على تمييز الخرافات الواردة في تلك الكتب عن غيرها.. وكيف لم ينقل من خرافاته ما اتضح بعد ذلك للأجيال.. أليس هذا وحده كاف لإثبات نبوته؟

طبعا، بعد انصرافه عني لم أقرأ الكتاب، بل ذهبت وأحرقته خشية أن أعود للإيمان من جديد.. فقد كنت ضحية للإلحاد الانتقامي.. وهو نوع مرضي لا يجدي معه أي شفاء.

قال ذلك.. ثم غرق في صمت عميق .. مملوء بكل ألوان الألم والندم.

صادق جلال العظم:

ما هي إلا لحظات حتى سمعت قرع أقدام، سمعت بعدها الصوت الأول يقول: سيتقدم الآن علم من أعلام الإلحاد الكبار.. له قصة لا تختلف كثيرا عن القصص التي سبق لكم أن سمعتموها.. إنه صادق جلال العظم [2].. أدعه ليحدثكم، فخير من

---

[1] القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (ص 145)

[2] صادق جلال العظم (1934، 2016) مفكر سوري ملحد، من مواليد دمشق، وأستاذ فخري بجامعة دمشق في الفلسفة الأوروبية الحديثة. كان أستاذاً زائراً في قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون حتى عام 2007.. من مؤلفاته: نقد الفكر الديني (1969)، والاستشراق والاستشراق معكوساً (1981)، وما بعد ذهنية التحريم (1992)، ودفاعا عن المادية والتاريخ، وفي الحب والحب العذري.

عبر عن الإنسان لسانه.

سمعت قرع أقدام .. بعـدها سـمعت صـوتا ممتلئـا ألمـا، راح يقول: لاشك أنكم تعرفونني، وأنني لم يتح لي ما أتيح للقصيمي أو لمسلييه من العيش في جو ديـني.. فـأبي، وهـو من أصـل تـركي، كان من العلمانيين المعجبين بتجربة كمال أتـاتورك في تركيا(1) .. ولهذا نشأت في جو علمـاني متحـرر، لا يعـرف أحكـام الـدين، ولا يهتم لها، ولا ينفذها.. لم يكن أحد حولي يصلي أو يصوم.. بل كانوا يسخرون من الصلاة والصوم.. ويعتبرون التدين رجعية، ويعتـبرون الإلحاد تنويرا.

بعـد أن شـببت عن الطـوق رحت أدرس الفلسـفة، وكـانت رسالتي للأسف عن الفيلسوف (كانط).. ليتهـا كـانت عن الغـزالي أو ابن سينا أو فولتير.. ولم تكن عن كانط.

لقد رحت أحفظ كتابه (نقد العقل الخـالص) عن ظهـر قلب.. وكان هو السند الذي اعتمدت عليه في فكري المعادي للدين ولله (2).. ففلسفة كانط شكلت خطوة مهمة في توجهي نحو الإلحاد..

لقـد وجـدت في نقـده للعقـل الخـالص نقـدا مهمـا لقـدرات العقل، وإبعاده عن الانشغال بالدين، وبما وراء الطبيعة.. ذلـك أنـه انطلق من فيزياء نيوتن الموغلة في الحس، فخلص إلى الحـد من مجال العقل.

لقـد رحت من خلال دراسـتي لكانـط أمـيز بين الظـاهرة، والحقيقـة.. وانتهيت إلى أن العقـل البشـري محصـور في قدرتـه المعرفيـة على عـالم الظـاهر، ولا يمكن أن يبحث في حقـائق الأشياء، ولا يحق له أن يسأل عنها، ولا عن مصدرها.

لم أكن وحـدي في ذلـك التـأثر بكانـط، فقـد اسـتثمر هـذه

(1) المعلومات المذكورة هنا عن حياته من كتاب [حوار بلا ضـفاف]، وهـو حـوار أجـراه معه صقر أبو فخر.

(2) اسـتفدنا المـادة العلميـة المرتبطـة بكانـط وفلسـفته وأثرهـا في الإلحـاد من حـوار بعنوان [مـع الإلحـاد من منظـور فلسـفي] مـع الـدكتور الطيب بـوعزة، حـاوره: مركـز نمـاء للبحوث والدراسات، بتاريخ: 7/19/2012.

الفكرة كل الفلسفات الناقدة للدين.. فهي جميعا تبشر به، وتوظفه على نحو مغاير لمقصوده هو نفسه.

ذلك أنه في القسم الخاص من كتابه [نقد العقل الخالص]، والذي عنونه بـ [الجدل المتعالي] وقف متسائلا عن سبب نزوع العقل البشري إلى تجاوز عالم الحس والتجربة، مذكرا بأفلاطون الذي وقف كثيرا عند نزوع العقل إلى التدين والتفكير فيما وراء العالم الحسي.

وبذلك، فإن كانط اعترف بأن هذه المجاوزة ذات حافز طبيعي يوجد داخل كينونة العقل، وليست مجرد افتعال أو سلوك من الترف الذهني، كما أنه في كتابه [نقد العقل الخالص] كان يرى أن العقل البشري عاجز عن إنتاج حقيقة فيما وراء عالم الحس، منتهيا إلى الاستحالة العقلية لتأسيس معرفي للميتافيزيقا، ولذلك عاد في كتابه [نقد العقل العملي] إلى تأسيس الدين على أساس أخلاقي، لا أساس معرفي.

اعذروني إن كنت قد أقحمتكم معي في هذه الأحاديث.. وأنا لا أريد أن أعتذر لكم من خلال ذكرها لكم عن نفسي، ولا أريد أن أجعلها مبررا لإلحادي، فأنا قد وفر الله لي في الفترة التي عشتها في عالم الدنيا الكثير من الفرص للمراجعة والتوبة، لكني لم أستفد منها.. فقد قام الكثير من الأعلام والمشايخ والمثقفين بتتبع أطروحاتي ومناقشتها والرد عليها، ودعوتي إلى التوبة منها.. لكني كنت أتكبر عليهم جميعا[1].. وأنظر إليهم باحتقار، لأني كنت أعتبر نفسي الوحيد الذي يعقل، والوحيد الذي يحق له أن يتحدث باسم العقل والعلم.

---

[1] من الأعلام الذين قاموا بالرد عليه، وعلى أطروحاته، ومنهم من خصها بتآليف الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه [صراع مع الملاحدة حتى العظم].. ومنهم الشيخ محمد حسن آل ياسين في كتابه [هوامش على كتاب نقد الفكر الديني].. ومنهم الأستاذ جابر حمزة فراج في كتابه [الرد اليقيني على كتاب نقد الفكر الديني].. ومنهم الأستاذ محمد عزت نصر الله في كتابه [تهافت الفكر الاشتراكي].. ومنهم الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه [القرآن والملحدون].. ومنهم الدكتور عبداللطيف الفرفور في كتابه [تهافت الفكر الجدلي].. ومنهم حسن بن محمد الأسمري في رسالته [موقف الاتجاه الفلسفي المعاصر من النص الشرعي]

لقد رحت أكتب في الرد عليهم كتابي [نقد الفكر الـديني](2) الذي اعتبره أصحابي من الملاحـدة دسـتورهم وقـرآنهم وإنجيلهم، يستشهدون بما فيه، وكأنه حقائق مطلقة.

وكنت لا أقصـد بالـدين الرؤيـة البشـرية لـه، أو التطـبيق التاريخي لمعانيه وقيمه.. بل كنت أقصد به الـدين نفسـه.. أو كمـا عبرت عن ذلك بقولي في كتابي بأن الدين: (مجموعة المعتقـدات والتشـريعات والشـعائر والطقـوس والمؤسسـات الـتي تحيـط بالإنسان لا باعتباره ظاهرة روحية نقية وخالصة)(2)

ولهذا فإن نقدي كان لمعتقدات وقيم الدين المقـدس نفسـه، لا الدين الذي فهمه البشر، وطبقوه، وأخطأوا في تطبيقه..

وقد وظفت كل شيء لأصرف الأبصار عن الدين، وأحوله إلى الإلحاد والمادية والتنوير والحضارة التي كنت أتوهمها..ولهـذا فـإن كتابي شمل موضـوعات كثـيرة كلهـا تصـب في بحـر واحـد.. بحـر الإلحاد..

لقد رحت ـ بحقدي الدفين على الدين ـ أعلـق عليـه كـل قيم التخلف والرجعية والهزيمة، حتى انتكاسـة 1967، والـتي حصـلت تحت شعارات مختلفة ليس من بينها شعار الإسـلام.. علقتهـا على الدين.. لقد رحت أقول: (تبين بعد هزيمـة 1967 أن الإيديولوجيـة الدينية هي السلاح النظري والأساسي والصـريح للرجعيـة العربيـة في حربها ومناوراتها على القوى الثورية والتقدميـة في الـوطن .. كما أن بعض الأنظمـة التقدميـة العربيـة وجـدت في الـدين عكـازا تتكئ عليها في تهدئـة الجمـاهير عن طريـق مماشـاة التفسـيرات الدينية والروحانية للانتصار الإسرائيلي والخسارة العربيـة وصـمتها حول انتظار النصر الجديد من عنده تعالى)(3)

---

(2) اسـتفدنا المـادة العلميـة هنـا من مقـال بعنـوان: [كتـاب] نقـد الفكـر الـديني [لـ.ص.ج.العظم]، دعوة الحق، العددان 133 و134..

(2) نقد الفكري الديني، ص17.

(3) نقد الفكر الديني، ص9.

هل رأيتم المدى الذي وصل إليه كـذبي وتزويـري للحقـائق؟ فما علاقة الإسلام بالهزيمة؟.. وهل الهزيمة هي التي تحدد صوابية الحقـائق أو خطأهـا؟ .. وهـل هنـاك مـذهب في الـدنيا تحققت لـه الانتصارات الدائمة؟ .. وهل الانتصارات هي علامة الحقانية؟

ثم إن المعركة مع إسرائيل كـانت باسـم القوميـة العربيـة، لا باسـم الإسـلام.. وجميـع الأنظمـة تـبرأت من الإسـلام خوفـا من الحرب الدينية..

لقد رد بعضهم علي حينها يقول: (يـدعى الـدكتور العظم أنـه يثـور على الـدين لأجـل ثـورة فلسـطين.. ولكن مـا هي علاقـة الموقـف الثـوري بالصـوم والصـلاة؟.. أمن الضـروري أن نخسـر فلسـطين إذا صـمنا وصـلينا، ثم أمن الضـروري أن نسـترجع فلسطين إذا كفرنا وألحدنا؟)(1)

ورد علي حينهـا آخـر بقولـه: (ببـالغ من الـتزييف الـوقح بـدأ الملحـدون من أجـراء صـانعي الهزيمـة العربيـة في عـام 1967م يحمِّلون الدين وزور الهزيمة التي اصطنعوها، وكانوا قبل المعركـة وفي أثنائها قد عزلوا الدين عزلاً كلياً عن جميع سـاحاتها، حـتى لم يبق له صوت ولا سوط يرتفعان، ثم يقولون: إن سبب الهزيمة هو وجود رواسب من الذهنيات الدينية الغيبية الاتكاليـة عنـد الثـوريين الذين قادوا المعركة)(2)

والعجيب أنني وأصحابي من الملاحدة، والذين علقنا الهزيمـة على الإسلام، لم ننبس ببنت شفة بالحديث عن حرب رمضان عام 1973م، والتي أظهرت لي، وللناس جميعـاً مـا للعقيـدة من تـأثير كبير في تحقيق النصر..

لم أكتف بربط الدين بالانتكاسـة الـتي حصـلت عـام 1967.. وإنمـا رحت بكبريـائي أربـط بين الـدين والجهـل.. وأعتـبر العلم مناقضـا للـدين .. بـالرغم من أن الإسـلام يحث على طلب العلم،

---

(1) الإيجابية والسلبية في نقد الفكر الديني، كمال يوسف الحاج ـ مجلة الفكر الإسلامي ـ العدد الرابع ص 111.

(2) حوار مع الملاحدة حتى العظم.

ويؤكد على التوافق والتناسق بين العلم والدين.

لكنـني كنت أرفض ذلـك، وأقـول: (النظـرة الإسـلامية نظـرة غائبـة تعتمـد في تفسـيرها لطبيعـة الكـون على العلـل الغائبـة والأهداف السامية وعلى مفاهيم أخلاقية مثل الحق والعـدل، فهي لا تنسجم مع النظرة العلمية التي تسود العالم المعاصـر وثقافتـه)[1]

لقـد كنت بقـولي هـذا أقابـل النظـرة الإسـلامية بمـا سـميته [النظرة العلمية في تفسير طبيعة الكون]، وأنا أقصد من [النظرة العلمية] ذلك النتـاج العقلي الـوارد إلينـا من المجتمعـات الغربيـة، باعتباره نتاجا غير قابل للمناقشة والمراجعة والمواجهة النقدية..

قلت ذلك لأعزل الوحي الذي هو منحة اللـه لعبـاده لتحصـيل المعرفة الصحيحة بالعالم الغيبي، ذلـك أنـه لا يمكن إدراك حقـائق ذلك العالم من دون اتصال الله بعباده، وإخبـاره عمـا غـاب عنهم، وعما يراد منهم وبهم.

وليس في ذلك أي مناقضة للعقل، ذلك أن برهان العقـل هـو الذي دلنا على أن ما يخبرنا به الرسول عن طريـق الـوحي صـدق وحق..

والمشكلة التي كنت أعاني منهـا كمـا كـان يعـاني منهـا أكـثر التنويريين هو تصورهم أن منهج البحث عن الحقيقة واحـد مـع أنـه يختلف باختلاف الموضوع المراد البحث فيه.. فكل وسيلة صحيحة تعطينـا صـورة صـادقة عن الواقـع والحقيقـة هي وسـيلة يجب الاعتمـاد عليهـا والثقـة بهـا في تحصـيل المعرفـة، والمرجـع الأول والأخير دائماً هو الواقع، وبالواقع تقاس النتائج.

لن أحدثكم عن هذا الآن، فما اجتمعنا هنا لننـاقش مثـل هـذه المسائل، ولهذا سـأدخل في صـلب الموضـوع.. وهـو مـوقفي من الله.. والذي تأسست عليه كـل مواقـف حيـاتي، فلـو كنت أعـرف الله، وأؤمن به، وأقدسه، وأعرفه حقه، لما كنت الآن بينكم.

1() كتاب نقد الفكر الديني ص 37.

لقد اختصرت موقفي الحاقد من الله في قولي: (وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذي مات في أوربا بدأ يحتضر في كل مكان تحت وقع تأثير المعرفة والتقدم الصناعي والمناهج العقلية في تقصي المعرفة والاتجاهات الثورية في النمجتمع والاقتصاد؟)!! (2)

هل رأيتم كيف رحت أنادي بما نادى به (نيتشه) من موت الإله.. وهل رأيتم القياس الفاسد الذي استعملته، والمغالطة الجدلية التي يحتوي عليها.. فأي علاقة للتقدم العلمي، والمناهج العلمية، والتقدم الصناعي، والمناهج العقلية في تقصي المعرفة.. وأي علاقة للاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد بذلك..

لقد كنا نتعمد خلط أمثال هذه العبارات وحشرها في كل مكان، ومع كل مناقشة، للتمويه والتضليل، وكأن التقدم العلمي والصناعي للإلحاد وحده، وليس للإيمان، مع أن الدنيا جميعها وما فيها من ماديات قد كانت وما زالت ولن تزال حتى تقوم الساعة للمؤمنين والكافرين وغيرهم على سواء، ضمن سنن الله الثابتة التي لا تتغير، وهي مجال مفتوح لكل الناس، إذ يمتحن الله بها إرادتهم وسلوكهم في الحياة، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

لم أكتف بذلك، بل رحت أحاول بمغالطة أخرى استعملها كل الملاحدة، وفي كل العصور أن أقضي على أساس الدين، وهو وجود الله، وطرح ذلك التساؤل الأبله [إذا كان الله قد خلقنا وخلق العالم من حولنا فمن خلق الله؟]

لقد قلت معبرا عن ذلك: (عندما تقول لي: إن الله هو علة وجود المادة الأولى التي يتألف منها الكون، وأسألك بدوري: وما علة وجود الله؟ إن أقصى ما تستطيع الإجابة به: لا أعرف إلا أن وجود الله غير معلول، ومن جهة أخرى عندما تسألني: وما علة وجود المادة الأولى فإن أقصى ما أستطيع الإجابة به: لا أعرف إلا أنها غير معلولة الوجود، في نهاية الأمر اعترف كل منها بجهله حيال المصدر الأول للأشياء. ولكنك اعترفت بذلك بعدي بخطوة واحدة، وأدخلت عناصر غيبية لا لزوم لها لحل المشكلة.

---

(2) كتاب نقد الفكر الديني ص 28.

والخلاصة، إذا قلنا: عن المادة الأولى قديمة وغير محدثة أو إن الله قديم وغير محدث، نكون قد اعترفنا بأننا لا نعرف ولن نعرف كيف يكون الجواب على مشكلة المصدر الأول للأشياء، فالأفضل إذن أن نعترف بجهلنا صراحة ومباشرة عوضاً عن الاعتراف به بطرق ملتوية وبكلمات وعبارات رنانة. ليس من العيب أن نعترف بجهلنا، لأن الاعتراف الصريح بأننا لا نعرف ما لا نعرفه من أهم مقومات التفكير العلمي، وتعرفون أن العالم ملزم على تعليق الحكم عندما لا تتوافر لديه الأدلة والشواهد والبراهين الكافية لإثبات أو لنفي قضية ما. هذا هو الحد الأدنى من متطلبات الأمانة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة)[1]

لا تحسبوا أن هذه الأطروحة من إبداعي، فأنا لم أكن سوى بوق ينعق بما يسمعه من أساتذته في الإلحاد.. لقد ردد هذا القول قبلي [هيوم] حين قال: (إذا كان لابد لنا من البحث عن علّة لكل شيء، لوجب إذن أن نبحث عن علّة للإله نفسه)

ورددها (هربرت سبنسر)، فقال: (استمع إلى هذا الناسك المتدين، هاهو ذا يقصّ عليك علّة الكون، وكيف نشأ، فخالق الكون عنده هو الله، ولكنه لم يفسّر بهذا الرأي من المشكلة شيئاً، ولم يزد على صاحبه (أي: المنكر للخالق) سوى أن أرجعها خطوة إلى الوراء)

وكنت ـ تبعا لهم ـ أرددها كل حين، حين كنت أقول للرفقاء الذين لا يزال فيهم بعض البصيص من الإيمان: (ألستم تقولون: إن كل موجود لا بد له من موجد، وإن هذا الكون موجود فلا بد له من موجد، وأن ذلك الموجد هو الله؟)، فيقولون: بلى. عندئذ أقول لهم: (إذن بما أن الله موجود، فلا بد له من موجد)، فلا يجد المساكين بما يجيبونني.

كان في إمكاني أن أعلمهم الجواب الصحيح على السؤال، لكني لم أفعل، لأني لم أكن لأستطيع أن أمرر عليهم أفكاري، وهم يعتقدون بوجود إله.. فأفكاري التي كنت أزعم أنها أفكار تنويرية كانت تستدعي قطيعة تامة بينهم وبين الله.

---

[1] نقد الفكر الديني، ص28.

أنـا لا أعـذرهم بـذلك، فقـد كـان في إمكـانهم أن يـردوا علي قائلين: إن مقدمتك القائلة (كل موجود لا بد له من موجد) مقدمة كاذبة غـير صـحيحة، فـالخبير لا يسـلم بهـا لفسـادها، وإنمـا يقـول بدلها: (كل موجود حادث لم يكن ثم كان لا بد له من محــدث)، ثم يقول: (وهذا الكون موجود حادث لم يكن ثم كـان بشـهادة العقـل وبشـهادة البحـوث العلميـة)، عندئـذٍ تتحصـل النتيجـة على الوجـه التالي: (إذن فلا بد لهذا الكون من محدث)، وهذا المحـدث للكـون لا بد أن يكون موجوداً أزلياً غير حادث، ولا بد أن يكـون منزهـاً عن كـل الصـفات الـتي يلـزم منهـا حدوثه، حـتى لا يحتـاج إلى موجـد يوجده.

لقـد كـانت مغـالطتي ومغالطـة جميـع الملاحـدة قائمـة على التعميم، إذ وضعنا (كل موجود) بدل (كل موجود حـادث)، ومعلـوم أن عبارة (موجود) تشمل الموجود الأزلي والموجود الحادث.

فالخـالق موجـود أزلي ليس لـه من الصـفات مـا يلـزم منهـا حدوثه، ووجوده هو الأصل، فلا يسأل عن علة وجـوده عنـد العقلاء أصـلاً، والسـؤال عن علـة وجـوده أمـر مخـالف للحقيقـة العلميـة المنطقية.

أما الكون، فإنه يحمل دائماً وباستمرار صفات حدوثه، تشــهد بهــذه الحقيقــة النظــرات العقليــة المســتندة إلى المشــاهدات الحسـية، وتشـهد بهـا أيضـاً البحـوث العلميـة المختلفـة في كـل مجـالات المعرفـة، والقـوانين العلميـة الـتي توصَّـل إليهـا العلمـاء الماديون.

وإذا ثبت أن هذا الكون حادث له بداية وله نهاية كان لا بد لــه من علة تسبب له هذا الحدوث، لاستحالة تحول العـدم نفسـه إلى وجود، أما ما لا يحمل في ذاته صفات تدل على حدوثه فوجوده هو الأصل، ولذلك فهو لا يحتاج أصلاً إلى موجـد يوجـده، وكـل تسـاؤل عن سبب وجوده تساؤل باطل منطقياً، لأنــه أزلي واجب الوجــود، وليس حادثاً حتى يُسأل عن سبب وجوده.

لقد طالعت كل ما ذكره العلماء والفلاسـفة والمتكملـون من الـبراهين على حـدوث الكـون، وكـانت مقنعـة جـدا، ولكـني كنت

أعرض عنها مع كون القائلين بها من كبار الفلاسفة، بل من كبار العلماء الذين كنت أدعو إلى اعتماد مناهجهم في البحث العلمي.

فقد قرر الفلاسفة بمقدمات كثيرة أن هذا الكون حادث لخضوعه للتغير الملازم لكل شيء فيه، والتغير نوع من الحدوث للصورة والهيئة والصفات، وهذا الحدوث لا بد له من علة، وتسلسلاً مع العلل للمتغيرات الأولى، سنصل حتماً إلى نقطة بدء نقرر فيها أن هذا الكون له بداية، في صفاته وأعراضه، وفي ذاته ومادته الأولى، وحينما نصل إلى هذه الحقيقة لا بد أن نقرر أن خالقاً أزلياً لا يمكن أن يتصف بصفات تقتضي حدوثه، وهذا الخالق هو الذي خلق هذا الكون وأمده بالصفات التي هو عليها.

وتأييدا لهم اكتشف العلم الحديث القانون الثاني للحرارة الديناميكية، وهو القانون المسمى (قانون الطاقة المتاحة) أو يسمونه (ضابط التغير).. وهذا القانون يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً، إذ هو يفيد تناقص عمل الكون يوماً بعد يوم، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل، وتنتهي العمليات الكيميائية والطبيعية، وبذلك تنتهي الحياة.

لقد ذكر هذا (إدوارد لوثر كيسل)، ثم قال: (وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأولى الخالق الإله)

وقال (السير جيمس): (تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها، إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لا بد لها من بداية، ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون يمكن أن نسميها (خلقاً في وقت ما) حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً)

كل هذه الطروحات التي تضع تفسيرا علميا وفلسفيا لنشأة الكون تتناسب مع الرؤية الدينية كنت أعرض عنها، بل أتقزز منها،

لا لكونها غير مقنعة، وإنما لكونها تصطدم مع مشروعي التنويري الذي توهمته.

ولذلك تبنيت بدلها ذلك التفسير الخرافي الأسطوري الذي كتبه أستاذي في الإلحاد [برتراندرسل] في القصة التي ذكر فيها أن سديما حارا دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى دوراناً ذاتيا، ثمّ نشأت عن هذا الدوران هذه الكائنات المنظمة البديعة، بطريق المصادفة، وأن اصطداماً كبيراً سيحدث في هذا الكون، يعود به كل شيء إلى سديم، كما كان أولاً .

لقد أعجبتني هذه القصة كثيرا، وعلقت عليها حينها قائلا: (هذا المقطع الذي كتبه [رسل] يلخص لنا بكل بساطة النظرة العلمية الطبيعية للقضايا التالية: نشوء الكون وتطوره.. نشوء الحياة وتطورها.. أصل الإنسان ونشأته وتطوره.. نشوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورها.. وأخيراً يشدد على أن النهاية الحتمية لجميع الأشياء هي الفناء والعدم، ولا أمل لكائن بعدها بشيء، إنه من السديم وإلى السديم يعود) (1)

سكت قليلا، وكأنه يتذكر شيئا، ثم قال: من المغالطات التي كنت أستعملها للتنفير من الدين ومن الاعتقاد في الله، وفي نشر الإلحاد أني كنت أخير مستمعي وقرائي بين العلم والإيمان، وكنت أقول لهم: لابد أن تختاروا أحدهما.. فإن شئتم العلم، فينبغي عليكم طرح الإيمان.. فلا يصح أن تجتمع الحقائق العلمية مع الخرافات التي يدعو إليها الإيمان.

لقد قلت في كتابي الذي انتقدت فيه الفكر الديني:(ولنلمس طبيعة هذا الفارق بين النظرة الدينية القديمة وبين النظرة العلمية التي حلت محلها، سنوجه انتباهنا إلى مثال محدد يبين بجلاء كيف يقودنا البحث العلمي إلى قناعات وتعليلات تتنافى مع المعتقدات والتعليلات الدينية السائدة، مما يضطرنا إلى الاختيار بينهما اختياراً حاسماً ونهائياً)(2)

---

(1) نقد الفكر الديني، ص26.

(2) نقد الفكر الديني، ص25.

ولأؤكد لهم هذه المغالطة، ضربت لهم هذا المثال الذي عبرت عنه بقولي: (لا شك أن القارئ يعرف التعليل الإسلامي التقليدي لطبيعة الكون ونشأته ومصيره: خلق الله هذا الكون في فترة معينة من الزمن، بقوله: كن فكان، ولا شك أنه يذكر حادثة طرد آدم وحواء من الجنة، تلك الحادثة التي بدأ بها تاريخ الإنسان على هذا الأرض. ومن صلب المعتقدات الدينية أن الله يرعى مخلوقاته بعنايته وهو يسمع صلواتنا وأحياناً يستجيب لدعائنا، ويتدخل من وقت لآخر في نظام الطبيعة فتكون المعجزات، أما الطبيعة فقد حافظت على سماتها الأساسية منذ أن خلقها الله، أي: إنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقه.. أما النظرة العلمية حول الموضوع ذاته فلا تعترف بالخلق من لا شيء، ولا تقر بأن الطبيعة كانت منذ البداية كما هي عليه الآن)

هل تعلمون الكم الكبير من المغالطات التي يحتوي عليها هذا الكلام.. لقد كنت أعلم بها، ومع ذلك كنت أحاول التستر عليها، لأني كنت أتصور أنه لا يمكن تمرير مشروعي التنويري في وجود الله.

لقد أدخلت في أغلوطاتي تلك فكرة لا يعترف بها الدين أصلاً، ضمن عرضي لطائفة من المفاهيم والعقائد الدينية الصحيحة، لأضلل القارئ حتى يعتقد أن هذه الفكرة الدخيلة هي فعلاً من المفاهيم الدينية، ما دامت قد وردت ضمن مجموعة مفاهيم صحيحة يعرفها هو عن الدين.

لقد زعمت له أن الرؤية الدينية الإسلامية ترى أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها الله.. أي أن الأجرام السماوية، وأنواع الحيوانات والنباتات كانت موجودة بهذه الصورة منذ اليوم الأول لخلقها.. وهذا افتراء صريح على الدين، تكذبه مصادره المقدسة.

فالقرآن الكريم عندما تحدث عن الحيوانات التي خلقها الله لركوب الإنسان، وليتخذها زينة له، ألحقها بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8] بصيغة الفعل المضارع التي تدل على الحال

والاستقبال، للدلالة على أن عمليـات التجديـد في الخلـق الربـاني للأشياء مستمرة غير منقطعة.

وهكـذا بالنسـبة إلى الأجـرام السـماوية، فإنـه لا يوجـد في الكتاب المقدس للمسلمين ما يدل على الفرية التي افتريتها.. بـل فيه ما يناقضها، ففيه مثل هـذه الآيـة: ﴿وَالسَّـمَاءَ بَنَيْنَاهَـا بِأَيْـدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47] .. فكلمة (موسـعون) في الآيـة تشـير إلى أعمال التوسعة المتجددة في السماء، وذلك لأن هـذه الكلمـة من صـيغ اسـم الفاعـل، وهي للتعبـير عن الحـال أولاً ثم عن الاستقبال.

أما الطامة الكبرى، فقـولي: (إن النظريـة العلميـة لا تعـترف بالخلق من لا شيء)، وأنا أشير بذلك إلى [نظريـة لافوازيـه] الـتي تقول: (لا يخلق شيء من العدم المطلق ولا يعدم شيء وإنما هي تحولات من مادة لطاقة، أو من طاقة لمادة، أو من مادة لمادة)

مـع العلم أن هـذه النظريـة محصـورة في مجـال معين ذي أبعاد، وليس في مسـتطاعها أن تتحـدث عن كـل الوجـود في كـل أبعاده من الأزل إلى الأبد.. فهذا أمر لا تستطيع تقريره أي نظريـة استقرائية مهما بلغ شأنها، إلا أن يكون كلامها رجماً بالغيب، وتكهناً لا سند له، وطرحاً تخيلياً محضاً.

فهل رصد [لافوازيـه] جميـع أجـزاء الكـون في كـل الأزمـان، وعـرف منهـا أنـه لم يخلـق في الأزمـان القديمـة جـداً شـيء من العدم؟

وهل رصد جميع أجزاء الكون فيما يأتي من الأزمان، وثبت له أنه لا يمكن أن يخلق شـيء من العـدم، ولا يمكن أن يعـدم شـيء موجـود؟ .. وكيـف يتسـنى لـه رصـد المسـتقبل، وهـو لا يملـك استقدامه؟

وهل رصد هذا الكون في كـل أبعـاده المكانيـة؟ .. ألا يحتمـل وجـود مكـان سـحيق فيـه لم يرصـدوه ولم يعرفـوا مـا فيـه؟ .. أفيحكمون عليه إذن حكماً غيابياً قياسـاً على مـا رصـدوه منـه في الأمكنة التي استطاعت أن تبلغ إلى مداها أجهزتهم وملاحظاتهم؟

أليس هذا الحكم الغيابي مع جهالة الخصائص والصـفات حكم باطل؟

ثم إن هذه النظرية التي اعتمدت عليها لأثبت الإلحـاد ليسـت سوى نتيجة لملاحظـة الكـون المنظـور المـدرك، أمـا عـالم الغيب الـذي لا تصـل إليـه الإدراكـات الإنسـانية المباشـرة أو عن طريـق الأجهزة، فهو عالم خارج بطبيعته عن مجال النظرية، لذلك فإنها لا تسـتطيع أن تحكم عليـه، لأن حكمهمـا عليـه هـو من قبيـل الحكم على الغائب المجهول في ذاته وفي صفاته.

ولذلك، فإن جُـلَّ مـا تسـتطيعه مثـل هـذه النظريـات هي أن تعلق أحكامها تعليقاً كلياً، أو تصدر أحكاماً مشروطة احتماليـة غـير جازمـة، وهـذا مـا تقتضـيه الدراسـة العلميـة المنطقيـة الحياديـة، وتوجبه الأمانة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة.

بالإضـافة إلى هـذا كلـه، فإنـه لا يوجـد نص مقـدس عنـد المسـلمين يتنـافى مـع مـا تطرحـه تلـك النظريـة في مجالهـا المحدود.. فكلمة [الخلق] الواردة في القرآن الكريم لا تعني دائماً الإيجـاد من العـدم المطلـق، بـل كثـيراً مـا تسـتعمل مـراداً منهـا التحويل في الصفات والعناصر التركيبية من حـال إلى حـال، ومن وضع إلى وضع، ومن هيئة إلى هيئة، ومن خصـائص إلى خصـائص، دون زيادة شيء على المادة الأولى من العدم المطلق.

ففي القرآن الكريم نجد هذه الآيـات: ﴿وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الإنسـان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَـاهُ نُطْفَـةً فِي قَـرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَـامَ لَحْمًـا ثُمَّ أَنْشَـأْنَاهُ خَلْقًـا آخَـرَ فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَـنُ الْخَالِقِينَ (14) ﴾ [المؤمنون: 12 ـ 15]، وهي تشـير بصـراحة إلى أن كل صور الخلق هذه هي عبارة عن عمليـات تحويـل من وضـع إلى وضــع، ومن حــال إلى حــال، ومن صــورة إلى صــورة، ومن خصائص إلى خصائص، وقد أطلق على هذه التحويلات أنهـا خلـق، باعتبار أن القدرة الربانية هي المتصرفة في كل هذه التحويلات.

وهكذا نجد في القرآن إطلاق الخلـق على تغيـير هيئـة الطين وجعله على صورة طير، كما ورد في قوله تعالى للمسـيح عيسـى

عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلَقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110] .. وبما أن كل التغييرات الكونية إنما تجري بإرادة الله وقدرته، فهي ظواهر لأعمال الخلق التي يقوم بها الله تعالى.

ولهذا فإن التسليم الكامل بنظرية (لافوازيه) ضمن حدودها، لا تتعارض أبدا مع المفاهيم الدينية التي دلت عليها نصوصه المقدسة.

هذه بعض مغالطاتي التي كنت أدافع بها عن إلحادي، مع أنني كنت أعلم أن العلم والفلسفة وكل شيء يسير في خطى متسارعة للدلالة على الله.. ولهذا كنت أغض طرفي، وأستغشي ثيابي حتى لا أرى ذلك..

لماذا كان ذلك كذلك؟

لاشك أنكم قد عرفتم الآن.. وفي هذا العالم .. أن الله أعز وأكرم من أن يتزلف لعباده حتى يؤمنوا به.. لقد وضع لهم الأدلة عليه، وهي في قمة الوضوح والعقلانية.. وأرسل لهم الرسل، وأيدهم بالمعجزات والبراهين، وبكل أصنافها، ثم تركهم بعد ذلك لاختياراتهم .. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]

وقد شئنا نحن بكبرنا وغرورنا وتعالينا على الله أن نكفر ونلحد.. فلذلك لا يصح أن نلوم إلا أنفسنا، ولا نبكي إلا على القرارات التي اتخذناها ونحن في قمة وعينا.

قال ذلك، ثم انفجر يبكي .. ثم ما لبثت أن تحولت القاعة جميعا إلى صراخ وعويل.

***

بينما أنا في قمة استغراقي في سماع ما قاله هؤلاء الملاحدة التنويريون، نبهني صاحبي المرشد، وقال لي: أظن أن ما سمعته هنا من اعترافات يكفي.. فهلم بنا إلى جناح آخر.. لترى أهله وتعرف أسرار إلحادهم.

سرنا إلى الجناح الثاني في فندق الملاحدة، وقد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: 39]

سألت المرشد عن الآية، وعلاقتها بهذا الجناح، فقال: هذا جناح الوجوديين.. أو ملاحدة الوجوديين.

قلت: فهل هناك وجوديون مؤمنون؟

قال: كما أن هناك تنويريين مؤمنون، فهناك وجوديون مؤمنون.

قلت: أعرف التنويريين المؤمنين.. لكني لا أعرف الوجوديين المؤمنين.

قال: عندما تفهم الآية التي علقت على هذا الباب ستعرف الفرق بينهما.

قلت: فهلا شرحت لي مراد أهل هذا الفندق من تعليقها هنا.

قال: هذه الآية الكريمة تصور بدقة حال هؤلاء الجاحدين من الوجوديين، فهم يلهثون وراء السراب الذي يتوهمونه ماء، فإذا وصلوا إليه لم يجدوه شيئا، وظلوا على عطشهم وفاقتهم وحاجتهم.. حينها فقط يعلمون أنه لا يمكن أن يروي ظمأهم إلا الله.. وحينذاك فقط يتحول المتواضع منهم إلى الله.. أما المتكبر، فيظل على هواه، ويمتلئ بالتشاؤم والحزن والألم لأنه لم يجد إلا السراب.

قلت: ألهذا سمعت أن الكثير من الوجوديين الذين كانوا لا يبالون بالإيمان بالله تحولوا إليه.. وأنا أعرف منهم الفيلسوف الألماني الكبير مارتن هايدغر الذي كان يرى أنه لا يمكن البتّ في وجود الله أو عدم وجوده.. لكنه أنهى مساره الفلسفي بمقولته الشهيرة [إنه لا يُخلّصنا إلا إله]

وأعرف كذلك فيلسوفا عربيا مشهورا هو عبد الرحمن بدوي، كتب عن [الوجودية] و[الزمن الوجودي]، بل وصفه بعضهم أنه [رائد الوجودية فى الوطن العربي]، لكنه وبعد تلك المسيرة الطويلة، ترك ذلك كله، وتوجه إلى الإيمان، وقد قرأت حوارا جرى معه في آخر حياته، قال فيه: (أي عقل ناضج يفكر لا يثبت على حقيقة واحدة.. ولكنه يتساءل ويستفسر ويطرح أسئلته في كل وقت، ويجدد نشاطه باستمرار، ولهذا فأنا في الفترة الحالية أعيش مرحلة القرب من الله تعالى، والتخلي عن كل ما كتبت من قبل، من آراء تتصادم مع العقيدة والشريعة، ومع الادب الملتزم بالحق والخير والجمال)[1]

قال: الأمثلة على ذلك أكثر من أن تعدها أو تحصيها.. فالوجودية ليست قاصرة على الفلاسفة ولا المفكرين، بل هي تعم كل إنسان باحث عن ذاته وحقيقته.. فمنهم من يصل إليها، ومنهم من يقترب منها، ومنهم من يضل عنها، ومنهم من ينحرف بها..

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: لا يمكن للإنسان أن يعرف ذاته، ولا أن يروي ظمأها، أو يسد حاجتها، وهو بعيد عن مصدر وجوده، ذلك الذي خلقه، إن من يفعل ذلك يشبه من قطع التيار الكهربائي عن الآلة التي لا يمكنها إلا أن تشتغل إلا بتلك الطاقة، أو يشبه من يريد أن يرتوي من غير ماء، أو يشبع من غير طعام.

قلت: أجل .. فتحقيق الوجود الإنساني لا يمكن أن يتم بمعزل عن الله.

قال: كما أن كل شيء يمد يديه بالفقر إلى الله.. فكذلك الإنسان.. فسعادته في أن يكون كذلك.. لأن الله خلقه كذلك.. ومن خالف طبيعته شقي، ومن خالف فطرته ضل.

قلت: لقد ذكرني كلامك هذا بكلام كثير قاله الصالحون الذين

---

[1] انظر مقالا بعنوان: في آخر حوار معه الدكتور عبدالرحمن بدوي، نعم.. عدت إلى الإسلام بعد اغتراب ستين عاماً، أجرى الحوار: صلاح حسن رشيد، مجلة الحرس الوطني.

راحوا يبحثون عن السعادة، فلم يجدوها إلا عند الله.. لقد قال بعضهم معبرا عن ذلك: (في القلب شعث: لا يلمه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشة: لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن: لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات: لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوب، وفيه فاقة: لا يسدها إلا محبته ودوام ذكره والاخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا!!)

وقال آخر: (الإيمان له حلاوة وطعم يذاق بالقلوب كما يذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم، فإن الإيمان هو غذاء القلوب وقوتها كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقوتها، وكما أن الجسد لا يجد حلاوة الطعام والشراب إلا عند صحته، فإذا سقم لم يجد حلاوة ما ينفعه من ذلك، بل قد يستحلي ما يضره وما ليس فيه حلاوة لغلبة السقم عليه، فكذلك القلب إنما يجد حلاوة الإيمان إذا سلم من مرض الأهواء المضلة والشهوات المحرمة وجد حلاوة الإيمان حينئذ، ومتى مرض وسقم لم يجد حلاوة الإيمان، بل يستحلي ما فيه هلاكه من الأهواء والمعاصي)

قال: صدقوا في ذلك.. وقد عبر القرآن الكريم عنه أحسن عبارة، فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ إلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، فلا ينزع عن القلوب قلقها وألمها وحزنها وتشاؤمها ويأسها إلا الإيمان بالله والشعور بحضوره الدائم والفاعل.

قلت: ألهذا نرى الوجوديين ممتلئين بالتشاؤم والقلق والحزن؟

قال: أجل.. إنهم مثل ذلك الذي سعى بكل جهده، وطول عمره، إلى النهر ليشرب، فلما وصل إليه لم يجده شيئا.. هكذا حالهم كما صورته الآية الكريمة، فهم يلهثون وراء اللاشيء.. وفي الأخير يكتشفون الحقيقة.. يكتشفون أن كل ما حصل لهم من آلام كان بسبب نسيانهم لله.. ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]

قلت: ولكن لم لم ينتبه هـؤلاء لهـذا، وهم فلاسـفة وأصـحاب عقول وتأمل وتفكير؟

قـال: أسـباب ذلـك كثـيرة، وستسـمعها منهم.. فهلم نـدخل إليهم.

فتح البـاب.. فظهـر بمجـرد فتحـه جنـات ممتلئـة بالجمـال.. وكأنهـا جنـة الفـردوس قـد تـبرجت بمحاسـنها.. لكن، وبعـد فـترة قصيرة، بدأت المياه تغور، والأشجار تتلاشـى، والمحاسـن ترتفـع.. وبدأ يحل بدلها قحط وجدب شـديد.. ومـا هي إلا لحظـات قصـيرة حتى تحولت الجنة إلى صحراء مرعبة.

ثم ظهـر في تلـك الصـحراء جمـع كبـير من النـاس.. سـألت صاحبي عنهم، فقال لي: هؤلاء هم ملاحدة الوجودية.. هم يعيشون الآن في الصحراء التي بنوها بأفكارهم وأعمالهم.

قلت: ولكن الأمر كان مختلفا عند فتحـك للبـاب.. فقـد بـدت لي حينها جنة الفردوس بجميع محاسنها..

قال: ذلك ما أعد لهم في ديار الضيافة الإلهية.. لكنهم راحــوا يحرقون الأشجار، ويدمرون القصور، ويخربون كل مـا رزقهم اللـه من فضله.. ولم يبق لهم إلا هذه الصحراء الموحشة التي بنتها لهم عقولهم المستكبرة.. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: 52]

جان بول سارتر:

بينمـا نحن كـذلك إذ قـام من أولئـك النفـر المنبطحين على رمال الصحراء القاسية رجـل قصـير القامـة، قـد بلـغ بـه العطش مبلغـا عظيمـا، فهـو يلهث، ولا يكـاد يسـتطيع الحـديث من شـدة العطش.. نظر إلى الأفق البعيـد، ثم راح يخـاطب أصـحابه بقولـه: انظروا .. ربما يكون ذلك السراب ماء.. لا تيأسوا.. هيا نسـير إليـه قبل أن تلتهمنا رمال الصحراء.

قـال ذلـك، ثم سـقط إلى الأرض يبكي، ويقـول: كم خـدعنا

أنفسنا بالسراب.. لقد ظللت حياتي.. أنا [جان بول سارتر[1]] ألهث وراء السراب دون أن أجد شيئا.. لقد كان الكثير ينادونني بملء أصواتهم أن ألتحق بهم، وأستمع لمواعظهم، وأبتعد عن تلك الكبرياء التي تريد أن تفصمني عن الكون جميعا، لأشكل لنفسي عالما خاصا بي.. له تصوراته الخاصة، وقيمه الخاصة التي تفصله عن الوجود وقوانينه وسننه.

لقد كان الله يناديني كل حين، وبكل اللغات، وبجميع الأساليب المنطقية التي عرفتها البشرية جميعا.. لكني كنت أنفر منه، وأشكل منطقي الخاص، ولغتي الخاصة.

لقد كنت أتصور أن الله يزاحمني وجودي، ويريد أن يستل مني حريتي.. ولذلك كنت أنفر منه.. لكني لم أجد في نفوري منه إلا السراب.

أذكر آخر علاقة لي بالله عندما كنت صغيرا.. لقد سجلت ذلك في بعض كتبي، فقلت: (مرة واحدة شعرت بأن الله موجود حين كنت ألعب بعيدان الكبريت، وأحرقت سجادة صغيرة، وفيما كنت أخفي جرمي أبصرني الله فجأة.. لقد شعرت بنظراته داخل رأسي.. أحسُ أنني مرئي منه بشكل فظيع، وشعرت بأنني هدف حي للرماية، ولكن الإستنكار أنقذني، فقد اغتظت لفضوله المبتذل، لهذا رفضته وجدفت عليه فلم ينظر إليَّ أبدًا فيما بعد) [2]

منذ ذلك الحين، وأنا أمارس مهنة قتل الإحساس بوجود الله في نفسي.. لقد مارست نفس ما مارسه نيتشه عندما قال: (في سن الثانية عشر رأيت الله في تمام جلاله).. ثم راح يقتله.

---

[1] جان بول سارتر (1905 -1980) فيلسوف وروائي وكاتب مسرحي كاتب سيناريو وناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي.. من مؤلفاته: الوجود والعدم (1943) والكتاب المختصر الوجودية مذهب إنسانى (1945) أو نقد العقل الجدلي (1960) وأيضا النصوص الأدبية في مجموعة القصص القصيرة مثل الحائط أو رواياته مثل الغثيان (1938) والثلاثية طرق الحرية (1945). كتب سارتر أيضا في المسرح مثل الذباب (1943) والغرفة المغلقة (1944) والعاهرة الفاضلة (1946) والشيطان والله الصالح (1951) ومساجين ألتونا (1959)، وغيرها.

[2] نقلا عن: القس أنجيلوس جرجس، وجود الله وصور الإلحاد 85.

لقد كنت في ذلك الحين أردد مع [فويرباخ] قوله: (إن نقطة التحول الكبرى في التاريخ ستكون في اللحظة التي سيعنى فيها الإنسان إن الإله الوحيد هو الإنسان نفسه)، وقوله: (الإنسان الذي يؤمن بالله لا يؤمن بنفسه، فالله هو الإنسانية لا أكثر ولا أقل، والدين يجب أن يموت، فيقوم على أنقاضه عالم على مقاييس الإنسان، الذي يلزمه أن يكون إله نفسه)[1]

وأردد مع [إيتان بورن] قوله: (يجب ألا يكون الله، حتى يكون الإنسان)

ومع [باكونين] قوله: (إذا كان الله موجودًا فلست بحر، أنا حر فالله إذا غير موجود)

وقد عقبت عليهم جميعا بقولي في بعض كتبي: (إذا انفجرت الحربة مرة أخرى في روح الإنسان، لم يبق للآلهة على هذا الإنسان أي سلطة)، وقولي: (إذا كان الله موجودًا فالإنسان عدم)، وقولي: (إن وجود الله يعطل وجودي أنا، فالأفضل أن لا يكون الله موجودًا حتى أوجد أنا).. وقلت كلاما كثيرا غير هذا لا أذكره الآن..

وقد كان نتيجة ذلك كله .. أني مارست كل صنوف الرياضة لأقتل الإحساس بوجود الله في نفسي.. وقد كان نتيجة ذلك القتل أن راح كل شيء يتلاشى بين عيني، ويتحول إلى سراب.. فأي قيمة لأي فرد أو جماعة أو شعب ما دام الله نفسه ليس له أي قيمة، بل ليس له أي وجود.

أذكر جيدا أنه أني كنت أقول دائما: (لم أكن أحب شيئًا ولا أحدًا).. وكنت أقول في تأريخي لحياتي: (لقد فهم القارئ إنني أكره طفولتي وكل ما يتعلق بها)..

أذكر جيدا أنه عندما توفي أبي هنأت نفسي بموته، وشعرت أنني تحررت منه.. لقد قلت في ذلك في بعض كتبي: (لو كان أبي حيًا لكان تمدَّد عليَّ بملء قامته وسحقني، ولحسن حظي مات أبي عندما كنت صغيرًا.. إن موت جان باتسيت (والده) كان

---

[1] انظر: رحلة في قلب الإلحاد.

الحدث الأهم في حياتي، لقد أعاد إليَّ حريتي)[1]

لذلك كنت أنظر بعين الريبة حتى للذين يبدون لي مودتهم ومحبتهم، وقد كنت أقول: (إننا منذ الآونة التي نشعر فيها بأن إنسانًا آخر ينظر إلينا، إنما نشعر أيضًا بأن الآخر يسلبنا عالمنا على نحو من الأنحاء، هذا العالم الذي كنا نمتلكه وحدنا حتى هذه اللحظة).. وكنت أقول: (إنني ابتداءً من الآونة التي أشعر فيها أن أحدًا ينظر إليّ، أشعر أنني سلبت عن طريق نظر الآخر الموجه إليّ وإلى العالم، إنّ العلاقة بيننا وبين الآخرين هي التي تخلق شقاءنا) [2]، بل كنت أعبر عن ذلك بعبارة فجة غليظة، فأقول: (إن الآخرين هم الجحيم)

أظن أنكم فهمتم سر إلحادي.. إنه البحث عن الحرية.. لأنني اكتشفت أنها الوسيلة الوحيدة التي أستطيع أن أشكل بها ذاتي وماهيتي وحقيقتي..

والحرية التي كنت ألهث وراءها لا تختلف عن هذا السراب الذي نراه كل حين، ثم نلهث خلفه، ثم نكتشف أنه لا شيء.. مجرد سراب.

لقد جعلتني تصوراتي للحرية أتصور الوجود وجودا سخيفا بلا غاية.. وجودا في عالم لا معقول.. والإنسان فيه لا يعرف من أين أتى، ولا إلى أين هو ذاهب، فهو بمثابة لقيط في مكان موحش، هو الطبيعة، لا يجد حوله أبًا ولا أمًا، وليس له ما يعتمد عليه إلا نفسه، وكل ما يعرفه عن وجوده هو أنه محكوم ومُسيَّر..

ولذلك كنت أرى أنه لا فرق بين الإنسان الذي يحكمه الجبر وتسوقه الطبيعة، وبين الحيوان إلا في شيء واحد هو الإرادة العاقلة.. والإرادة العاقلة لا تتحقق إلا إذا اكتملت لحرية، فبمقدار ما يكون الإنسان حرا يمكن تسميته إنسانًا، فواجب الإنسان الأول هو البحث عن الحرية.. الحرية من كل نوع.. الحرية في

---

[1] الإلحاد.. نشأته وتطوُّره ج 1 ص 169.

[2] [15] نفس المرجع السابق.

السياسة.. الحرية في المجتمع.. الحرية في الأخلاق[1].

لقد كنت أقول(إن الإنسان ليس جمادا، ومثال ذلك أن الطاولة هي طاولة فقط ولا شيء غير ذلك، بينما الإنسان بعكس الطاولة يصبح جمادا باختياره هو. فالطاولة، أو هذا التمثال، يبلغون الوجود الحقيقي، في نظري، حين يوجودن لأجلي، فوجودهم إذن متوقف علي، رهين بوعيي، وهم مدينون لي بالوجود في عالم أراه عالمي الحقيقي)

وكنت أقول: (الإنسان يوجد دائما خارج ذاته، بأن يصمم ويحقق خارج نفسه إمكانيات وغايات، وليس ثم عالم غير العالم الإنساني، عالم الذاتية الإنسانية، ويعلو الإنسان على نفسه بخروجه عن ذاته لتحقيق إمكانيات خارج نطاقها)

وكنت أقول: (إن الإنسان، على عكس الطاولة، لا يملك سمة مميزة أو جوهرا ثابتا محددا أو مخصصا له. ومبدئيا فإن الناس يوجدون كمخلوقات عليهم أن يختاروا طبائعهم وسماتهم بأنفسهم)

لقد كانت الصورة الشريرة التي أحملها عن الله هي سبب كل تلك التصورات الخاطئة المنجرة عنها.. فقد كنت أرى الله جبارا طاغية متكبرا، لا يختلف عن أولئك الطواغيت الذين أذاقوا البشرية الويلات التي رأيت بعضها وعانيت منها في الحرب العالمية الثانية.

لذلك رحت أقتل هذا الإله كما قتله نيتشة.. لقد صرحت بذلك.. صرحت بإلحادي في مسرحية [الغثيان]، ومسرحية [الشيطان والإله الطيب]، والتي قلت فيها: (لم يكن هناك غيري، لقد قررت وحدي الشر، ووحدي اخترعت الخير، أنا الذي عشت، أنا الذي أفعل المعجزات، أنا الذين أتهم نفسي، وأنا وحدي من أستطيع الغفران لنفسي، أنا الإنسان، إذا كان الله موجودًا فإن

---

[1] دراسات في علم اللاهوت، القمص بولس عطية بسليوس، ص 265، 266.

الإنسان هو العدم)[1]

وصـرحت بـذلك في أوقـات كثـيرة .. كنت أقـول دائمـا: (إن وجود الله يعطل وجـودي أنـا، فالأفضـل أن لا يكـون اللـه موجـودًا حتى أُوجد أنا).. وكنت أقول عن الذين يعتقدون بوجود اللـه: (إنهم المؤمنون الجبناء القذرون)

وكنت أصرح تبعا لذلك بجحود جميع العقائد الدينيـة، فلا حيـاة أخروية، ولا ثواب ولا عقاب.. ولا يوجد عـالم غـير عـالم الإنسـان.. فهو المحور، وهو المركز، وهو الدائرة، وهو كل شيء.

لقـد كـان لهـذا أثـره السـلبي على تصـوراتي لجميـع القيم الأخلاقية والاجتماعية.. وماذا تنتظـرون من شـخص لا يـؤمن بإلـه، ولا بثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار؟

لقد جعلت كل همتي بعد ذلك الإلحاد الذي جهرت به ودعوت إليه الدعوة لإجابة كل ما تمليه الشهوات على الإنسان.. ونبـذ كـل التقاليد والتعاليم الاجتماعية.. وما تواطأ عليه البشر من أخلاق..

لقـد كنت أصـرخ كـل حين: (اركب رأسـك أيهـا الإنسـان إلى حيث تشــاء ســاعة تشــاء، وكمــا تشــاء.. لأن الضــمير والأخلاق والتقاليد ليست سوى ستار صفيق يحجب عنك حقيقة وجودك)

وكنت أقول: (انطلق: أيها الأحمق الغبي في عمل ما تريـد أو تشتهي وتهوى، مهمـا كـان ذلـك في اعتبـار النـاس شـرًا، دون أن يكون لأحد عليك سلطان، فأنت الذي تصـنع فكـرة الخـير بحسـب مزاجك، وأنت الذي تصـنع فكـرة الشـر، وأنت الـذي تخلـق فكـرة الحـق وفكـرة الباطـل، وأنت الـذي تخلـق فكـرة الحسـن وفكـرة القبيح)[2]

وكنت أقول: (ماضيك أيها الإنسان قد تحجر ومـات.. فعليـك دفنه لئلا يقيـدك).. أذكـر أنـني قلت هـذه الكلمـات لراهبـة لمحت

[1] الشيطان والإله الطيب ص 131.

[2] كواشف زيوف، عبدالرحمن الميداني، ص 359-377)

شابًا في حصن الدير فكَلفت به.. فنصحتها بتطليق الماضي كله، والفرار مع الشاب .. فإذا عنَّ لها أن تتركه بعد قليل لترتمي في أحضان آخر أجمل منه، فلا بأس عليها، فالماضي ميت دائما.. بل هو يموت بمجرد حصوله.

وكنت أقول: (التجربة الوجودية هي التي تعلن لك حقيقة الوجود.. والأشياء تكون بحسب ما يريك هواك، فلا حقائق ثابتة ولا قيم مستقرة.. ولا قواعد ولا أنظمة ولا أخلاق.. وإذا كنت مؤمنًا صالحًا فهذا وجودك الزائف، لأن في وسعك أن تكون مملكة وجودية خاصة بك، لا يزاحمك فيها الله)(1)

لقد حاولت أن أطبق هذه المعاني التي دعوت إليها في حياتي مع صديقتي أو زوجتي الوجودية [سيمون دي بوفوار(2)]، لقد ذكرت لها في بداية علاقتنا أن الإخلاص لشخص واحد كثمن لاستمرار العلاقة الزوجية كذبة تاريخية(3).

وهكذا كنت أنظر للحياة الزوجية من خلال قاعات الخلاعة، ودور الفجور والحانات، والسهرات الباريسية، وأعتبر ذلك تحقيقا لوجودي.. فلم أجد إلا السراب.. فقد كنت أشعر بالوحدة القاتلة حتى قلت: (أصحبت راشدًا وحيدًا، لا أب ولا أم ولا مقر لي، وأكاد

1() الصراع في الوجود ص 323 ـ 329، بتصرف كثير.

2() سيمون دي بوفوار (1908ـ 1986) كاتبة ومفكرة فرنسية، وفيلسوفة وجودية، وناشطة سياسية، ونسوية إضافة إلى أنها منظرة اجتماعية.. كتبت العديد من الروايات والمقالات والسير الذاتية ودراسات حول الفلسفة والسياسة وأيضاً عن القضايا الاجتماعية. اشتهرت برواياتها [المدعوة] و[المثقفون] كما اشتهرت بكتابها [الجنس الآخر] والذي كان بمثابة نص تأسيسي للنسوية المعاصرة.

3() انظر كتاب [رأس إلى رأس] الذي تتحدث فيه مؤلفته [هيزال راولي] عن حياة سارتر وزوجته دوبوفوار، وقد ذكرت فيه أنها قبلت هذا على مضض، فكان مسموحًا لكل منهما أن يقع في حب أي إنسان، ورأيا أن هذه الفكرة وجودية، وتحمل المساواة بين الرجل والمرأة، وبذلك كان لسارتر عشيقاته، وأيضًا دوبوفوار كانت تفعل هذا ولكن بصورة أقل من زوجها، وكم تألمت على فراق عشيقها [نيسلون] الروائي الأمريكي.

أكون بلا اسم)(1)..

لقد صارت الحياة بالنسبة لي كابوسا مرعبا يولد فيه (كل إنسان بلا مبرر، ويستمر في ضعف، ويموت بلا هدف)

سكت قليلا، ثم قال: صدق [بوخينسكي] أستاذ الفلسفة بجامعة (فريبورج) بسويسرا حين قال تعليقا على تلك الآراء الممتلئة بالشذوذ: (ليس في وسعنا هنا سوى الاقتصار على ذكر النتائج الأخلاقية التي تربت على هذه الفلسفة، والتي تمثلت في نكران كل القيم، وكل القوانين الموضوعية، وفي ادعاء استحالة وعدم جدوى الحياة الإنسانية، بل إن الوجودية قد أرغت حتى ظاهرة الموت نفسها من معناها على يدي سارتر.. ومن نتائج الوجودية أيضًا، دعوتها إلى التشكيك في جدوى قيام كل ما يتسمم بروح الجد وطابعه، فهي فلسفة انحلالية عدمية تمامًا)(2)

لكني مع ذلك، ومع كثرة الانتقادات التي ووجهت بها أفكاري الموغلة في التطرف.. لم أكن أجد حلاوة إلا في التعبير عنها.. وكأن الشيطان هو الذي كان يمليها علي، لأدمر بها كل القيم الإنسانية الرفيعة.

لقد كتبت سنة 1943م كتابي الضخم [الوجود والعدم]، والذي دعوت فيه إلى الفلسفة الوجودية، مختصرا الوجود في كونه ليس سوى (صراع عبثي بين الحريات، فكل حرية تحاول أن تفني الأخرى، حتى تحتفظ باستقلالها السيادي)(3)

وكتبت في السنة نفسها [مسرحية الذباب]، وتم عرضها على مسرح [لاسيتي] في باريس سنة 1943م في الوقت الذي كانت فيه فرنسا محتلة من ألمانيا..

وبما أن لهذه المسرحية شهرتها الكبرى، وعلاقتها بتصوراتي

1() وجود الله وصوَّر الإلحاد، القس أنجيلوس جرجس، ص 85.

2() في كتابه (تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا) ترجمة (محمد عبدالكريم الوافي).

3() ملحدوث محدثون ومعاصرون، د. رمسيس عوض، ص 71.

عن الله، وسبب إلحادي، فاسمحوا لي أن أذكر لكم مشهدا من مشاهدها.. لقد استوحيت فكرتها ـ مثل الكثير من أصدقائي الملاحدة ـ من أساطير هوميروس اليونانية القديمة.. وهي تهدف للثورة ضد الله، حتى يستطيع الإنسان أن يعيش حرًا، يفعل كل ما يريد بضمير مستريح.

ذلك المشهد الذي لا تزال صورته بين عيني هو خطاب [أوريست] للإله قائلة له: أنت يا جوبتر ملك الآلهة.. ملك النجوم والحجر .. ملك أمواج البحر.. ولكنك لستَ ملك البشر.. فيرد جوبتر، وهو رمز في المسرحية لله: ألست ملكك أيها الدودة الوقحة؟ من خلقك إذًا؟ .. فترد عليه أوريست: أنت. لكن ما كان عليك أن تخلقني حرًا.. فيقول جوبتر: منحتك الحرية لتخدمني.. فترد أوريست: لربما، إلا أنها انقلبت عليك، ولا نستطيع بعد شيئًا، لا أنت ولا أنا.. منذ أن خلقتني لم أعد ملكًا لك.. إنك حتى هذه الساعة كنتُ حجابًا على عيني وسدادًا من الشمع في أذني، خلقتني لأنفذ خططك.. وفجأة انقضت عليَّ الحرية وأتعبتني، وشعرت بنفسي وحيدًا كل الوحدة. ولم يبقَ شيء في السماء من خير أو شر، وما من أحد يلقي إليَّ أوامره.

لعل هذا المشهد يختصر تصوراتي عن الله، والتي جعلتني لا أرى حلا لنفيه عن حياتي، وتحققي بالحرية التامة إلا جحودي له.

نعم .. كان عقلي يرفض وجود الكون أو الإنسان أو الحياة من غير إله عليم قادر، له عناية مطلقة بعباده.. لكني كنت أخشى من هذا الإيمان أن يتسلط على حريتي.. فقد كنت أتصور الله مثل والدي تماما.. ذلك الوالد المتجبر الطاغية الذي فرحت بموته.

ولو أني خففت من غلواء حقدي على والدي، وعلى مجتمعي.. ورحت أتحرر من تلك البيئة القاسية التي تعلمت منها هذه المعاني لرأيت رحمة الله متجلية في كل شيء.. ولرأيت يده الحانية، وهي تربت على كتفي، وتمنحني من الحرية ما لم أكن أحلم به.

سكت قليلا، ثم قال: لا أزال أذكر ذلك اليوم الذي منحني الله فيه الفرصة للتعرف على الحقيقة، ومراجعة أفكاري.. لكني

أشحت عنها بكبريائي وغطرستي وتأليهي لنفسي.

أذكر ذلك اليوم الذي التقيت فيه رجل دين .. لا أعرف بالضبط على أي دين كان.. ولكنه كان مؤمنا بالله، ومتحمسا للدعوة إليه.. لقد قال لي بعد أن عرضت عليه أفكاري عن تحرير الوجود الإنساني من الوجود الإلهي: وهل وجود الله يزاحم وجودك.. إن الصورة التي تحملها عن الله خاطئة.. فالله أغنى من أن يزاحمك وجودك..

إنك تتصور الله كذلك المتكبر الجبار الذي (يسعى دائما لإخضاع الإنسان وإذلاله والحد من حريته عن طريق وصايا ثقيلة.. وتتصور الإنسان الذي يؤمن بوجود الله بمثابة عبد ذليل لسيد قاسٍ، يحاسبه على أقل خطأ يرتكبه، وقد أعد له العذاب الأبدي.. وتتصور الله بصورة الإله الذي يفرح ويُسر بعذاب الإنسان.. وكل هذا تصور مقلوب لا حقيقة له)[1]

فالله (نبع يفيض على كل أحد، وشمس تشرق على كل أحد، وخير يعم الكل، وحب يشمل الجميع.. شاء بإرادته أن يخلق الإنسان حرًّا مريدًا، ولم يندم قط على أنه وهبه حرية الإرادة حتى لو استخدم الإنسان هذه الحرية ضد الله ذاته، ورفضه وجدَّف عليه، بل إنه لا يقبل الإنسان إلا إذا جاء إليه بكامل إرادته.. فالله لا يقبل إلا البشر الأحرار، والله لم ولن يكون عدوًا للإنسان قط، فالإنسان موضع حب الله وتكريمه.. وقد أعد لنا ملكوتًا يتسع للجميع)

ثم ذكر لي ما قاله القديس أغسطينوس: (إن الذي خلقك بدون إرادتك لن يخلصك بدون إرادتك)

والتقيت بآخر، قال لي: (أنت تحمل مفاهيم ممتلئة بالغالطات عن الله.. فالله لم يخلق الإنسان ليسخره، ولا ليسلب حريته، ولا حتى ليعبده، لأن الله كامل في ذاته متكامل في صفاته، فهو لم يكن محتاجًا إلى عبوديتنا، بل نحن المحتاجون إلى ربوبيته)

---

[1] انظر: رحلة في قلب الإلحاد.

ثم راح يضيف: (إن الله خلق الإنسان لكي يتمتع بنعمة الوجود في حضرته، فالإنسان هو نتاج محبة الله، ولهذا عندما أراد أن يخلقه رتب له الكون كله، ودبر له كل احتياجاته، ثم خلقه على أفضل صورة ممكنة)

والتقيت بعدها بعض المؤمنين الممتلئين بالأنوار التي لم أملك التهرب منها.. بل إنه هو الذي قصدني، وقال لي: ألست أنت الذي تنادي بالحرية؟

قلت: بلى..

قال: فاعلم أنك لن تنالها إلا بالإيمان بالله.. (فالمؤمن حرّ في ذاته.. فالذي هو عبد لله رب العالمين لا ينبغي له أن يتذلل للناس.. فكلما رسخ الإيمان قويت الحرية.. أما الحرية المطلقة التي تنادي بها، فليست سوى وحشية مطلقة بل بهيمية مطلقة.. فأنت ترى قسماً كبيرا من السفهاء والمهملين يريدون أن يظلوا أذلاء أسارى النفس الأمارة بالسوء فلا يروق لهم إلا العيش البهيمي الذي يطلقون عليه تمويها وزورا لقب [الحرية])[1]

وقال لي: (الحرية الخارجة عن القوانين الإلهية المنظمة لحياتنا والمنظمة لحياة كل شيء.. ليست سوى استبداد أو أسر بيد النفس الأمارة بالسوء، أو بهيمية أو وحشية)

لكني لم أستمع له .. ولكل أصوات الحكمة التي كنت تناديني.. وظللت حياتي جميعا أعيش حياة الحرية.. عفوا حياة البهيمية.

قال ذلك.. ثم راح يبحث مع زملائه في السراب عن الماء.

جوزيبّي رينسي:

ما إن انتهى سارتر من حديثه، حتى قام رجل شاحب، قد بلغ به الهرم والعياء مبلغا شديدا، وكان فوق ذلك كله يلهث من العطش..

1() سيرة ذاتية، النورسي، ص: 99.

قـام، وقـال بصـوت متقطـع ممتلئ ألمـا: اسـمعوني أيهـا النـاس .. أنـا الـذي كنت أنـادي معاشـر المؤمـنين في كـل محـل ساخرا منهم، ومستهزئا بهم، قائلا لهم: (ما دام الله الذي تعرفونه وتعبدونه وتخضعون له وتبذلون حريتكم من أجله لم يرنـا نفسـه.. فإنه غير موجود.. فلا موجود إلا ما تستشعره حواسنا)

اسمعوني، فأنا صاحب الكتاب الذي تصور أنه بمـداد مختلـط بالجنون والرذيلـة يمكنـه أن يمحـو اللـه من الوجـود.. أنـا صـاحب كتاب [دفاعا عن الإلحـاد] بين أيـديكم الآن.. يمكنكم أن تقاضـوني وتجلدوني وتعذبوني كمـا شـئتم.. فقـد كنت أكـذب عليكم.. وكنت أزخرف القول لأتلاعب بأكبر حقائق الوجود.. ليخلو الجو لي بعدها معكم، فنعيش عالم البهيمة والشياطين.

أنا كاهن الإلحاد الأكـبر [جـوزيبّي رينسي[1]] تعـالوا لتنظـروا إلي، لـتروا حقيقـتي كمـا هي بعيـدة عن أنـواع الطلاء الـتي كـانت تسترني، والتي كانت جميع الشياطين تزينها لكم.

أو دعكم من محــاكمتي، فأنــا ســأحاكم نفســي، وســأقدم اعترافاتي.. فالحقيقة أعظم من أن يحجبها أحد..

أنـا الـذي ألفت كتـابي في الـدفاع عن الإلحـاد.. سـأكتب بين أيديكم الآن وعلى أسماعكم كتابي في الدفاع عن الإيمـان.. فكمـا سمعتم الأول، فهلموا لتسمعوا الثاني.

لقـد قلت في كتـابي الأول [دفاعـا عن الإلحـاد]: (إنّ قضـيّة الإلحاد هي واحدة مـع العقـل، مـع المنطـق، مـع الحس الإنسـاني السّليم، حيث إن الرغبة في دحض الإلحاد هي ببساطة تمـردٌ على القوانين الأساسية للتفكير المنطقي.. وإنكـار الإلحـاد هـو الوقـوع في الهلوسـة، في الجنـون، في العقليـة الضّـبابية للبـدائيين، غـير القادرة على التمييز بين الكينونة والعدم)

وأنـا الآن أقـول في كتـابي الجديـد الـذي لم يسـجله التـاريخ

[1] جوزيبّي رينسي (1871-1941) فيلسوف إيطالي، من كتبه في الـدفاع عن الإلحـاد [دفاعا عن الإلحاد]، نشره عام 1926، وقد نال اهتمام الملاحـدة العـرب، ونحن نناقش هنـا أهم أطروحاته التي أوردهـا د. محمـد المـزوغي في مقـال لـه بعنـوان [الإلحـاد المحض] في مجلة ذوات: 13 مارس 2017.

[دفاعا عن الإيمان]: كل ذلك كذب.. فلا علاقة للإلحاد بالعلم، ولا بالمنطق.. ولا بالذهنية المتقدمة والمتحضرة.. ولا بالفكر الرصين.. والعقل السليم.. بل هو نوع من الهلوسة التي تبعدنا عن الواقع وعن الحقيقة، وتجعلنا نعيش عالما افتراضيا وهميا أسسته لنا نفوسنا الأمارة بالسوء.. ليحلو لها الجو بعد ذلك أن تفعل ما تشاء، وكما تشاء..

إن حال العقل الملحد لا يختلف عن حال رئيس العصابة الذي يستعمل كل وسائل الخداع ليقنع أفراد عصابته أنه لا وجود للشرطة، ولا للمحاكم، ولا للسجون، ولا لأي نوع من أنواع الرقابة.. وأنه بإمكانهم أن يرتكبوا جرائمهم، وهم في راحة تامة.. وكل ذلك مجرد خداع ومكر لا علاقة له بالحقيقة.. فالكلمات وحدها لا تلغي الموجود، ولا توجد المعدوم.. والمنطق المزخرف بأنواع الطلاء الكاذب لا يمكنه أن يغير الحقائق.

لذلك فإن ادعاء ارتباط الإلحاد بالعقل والمنطق، وارتباط الإيمان بالهلوسة والاغتراب الذهني كذب على الحقيقة.. ولو كان الأمر كذلك لكان كبار فلاسفة العالم، بل الذين أسسوا المنطق نفسه بجميع أنواعه مهلوسين ومغتربين..

ولو كان الإلحاد مرتبطا بالتقدم والتحضر، لكانت الأنظمة الإلحادية من أعدل الأنظمة وأكثرها رفاها، وذلك لم يتحقق في التاريخ، فالدول التي قامت على أسس إلحادية كانت أكثر الدول إجراما وتسلطا وظلما.. والمجتمعات التي قامت على الإلحاد مجتمعات للرذيلة والانحراف والشذوذ، وهي أبعد المجتمعات عن كل القيم الإنسانية.

لذلك لا تصدقوا ما قلت لكم.. فقد كنت أكذب عليكم، لأعطي نفوسكم تلك الحرية الوهمية، التي تجعلها تتحرك بعيدا عن كل القيم.

سكت قليلا، ثم نظر إلى كفه، وراح يقول: وقلت لكم أيضا في كتابي الأول، وأنا أدافع عن الإلحاد: (من الأكيد أن البراهين المنطقية على عدم وجود الله تهزّ بقوّة كيان المؤمنين، وتصدم ناكري الإلحاد من المفكرين المهادنين مع الدين أو المتعاطفين مع

المؤمنين، خصوصا إذا بيّنت لهم أنه لا يمكن التمسّك بالعقل، ثم التضحية به لأجل الإيمان. فالمَرء لكي يؤمن يجب عليه أن يَخنق عقله، أن يلويه ويحوّل وجهته عمدا، أن يتحيّز باطلا لإثبات ما يريد بالفعل أن يصدق، يُجبره على مداهنة نفسه قصد إرساء وتدعيم ما يرغب في الإيمان به)

وهذا كله كذب وزور.. فالمؤمنون الصادقون لا تهتز عقيدتهم في الله بسبب تلك الزخارف التي يزينها الملاحدة.. وهم إذا حزنوا لا يحزنون إلا على ذلك العقل المجنون الذي راح يكذب على نفسه، ليجعلها ممتلئة بالوهم الكاذب..

والكذب والخداع لن يحول الحقائق أبدا.. والتفكير الرغبوي لا يمكنه أن يغير الأمور، بل هو ـ فقط ـ يخدع صاحبه، ويحتال عليه.

لهذا فإن تلك المقالات الخطابية التي كنا نرددها عن خنق المؤمن لعقله، وإصابته بالهلوسة والاغتراب ليس سوى نوع من أنواع الخداع التي كنا نتلاعب بها لنخفي الحقائق.

وهي لذلك لا تصلح إلا مع أولئك المذبذبين المترددين المقلدين الذين ورثوا الإيمان ولم يعيشوه.. أما المؤمنون الراسخون الصادقون فإن عقولهم أرسخ من أن يؤثر فيها تلك الزخارف.

سكت قليلا، ثم نظر إلى أصحابه، وقال: لقد كانت الخدعة الكبرى التي مارستها لأدافع عن الإلحاد هي ذلك المفهوم الممتلئ بالمغالطات حول معنى الوجود.. لقد وضعت هذا السؤال [ما هو الوجود؟] في صلب كتابي، ثم رحت أجيب عنه بقولي: (إن الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال تحلّ مسألة [وجود الله] وتمنح قضية الإلحاد الانتصار النهائي والتام.. الوجود يعني كل ما يمكن رؤيته، ولمسه، وإدراكه.. والإمكان هنا لا يعني أنه لا يوجد فعلا في هذه اللحظة إلا ما يمكن أن يُلقَى عليه بالبصر وتُوضَع عليه اليد ويُدرك بالعقل، ولكن بمعنى أنه حتى في حال لم يحدث هذا أبدا، فإن الشيء الموجود يجب أن يملك طبيعة تجعله قابلا لأن يكون مرئيا

وملموسا ومُدركا.. [وجود] إذن، لا يعني شيئا آخر سوى هذا)[1]

لقد رددت بكلامي هذا كل ما قاله الأغبياء والمغفلون من أصحابي الملاحدة.. لقد رددت قول (ديلوس مكنون): (التخفي وعدم الوجود يتشابهان إلى حدٍّ كبير).. ورددت قول (جورج كارلن): (الأديان في الواقع أقنعت المؤمنين أن هناك رَجُلاً متخفيّاً يسكن الفضاء).. ورددت قول (وتني براون): (أنا لست ملحدة .. أنا ببساطة لا أؤمن بشيء لا وجود له؟).. ورددت قول (كارل ساغان): (لا تستطيع أن تقنع المؤمن بأي شيء فإيمانه لا يستند على أدلة وإنما على حاجة ماسة للإيمان)

لقد رددنا جميعا مثل هذه الكلمات، ونحن نطلب من الله أن يظهر نفسه بالأسلوب الذي نريده، لا الذي يريده.. لعلنا كنا نطلب منه أن يظهر كل فترة في السماء كجسم من الأجسام، ويقول أنا هنا .. أنا موجود؟.. وحينها سنتهمه بالنرجسية، أو بأنه يحاول إرهابنا لكي نضطر للاعتراف به وبتبعيته.. أو لعلنا كنا نطلب منه أن يتكلم بصوت مرتفع ليُسمع في كل الأرض.. وحينها سنتهمه بأنه يُقلِق راحتنا.. .. أو لعلنا كنا نطلب منه أن يتجسد في صورة إنسان.. أي أن يكون إنساناً مثلنا حتى نتأكد أنه موجود..

ربما كان الكثير منا يفعل ذلك .. فبعضهم يقول: سأؤمن بوجود الله إذا شفى أبي. وآخر سأؤمن به إذا جعلني غنياً.. وآخر إذا جعل حياتنا أكثر عدلاً.. وآخر سأؤمن به إذا رأيته بعيني ولمسته بيدي.. وآخر سأؤمن به إذا أعطاني إجابات منطقية لكل تساؤلاتي .. [2]

سكت قليلا، ثم قال: هذا كله كذب وزور، فالوجود الحسي ليس سوى لون من ألوان الوجود.. وهناك أشياء كثيرة ترتبط بنا، ونستعملها، ومع ذلك لا ندركها إلا من خلال آثارها.. من غير أن تستطيع حواسنا البسيطة المحدودة أن تدركها.

---

[1] دفاعا عن الإلحاد، ص20.

[2] انظر مقالا بعنوان: هل الله موجود؟ موقع المعرفة.

سأضرب لكم مثالا على ذلك .. وهو عالم الرؤى العجيب.. والذي جعله الله فرصة لنا لنعرف من خلاله أنواعا أخرى للوجود غير عالم الحس الذي نعيشه.. فلو أن البشر لم يتسن لهم أن يحلموا، ثم أخبرهم شخص أنه ـ وعند نومه، وفي حال توقف جميع مداركه الحسية ــ يسمع ويرى ويتحرك ويشم، ويمارس كل طاقاته، بل يعطى من الطاقات ما لم يعط مثله في اليقظة لسارعوا بالتكذيب.. فهم لم يدركوا ما أدرك.

وهكذا يقال للمدافعين عن الإلحاد.. ومنهم أنا.. فمن أين لنا بانحصار الوجود في العالم الذي تدركه حواسنا؟

وهل حواسنا هي التي تتعرف على الأشياء، أم أنها هي التي تنشئها؟

سكت قليلا، ثم قال: لو أننا ــ معشر الملاحدة ــ رجعنا إلى أنفسنا، وطبقنا هذا الضابط الإلحادي على دعاوانا لاستحيينا أن نجزم على الأقل بالإلحاد.. فهل اطلعنا على كل الكون بكل جزئياته وتفاصيله حتى نحكم بعد ذلك على خلو الكون من إله؟

وهل كانت المجرات البعيدة التي اكتشفها أهل هذا العصر عدما، ولم توجد إلا بعد أن اكتشفتها الوسائل الحديثة؟

هذا هو العقل الملحد وغباؤه وغفلته عن الأمور البديهية البسيطة.. لأنه لا ينطلق من العقل الموضوعي المحايد الذي يريد أن يصل إلى الحقيقة مهما كان، وإنما هو عقل مزاجي رغبوي يريد أن يقتنع بما يتناسب مع مزاجه ورغبته، لا مع الواقع.

سكت قليلا، ثم نظر إلى كفه، وراح يقول: وقلت لكم أيضا في كتابي الأول، وأنا أدافع عن الإلحاد: (الوجود هو مادة وحركة، والطبيعة هي قوة محايثة، مكتفية بذاتها، أو طبقا لتعريف أرسطو: هي سبب ومبدأ للحركة التي تحدث في الزمن، من ذاتها، والزمن هو عدد الحركة بحسب السابق واللاحق.. وأشكال الفكر تتطابق مع أشكال الوجود، فقط كل ما هو قابل للإدراك، للحس، كل ما هو مكاني، زماني، ممتدّ، مادّي قابل بصورة مشروعة للتعقل، ويمكن أن تنطبق عليه دون أن تقع في الفراغ)

قال ذلك .. ثم راح يضحك بصوت عال، وهو يقول: لقد قلت هذا الكلام في حالة هلوسة واغتراب ذهني كبير.. فأنا في ذلك الحين.. لم أكن أعرف حقيقة المادة، ولا حقيقة الحركة.. واستدعائي لأرسطو من الزمن البعيد ليشاركني دجلي وكذبي نوع من الكذب على نفسي وعلى جمهوري وعلى أرسطو نفسه.. فالمادة والحركة المرتبطة بها لا تزال محل بحث من علوم عديدة.. وكل ما وصل إليه أهل عصري حولها لا يساوي شيئا أمام ما وصل إليه أهل العصور التالية.. وكل ما وصلوا إليه لا يساوي قطرة من حقيقتها التي لا يعلمها إلا الله .. وهي فوق ذلك كله صورة من صور الوجود.. وصور الوجود لا يقدر العقل أن يحصرها.. فالممكنات لا حدود لها.

إن مثلي في ذلك مثل رجل لم ير في حياته إلا الحيوانات الأليفة.. فإذا ما جاءه شخص وقال له: ما دام يوجد في الطبيعة هذه الأنواع من الحيوانات، فلا مانع عقلا من أن يوجد غيرها، وبأشكال مختلفة.. فراح يكذبه، ويقول له: لا وجود إلا لما أراه، ويستحيل أن يوجد غيره.. فأيهما صاحب العقل المنطقي، وأيهما صاحب العقل المخادع؟

دعكم من هذا المثال، فأنا أعلم أن هناك من العقول المخادعة من سيجادل فيه.. سأضرب لكم مثالا بسيطا آخر.. هو عن ذلك الذي نسميه فراغا، وقد نسميه عدما، وقد نضرب به الأمثلة على عدم وجود الأشياء.. لقد كنت أفعل هذا مع طلبتي، فأشير لهم إلى الفراغ، وأقول لهم: كما أن هذا الفراغ معدوم، وليس شيئا، فالله كذلك معدوم وليس شيئا.. والعلة الجامعة بينهما هي عدم إدراكنا لهذا الفراغ.

وقد كنت أستند في هذا إلى ما قاله [ديمقريطس] في القرن الخامس قبل الميلاد، فقد عرف الفراغ أنه [ما ليس موجوداً]

لكن العلم أثبت بعد ذلك[1] أنه لا يصح لعاقل أن يقول بأن

[1] انظر مقالا بعنوان: الفراغ الكوني...القوة التي تحمي العالم، مجلة الثورة، بتاريخ: 13-8-2013.

هذا الفراغ الذي نراه عدم.. بل ذكروا أنه لا وجود للفراغ أصلا، بعدما اكتشفوا أن كل جزء من أجزاء الكون مهما كان صغيراً مشغول دائماً بالطاقة، مثل طاقة الضوء أو الأشعة الكونية أو الأشعة الراديوية وغير ذلك .. واكتشفوا أن الكون غني بالبناء، ففي كل ميليمتر مكعب هناك نوع من المادة والطاقة، ولا وجود للفضاء أبداً.

واكتشفوا أن طاقة الفراغ ـ الذي كنا نتوهمه عدما ـ شيء عظيم فوق ما يتصوره البشر، وهي تملأ الكون، وتتحكم بحركة المجرات، ولولا وجود هذه الطاقة لانهار الكون، ولم يستمر أبداً.

ليس هذا فقط ما أرد به على نفسي وعقلي المخادع.. فهناك ردود كثيرة، وكلها تتسم بالعقلانية والمنطقية والعلمية.. ولكن الوقت لا يسعفني لذكرها الآن .. ولعلكم ستمعونها من غيري.

سكت قليلا، ثم راح يقول: في تلك الأيام التي كنت أدافع فيها عن الإلحاد كنت أنظر إلى حواسي الخمس بكل ألوان الزهو والتعظيم، وأتصور أنها وحدها يمكنها أن تختصر لي الوجود.. كنت أقول ـ وأنا أنظر إليها بكل كبريائي وغروري ـ وأنا أخاطب المؤمنين: (إن من يعتمد طريقتكم في التفكير يقبع خارج العقل تماما، وهو فريسة للجنون.. من يتبنّى ويتعاطى هذا النمط من التفكير المُهيّئ لإثبات وجود الله، هو مجنون بالمعنى الأكثر صرامة للكلمة، تماما مثل من هو مقتنع بأن 2×2=5)[1]

وكنت أقول: (كيف لا يخرج عن طور العقل مَن يدّعي أنه يمكن أن يكون هناك موجود ذو طبيعة مختلفة عن تلك التي تُدرَك حسيّا، والتي هي خاصة بما هو موجود بالنسبة إلينا؟)

وكنت أقول: (التصريح بنسبوية الحكم بخصوص الوجود، هو مطابق للتصريح بواحدة من هذه الأقوال: ما الجسم؟ كل ما هو ممتدّ في المكان.. لكن، حذاري، هكذا هو الجسم بالنسبة إلينا؛ إلا أنه من الممكن ربما، بالنسبة إلى كائنات أخرى، لأمكنة أخرى، أو

---

[1] دفاعا عن الالحاد: ص29.

في ذاتها، أن توجد أجسام دون امتداد.. ما الشيء الصّلب؟ هو الجسم الذي يقاوم الاختراق. ومن قال إنه لا يمكن أن يوجد جسم صلب آخر، ذو طبيعة أخرى، يمكن اختراقه دون ملاقاة أية مقاومة.. ما الزمن؟ إنه عدد الحركة بحسب السابق واللاحق. لكن ما يمنع من أن يكون سَهم الزمن الذي ينتقل من الماضي إلى المستقبل، مرورا بالحاضر، هو كذلك فقط بالنسبة إلينا نحن؛ وأنه في أمكنة أخرى، الزمن يسير من المستقبل إلى الماضي، والشخص يبدأ بالموت وينتهي في رحم أمه، والتاريخ كله يسير في اتجاه تراجعي، والمستقبل، رغم أنه يتم الانطلاق منه، يبقى مستقبلا، والماضي، رغم أنه إليه يُوصل، يبقى ماضيا. النتيجة (كل هذا هو بَيّن الجنون)(1)

كنت أقول هذا ردا على زميلي في الوجودية [هايدغر]، والذي أراد أن يحقق ذاته من غير أن يحكم بالإعدام على خالقه، لأن عقله لم يستطع أن يهضم كونا من دون مكون.

لقد قال لي [هايدغر] حين عرضت عليه ذلك الإشكال الذي تصورت أنه يقضي تماما على كل البراهين الدالة على الله.. قال لي بشفقة: (إن جسم الإنسان هو أساسا شيء آخر أكثر من مجرد كائن عضوي حيواني)

وقال لي: (أن يكون بإمكان الفيزيولوجيا والكيمياء دراسة الإنسان كهيئة عضوية من وجهة نظر العلوم الطبيعية، فذلك ليس بدليل على أن ماهية الإنسان تكمُن في [الخاصية العضوية] أي في الجسم المفسر علميا. فشبيه بهذا ادّعاء حصر ماهية الطبيعة في الطاقة الذرية؛ إذ من الممكن جدا أن تكون الطبيعة قد أخفت بالضبط ماهيتها في ذلك الجانب الذي تقدمه للهيمنة التقنية من طرف الإنسان.. فكما أن ماهية الإنسان لا تقوم في أن يكون عضوية حيوانية، كذلك القصور الذي يطبع هذا التحديد الماهوي للإنسان، لا يقصى ولا يختزل، حين نخص الإنسان بنفس خالدة وبملكة عقلية، أو بالخاصية التي تجعل منه شخصا)

وقال لي آخر، وهو يخاطبني مع مجموعة من الملحدين:

---

(1) دفاعا عن الإلحاد: 30.

(حسنا؛ ستكون أطروحتكم صحيحة لو أضَفتم: إلينا نحن.. إذا قلتم إنه بالنسبة إلينـا نحن، يعـني بالنسـبة إلى طبيعـة ذهننـا المرتبطـة بـالحواسّ، فـإنّ وجـود شـيءٍ مـا، لا يتمظهـر إلا بواسـطة الإدراك الحسي، ولا ينطبق إلا على هذا العينيّ المُشـار إليـه فقـط، الـذي يتمظهر بتلك الصيغة، نستطيع أن نطبّـق مفهـومَكم للوجـود، ومـا عدا ذلك فإن أطروحتكم غير جائزة. فعلا، من الذي سمح لكم بأن تُنصّبوا ما هـو نسـبي إلينـا على أنـه قـانون كـونيّ، أن تجعلـوا من طبيعة ذهننا المعيار المطلق للكون، من مفهومنا للوجود المفهـوم الوحيـد الصـحيح؟ مَن الـذي أذِنَ لكم باسـتبعاد أن يكـون هنـاك موجـود ذو طبيعـة مختلفـة عن ذاك الوجـود الـذي هـو موجـود أو يظهر موجود بالنسبة إلينا؟)(1)

وقال لي آخر، وهو [ألبير كامو]، وهو يعاتبني بقسوة، ويشـير إلى حواسي بسخرية(2): (إنـك تسـتطيع إدراك وحسـاب الأحـداث من خلال العلم، ولكنك لا تستطيع إدراك الكون.. فهـذه الشـجرة، يمكنك أن تشعر بقسوتها، وهذا الماء يمكنك تذوقه.. وذلك الهـواء يشعرك بالبرودة، ولابد أن تدرك كل هذا .. لكن جميع المعلومـات الموجودة لدينا حول حقيقة العالم الذي نعيش فيه تنتقل إلينا عـبر الحواس الخمس.. والعالم الـذي نعرفـه يتـألف ممـا تـراه عيوننـا، وتشعر به أيدينا، ونشمه بأنوفنا، ونتذوقه بألسنتنا، ونسمعه بآذاننا. إننـا لا نفكـر أبـداً في أن العـالم الخـارجي يمكن أن يكـون شـيئاً مختلفاً عما تقدمه لنا حواسنا باعتبـار أننـا نعتمـد فقـط على هـذه الحواس منذ ولادتنا)

وقال لي آخر، وقد كـان عالمـا كبـيرا في الفيزيولوجيـا، وهـو يحدثني بلغة علمية حية، وكأنه يسخر من لغتي الفلسفية العقيمة، التي لا تعدو أن تكون مجرد خواطر مهلوس: (إن ما ندركه كعـالم خارجي هو فقط نتيجة تحفيز العقل بواسطة الإشارات الكهربائيـة

(1) مارتن هايـدغر، رسـالة في النزعـة الإنسـانية، ترجمـة، مينـة جلال، مجلـة مـدارات فلسفية، العدد السادس، صيف 2001.

(2) انظر هذه النصوص وغيرها في مقال علمي بعنوان: [الإدراك لدى الإنسان، وحقيقة الروح]

التي ترسلها إليه الأعضاء الحسية، وذلـك حسـب النتـائج العلميـة. فالتدرج المتعدد للألوان الذي تدركه بواسطة حس النظر، وشـعور القساوة أو الليونـة الـذي ينتقـل إليـك بواسـطة اللمس، والتـذوق الذي تمارسه بلسانك، وإشارات الصوت المختلفة والأصوات الـتي تسمعها بأذنك، وأنواع الروائح التي تشمها، وعملـك، وبيتـك، وكـل ما تملكه.. كل ذلك يتـألف بصـورة خالصـة وبسـيطة من إشـارات كهربائيـة ترسـلها أعضـاء الحس لـديك إلى الـدماغ. ورغم أن هـذا يبدو صعباً عند أول تحليل لكنه حقيقة علمية)

وقال لي آخر، وقد كان صديقا حميما لـ [برتراند راسل]، وهو يمسك بيده حبة ليمـون: (مثلاً، هـل حبـة الليمـون موجـودة أم لا، وكيف وجدت.. فهذا أمر لا يمكن السؤال أو التحـري عنـه.. فحبـة الليمون تتألف فقـط من طعم نشـعر بـه بلسـاننا، ورائحـة نشـمها بأنفنا ولون وشكل نحس به بالعين، هذه المظاهر هي الــتي يمكن فحصها وتقييمها.. فالعلم لا يستطيع أبداً معرفة العالم المادي)

وقال لي آخر، وكان صديقا لـ [فريدريك فيستر]: (إن عبارات بعض العلماء التي تقول بأن الإنسان هو صورة، وكل مـا يقـوم بـه هو مؤقت ومضلل، والكون عبارة عن ظل قد أثبتها العلم اليوم)

وقادني آخر ـ وكـان طـبيب عيـون ــ إلى مخـبر أبحاثـه، وهـو يسألني قائلا: هل تعرف كيف نرى؟

سخرت من سؤاله، وقلت: وهـل هنـاك شـك في ذلـك.. إننـا نرى بعيوننا.

فقال لي: عندما ننظر بالتفسير التقـني لعمليـة الرؤيـة، فـإن الأمـر لا يبـدو كـذلك.. إن عمليـة الرؤيـة تتحقـق بالتـدريج. تنتقـل الحـزم الضـوئية من الموضـع إلى العين، وتمـر من خلال العدسـة الموجودة في العين الأماميـة حيث تنكسـر وتسـقط مقلوبـة على الشــبكية في الجــزء الخلفي من العين.. وهنــا يتحــول الضــوء المرتطم إلى إشارات كهربائية تنتقل بواسطة النترونات إلى بقعة صغيرة تدعى مركز الرؤية في الجزء الخلفي من الدماغ.. وعملية الرؤية تتم فعلياً في هـذه البقعـة الصـغيرة في الجـزء الخلفي من الدماغ الشديد السواد و المعزول كلياً عن الضوء.. وبما أن الدماغ

معـزول عن الضـوء، فمن المسـتحيل أن يصـل الضـوء إلى مركـز الرؤية.. وهذا يعني أننا نرى عالماً واسـعاً من الضـوء والعمـق في نقطة صغيرة معزولة عن الضوء.. وحتى عندما نشعر بضـوء النـار وحرارتها فإن داخل دماغنا شديد السـواد ولا تتغـير درجـة حرارتـه أبداً)

ثم أضـاف يقـول: (إن الطبيعـة المتعـددة الألـوان، والمنـاظر الطبيعية المتوهجة، وجميع درجات اللـون، اللـون الأخضـر وألـوان الفاكهة، وأشكال الأزهار، وإشـراقة الشـمس، وجميـع النـاس في شارع مزدحم والسيارات تتحرك سريعاً مع حركة المـرور، ومئـات الثياب في مجمع تجاري وكل الأشياء الأخرى هي عبارة عن صــور تشكلت في هذه البقعة المظلمة وحتى تشكل الألـوان في البقعـة المظلمة لم يكتشف بعد)

ثم قدم لي مقالة لـ [ر. ل غريغوري] يقول فيها: (إن موضوع النظر مألوف جداً بالنسبة لنا بحيث نحتاج إلى قفزة خيال صـغيرة حـتى نـدرك أن هنـاك مشـكلات يجب حلهـا. ولكن فكـر في هـذا الأمر. إن لدينا صوراً مقلوبة في عيوننا، ونرى أشياء صلبة منفصلة في الفضاء المحيط. ومن خلال الأشـكال الزائفـة الموجـودة على الشبكية نستطيع إدراك الأشياء الموجـودة في العـالم. وهـذا ليس بأقل من معجزة)

ثم أردف يقول، وهو ينظر لي بسـخرية: هـذه الحالـة تنطبـق على جميع حواسنا. الصوت واللمس والذوق والشم، فكلهـا تـدرك على شكل إشارات كهربائية في الدماغ..

ثم أمسك بـأذني، وراح يقـول: إن الـدماغ معـزول تمامـا عن الصـوت كمـا هـو معـزول عن الضـوء.. ولهـذا ومهمـا كـان مقـدار الضجيج في الخارج، فإن داخل الدماغ ساكن تماماً. ومع ذلك فـإن الدماغ يتلقى أدق الأصوات.. إن هذه العمليـة دقيقـة للغايـة بحيث تستطيع أذن الشخص السليم سماع كل شيء بـدون أيـة أصـوات تشـويش أو تـدخل.. وبواسـطة دماغـك، المعـزول عن الصـوت، وحيث الصمت المطبق، تستطيع الاستماع إلى سـيمفونيات فرقـة الأوركسترا، وسماع جميع الأصوات في مكان مـزدحم، وتلقي كـل الأصوات ضمن مجال تردد واسـع، من صـوت حفيـف الورقـة إلى

أزيز طـائرة الجت. ومـع ذلـك إذا تم قيـاس مسـتوى الصـوت في دماغك بواسطة جهاز حساس في تلك اللحظـة فيمكنـك ملاحظـة صمت مطبق يسود بداخله.

تركتـه بعـد أن ملأني عتابـا وسـخرية، وفي طريقـة التقيت بصديق آخر، لعلكم تعرفونه.. إنـه [جـورج بـركلي][1] حدثتـه عمـا جرى لي مع المخالفين لي من أصدقائي، فقال: (لقـد كنت مثلـك أعتقـد بـأن الألـوان والـروائح وغيرهـا موجـودة فعلاً لأني أدركهـا.. لكـني بعـد ذلـك اكتشـفت أنهـا موجـودة فقـط بالاعتمـاد على أحاسيسنا.. وبذلك اعتبار الأحاسيس وحدها أداة المعرفة واليقين)

ثم قال لي: أستطيع بواسطة النظر الحصـول على الأفكـار ا لمتعلقة بالضوء والألوان بدرجاتها المختلفة واختلافاتهـا. وأسـتطيع بواسطة اللمس إدراك ما هو قاسٍ وطـري وحـار وبـارد ومقـاوم.. وتزودني حاسة الشـم بـالروائح وحاسـة الـذوق بـالطعم، والسـمع بنقل الأصـوات.. وبمـا أن العديـد منهـا تـترافق مـع بعضـها البعض فيمكن جمعها باسم واحد وبالتـالي اعتبارهـا شـيئاً واحـداً.. وهكـذا فمثلاً إن لوناً من الألوان وطعمـاً ورائحـة وشـكلاً وتماسـكاً يلاحـظ أنها تتماشى مع بعضها البعض تعتبر شـيئاً واحـداً لـه اسـم تفاحـة. ومجموعات الأفكار الأخـرى تتـألف من الحجـر، الشـجرة، الكتـاب وما شابه ذلك من الأشياء الحسية.

ولهذا عنـد معالجـة المعلومـات في مراكـز الرؤيـة والصـوت والرائحـة والطعم و اللمس، فـإن دماغنـا لا يواجـه، خلال حياتنـا، أصل المـادة الموجـودة في الخـارج، ولكنـه يواجـه الصـورة الـتي تتشكل داخل دماغنا، وفي هذه المرحلة سـنخدع بسـبب افتراضـنا أن هذه الصور هي أمثلة على المادة الحقيقية الخارجية.

وقـال لي: عنـدما تفكـر في أنـك تسـمع صـوت التلفـاز في الغرفة المجاورة، فإنك تقوم باختبار الصوت داخـل دماغـك فعليـاً ولا تستطيع إثبات أن الغرفة موجـودة إلى جـانب غرفتـك، ولا أنـه صوت آتٍ من جهـاز التلفـاز في تلـك الغرفـة. إن كلاً من الصـوت الـذي تظن أنـه آت من على بعـد أمتـار وحـديث شـخص يجلس

---

[1] انظر كتابه [بحث حول مبادئ المعرفة الإنسانية]

بجوارك، يتم إدراكهما في مركز السمع بالدماغ الذي يبلغ عد سنتمترات مكعبة فقط. وبعيداً عن مركز الإدراك هذا فإنه لا يوجد أي مفهوم مثل يمين، أو يسار أو أمام أو خلف. وهذا يعني أن الصوت لا يأتي إليك من اليمين أو اليسار أو من الهواء لأن الأصوات الآتية ليس لها اتجاه.

وقال لي: إن الإحساس بالبرودة و الحرارة، لا يمكن الحكم على وجوده من دون العقل.. لنفترض أن إحدى يديك ساخنة والأخرى باردة، ووضَعْتَ كليهما مرة واحدة في وعاء من الماء متوسط الحرارة، ألن يكون الماء بارداً بالنسبة ليد وساخناً بالنسبة للأخرى؟ ولو كانت الحرارة والبرودة موجودتين في المادة نفسها فإن كلتا اليدين ستشعران بالشيء نفسه.

تركته .. وسرت في طريقي حزينا على الحقائق التي كنت أتصور أنني بلغت غايتها.. وفي طريقي اشتريت [المجلة العلمية الأمريكية] المعروفة، وفي بيتي رحت أقلب صفحاتها (1)، فوجدت هذا المقال الذي أكد لي حرف قاله أصدقائي.. لقد قرأت فيها: (إن العالم الخارجي الذي ندركه ليس إلا مجموعة من الإشارات الكهربائية التي تصل إلى دماغنا. ويقوم الدماغ، خلال الحياة، بمعالجة وتفسير هذه الإشارات، ونعيش دون التمييز بأننا أخطأنا في افتراض أن هذه الإشارات هي النسخ الأساسية للأشياء الموجودة في العالم الخارجي.. لقد خدعنا لأننا لا نستطيع الوصول إلى الأشياء نفسها بواسطة حواسنا. هذه النقطة مهمة جداً)

قطعت المجلة..ورحت أكمل كتابي في الدفاع عن الإلحاد.. وعن حواسي التي كاد أولئك الفلاسفة والأطباء والفيزيائيين أن يسلبوا مني ثقتي بقدرتها على تمييز الموجود من المعدوم.

بعدها جلس، وراح ينكت بعود على الأرض، وهو يقول: أذكر ذلك اليوم جيدا عندما كنت في بلد من بلاد المسلمين، وقد رأيت حينها رجلا مقعدا مشلولا، لم يكن يتحرك منه إلا لسانه، ومع ذلك كان ممتلئا سرورا، ولم تظهر عليه أي علامة من علامات الاكتئاب

---

(1) المجلة العلمية الأمريكية، بتاريخ 30 كانون الثاني 1999:.

أو الإحباط.

اقتربت منه وسألته عنه، وعن سر ابتسامته وفرحه، وهل يتعاطى بعض الأدوية التي سببت له ذلك السرور الذي لا يتناسب مع حالته..

فقال لي: أجل .. أنا أتعاطى دواء الإيمان.

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: إن هذا الدواء جعلني أعلم علم اليقين أنني أعيش في هذه الحياة الدنيا مرحلة قصيرة فقط.. لا تساوي شيئا أمام الأزل والأبد.. وأعلم أنني بعد هذه المرحلة القصيرة سأعيش الحياة الأبدية الحقيقية التي أتنعم فيها بكل أصناف النعيم.. ولذلك لم أر مبررا لحزني ولا اكتئابي ولا يأسي.. فكل الحياة الدنيا لا تساوي ثانية واحدة من تلك الحياة الأبدية التي تنتظرني وأنتظرها بكل شغف.

لم أجد ما أقول له، لأني خشيت أن أحطم فيه هذا الإيمان، فيتحطم، ولا أستيطع بما لدي من معارف أن أجبره.. لكنه نظر في عيني، وكأنه قرأ سخريتي من حديثه فقال: يمكنك إلا تصدق قولي.. ويمكنك أن تعتبرني مجنونا لكنك لو نظرت إلى الكون ودقته وصنوف الجمال المبثوثة فيه، لعلمت أن صاحبه أعظم من أن يبتليني، ثم لا يحن علي.. وأعظم من أن يمن علي بنعمة الوجود، ثم يسلبني منها.. وأعظم من يريني دار ضيافته، ثم لا يدخلني إليها.

لم أجد ما أرد عليه، فقال، وهو يشير إلى أعضائه المشلولة: أنت تتصور أنني هذه الأعضاء المشلولة المقعدة أمامك.. لست ذلك أنا .. هذه مجرد كسوة لبستها .. أما حقيقتي فهي أعظم من ذلك.. لقد من الله علي بلطائف كثيرة يمكنني أن أعيش في رحاب جمالها من غير أن أحزن على ما أصاب جسدي .. ومشكلة الغارقين في أوحال أجسادهم أنهم ربطوا حياتهم بطينهم، فلم ينعموا بالفضائل والمكرمات التي وهبها الله لأرواحهم.. لذلك تراهم يعيشون وجودا ناقصا محدودا لا قيمة له.

سكت قليلا، ثم قال: لقد كانت هذه بعض الأصوات التي نادتني للإيمان.. لكني بكبريائي وغروري لم ألتفت لها.. ورحت أمارس حياة البهيمية المتحررة عن الله وعن كل القيم.

قال ذلك.. ثم راح يبحث مع زملائه في السراب عن الماء.

ميخائيل باكونين:

ما إن انتهى [جوزيبّي رينسي] من حديثه، حتى قام رجل على تلة من تلال تلك الصحراء القاحلة، وكان في قمة الضعف والشحوب، وقد بلغ به العطش مبلغا عظيما.

قام، وقال بصوت متقطع ممتلئ ألما: اسمعوني أيها الناس.. فأنا المحارب الأعظم لله.. وأنا المتحدي الأعظم لوجوده وخالقيته.. وأنا المتمرد الأعظم على سلطانه.. أنا [ميخائيل باكونين[1]] صاحب ذلك الفكر المتمرد على كل شيء.. أنا الداعية الأكبر إلى الحرية التي تتمرد على كل القيم والحقائق.. أنا الداعية الأكبر للفوضى .. اسمعوني لأحدثكم عن أفكاري التي وضعتني في هذه الصحراء القاحلة التي لا يوجد فيها إلا السراب.

وحق لي ألا أرى إلا السراب، فقد كنت مستكبرا مغرورا معرضا عن كل أولئك الذين دعوني لأشرب عذب مائهم، وأرتوي من بحار حقائقهم.. لكني تركتهم ورحت ألهث وراء السراب الذي دعاني إليه الشيطان الذي أحببته من كل قلبي، ورحت أدعو الكل إلى حبه.. لسبب بسيط، وهو أنه تمرد على سلطة الله، وتحققت له بذلك الحرية..

لعلكم تذكرون ما قلت عنه في كتابي [الله والدولة] .. أما أنا فلا أزال أذكره وأتعذب به، فقد قلت: (هنا نترقي بالشيطان المتمرد الأبدي، أول مُفكر حُر ومُحرر للعوالم.. من يجعل الإنسان يخجل من رضوخه وبهيميته الجاهلة، لقد أعتقه ووسمه بوسم

---

[1]() ميخائيل باكونين [1814ـ 1876] روسي فوضوي، وهو واضع أيديولوجية المذهب الفوضوي، ربط أفكار الحريات الفوضوية بحركة تحرر الطبقة العاملة، وأرسى أسس الاشتراكية المناهضة للتسلط، كما أرسى أسس النقابية الفوضوية نظرياً وممارسة، من أعماله [الله والدولة]، وهو أشهر أعماله الإلحادية، ولذلك اخترناه هنا.

الحرية والإنسانية بحثه على العصيان وأكل فاكهة المعرفة)(2)

وكانت كل دعواتي إلى إزالة الله من قاموس الحياة، حتى تتاح لنا الحرية المطلقة، وحتى لا يتحكم فينا أحد.. لقد صحت في أولئك المتدينين أو الفلاسفة المثاليين: (أنا أعكس عبارة فولتير، فأقول: إن كان الله موجودا فعلاً، فسيكون من الضروري نَفيه).. وكنت أصيح فيهم: (زعيم في الجنة أفضل ذريعة لزعيم على الأرض؛ لذلك إن كان الله قد وجد، سيكون عليه أن يُلغى)

هكذا بكل تبجح وكبرياء كنت أتحدث عن الله.. وكنت أشعر أنني حققت حريتي الكاملة برفضه.. لأن سلطته قد رفعت عني، ولم يبق لي إلا نفسي التي بين جنبي.. والتي تركت لها الحرية في أن تقول ما تشاء، وتفعل ما تشاء، وتحكم بما تشاء.

لقد عبرت عن ذلك، فقلت: (تتألف حرية الإنسان من مُجرد التالي: أن يُطيع قوانين الطبيعة لأنه أدركها بنفسه على هذا النحو، وليس لأنها فُرضت عليه بواسطة سلطة خارجية، بشرية أو إلهية، جماعية أو فردية).. وقلت: (تتضمن فكرة الإله التخلي عن العقل والعدالة، إنها النفي الأكثر حسماً للحرية الإنسانية. وتنتهي بالضرورة إلى إستعباد الجنس البشري في كل من النظرية والتطبيق)

وهكذا دعوت في كتابي [سلطة الدولة والفوضى] الذي نشرته سنة (1873) إلى الفوضى المطلقة.. لأنني لبلاهتي لم أكن أتصور الحرية إلا في الفوضى.. لقد اعتبرت التدين جنونا جماعيا.. واعتبرته الثمرة الفجة لوعي الجماهير المتهورة.. أما الكنيسة، فقد اعتبرتها المكان الذي يلتمس فيه المتهورون السُّلْوان لتجاوز تعاساتهم اليومية.. ولذلك دعوت إلى أن تنسف الدولة أولاً، وأن يستبعد مبدأ السلطة من حياة الناس حتى تسير البشرية إلى مملكة الحرية.

سكت قليلا يسترجع أنفاسه، ثم قال: لست أدري على من ألقي اللوم .. هل على عقلي الكسول الذي لم يبحث في الأديان

---

(2) هذه النصوص من كتابه [الله والدولة]

والفلسفات ليكتشف الحقيقة، ويسير في حياته وفق مقتضاها.. أم على البيئة التي كنت أعيش فيها، والتي جعلتني أبحث عن كل السبل للتمرد عليها.. وبما أن الكنيسة كانت هي السلطة العليا، فقد وجهت جهدي كله لمحاربتها.. ومحاربة كل الأديان معها.. بل محاربة الله نفسه.

لا أكتمكم أنني في بداية حياتي رحت للكتاب المقدس لعلي أجد فيه السلوى.. لكني اصطدمت بما فيه.. فلذلك رحت أنبذه وأنبذ معه كل الأديان والفلسفات والعقول.

لقد ذكرت ذلك في كتابي عن الله والدولة.. فقد قلت فيه: (يُعتبر الإنجيل كتابًا ملفتًا وعظيمًا في كونه أقدم التجليات الباقية عن الحكمة والوهم الإنساني، وهو يعبر عن هذه الحقيقة بسذاجة شديدة من خلال خرافة الخطيئة الأولى)

أجل .. لقد كانت تلك العقائد الكنسية المرتبطة بالخطيئة الأولى، ووراثة الإنسانية لها هي السبب الأول الذي جعلني أتمرد على الله، وأسخر منه، ومن كتبه المقدسة، لقد قلت في ذلك: (كان يهوه، الوحيد من بين بقية الآلهة الذي حظي بتقديس الإنسان له، الأكثر غيرة وغرورًا وضراوة وظلمًا ودمويةً واستبدادية وعدائية تجاه الكرامة والحرية الإنسانية.. وقد خلق يهوه آدم وحواء بدوافع نزوة لا نعلم ماهيتها، وبما لا يقبل الشك قد يكون بدواع قتل الوقت الذي يثقل عليه في عزلته الأنانية الأبدية، أو ربما ليخلق عبيدًا جددًا، وبكل كرم وضع تحت تصرفهم الأرض كلها بكامل خيراتها ووضع حدًا واحدًا أمام التمتع الكامل بهذا الكرم؛ فقد منعهم بكل وضوح من لمس شجرة المعرفة على أمل أن يبقى الإنسان المحروم من أي فهم لنفسه وحشًا أبديًا جاثيًا على قوائمه الأربع أمام الرب الأبدي خالقه وسيده)

وكل ما ذكرته في هذا أوهام جرني إليها حقدي لا عقلي.. فإن كان العقل يقر بكون الله موجودا وخالقا، فإنه من العظمة والعلم والخبرة ما لا يحتاج معه أن يسأل عن سر خلقه.. فالحكيم لا يفعل إلا ما تدعوه إليه حكمته.. والكريم لا يفعل إلا ما يتطلبه منه كرمه.. والطبيب لا يسأل عن سر الدواء المر الذي يعطيه للمريض، ولا عن سر الحمية الثقيلة التي يكلفه بمراعاتها.

كــان في إمكــاني أن أفهم أن ســر النهي عن الأكــل من الشجرة مرتبـط بحكمـة اللـه.. وأن اللـه الـرحيم الطـبيب الخبـير بعباده هـو الـذي نهى عن ذلـك.. لكـني لم أفعـل لعقلي الكسـول أولا.. ولتلـك التحريفـات الـتي وردت في الكتـاب المقـدس ثانيـا.. والتي اعتبرت الشجرة المنهي عنها هي شجرة المعرفة..

ولهذا رحت أمجد الشيطان، لكونه هـو الـذي دعـا إلى الأكـل من الشـجرة، فقلت: (وهنـا يـأتي دور الشـيطان، المتمـرد الأبـدي والمفكر الحر الأول ومحرر العوالم، هو من يجعل الإنسـان يشـعر بالعار من جهله وخضـوعه الوحشـي، هـو من يحـرره ويـدمغ على جبينـه ختم الحريـة والإنسـانية عنـدما يدفعـه إلى عـدم الطاعـة، وتناول ثمار المعرفة)

طبعا أنا لم أكن أؤمن .. لا بالله .. ولا بالشيطان.. ولا بشــيء مما ورد في الأديان.. ولكني كنت أسخر فقط من المتدينين، ومن إيمانهم بالله، والذي اعتبرته طول حياتي وهما لا وجود له.

لكني كنت أذكر أنني إن كنت مخيرا بين تمجيد الله في حـال وجوده، أو تمجيد الشيطان، فإنني أميل إلى تمجيد الشيطان.. لأنه أتاح للإنسان أن يأكل من شجرة المعرفة التي نهاه ربه عنها(1) .

سـكت قليلا، ثم قـال: ليس هـذا فقـط مـا انحـرف بي عن

---

(1) وهذا يذكر بموقـف صـادق جلال العظم ــرغم إلحـاده- من إبليس، فقـد كتب كتابـا سماه (مأساة إبليس)، ومما جـاء فيـه قولـه في (ص85): (يجب أن نـرد لـه اعتبـاره بصـفته ملاكاً يقوم بخدمة ربه بكل تفان وإخلاص!... يجب أن نكف عن كيـل السـباب والشـتائم لـه، وأن نعفو عنه ونطلب له الصفح ونوصي الناس به خيراً)

هذا مع العلم أنه صرح في بداية كلامـه أنـه لا يعـترف بوجـود إبليس لأنـه لا يعتقـد أصـلاً بوجود خالقه ولكن بحثه ـكما يـدعي- (ص57): (يـدور في إطـار معين لا يجـوز الابتعـاد عنـه على الإطلاق؛ ألا وهو إطار التفكير الميثولوجي الديني الناتج عن خيـال الإنسـان الأسـطوري وملكاته الخرافية) فهو يريد دراسـة شخصـية إبليس (باعتبارهـا شخصـية ميثولوجيـة أبـدعتها ملكة الإنسان الخرافية، وطورها وضخمها خياله الخصب) (ص 57)

وقد ذكر الشيخ محمد حسن آل ياسين في كتابه [هوامش على كتاب نقد الفكـر الـديني: ص61] بأن بحث العظم عن إبليس: (لم يكن من بنات أفكاره، ولا من وحي ثقافته العلميـة، وإنمـا اسـتقى خطوطـه الأساسـية من بحث المستشـرق [ترتـون] عن الشـيطان، وبحث المستشرق [فنسنك] عن إبليس المنشورين في الانسكلوبيديا الإسلامية)، انظر البحـثين في دائرة المعارف الإسلامية (14/46-57)

الدين.. وجعلني ألحد بالله.. هناك أشياء أخرى كثيرة في الكتاب المقدسة.. ومن بينها تلك الصفات التي وضعت لله.. والتي تجعله عاجزا عن أن يفعل شيئا.. لقد قلت في ذلك.. وفي أثناء حديثي عن قصة بداية خلق الإنسان كما وردت في الكتاب المقدس: (نحن نعلم ما حدث بعد ذلك، فالله الخيِّر الذي يتمتع بالبصيرة كإحدى قدراته الإلهية، فشل في رؤية ما سيحدث ودخل في حالة غضب عظيمة وسخيفة، ولعن في إثرها الشيطان والإنسان وكل العالم الذي خلقه بنفسه، وأصاب بذلك نفسه تمامًا كما يفعل الأطفال عندما يغضبون.. لم يكتف فحسب بقتل أسلافنا بل لعن سلالتهم ومن سيأتي بعدهم، وهم أبرياء، من جريمة ارتكبها أجدادهم)

ثم رحت أشنع على رجال الدين وتلك العقائد التي يفرضونها على العقول، ويطالبونها بالتسليم لها من غير نقد ولا مراجعة، فقلت: (ينظر رجال اللاهوت الكاثوليك والبروتستانت إلى هذا على أنه عظيم جدًا وعادل، مع أنه وبكل دقة حكم جائر وغير مقبول إلى حد كبير، ولكن يتذكرون آنذاك أن الرب ليس فقط الرب المنتقم والغاضب بل أيضًا رب المحبة. الرب الذي أخذته الشفقة على من تبقى بعد أن عذب مليارات من المخلوقات البشرية المسكينة وحكم عليهم بالجحيم الأبدي، ورغبة منه في إنقاذهم ورأب الخلاف بين محبته الإلهية الأبدية وغضبه الأبدي والإلهي، ولأنه متعطش دومًا للمزيد من الدماء، أرسل إلى العالم ابنه الوحيد، كتكفير، ليقتله البشر. وهذا ما يدعى بسر الفداء؛ أساس كل الطوائف المسيحية. بالرغم من هذا، هل أنقذ المخلص الإلهي العالم البشري؟! لا لم يفعل، ففي الجنة التي وعد بها المسيح كما تقول النصوص الرسمية سيكون المختارون لدخلوها قلة، بينما البقية الغالبية من الأجيال الحالية والقادمة ستحترق في الجحيم إلى الأبد. في الوقت ذاته ومن أجل أن يخفف الرب علينا، ولأنه عادل وطيب كما هو دومًا، أعطى السلطة في الأرض لحكومة نابليون الثالث وويليام الأول وفريناند النمسا والكسندر روسيا)

سكت قليلا، ثم قال: كان في إمكان عقلي حينها أن يبحث عن الحقائق من جهات أخرى، ومصادر أخرى لعلها تكون أكثر

عقلانية وعلمية.. وكان في إمكاني التمييز بين ما يقبله العقـل من الدين، وما لا يقبله.. لكنني لم أفعل ذلك.. لأن العقل الملحد عقل كسول، لا يبحث في الحقائق، وإنما يكتفي بالحكم عليها.

لقد ذكرت في كتـابي السـر الـذي دعـاني إلى هـذه الهجمـة الشرسـة على اللـه.. وهـو لا يعـود للبحث العقلي، بقـدر مـا يعـود للرغبات النفسية، والنزوات الغضـبية.. لقـد قلت معـبرا عن ذلـك: (هذه هي القصص السخيفة والعقائد الوحشـية الـتي كـانت تـروى وتُعلَّم في وضح النهار خلال القرن التاسع عشر في كل المـدارس الحكومية الأوربية وبتوجيه من الحكومات، ثم يـدعون هـذا تثقيـف وتمدين الشعب! أليس واضحًا بأن كل هذه الحكومات هي سجون منظمة وأداة تغبية وتتفيه للجموع؟)

ثم علقت على هذا بقولي: (أعلم بأنني ابتعـدت عن موضـوع اهتمـامي، وذلـك لأن الغضـب يتمكن مـني كلمـا فكـرت بـالأدوات المنحطـة والإجراميـة الـتي يسـتخدمونها لإبقـاء الأمم في عبوديـة أبدية بدلاً من تحريرها، وهم الأقدر على ذلك بلا شك)

أرأيتم.. لقد كان دليلي الوحيد على نفي الله والدعوة لإلغائـه هو ما رأيته من استبداد وخرافة.. وكـان في إمكـاني تميـيز الـدين عن رجال الدين.. وتمييز ما يدعو إليه العقل من الدين عمـا تـدعو إليه الخرافة.. ولكن عقول الملحد كسول كما ذكرت.

سـكت قليلا، ثم قـال: لقـد اعتـبرت ــ كأولئـك التنـويريين المغفلين ـ تحرر الإنسان من الله هـو الوسـيلة الوحيـدة لتحضـره وتطـوره وسـيره في مـراتب الكمـال.. لقـد قلت في ذلـك: (لقـد خلَّص الإنسان نفسـه وفصـلها عن الحيوانيـة مؤسِّسًـا بـذلك ذاتـه البشرية، وعلى إثر ذلك بدأ تاريخه البشري المميز بفعل العصـيان والعلم أي بفعل التمرد والفكر)

ولهـذا رحت أضـع ثلاثـة شـروط للتطـور البشـري، بشـقيه الجمعي والفردي، وهي: [أولاً: الحيوانية الإنسانية .. ثانيًـا: الفكـر.. ثالثًـا: التمـرد]، أمـا العنصـر الأول، فهـو وثيـق الصـلة بالاقتصـاد الاجتمـاعي والخـاص.. أمـا العنصـر الثـاني، فيتصـل بـالعلم .. أمـا العنصر الثالث، فيتصل بالحرية.

وقد رأيت أن أكبر من يقف في وجه هذا المشروع الكبير لتطور الإنسان هم الدعاة إلى الله أو إلى القيم التي لها علاقة به.. ولهذا لم أحارب فقط رجال الدين، وإنما وجهت سيفي لكل داعية للمثل العليا، أيا كان توجهه.. لقد قلت عن رجال الدين: (قضى رجال الدين وصناع القوانين والأنبياء والمكرسون حياتهم في البحث عنه ولم يجدوا شيئًا غير التعذيب والموت. تمامًا مثل أبو الهول، هذا اللغز الذي افترسهم لأنهم فشلوا في فهمه)

وقلت عن الفلاسفة: (كتب فلاسفة عظام انطلاقًا من هيرقليطوس وأفلاطون حتى تصل إلى ديكارت وسبينوزا ولبينتز وكانط وفيخته وشيلنغ وهيغل بالإضافة إلى الفلاسفة الهنود، أكومًا من المجلدات ووضعوا نظمًا خلاقة وعظيمة في وصف العديد من الأشياء الجميلة والعظيمة وكشف الستار عن العديد من الحقائق الخالدة، ولكنهم تجاهلوا هذا اللغز والموضوع الأساسي الذي تتمحور حوله كشوفاتهم الروحية، وبالتالي بقي عصيًا على سبر غوره كما كان في السابق. ولم تثمر جهود الكثير من العباقرة الرائعين المعروفين عالميًا ومن أخذوا على عاتقهم منذ أكثر من ثلاثين قرنٍ مضى هذه المهمة أي شيء سوى تعقيد هذا اللغز أكثر فأكثر. هل هناك أمل في الكشف عنه مستقبلاً عبر التأملات الروتينية لمنهج شديد التدقيق في التفاصيل متصل بفلسفة ما ورائية أعيد احيائها اصطناعيًا وفي وقت تتخلى فيه كل الأرواح الحية والجسورة عن ذلك العلم الغامض، هذا العلم الذي كان نتيجة تسوية ما، تسوية مفهومة تاريخيًا، بين لاعقلانية الإيمان والعقلانية العلمية السليمة؟)

وهكذا أصبح [الله] في تصوري هو اللغز الذي حال بين البشرية والتطور، وأنه العقبة التي لا يمكن تحقق الإنسان بإنسانيته وحريته من دونها.

سكت قليلا، ثم قال: لا أخفي عليكم أنني تأثرت كثيرا بنظرية التطور.. فقد جعلتني أرى المسيرة التاريخية للإنسان بصورة أخرى غير الصورة التي تعلمتها من الكنيسة.. وهي التي جعلتني أتكبر على كل شيء.. لأنني أكثر تطورا من كل من سبقني..

لقد تصـورت أن التحـرر التـام من اللـه ومن كـل القيـود هي الدرجة العليا التي يسير إليها الإنسان، ولـذلك فـإن كـل من يقـف في طريقها يقف في وجه التطور.

لقـد عـبرت عن هـذا بصـيغ كثـيرة، منهـا قـولي في انتقـاد المتـدينين والمثـاليين: (بعيـدًا عن التميـيز بين مسـتويات النظـام الطـبيعي من الأسـفل إلى الأعلى، من الـدنيء إلى السـامي، من البسيط نسبيًا إلى الأكثر تعقيدًا، وبدلاً من مواكبة الحركة الواقعيـة والتطوريــة بكــل حكمــة وعقلانيــة؛ حركــة الانتقــال من العــالم اللاعضـوي إلى العـالم العضـوي بمـا في ذلـك النبـات والحيـوان والإنسان على وجـه الخصـوص، الانتقـال من المـادة الكيميائيـة أو الكائن الكيميائي إلى المادة الحيـة أو الكـائن الحي، والانتقـال من الكــائن الحي إلى الكــائن المفكــر؛ ارتــأى المثــاليون أن ينحــوا بالتحديـد منحى مختلفًـا يـدفعهم إلى ذلـك عمـاهم وهوسـهم بهـذا الشبح الإلهي الذي ورثـوه عن علمـاء الـدين. فـانتقلوا من الأعلى إلى الأسفل، من السـامي إلى الـدنيء، من المعقـد إلى البسـيط. انطلقوا من عند اللـه سـواء كـان شخصًـا أو مكونًـا إلهيًـا أو حـتى فكرة. فكانت خطوتهم الأولى إلى تحقيق ذلك سقطة مروعـة من القمة العظيمة للمثاليـة الأبديـة إلى مسـتنقع العـالم المـادي، من الكمال المطلق إلى اللاكمال المطلق، من الفكرة إلى الكينونة أو بالأحرى من الكينونة السامية إلى العدم. أمـا مـتى وكيـف ولمـاذا خلق هذا الكـائن الإلهي الأبـدي اللامحـدود والكامـل تمامًـا لدرجـة الارهـاق الإنسـان الفـاني فهـذا أمـر لن يقـدر أي مثـالي أو عـالم لاهــوتي أو مــاورائي أو شــاعر أن يفهمــه بنفســه أو يشــرحه للعلمانيين)

ولهذا، فقد بـذلت جهـدا كبـيرا في الانتصـار لنظريـة التطـور، وللماديـة المرتبطـة بهـا.. ورحت كأبنـاء عصـري المنبهـرين ببعض الاكتشافات العلميـة أسـتثمرها لنصـرة الماديـة ومواجهـة المثاليـة والدين.. لقد قلت في ذلك: (تُجمع مجمـل فـروع العلـوم الحديثـة على هذه الحقيقة العظيمـة، هـذه الحقيقـة الأساسـية والقاطعـة، حقيقة أن العالم الاجتماعي، أو كما يجب تسميته العالم الإنســاني أو الإنسـانية باختصـار، مـا هـو إلا التطـور الأخـير والأسـمى، على كوكبنـا على الأقـل، والتجلي الأرقى للحيوانيـة. لكن كـل تطـور

يتضمن بالضرورة نفيًا إما لقاعدته أو منطلقاته. تعبر الإنسانية عن النفي المدروس والتدريجي للعنصر الحيـواني في الإنسـان، وهـذا النفي بحد ذاته، المنطقي بقدر ما هـو طـبيعي، وهـو منطقي لأنـه طبيعي وبالتالي أصبح تاريخيًا ومنطقيًا بحتميـة تطـور وتحقـق كـل القوانين الطبيعيـة في العـالم، هـذا النفي الـذي يؤسِّـس المثـالي وعالم المعتقدات الفكرية والأخلاقية كأفكار)

وقلت: (نعم، إن لم يكن أجدادنا الأوائل، آدم وحواء، غوريلات فقد كانوا أقرب إليهـا: حيوانـات تقتـات على كـل شـيء، وحـوش ذكية وضـارية امتلكت دون بقيـة الحيوانـات من الأجنـاس الأخـرى مقدرتين هامتين: القدرة على التفكير، والرغبة بالتمرد)

وقلت: (على حد سـواء يمكن فهم التطـور التـدريجي للعـالم المادي وللحياة الحيوانية العضوية ولذكاء الإنسان المتطور تاريخيًـا سواء كان فرديًا أو اجتماعيًا. فهذا التطور هو حركة طبيعيـة تمامًـا من البسيط إلى المعقد، من الأسفل إلى الأعلى، من الـدنيء إلى السامي.. إنه حركة تتسق مع كل خبراتنا اليومية وتتسق أيضًا مـع المنطـق الطـبيعي بمـا في ذلـك القـوانين الخاصـة بعقولنـا الـتي تطورت فقط بمسـاعدة هـذه الخـبرات بالـذات، وإن جـاز التعبـير فهذه الحركة مـا هي إلا نسـخة عقليـة ودماغيـة أو مجـرد خلاصـة منعكسة)

هذه بعض أفكاري التي تعلقت بها، وحجبت بها عن اللـه وعن جميـع حقـائق الوجـود، وجميـع القيم المرتبطـة بـذلك.. وهي من السخافة بحيث لا تحتاج مني إلا الاعـتراف بـأنني لم أكتبهـا إلا في فورة غضب، ونشوة تمرد وجنون.. وربما لا يلغي آرائي المتطرفـة حول الله مثلي، فقد عـبرت عن ذلـك بقـولي: (أنـا أعكس عبـارة فولتير، فأقول: إن كان الله موجودا فعلاً، فسيكون من الضــروري نَفيه)

فقد نفيت اللـه.. لا لـدليل عقلي أو منطقي دل عليـه.. وإنمـا لأني كنت متشوفا إلى التحرر والتمرد.. ولم يكن يتاح لي ذلك في ظل وجود الله.. لهذا كنت أصيح في قومي: (إن كان الله قد وجد، فسيكون عليه أن يُلغى)

قال ذلك.. ثم راح يبحث مع زملائه في السراب عن الماء.

كريستوفر هيتشنز:

ما إن انتهى [ميخائيل باكونين] من حديثه، حتى قام رجل على تلة من تلك الصحراء القاحلة، وقد بلغ به العطش مبلغا عظيما.. قام، وقال بصوت متقطع ممتلئ ألما: اسمعوني أيها الناس .. أنا [كريستوفر هيتشنز(1)]..صاحب كتاب [الله ليس عظيما].. وصاحب تلك المشاهد الساخرة المستهزئة بالله، وبكل القيم الإنسانية.

إن كنتم لا تعرفونني(2) فأنا من أركان [الإلحاد الجديد].. أنا أحد الأربعة الذين يقوم عليهم بنيان الإلحاد الجديد .. الإلحاد المستهتر بكل القيم.. أنا والبيولوجي [ريتشارد دوكينز]، والفيلسوف [دانيال دينيت].. والكاتب والباحث [سام هاريس].. وأنا الصحفي المتحذلق [كريستوفر هيتشنز]

لقد انتهجت مع زملائي من فرسان الإلحاد الجديد أسلوبا خاصا في نقد الدين، والدعوة للإلحاد.. وكان لي النصيب الأوفر من هذا الأسلوب.. إنه أسلوب السفالة والبذاءة وفحش اللسان في مهاجمة الأديان ومقدساتها.. وفي مواجهة الله وعظمته.. حتى أنني كنت أقوم وبشكل تلقائي عادي بالنطق بألفاظ نابية خادشة للحياء في مناظراتي العلنية مع خصومي مما يربكهم، ويجعلهم مستسلمين لسلاطة لساني، لا لقوة حجتي..

ولم أكن أكتفي بذلك، بل كنت أذهب وأسب وأشتم عامة الحضور في تلك المحافل العامة التي كنت أدعى إليها.. لحجة

1() كريستوفر هيتشنز (1949ـ 2011): من كبار دعاة الإلحاد الجديد، وهو كاتب وصحفي إنجليزي-أمريكي، كان له عمود في عدد من المجلات بالإضافة إلى كتابات في النقد الأدبي، وهو معروف بإلحاده ونقده للأديان، ومن كتبه كتاب [الله ليس عظيما] الذي انتقد فيه الديانات الإبراهيمية بالإضافة إلى الديانات التي لم تكن تُنتقد في الأوساط الغربية مثل الهندوسية.

2() اقتبست بعض المادة العلمية في هذا المحل من مقال بعنوان: سلسلة الصفعات المتتابعات على قفا المدعو [كريستوفر هيتشنز] منتدى التوحيد، بالإضافة لحوار أجري معه.

بسـيطة.. وهي أنـني حـر، ليس علي رقيب، ولا أخـاف أي جهـة تفرض علي سلطتها.. حتى ضميري قتلته، لأني كنت أعتقـد ــ بمـا يقوله صديقي دوكينز ـ أنني ابن للجين الأناني المتسلط علي.

لا أخفي عليكم أن تــــأثيري لم يكن قاصـــــرا على تلــــك المجالس.. ولا على من يشاهدونها في الوسائل المختلفـة.. وإنمـا تعدى تأثيري إلى كثيرين اكتسبوا من لساني سلاطته.. ومن عقلي إلحاده.. ومن قلبي غلظته.

وأصدقكم القول أنه لم يكن لـدي حجج فلسـفية، ولا بـراهين علميـة أسـتطيع أن أنـاقش بهـا خصـومي، ولهـذا كنت أسـتبدلها بلساني السليط المتدرب على كل ألوان الاستهزاء والسخرية.

لقد كنت في بداية حياتي العمليـة مراسـلا صـحفيا في مجلـة من مجلات اليســار السياســي في أمريكا، وكنت لا أختلــف في قدراتي العلمية والثقافيـة عن عامـة الصـحفيين والمحـررين ممن يكتبون في أمثال تلك المجلات.

ولكن الـذي أكسـبني شـهرتي العريضـة تخصصـي في النقد اللاذع العنيف للدين وأهله، فقد كـان نقـد الـدين تجـارة مربحـة لا تقل عن التجارة التي يمارسها رجال الـدين المزيـف.. لأن كليهمـا كان يخدم مشروعا واحدا، وهو مشروع الشيطان.

وقد كـان من الوسـائل الـتي كسـبت بهـا جمهـوري أني كنت أطلب منهم أن يلقبـوني بعــدو الإلــه .. أي أنــني لم أكن كأولئــك المتواضـعين من الملاحــدة الــذين وقــف بهم إلحــادهم عنــد حــد الاعتقاد بعدم وجود إله لعدم كفاية الأدلة، بل جـاوزت ذلـك لإعلان الحرب على مفهـوم الإلـه نفسه، واعتقـاد أنـه هـو الشـر المحض ومصدر كل وبال في تاريخ البشرية!

لاشك أنكم سمعتم بالصـفعة الهيتشـية.. إنهـا صـفعتي.. فأنـا [هيتشنز] كنت أستعمل في محاوراتي أسلوب الصـفع، لا أسـلوب الحجة.. وأسلوب الصخب، لا أسلوب الهدوء والروية.. ولذلك كنت أفاجئ خصمي من حيث لا يحتسب..

لقد انتشرت صفعاتي تلك .. أو ضرباتي القاضية في ساحات

الملاكمة.. معذرة المناظرة.. وفرح بها الملحدون القساة الغلاظ كما فرحت بها زمنا طويلا.. ولو أني لم أكن أؤمن بها.. ولا بما أقوله فيها.. لأني لم أكن أؤمن إلا بنفسي.. وبضربتي القوية.

سأذكر لكم أمثلة على ذلك .. لا أزال أذكرها، لأنها جلبت لي الكثير من الشهرة والأتباع.. ومعها الكثير من الأموال.. ووضعتني فوق ذلك في مصاف العباقرة العظام من أصحاب الإلحاد الجديد.

من تلك الصفعات قولي، وأنا أخاطب خصمي، وألكمه بلساني: (يجب على صانع هذا العالم إن وجد أن يجعله حفلة أبدية)

كنت أقول هذا كل حين.. وخاصة عندما تعرض مسائل الحياة بعد الموت.. وقلت مرة لمحدثي، وأنا أسخر منه: (يحدث لك في مرحلة ما من مراحل حياتك أن تجد من يربت على كتفك ولا يقول لك: الحفل انتهى، وإنما يقول: الحفل مستمر، وعليك أن تغادر الآن، وسيستمر الحفل بدونك)

وهنا يضحك الجمهور.. وهنا أنتفخ أنا.. ثم أقول: (هذه هي الفكرة التي تضايق البشر بشأن هلاكهم.. ولكن هب أنه بدلا من أن يقال لك هذا الكلام، قيل لك نقيضه التام: الحفل مستمر إلى الأبد، ولا يمكنك أن تغادر.. السيد صاحب المكان يصر على أن تبقى، ويصر أيضا على أن تقضي وقتا ممتعا)

ثم رحت أقص عليهم، لأمزج بين كل أساليب التشويق، فأقول: (لقد قرأت عن والد ديفيد.. وقد مررت أنا نفسي بوقت عسير على أثر وفاة والدي.. ولكن الأب الذي يقترحه أصحاب الديانات التي تؤمن بالخالق هو أب لا يموت.. فهو يطمئن أولاده: لا تقلقوا لن أترككم أبدا.. لن تروا نهايتي أبدا.. لن تسنح لكم الفرصة للشعور بالأسف على فقدي.. فأنا دائم الوجود.. أنا صاحب الديكتاتورية المحضة المطلقة.. وفي محاكمي ليس ثمة استئناف.. فهل حقا تعتقدون أن هذا سيسعد أي مخلوق عاقل ذي شعور أو النوع البشري أو أي كائن قادر على الشعور بأي شيء؟ أنا أشهد بأن هذا محال!)

وهنا يصفق الجمهور تصفيقا حادا.. وأزداد انتفاخا، وتزداد فطرتي انكماشا..

وعندما أعود إلى بيتي، وأتذكر كل الكلام الذي قلته.. أصفع وجهي.. وأضرب رأسي على الجدار جراء تلك السخافات التي كنت أرددها.. لأنه إن كان الله موجودا، فله أن يفعل في ملكه ما يشاء.. له أن يطرد من يشاء، ويبقي من يشاء.. وليس لي الحق في أن أفرض عليه سلوك والدي، ولا أحد من الناس.

ومن أدراني أن الذي أقام حفلة بسيطة هنا، يمكنه أن يقيم حفلة أجمل منها هناك.. وأنه إن رأى في بعض الناس أدبا واحتراما وخلقا رفيعا، قال لهم: حفلتكم هناك أفضل وأكرم.. فارحلوا إليها، واستأنسوا بها أبد الآباد.

وإن رأى في بعضهم سوء أدب وانحرافا عن حقيقتهم طردهم من هذه الحفلة، وطردهم من تلك الحفلة أيضا.. فالملك له، وهو العادل الذي يفعل ما يشاء.

ثم من الذي قال: إن كل من كان قادرا على فعل شيء يحبه أولئك الذين يخضعون لسلطانه، تعين عليه أن يفعله مطلقا؟.. من أين جاء ذاك الوجوب وبأي قاعدة أخلاقية أطلقه؟ ثم من ذا الذي قال: إن خالقك هو أبوك الذي عليه أن يرعاك رعاية الأب لولده، لا رعاية الإله لعبده؟

سكت قليلا، ثم قال: إن كلامي ذلك لم يكن إلا تعبيرا ساخرا لمشكلة الشر التي رددها الجميع منذ أبيقور إلى آخر ملحد في الدنيا.. إنهم يرددون قوله: (لماذا خلقنا، أما كان خيرا لنا أن يتركنا في العدم ولا يكلفنا بشيء أصلا؟.. أما كان خيرا لنا أن يخلقنا في نعيم أبدي سرمدي ولا يسلط بعضنا على بعض ولا يبتلينا بشيء البتة؟.. لماذا علينا أن نقبل منه أن يرسل إلينا رسلا يكلفوننا بعبادته والخضوع التام لسلطانه المطلق ونحن لا نراه؟)

إلى آخر تلك الاعتراضات التي ينطلق منها كل فلاسفة الإلحاد، ويلبسونها لباس الدليل المنطقي أو العقلي ليلبسوا بها على الناس.

والعجب أني في مــواقفي من البشــر كنت أكــثر سلاســة وتقديرا لسلوكاتهم الحازمـة.. فأنـا أحـرم على اللـه أن يحـزم مـع عبـاده، لـيربيهم ويهـذب سـلوكهم وأخلاقهم، ويـرتقي بـأرواحهم.. ويشتد عليهم إذا شاءت عدالته وحكمته ذلك.. بينما أبيح للبشر أن يفعلوا ما يرونه مناسبا..

من الأمثلة على ذلك أني كنت من أكثر النـاس تأييـدا لحـرب أمريكـا للعـراق.. مـع علمي أنـه سيسـقط ضـحايا كثـيرون جـدا، وسـتهدم بيـوت، وتشـرد أسـر.. ومـع ذلـك نظـرت إلى العـواقب، ورأيت أنهـا هي الأصـل الـذي ينبغي أن يـراعى.. ولـذلك أجـزت لأمريكـا وسـلاطين أمريكـا المسـتبدين الظلمـة أن يقومـوا بـدور الشرطي في العالم، يضـربوا من يشـاءون، ويقتلـوا مـا يشـاءون، ويتحركوا بما تقتضيه مصالحهم.

ولو أني راعيت ذلـك في الحكم على أفعـال الخـالق الحكيم الرحيم الذي يوجب العقل له كل الكمـالات في صـفاته لمـا رددت ما رددت.

سكت قليلا، ثم قال: من صفعاتي التي لا أزال أذكرها قولي: (نحن لا نستحسن فكرة هلاك أنفسنا أو هلاك الكـون نفسـه الـذي سيكون سـببه الانخفـاض الإنـتروبي لدرجـة الحـرارة فيـه إلى حـد التجمد، ولكن لـدينا الكثـير من الأدلـة الـتي تـدل على أن هـذا مـا سـيحدث. وفي المقابـل فثمـة أدلـة قليلـة جـدا جـدا على أنـني سأراكم كلكم مرة أخرى فيما يشبه [حديقـة الملاهي] (يعـني بعـد الموت).. ليس ثمة أدلة تـدعم هـذا الأمـر مطلقـا.. لـذا فأنـا على استعداد لأن أقبـل ـ تأسيسا على الأدلة ـ نتـائج قد لا تكـون محببة لنفسي. اعذروني إن كنت أبدو وكأني أملي هذا الكلام إملاءً..)

بعدما انتفخت كثيرا جراء تصـفيق الجمهـور، وعنـدما خـرجت من المسرح، رأيت شبابا من المسـلمين مجتمعين، ويظهـر عليهم سيما المتدينين، وقد كانوا من الشباب الـذين حضـروا المنـاظرة.. فـاقتربت منهم أسـترق السـمع، لعلي أجـد في حـديثهم مـا ييسـر علي التحضير لمحاضراتي أو مناظراتي الجديدة.. فقد سئم الناس من تكراري لصفعاتي القديمة.

لا أكتمكم القـول أن حـديثهم صـفعني صـفعات كثـيرة، كـان يمكنني أن أفطن بعدها وأستفيق، وأتخلص من كـبري وغـروري .. لكني لم أفعل.

سأذكر لكم بعض ما قالوا، فهي من الأحاديث التي لم أنسـها في حياتي، لأنها ظلت تعذبني، وتكدر علي، وليتني سمعتها بقلبي، ولم أسمعها بغروري..

لقد قال أحدهم، وهـو يخـاطب رفاقـه بلطـف وأدب[1]: أمن الممكن لـمَن له شأن الربوبية وسلطنة الألوهية، فأوجد كوناً بديعاً كهذا الكون؛ لغايات سامية ولمقاصد جليلـة، إظهـاراً لكمالـه، ثم لا يكون لديه ثواب للمؤمـنين الـذين قـابلوا تلـك الغايـات والمقاصـد بالايمـان والعبوديـة، ولا يعـاقِب أهـل الضـلالة الـذين قـابلوا تلـك المقاصد بالرفض والاستخفاف؟

قال آخر: أمن الممكن لربّ هذا العـالم ومالكـه الـذي أظهـر بآثاره كرماً بلا نهاية، ورحمـة بلا نهايـة، وعـزة بلا نهايـة، وغـيرة بلا نهاية، أن لا يقدّر مثوبة تليق بكرمه ورحمتـه للمحسـنين، ولا يقـرر عقوبة تناسب عزته وغيرته للمسيئين؟

قال آخر: أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتـداء من الـذرات وانتهـاء بـالمجرات، بغايـة الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان.. أن لا يعامل بالاحسان من احتموا بتلك الربوبيـة وانقـادوا لتلـك الحكمـة والعدالـة، وأن لا يجـازي أولئـك الـذين عصـوا بكفـرهم وطغيـانهم تلـك الحكمـة والعدالة؟.

قـال آخـر: أمن الممكن لجـود وسـخاء مطلقين، وثـروة لا تنضب، وخزائن لا تنفد، وجمال سرمدي لا مثيل له، وكمال ابدي لا نقص فيـه، أن لا يطلب دار سـعادةٍ ومحـل ضـيافةٍ، يخلـد فيـه المحتـاجون للجـود، الشـاكرون لـه، والمشـتاقون الى الجمـال، المعجبون به؟

قال آخر: صدقتم.. فإنه لما كان ذلك الجـود في العطـاء غـير

---

[1] هذه مقتطفات من رسالة الحشر للنورسي.

المحدود، وذلك الحسن في الجمال الذي لا مثيل له، وذلك الكمال الـذي لا نقص فيـه.. يقتضـي خلـود الشـاكرين، وبقـاء المشـتاقين المستحسنين، ونحن نشاهد رحلـة كـل شـخص واختفـاءه بسـرعة في دارِ ضيافة الدنيا هذه، دون أن يستمتع باحسـان ذلـك السـخاء إلا نزراً يسيراً بما يفتح شهيته فقـط، ودون أن يـرى من نـور ذلـك الجمـال والكمـال اِلاّ لمحـة خاطفـة.. إذن الرحلـة منطلقـة نحـو متنزهات خالدة ومَشاهدَ أبدية.

قال آخر: مثلما أن هذا العالم يـدل بموجوداتـه دلالـة قاطعـة يقيناً على صـانعه الكـريم ذي الجلال، فصـفاته المقدسـة سـبحانه وأسماؤه الحسنى تدل كذلك على الدار الآخرة بلا ريب وتظهرهــا، بل تقتضيها.

سـكت قليلا، ثم قـال: هـذا بعض مـا قـالوا.. وقـد بقيت بعـد سـماعي لــذلك أيامــا أتحســر على نفســي الــتي خــرجت من سيطرتي.. لكنها ما إن مضـت حـتى رحت أحضـر نفسـي لصـفعة جديدة أصفع بها الإيمان والمؤمنين.

لقـد رحت أقـول في تلـك الصـفعة: (من المـرجح أنـه قبـل حـوالي 180 ألـف سـنة مضت، حـدثت كارثـة كبـيرة للاحتبـاس الحراري على الأرض، والتقـديرات تشـير إلى أن عـدد البشـر في إفريقيا انخفض إلى مـا بين ثلاثين وأربعين ألفا، أي أنهم كـانوا في غاية القرب حينئذ من الانضمام إلى جميع الكائنات التي سـبق لهـا الانقراض على الأرض.. فثمة نوع من الغرور عنـد من يفـترض أن كل هذا التقلب الفاحش في أحـداث العـالم وأحواله، كـان جميعـه من أجلنا نحن البشر! هـذا الإهـدار الفـائق الـذي يظهـر فيه، هـذه القسـوة البالغـة الـتي تغلب عليها، هـذه العشـوائية وهـذا التخبـط الفاحش الذي يتسم به، كل هذا لا يهم، ما دمنا نعيش فيه! الكـون كله قد صمم لك وحدك!)

لقد قلت هذا، وأنا أحاسب الله العظيم.. المـدبر الحكيم على أفعاله في خلقه، دون أن أسأله أو أسأل أوليائه عن أسرار حكمته في أفعالـه.. مـع أني كنت لا أسـأل الطـبيب الجـراح الـذي يبقـر البطون عن سر جرحه وتمزيقه للأجساد.

لقد كان السبب في تلك الأفكار الشيطانية هو حصري الحياة في تلك الدنيا، وتصوري أن قدرة الله العظيم توقفت عنــدها، ولم يبق له قدرة على الخلق، ولذلك فإنـه بإماتـة المخلـوق يكـون قـد أعدمه، وانتهى أمره.

ولـو أن عقلي كـان معي لاعتـبر ذلـك من الأدلـة على وجـود حياة ثانية تتحقق فيها من المقاصد ما لم يتحقق في هذه الحياة..

لقد قال لي بعض المؤمـنين، وهـو يحـدثني عن هـذا، بعـد أن قـرأ علي بعض النصـوص من كتابـه المقـدس.. أذكـر منـه هـذه الآيــات: ﴿يَاأَيُّهَــا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَـةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْـغَةٍ مُخَلَّقَـةٍ وَغَيْـرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَـاءُ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَـرَى الْأَرْضَ هَامِـدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَـا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُـورِ﴾ [الحج: 5- 7]

وحين سخرت منه، وقلت له: كيف تذكر لي أنها كلمـات إلـه، وأنا لا أؤمن به أصلا.. أثبت إلهك أولا.. ثم أثبت أنه تكلم.. ثم أثبت أن كلامه وصلك.. ثم أثبت أن هذا من كلامه.. ودون كل هذا خرط القتاد؟

ابتسم، وقال: انظر إلى الكلام والحجج المبثوثة فيه.. ودعــك من المتكلم.. فالله يذكر أنه خلق خلقه على مراحل عديدة ابتــداء من النطفة، وانتهاء بالموت.. ويذكر أن هنـاك مراحـل أخـرى بعـد الموت.. ويشبه ذلك بالأرض الميتة، وكيفية عودتها إلى الحيـاة من جديد.

قلت: تفسـير مـا يقـع في الأرض سـهل.. فمـا دامت البـذور موجودة، فإنه حالما تتوفر الظروف تعود الحياة إليها.

قال: وهكذا الإنسان، فإن بموتـه لا يعـدم.. وإنمـا يتحـول إلى حياة جديدة لها شروطها الخاصة.

ضحكت بصوت عال، وقلت: ذلك مستحيل..

قال: فهل العقل هو الذي أحاله، أم أن مزاجك هو الذي فعل ذلك.. أم لك كتابا دلك على ذلك.. لقد قال الله تعالى بعد تلك الآيات التي تلوتها عليك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (10)﴾ [الحج: 8 ـ 10]

قلت: إن إلهك يهددني، ويعلن الحرب علي.

قال: لا.. إلهي ينذرك ويوجهك.. ويحذرك أن تحاربه.. فهو أعظم من أن يحارب.

قلت: لكن عقلي الذي تذكر أنه خلقه يحيل هذا.. فكيف أفرض على عقلي ما لا يقبل؟

قال: ولم قبل عقلي هذا؟.. ولم نرى ملايين الناس على مر العصور يقبلونه؟.. أم أنك تريد أن تركب الكون على مزاج عقلك؟

قلت: أليس من الغريب أن تأتي لعظام قد بلت.. ثم تذكر أن ربك سيحييها؟

قال: لقد ذكرتني بآيات كريمة من كتابي المقدس، يقول فيها ربي: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)﴾ [يس: 78 ـ 83]

قرأ ذلك.. ثم انصرف عني.. وكم تمنيت لو بقي.. وقد كان لتلك الآيات مفعولها الكبير على نفسي.. لكني بعد أن قدرت العواقب أحضرت قلمي ودفاتري، ورحت أسجل صفعة جديدة.. كنت أريد إلقاءها، أو ضرب خصومي بها في ندوة عامة في جامعة

يهودية أمريكية.. يمكن تلخصيها في هـذه العبـارة الوجوديـة الـتي استفدتها من سـارتر وغـيره: (دعـوني أمـوت وزجاجـة الخمـر في يدي)

لقد قلت فيها: (يبدو أمرا طبيعيا للغاية في هــذا المجتمع، أن تقترب من رجل يحتضر على فـراش المـوت وأنت لا تعرفه، وهـو ممن يكفرون بالخالق، فتقـول له: هـل سـتغير رأيـك الآن؟.. إنهم يعتبرونه سؤالا مهذبا للغاية!)

وهنا يضحك الحضور، وأنتفخ أنا، وتنكمش فطـرتي، ثم أعقب على ذلك بقولي: (وكما تعلمون فإن ثمة تاريخا طويلا للـتزوير في هـذا الأمر، فمن النـاس من زعم أن داروين رجـع إلى النصـرانية على فراش موته.. وكـذلك اختلقـوا الأكـاذيب حـول تومـاس بين.. والأمر يقع كثيرا. إنها قطعة مقززة من تاريخ البشرية. إنهـا كـذلك صورة رديئـة من صـور الابـتزاز، كـأن يقـال: (أنظر، لـديك فرصـة واحدة الآن، ألن تغتنمها؟ أنا أكتب إليك هذا الكلام كصديق!).. لقد حاولوا معي ذلك في يوم من الأيام عندما كنت مريضـا للغايـة في إحدى المستشفيات، ولكن لم أكن متمكنا من الرد عليهم كما كان يحلـو لي يومئـذ.. ولا مـانع عنـدي من سـماع هـذا الكلام على أي حال، فإنه بوسعي أن أتحمله.. ولكن في ظني أن كثيرا من الناس ممن هم أكبر مني سنا وأشـد مـني مرضا، وربمـا أقـل تعلمـا منا، هـذه التجربـة تكـون شـديدة عليهم للغاية، فهي مسـألة محبطـة ومقلقة ولا شك أن يخاطبوا بمثل هذا الكلام. يعني لـو أني كـونتُ أنا وسام.. أعني صديقي العزيز [سام هاريس].. فريقا يـذهب إلى المستشـفيات الدينية ـ وهو عكس ما يحصل في الواقع -، فنقـول لأنـاس يرقـدون في الألم: هل قلت إنك كـاثوليكي؟ .. فـإذا قـال: نعم.. قلنا له: حسنا اسمع، ربما لا يزيد ما بقي لك من العمر على بضعة أيام، ولكنك لست مضطرا لأن تحياها كعبد! حسبك أن تعلم أن هذا كله لم يكن إلا ..

ثم أردد كلمة بذيئة لا أسـتطيع بعـد أن اكتشـفت الحقيقـة أن أنطق بها.. وحينها يضحك الحضور ويقهقهون ويصفقون.. فأضيف: (لقـد كـان الرهبـان يخـدعونك.. وأنـا أضـمن لـك أنـك ستشـعر بالراحة).. لا أظن أن هذا سيكون عملا أخلاقيا! أعتقد أنه سـيكون

نوعا من خرق الذوق العام.. ولكن ما دام باسم الإله، فإنـه يحظى بالرخصة الاجتماعية، وأنا أقول: ..

ثم أقول كلاما بـذيئا يضـحك لـه الحضـور ويصـفقون تصـفيقا حادا.. وأنتفخ أنا انتفاخة جديدة..

لن أســتطيع الآن أن أعقب على هــذا التهــريج.. فأنــا كنت أناقش أسلوب المؤمنين، ولا أناقش في الحقـائق.. وقـد كـان في إمكاني أن أعذر المؤمنين في نصيحتهم لي.. ولا أعذر الملحـد في نصيحته للمؤمنين.. لأن المؤمن يرى أن لموقفي آثارا سـلبية على حياتي المسـتقبلية الـتي يـؤمن بهـا.. أمـا أنـا فلم أكن أرى ذلـك.. ولذلك فإنه حتى لو مات على مات عليه لن يضره شيء.

فرق كبير جدا بين رهانينا .. رهاني أنا الـذي لا يحـوي شـيئا.. ورهان المؤمن الذي يحوي كل شيء..

سكت قليلا، ثم قـال: اسـمحوا لي أن أختم حـديثي بمحـاورة عقدتها معي بعض القنوات.. سـألني المـذيع حينهـا: مـاذا لـو كـان الإله موجودا بالفعـل يـا سـيدي؟ أمـا كـان ليحسـن إليك؟ .. وهنـا أجبته بسرعة، ومن غير تفكير ورويـة: كلا، مـا كـان ليفعـل ذلـك.. لأنه لو كان هذا صحيحا، لكان معناه أن لدي والد أبــدي خالد، دائم المراقبـة لأفعـالي، فلن يمـوت ليتركـني أمضـي في حيـاتي وأن أنضج، وإنمـا سـيبقيني تحت المراقبـة الدائمة، ويشـرف على كـل دقيقة من حياتي، ويطلب مني أن أكون شاكرا له وممجدا له على الدوام.

وحينهـا قـال لي المحـاور مقاطعا: ولكن لـك إلـه بالفعـل يـا سيدي!

وهنا رددت عليه دون التفات لما يقول: أعتقد أن هذا سيكون أشـبه بـالعيش في كوريـا الشـمالية.. أعتقـد أن النتـائج سـتكون شنيعة.

وهنا قال لي: لا أظن أن الإله هو [كيم جونغ]، ولكن مـاذا لـو كان ما قلته لك صحيحا؟

حينهـا رددت عليـه بكـل بـرودة: إذن اسـأل [كيم جونـغ] وفستسمع منه رأيا مختلفا!

هذا هو موقفي من إلهي، وهذا تصويري له في حال وجوده.. وهذه كبريائي أضعها بين أيديكم لتصفعوني بها.. وتصفعني بها رمال هذه الصحراء القاحلة..

قال ذلك.. ثم راح يبحث مع زملائه في السراب عن الماء.

***

بينمـا أنـا في قمـة اسـتغراقي في سـماع مـا قالـه هـؤلاء الملاحدة الوجوديون، نبهني صاحبي المرشد، وقال لي: أظن أن ما سمعته هنا من اعترافات يكفي.. فهلم بنا إلى جناح آخر.. لترى أهله، وتعرف أسرار إلحادهم.

سرنا إلى الجناح الثالث في فنـدق الملاحـدة، وقـد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَـاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: 6، 7]

سألت المرشد عن الآية، وعلاقتهـا بهـذا الجنـاح، فقـال: هـذا جناح الحسيين..

قلت: فمن هم؟

قال: أولئك الذين تصوروا العلم خاصـا بمـا تكشـفه مخـابرهم، وتدل عليه تجاربهم، وأنكروا كل ما عدا ذلك.

قلت: أهذا هو العلم بظـاهر الحيـاة الـدنيا الـذي ذكرتـه الآيـة الكريمة؟

قال: هذا بعض العلم بظـاهر الحيـاة الـدنيا.. وهـو لا يعـدو أن يكون نقطة من بحره..

قلت: ومع ذلك غرقوا فيها..

قال: من لم يتعلم السباحة في بحر الإيمان، فسيغرق في أي بحر، وستلتهمه أي موجة حتى لو كانت في حجم قطرة ماء.

قلت: فمن يسكن هذا الجناح من الفندق؟

قال: يسكن فيه كل من صاح مـع قـارون الـذي ذكـر القـرآن الكريم أنه قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْـدِي﴾ [القصـص: 78].. ويسـكن فيـه كـل أولئـك الـذين عارضـوا الرسـل عليهم الصـلاة والسلام وسـخروا منهم اغـترارا بمـا عنـدهم من العلم، كمـا قـال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: 83]

قلت: فسنجد علماء كثيرين هنا إذن؟

قـال: سـتجد العلمـاء المغـترين المتكـبرين، لا العلمـاء

المتواضعين..

قلت: وما الفرق بينهما؟

قال: العالم المتواضع هو الذي لا يعدو قدره، ولا يتجاوز حده، ولا يعطي لنفسه السلطة على الكون، بل يحكم بما علم على ما علم، ويردد ما ذكره الله من قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: 81].. أما المتكبر، فهو الذي يحكم ما علم على ما لم يعلم، فيفرض سلطته ورأيه وغروره على الكون جميعا.. وقد قال الله تعالى في هؤلاء ردا على كبريائهم: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51]

قلت: صدق الله العظيم.. وقد أثلجت صدري بما ذكرت، وقد مررت على كلا الصنفين من الناس.. وقد رأيت أن الإنسان كلما ازداد علمه ازداد أدبه وتواضعه.. وكلما نقص علمه أو انحصر في مجالات عديدة كل ما تاه به واغتر، حتى أنه قد يتيه على الله نفسه.

قال: لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، وقد جاءت هذه الآية الكريمة في معرض الحديث عن الكون وعجيب صنع الله فيه، وهي دليل على أن الخشية تتحقق لأصناف العلماء المختصين في هذا النوع من العلم.

قلت: صدقت في هذا.. وأنا أعرف الكثير من العلماء الذين امتلأوا إيمانهم من مفرق رأسهم إلى أخمص أقدامهم، ولم تحجبهم علومهم عن الله.. بل زادتهم اتصالا به وتواصلا معه ومعرفة له.

ما إن قلت هذا حتى فتح الباب، فرأيت شيئا عجيبا لا طاقة لي، ولا لأحد من الناس، بتصويره.. لقد رأيت بشرا كثيرين لهم ملامح عجيبة هي أشبه ما يكون بفئران التجارب.. والعجب أنهم جميعا موضوعون في قوالب تشبه أنابيب الاختبار.. والأعجب من ذلك كله هو ما وضع تحت تلك الأنابيت من آلات تسخين وتبريد وغيرها..

سألت صاحبي عن سر هذه الحالة التي يعيش فيها هؤلاء، فقال: هذه صورة أعمالهم وهممهم جسدت لهم، ليعيشوها.. فلا يرى الإنسان في آخرته إلا ما صنع في دنياه.. ولا يرى في عالم الملكوت إلا ما هيأه لنفسه في عالم الملك.

قلت: أعلم هذا.. ولكني لا أعلم لم كان مصير هؤلاء بشعا إلى هذا الحد.

قال: لقد كانت حياة هؤلاء الذين تراهم متوقفة على هذه الأنابيب وأخواتها، فكانوا ينكرون كل شيء لا تصل إليه تجاربهم، ولا تدل عليه اختباراتهم، فلذلك أُبتلوا بما اَبتلوا به الحقائق التي امتهنوها وعذبوها وأنكروها..

دافيد هيوم:

بينما نحن كذلك إذ قام من أولئك النفر رجل قد اشتعلت عليه ثيابه نارا، ومع ذلك كان يلتفت إليها، وهو يضحك مسرورا، ويقول: ها قد اشتعت النار أخيرا.. وهذا يدل على أن هناك كاربونا في ثيابي.. وأخيرا تأكدت أنني كنت ألبس ثيابا تحتوي على مادة الكاربون الجميلة..

لكن النار ما لبثت أن وصلت جسده، فراح يتألم ألما شديدا، ثم يطفئها، ويقول: إلى متى نظل عبيدا لهذه التجارب المجنونة التي قتلتنا.. لقد تحولنا بسببها إلى هذه الصور المشوهة.. ثم راح يقول: كل هذا بسببك يا جون لوك ..ويا جورج بركلي .. ويا إسحاق نيوتن ..ويا ساميل كلارك .. ويا فرانسس هتشون .. ويا جوزف بتلر.. لقد كنتم أساتذتي الذين تعلمت منكم ألا أصدق إلا ما تخبرني به المخابر..

ثم راح يقرع نفسه بأنبوبة اختبار، ويقول: إلى متى تلقي اللوم على غيرك يا [دافيد هيوم(1)]، فأنت السبب في كل ما حصل لك.. كان في إمكانك أن تصبح كالآلاف من أولئك الذين لم

(1) ديفيد هيوم (1711ـ 1776)، فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي ولد وتوفي بأدنبره، أهم كتبه: بحث في الطبيعة الإنسانية، ثلاثة أجزاء، وفحص عن الفهم الإنساني، وفحص عن مبادئ الأخلاق، والتاريخ الطبيعي للديني، وغير ذلك راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم 172 ـ 173.

تحجبهم مخابرهم وعلومهم عن ربهم وعن حقيقتهم، ولكنك أبيت ذلك، فرحت تتدخل في كل شيء.. رحت بآلاتك البسيطة تريد أن تكشف سر الكون جميعا، وتحكم عليه بأحكامك القاسية، من دون أن تكون لديك الأدوات العلمية الكافية.

وها أنت اليوم تتجرع الغصص التي جرعتها للحقائق .. وللأجيال التي انحرفت بها عن جادتها، فصارت تسبح بحمدك، وتقدس لك، ونسيت خالقها ومبدعها وبارئها.

أخذ يضمد بعض الجراح التي أحدثها الحريق في جسمه، ثم راح يقول: هل نسيت كتابك (محاورات في الدين الطبيعي)، وكتابك (التاريخ الطبيعي للدين)، واللذين ملأتهما بكل أنواع السفسطة والمغالطات والحروب على الله والأديان..

ها أنت اليوم، وبعد فوات الأوان تكتشف أن كل ما سطرته عن حقائق الوجود الكبرى زيف وخرافة وأسطورة.. وأن العلم الحقيقي هو العلم الذي حجبت عنه، واكتفيت بالظاهر عن الباطن، وبالملك عن الملكوت.

لقد حجبك حسك الممتلئ بالزهو والغرور عن كل شيء.. فرحت تعتبره المجال الوحيد للمعرفة، والمنبع الفريد للإدراك.. ورحت تحصر المعارف في المادة الجامدة، وما ارتبط بها.. ورحت تعتبر كل ما يتحدث عنه العلماء المحققون المتدينون من مصادر للمعرفة غير الحس والمادة أوهاما لا حقيقة لها، وخرافة لا وجود لها إلا في مخيلة أصحابها.

ولم تكتف بذلك، بل رحت تعتبر كل معتقدات الإنسان وآراءه عن العالم الخارجي مجرد خيال وأوهام لا وجود لها.. وأنها مجرد مدركات ذهنية مختزنه، وأن الإنسان لا يفعل سوى أن يسقط كل ذلك على العالم الخارجي، ويفسره به، فتكون الحصيلة أن يعلن عن ذاته، وعن مكونات نفسه، ولا يعلن عن الحقائق الخارجية التي يزخر بها العالم الواقعي.

ولم تكتف بذلك، بل رحت تمعن في الحس والكثافة، فتعتبر كل أفعال الإنسان وكل سلوكاته مجرد ردود أفعال لما يعتمل في نفسه من إحساس باللذة أو الألم، واستجابة لكل ما يشعر به

اتجاه الأشياء من سعادة أو شقاء.. وبذلك أصبحت الحواس الظاهرة هي المتحكمة في كل شيء ابتداء من الإحساس باللذة والألم.

بل إنك اعتبرت الحواس الباطنة مجرد تابع ذليل للحواس الباطنية.. فألغيت بذلك وجودها وحقيقتها.

ولم تكتف بذلك، بل رحت تلغي كل القيم النبيلة، باعتبارك الفرق بين الخير والشر لا يعدو أن يكون نتيجة للذه والألم.. فكل ما سبب للإنسان لذة أو سعادة فهو خير، وكل ما سبب له ألماً أو تعاسة فهو شر.. وبذلك أصبحت الفضيلة والرذيلة خاضعة للمقاييس الذاتية الممعنة في التزوير، مثلها مثل كل شيء عندك.

ولم تكتف بذلك، بل رحت تلغي إرادة الإنسان الحرة المختارة نفسها.. لأن الإنسان لم يكن عندك سوى آله تحركها مشاعر الألم واللذة، وتتحكم فيها الأوهام والخيالات التي ينشئها عن العالم الخارجي، والذي لا يتعامل معه إلا من خلال ردود الأفعال .

أتدري ما فعلت بفلسفتك الرعناء هذه .. لقد قضيت على كل حقائق الوجود، كما قضيت على كل القيم النبيلة.. وكيف لا تقضي عليها، وقد جعلت الأخلاق قائمة على أصول حسية مادية بحتة.. وكيف لا تقضي عليها، وقد جردت الإنسان من مسئوليته على أفعاله، وجعلت حركاته كلها مجرد ردود أفعال لما يحس به من لذة، أو ما يحس به من ألم..

لقد كنت بكبريائك تتصور أن هذه الأنابيب وحدها من يكشف حقائق الأشياء.. ورحت مثل أولئك البلهاء من أصحاب الفلسفة الوضعية، تدعي أن أكثر الفلسفات التي ظهرت قبل هذه الفلسفة، خاطئة في جوهرها، بل وعديمة الأهمية، لأنها لم تعتمد على المعرفة التي تصل للإنسان عبر الحواس والمعرفة التجريبية.

ورحت مثل ذلك الغبي أوجست كونت، تقسم التاريخ العلمي للبشرية لثلاثة أطوار: الطور اللاهوتي.. والطور الميتافزيقي.. والطور العلمي الوضعي.. ثم رحت تسخر من كل الأطوار

السابقة للطور الذي اعتبرته الطور العلمي الوحيـد.. ورحت تـدعو إلى العزوف عن البحث عن أصل الكون ومصيره أو عللــه الأولى، وتعتبر البحث في ذلك أو الاهتمام به أوهاما وخرافة.

وأنت وجميــع أصــحاب الفلســفة الوضــعية مجــرد بلهــاء مغـرورين، فالبشـرية في أطوارهـا جميعـا، كـانت تعتمـد التجربـة وتهتم بها، من غير أن تجعلها وسيلتها الوحيدة للمعرفة.

فالإنسان القديم الذي استعمل حجر الصوان لقـدح الشـرارة وتوليد النـار منهـا لم يكن ليصـل إلى ذلـك من غـير أن يكـون قـد أجرى تجارب كثيرة على أنواع مختلفة من الأحجـار إلى أن وصــل إلى توفر هذه الخاصية في حجر الصوان دون غيره من الأحجار .

وهكـذا فعـل الفيلسـوف [سكسـتس ايرامبـيريكوس] رائـد مدرسة الأطباء التجريبيين في القـرن الثـاني قبـل الميلاد، والـذي كان من أبرز روادها أبقراط صاحب تجربة كسـر بيض الـدجاج في مراحل مختلفة لمعرفة مراحل تطور الجنين.

بـل هكـذا كـان يتصـرف الكثـير من الحرفـيين والصـناعيين للوصول إلى النتيجة التي يرغبون فيها..

بـل إن الكثـير من العلمـاء المنتمين للأديـان المختلفـة كـانوا يجمعـون بين المنهج التجريـبي وبين المنـاهج العقليـة والإشـراقية التي أوصلتهم إلى الله من غير أن تحجبهم عن عالمهم وعن عالم المادة والحس..

فجـابر بن حيـان، ذلـك العـالم المسـلم الكبـير كـان من رواد العلوم التطبيقية، وكان علما كبيرا في الكيمياء، واســتعمل المنهج التجريبي فيها، كما استعمل عقله في التعرف على حقائق الوجـود ليؤمن بها، ويؤمن عن طريقها برسوله ودينه وقيمه.

ومثله روجر بيكـون، الـذي كـان مثـالاً لامـتزاج الـدين والعلم والعمل.. فقد عالج مسائل عصره اللاهوتيــة والفلســفية، وأضــاف إليها نظرية العلم التجريبي الذي تنبأ بمستقبله ..و بسط عـدداً من التخمينات العلمية والفنيـة الحديثـة. فكـان أول من وصـف عمليـة صنع البارود، واقترح صنع الطائرات والسفن. كما كان له دراسات

حول طبيعة الضوء وقوس قزح وأنظمة العدسات وغيرها [1].

وهكذا كان الكثير من أعمدة العلم الكبار يجمعــون بين العلم والــدين، ولا يــرون غضاضـــة في التفريـــق بين منهج البحث في كليهما.. فلكل ميدان وسائل إدراكه الخاصة به.

سكت قليلا، ثم قال: لكني لغروري وكبريائي لم أكن كـذلك.. بـل لم أكن حـتى من أولئـك المـترددين المتـوقفين اللاأدريين من أصحاب الإلحـاد السـلبي.. بـل كنت من أصـحاب الإلحـاد الإيجـابي الذين راحوا يحاولون التمـاس الأدلـة على نفي وجـود اللـه.. وقـد رأيت من أصحابي في كل تاريخ البشـرية من وضـع لـذلك مبـادئ ونظريات ممتلئ بالعبث واللاعقلانية كنقض مبدأ الخلق، ومشــكلة العدل والشر، واسـتحالة الـوحي، ونقـد الكتب المقدسـة للأديـان، واستحالة الحياة بعد الموت..

فرحت أضيف إليها شيئا جديدا لم يسبقني إليـه أحـد، بـل لم يفكر فيه أحد أصـلا، وهـو [إبطـال مبـدأ السـببية] [2] الـذي اتفقت عليه جميع العقول، بل اعتبر من (إحدى بدائـه الفكـر الأساسـية)، ذلك أنه (لا يحدث شيء بلا علة، أو على الأقل بلا سبب محدد) [3]

بـل إن الفطـرة تقتضـيه، فالطفـل الصـغير إن تعـرض لتـأثير مؤثر ما؛ تراه يطلب ذلك المؤثر ويبحث عنه، فيلتفت ليبحث عمن ضربه خلسة، لكونه مما ارتكـز في فطرتـه، وفي مبـادئ عملياتـه العقلية الأولى أن لكل فعل فاعلا، ولكل مصنوع صـانعا .. بـل إنـه إن لم يجد ذلك المؤثر يرتبك، بل لعله يخاف ويهلـع، وسـبب ذلـك الخـوف ليس الجن أو الشـياطين.. فالطفـل لا يـدرك وجـود تلـك القوى غير المنظورة أصلا في تلـك المرحلـة المبكـرة من حياتـه، ولكن سبب ذلك هو الاضطراب النفسي الذي يصيبه نتيجـة اختلال

---

[1] () الموسوعة العربية.

[2] () استفدنا المـادة العلميـة هنـا من مقـال مهم بعنـوان: الأسـس اللا عقليـة للإلحـاد.. مشكلة مبدأ العالم نموذجاً، لعمرو بسيوني.

[3] () المعجم الفلسفي لجميل صليبا، 1/649.

المبادئ التي يفهم بها الوجود.

ولهذا كان البحث في العلل قديما قدم الفكر نفسه، فمنذ العصور الفلسفية لليونان نجد أرسطو قد اهتم بدرس العلل، وقسمها إلى علل أربع: المادية، والصورية (الهيولى)، والفاعلية، والغائية[1] .. وقد أثبت بالأدلة العقلية أن الله هو العلة الأولى، وليس معلولا لشيء آخر.

لكني رحت ـ وبدافع الدفاع عن الإلحاد ـ أنكر هذا المبدأ الذي رأيت أن جميع المؤمنين من فلاسفة ورجال دين يعتمدون عليه لإثبات وجود الله.

فقد ذكرت في كتابي الأكبر(بحث في الطبيعة الإنسانية) أن فكرة العلية قائمة على أسس ثلاثة: هي الاتصال [2]، والأسبقية [3]، والارتباط الضروري .. ثم رحت أفند السببية فيهما جميعا.

أذكر جيدا مقولتي في الارتباط الضروري، ومحاولتي لنفيه، فقد عبرت عن ذلك بقولي: (رؤية أي شيئين أو فعلين، مهما تكن العلاقة بينهما، لا يمكن أن تعطينا أ ي فكرة عن قوة، أو ارتباط بينهما، وأن هذه الفكرة تنشأ عن تكرار وجودهما معا، وأن التكرار لا يكشف ولا يحدث أي شيء في الموضوعات، وإنما يؤثر فقط في العقل بذلك الانتقال المعتاد الذي يحدثه، وأن هذه الانتقال المعتاد من العلة إلى المعلول هو: القوة والضرورة)

وقلت: (ليست لدينا أية فكرة عن العلة والمعلول غير فكرة عن أشياء كانت مرتبطة دائما، وفي جميع الأحوال الماضية بدت

1() تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم، 148.

2() يقصد بالاتصال أن الأسباب والمسببات متصلة ببعضها، وأن الشيء لا يمكن أن يحصل في زمان أو مكان يبْعُد عن زمانه ومكانه بالفعل.

3() لا يرى هيوم ضرورة أن تكون العلة ـ بحسب الظاهر ـ سابقة على معلولها، بل يراها أمرا يحتمل (الجدل)، ومع تسليمه أن التجربة في معظم الأحيان تنتصر لأسبقية العلة على المعلول، لكن مبدأ الأسبقية يبقى ـ عنده ـ دائما غير قابل للتدليل بنوع من الاستنتاج أو البرهان !.

غير منفصلة بعضها عن بعض، وليس في وسعنا النفـوذ إلى سـبب هذا الارتباط . وإنما نحن نلاحظ هذه الواقعة فقط، ونجـد أنـه تبعـا لهذا الارتباط المستمر فـإن الأشـياء تتحـد بالضـرورة في الخيـال، فإذا حضر انطباع الواحد كوَّنا نحن في الحال فكرة زميله المرتبط به في العادة)[1]

لقـد كـان لحكمي هـذا آثـاره الكثـيرة على مسـيرة الفلسـفة الإلحاديـة.. وكـان لـه دوره في إمـداد الملاحـدة بمـادة لاعقلانيـة جديدة يقضون بها على كل الحجج العقلية للمؤمنين.

لقد عبر بعضهم عن ذلك، فقال: (هيوم أول فيلسوف أوروبي نقل فكرة العلة من معانيها الأرسـطية إلى معـنى التتـابع المجـرد بين السبب والمسبب، أي التتابع الـذي لا يعـني شـيئا أكـثر من أن السبب سابق لمسببه فيما دلت عليه العادة (التجربة) . وقـد كـان يمكن عقلا أن يجيء الترتيب على صورة أخرى، لكنـه جـاء هكـذا)[2]

لقد استفاد من مقولتي هذه عمانويل كانط [3]، الـذي أعطى الملاحـدة المـبرر العقلي لنفي وجـود اللـه، باعتبـار أنـه لا يمكن التدليل عليه بالدليل العقلي .. بل راح ـ تحت تأثير مقولتي ـ يزعم أنه يسـتحيل إثبـات وجـود اللـه بالعقـل، كمـا أنـه يسـتحيل إثبـات عدمـه.. ثم تـرك القضـية بعـد ذلـك للضـمير، ولمصـادرات العقـل العملي.

لقد كان قبل احتكاكه بكتبي وأفكاره لا يقول بذلك، بـل كـان يقرر العلية في كتبه، كما نص على ذلـك في كتابـه (إيضـاح جديـد للمبادئ الأولى للمعرفـة الميتافزيقيـة)، حيث جعـل قسـمه الأول: لمبدأ عدم التناقض، أو الهوية، وقسمه الثاني: لمبدأ العلة الكافية،

---

1 () انظر: تحقيق في الذهن البشري لهيوم، ترجمة د محمد محجوب، 116 ـ 117، و 126 وهيوم لزكي نجيب محمود 148.

2 () مناهج البحث عند مفكري الإسلام لعلي سامي النشار، 164.

3 () عمانويل كانط (1724 ـ 1804)، حاول التوسط بين التجريبية والعقلانية المثالية، ووجه نقدا عقليا للدين، أهم كتبه: نقد العقـل الخـالص النظـري (المشهور بنقد العقل المحض)، ونقد العقل العملي، ونقد الحكم، وميتافيزيقا الأخلاق، ورسالة في السلام الدائم راجع يوسف كرم 208 ـ 216.

الذي نص فيه صراحة على أنه (لابد للموجود الممكن من سبب سابق يحدده)، و (أننا إذا تصاعدنا في سلسلة العلل إلى العلة الأولى؛ فإنه لا مجال بعدُ لأي تصاعد)[1]

إلا أنه بعد اطلاعه على مقالتي[2] تحول إلى كانط المؤمن الوحيد الذي يحبه الملاحدة، ويستدلون بمقالاته لضرب الدين.. لقد قال في ذلك: (إن هيوم أيقظني من سباتي الاعتقادي، وكان ذلك برأيه في مبدأ العلية بنوع خاص، إذ كان قد قال: إن مبدأ العلية ليس قضية تحليلية، أي: إن المعلول ليس متضمنًا في العلة أو مرتبطًا بها ارتباطًا ضروريًّا، وإن الضرورة التي تبين له ما هي إلا وليدة عادة تتكون بتكرار التجربة)[3]

وهكذا استفاد من مقالتي حبيب الملاحدة الأكبر [برتراند راسل[4]] الذي لم تكن مقالاته في هذا المجال سوى صدى لمقالاتي .. فقد قال عند نقده للاستناد إلى الخبرات الحسية في التفسير: (أنقتصر على خبراتنا الحسية وما تأتي به؟، فإذا لم يكن بين هذه الخبرات خبرة مباشرة بما يسمى (قوة) فلا داعي لافتراضها عند تفسير الطبيعة وظواهرها، إنها أحداث تتلاحق وتترابط مجموعات بمجموعات، فإذا اطرد حدوث مجموعة منها كان ذلك واحدا من قوانين الطبيعة، فالأمر كله حوادث وارتباطها بالتجاور، ولا شيء غير ذلك في علمنا؛ إلا ما نتبرع به ظنا ووهما، فإذا اعترض علينا معترض بأن (القوة) الرابطة بين السبب ونتيجته هي مما يرد في خبراتنا؛ أجبناه بأنه يخلط بين ما (يخبره) وبين ما (يستدله)

1() بدوي 2/271.

2() قال عبد الرحمن بدوي: (التحول الحاسم في فكر كانط قد حدث ـ فيما يبدو ـ في سنة 1796، ويبدو أن ذلك كان بتأثير هيوم، على خلاف في بيان ذلك شديدٍ بين الباحثين ذلك أن هيوم نبَّه كنت إلى مشكلة الكلية والضرورة في الأحكام)، بدوي، 2/271.

3() تاريخ الفلسفة الحديثة، ليوسف كرم 210.

4() سنتحدث عنه لاحقا.

ثم راح يفسر ذلك بقوله: (إنه قد يرى الريح تقتلـع الشـجرة، فيظن أنه قد رأى بعينه (القـوة) الـتي فعلت بهـا الـريح مـا فعلت، لكنه أحس الريح، وأحس الشـجرة تقتلـع، ثم (اسـتدل) من عنـده (قوة)؛ لأنه يميل بفطرته أن يسأل (لمـاذا)، على حين أن النظـرة العلمية تسأل (كيف)، ولا تزيـد على ذلـك؛ إننـا لا نلاحـظ إلا أحـدثا في تتابعها المطرد، من اطراد التتابع تتألف القوانين الطبيعية، أما (لماذا) كانت هذه القوانين على نحو ما كانت؛ فشـيء لا يـأتي بين ما يأتينا عن طريق الخبرة الحسية)

ثم راح يؤسـس على هـذا المثـال المبـدأ الـذي أقمت عليـه فلسفتي الإلحادية، فقال: (ولو حاولنا تعليل القوانين بقولنا (لماذا) لاحتاج التعليل إلى تعليل، وهذا إلى ثالث، وهلم جرا، ونكون عندئذ كالهندي الذي سأل (لماذا) لا تسقط الأرض في الفضـاء؟، وأجـاب نفسه بقوله: لأنها تستند إلى فيل، ثم سأل مـرة أخـرى: ولمـاذا لا يسقط الفيل في الفضاء؟، وأجبا نفسه بقولك: لأنه بـدوره يسـتند إلى سلحفاة، لكنـه سـأل نفسـه: ولمـاذا لا تسـقط السـلحفاة في الفضاء؟، فأخذته الربكة، وقال: إنـه مـلَّ البحث الميتـافيزيقي، ولا يردي المضي فيه)(1)

سكت قليلا، ثم قال: ولهـذا، فقـد رحت أقطـع طريـق البحث من الأول.. لأن العقل الذي يبـدأ في التسـاؤل عن السـبب الأول، لابد أن يتساءل عن السبب الثاني.. وهكذا، فإنه سيصـل لا محالـة إلى السبب الأخير.. وإلا وقع في التسلسل أو الدور.

ولهذا، فقد راح [دفيد هيوم] فيلسوف الشـك والعدميـة بكـل عبقريته الغبية ينفي صحة ذلـك الـدليل العظيم الـذي يسـتند إليـه المؤمنون [دليل الغائيـة والتصـميم] معتـبرا ذلـك من بـاب قيـاس الغائب على الشاهد.

وضع بعض الـدهن على جرحـه، ثم صـاح صـيحة شـديدة من الألم، ثم قال(2): لقد كنت أقول للمؤمـنين: أنتم تزعمـون أنـه إذا

1() الفلسفة بنظرة علمية، لبرتراند راسل، تلخيص وتقديم د زكي نجيب محمود، 95 ـ 102، باختصار.

2() انظر: الإلحاد ووجود الله، أحمد محمد حسن وأحمد دعدوش.

كان للبيت مهندس، فلا بـد أن يكـون للكـون خـالق.. وهـذا قيـاس فاسد.. فنحن لم نشاهد عالَما آخر لنقارنه بعالمنـا كي نسـتنتج أن هذا العالم مخلوق بالضرورة.

كنت أقول هذا، وأنـا مـدرك تمـام الإدراك أن الـبيت والكـون من جنس واحد، فكلاهما كيان مادي حـادث في الزمـان والمكـان، وكلاهما يحتاج إلى طاقـة، والاختلاف بينهمـا يقتصـر على الصـفات فقط، وليس الجنس.

لم يكن موقفي هذا مخالفا للمؤمنين البسطاء فقط، بل كان مخالفا لكل ما ذهب إليه العقلاء، بما فيهم فلاسفة قومي الـذين لا يشك أحد في سلامهم عقولهم وتفكيرهم..

ومنهم الفيلسـوف الفرنسـي الكبـير [رينيـه ديكـارت] الـذي أوضح أن ما يسميه المؤمنون [برهان التصميم] من القوة بحيث لا يحتاج إلى دليل خارجي، فهو دليل يعتمد على الحدس الفلسفي .. أي بالإدراك العقلي المباشر، وليس بالاسـتنتاج والقيـاس.. ولـذلك ذكر أن أولى الحقائق الـتي يـدركها العقـل هي وجـود الـذات (أنـا أفكر إذن أنا موجود)، ثم يـدرك مباشـرة أن هنـاك خالقـا موجـودا بالضرورة، وهو الذي أوجده، وهذا الإدراك ليس قياسا بل حدسا.

وما ذكره ديكارت من الوضوح والقوة بحيث لا يحتـاج إلى أي دليل، فإذا هبـط أحـدنا مثلا على سـطح كـوكب بعيـد ووجـد عليـه جهازا معقدا وهو لا يعرف شيئا عن حقيقته وآلية عملـه، فسـيدرك فورا وبدون قياس ولا مقدمات أن هناك مصمما مـا قـام بتصـميم هذا الجهاز.

سكت قليلا، ثم قال: لقد حاول الملحدون من أصحابي، وبكل الوسـائل اسـتغلال مـا ذكرتـه لضـرب الإيمـان والسـخرية من المؤمنين الـذين يرجعـون كـل شـيء إلى اللـه، ويعتبرونـه المـدبر الوحيد لكل ما في الكون..

وهم غـافلون واهمـون، لأنهم يخلطـون بين العلـتين الفاعلـة والغائية.. فالرؤية المادية للكون لا تتجـاوز العلـة الفاعلـة لتفسـير الظواهر الكونية، وهي علل يعترف بها المؤمن ويدرسـها ويتعامـل معها وفقا لقوانينها، إلا أنه يـرى في الـوقت نفسـه أن هنـاك علـة

غائية وراءها تعود إلى إرادة الإله وقدرته.

ولا يمكن أن تتعارض العلتان، فعندما نذكر أن شخصا حُكم عليه بالإعدام شنقا قد فارق الحياة بسبب الشنق؛ فنحن نتحدث هنا عن العلة الفاعلة .. أي كيفية موته.. وسنكون على حق أيضا إذا قلنا إنه مات، لأنه قتل شخصا بريئا .. أي علة موته.. فيكون الحديث هنا عن العلة الغائية التي لأجلها تم لف حبل المشنقة حول رقبته.

سكت قليلا، ثم قال: يتصور الكثير أني صاحب تلك المقالة .. كلا.. وإنما استفدتها من بعض علماء المسلمين، وخصوصا الغزالي.. لكن شتان ما بين طرحي لها، وطرحه لها .. أما طرحي لها، فكان دافعه نفي الخالق وتأثيره.. وأما طرحه لها، فكان لإثبات قدرة الخالق المطلقة، وتدخله في كل شيء، وتدبيره لكل شيء.

لقد أنكر الغزالي السببية ردا على أولئك الذين ذهبوا إلى أن العلاقة بين السبب والمسبب علاقة حتمية ضرورية، وأن نقض هذه العلاقة من المحالات.. بل ذهب بعضهم إلى أن الأسباب تفعل في مسبباتها بذواتها.. ولهذا أنكروا خرق العادات، وشغبوا على معجزات الأنبياء.. فأراد الغزالي أن يبين أن هذه الأسباب لا تفعل بذاتها، وإنما تفعل بإرادة الله وتدبيره.. وأن الله يمكنه في أي لحظة أن يوقف فاعليتها.

سكت قليلا، ثم قال[1]: من أوهامي المرتبطة بنقض أدلة المؤمنين دعواي أن [البحث عن علة للوجود المادي يدفع بنا إلى أن نبحث عن علة لله نفسه].. وهذا من جهلي بالتفريق بين الأسباب الناقصة والأسباب التامة، أو بين الأسباب الوسائطية والأسباب النهائية.

فالدواء سبب في الشفاء، لكن الدواء نفسه مسبب، وسببه هو الصيدلي الذي أعده في صيدليته، والصيدلي نفسه لم يأت بذلك من نفسه، بل إن السبب في إعداده الدواء هو الطبيب الذي

[1] انظر: مذاهب فكرية معاصرة، عرض ونقد -، للدكتور: محمود مزروعة، ص 169-185.

أرسل إليه ورقة فيها تحديد الدواء المطلوب لهذا المـريض، ثم إن الطبيب نفسه مدين بعلمـه ذلـك لمن علمـه، فهـو السـبب في أن الطـبيب عـرف المـرض ووصـف الـدواء.. وهكـذا تسـير سلسـلة الأسباب والمسببات، وكلها تترقى من مستوى إلى مستوى، لكنهـا جميعها مشتركة في أنها أسباب ناقصة، أي أنها في حاجة إلى من يقـف وراءهـا، مثـل الـدواء، فإنـه سـبب محتـاج إلى الصـيدلي، والصيدلي سبب لكنه محتاج إلى الطيب وهكذا.

ولا نجد في هذه السلسلة جميعا سـببا كافيـا مكتفيـا بنفسـه، بل كلها معلولات لما قبلها، وذلك هو معنى كونها أسـبابا وسـائط.. وهذا النقص يصل بنا إلى السبب التام، والفاعل الكامل، الذي هـو وراء كل شيء يجري في هذا الوجود، خـالق الكـل، ومـدبر الكـل، ومقدر الكل، والذي بيده كل شـيء.. من يحتـاج إليـه الكـل، وهـو غني عن الكل.

سكت قليلا، ثم قال: تلك بعض أوهـامي حـول الألوهيـة.. أمـا أوهامي المرتبطة بعلاقـة الإنسـان بالعـالم الخـارجي، وأن النـاس يعيشون داخـل ذواتهم، وأن صـلاتهم بالعـالم الخـارجي مقطوعـة، وأن كل ما يعرفه الإنسان عن العالم الخارجي إنما هـو أوهـام من صنع نفسه، ولا صله لها بالواقع.. فكل ذلك تدلس ومغالطات.

فالعالم الذي نعيشه حقيقة واقعة، ونحن نتعامـل مـع قوانينـه ومعطياته في كل لحظة من لحظات حياتنا، وليس هناك ما يختلف حوله الناس من تلـك القـوانين والمعطيـات، فهـل يختلـف النـاس على أن النار محرقة؟ وهل هذه حقيقة من الحقـائق الخارجيـة أم أنها وهم من أوهام الذات؟

قال ذلـك، ثم راح يشـعل عـود ثقـاب، ويقـول: سـأجري الآن تجربـةأخرى على تـأثير النـار على سـترتي، وهـل سـتحرق أم لا.. لاشك أنها لن تحرق، لأنه لا يوجد شيء اسمه علة وسـبب.. فكـل شيء وهم لا وجود له إلا في ذهني..

قـال ذلـك، ثم وضـع الثقـاب على سـترته، وانتظـر إلى أن اشتعلت النار فيها.. وراح يصرخ من الفرح: ها قد احترقت.. ها قد نجحت التجربـة.. ثم مـا لبث أن وصـلت النـار إلى جسـده، فصـاح

يصرخ من الألم..

كان منظره وحالته تستدعيان شفقة كبيرة.. فقد كانت حالته لا تختلف عن حال المجـانين إن لم تكن أشـد منهـا.. لهـذا تركتـه، ونظرت إلى أنبوبة اختبار أخرى.

برتراندرسل:

كان في أنبوبة الاختبار رجل يبدو من ملامحـه صـورة أعرفهـا جيـدا، وكلكم يعرفهـا .. إنهـا صـورة الفيلسـوف الكبـير [برترانـد راسل[1]].. لكنها كانت مشوهة جـدا، فقـد اختلطت فيهـا الملامح الإنسانية بملامح فئران التجارب.. وكان من الصعب التمييز بينهما.

وقف يقول، والسيجار في فمـه: لقـد قمت اليـوم بمـا يكفي من التجارب.. سـأخلد للراحـة قليلا.. لقـد كـانت متعـتي في ذلـك العالم الجميـل الـذي عشـته في التأمـل والتفكـير والكتابـة.. وقـد عرف الكثير من النـاس من هـو [برترانـد راسـل]، وكلهم حن إلى صحبته، والجلوس إليه.. لكنني اليوم وحدي.. لم يبق لي من أنيس سـوى هـذه الآلات المتعفنـة الـتي عشـت طـول عمـري أمجـدها، وأدعو لها، وأمحو الله من أجلها.. وها أنا اليـوم في صـحبتها.. فلن ينال أحد في الدار الثانية إلا ما عاش في صحبته في الدار الأولى.

جلس فـوق جهـاز يشـبه أجهـزة الطـرد المركـزي الـذي راح يتحـرك بـه حركـات عشـوائية مختلفـة، وكـان يصـرخ كلمـا زادت سـرعته.. ثم مـا لبث أن نـزل عنـه، وراح يقـول بـألم شـديد: لقـد أعطاني الله في الدار الأولى فرصا كثـيرة جـدا، كـان يمكنـني لـو استثمرتها أن أكون الآن في محل آخـر أكمـل وأجمـل.. لكنـني لم أستفد منهـا، بـل رحت أعلن من على منصـتها الحـرب على ربي، وتشكيل جيش من الأغبياء والمغفلين لذلك..

أذكر أنني كنت من عائلة أرستقراطية تسكن إنجلـترا.. وكنت عضوًا في مجلس اللوردات.. فأنـا سـليل اللـوردات النبلاء.. وكنت مع تلك الحالة المادية الطيبة، أحب الفلسفة والتفكير.. وكـان من

1() برتراند راسل (1872 ـ 1970)، إنجليزي، أستاذ للفلسفة بجامعة كمبردج، وأحد أعلام المنطق الرياضي المعاصرين، أهم كتبه: تاريخ الفلسفة الغربية، وتحليل المادة، وموجز الفلسفة، والمدخل إلى الفلسفة الرياضية، وغير ذلك انظر: يوسف كرم 431.

طـالعي السـيء أني رحت أسـتقبل همـزات الشـياطين باعتبارهـا خواطر فلسفية راقية.

أذكـر أنـني عنـدما كنت في سـن الثامنـة عشـر كنت مؤمنًـا بوجـود اللـه.. لكـني عنـدما قـرأت حيـاة [جـون سـتيوارت مـل]، وتساؤله الذي حيرني: (إن كـان لكـل سـبب مُسـبّب، ولكـل فعـل فاعـل، ولكـل حركـة مُحـرّك، فمن الـذي أوجـد المُسـبّب الأول والفاعل الأول والمُحرّك الأول) رحت أرمي الإيمـان، وأعتنـق دين الإلحاد.

لقد ذكرت في كتابي [لماذا لستُ مسيحيًا] أنـني عنـدما كنتُ طفلًا كانوا يقدمون لي [الله] باعتباره إجابة على كل الأسئلة التي تُثار عن الوجود، لكن عنـدما لم أجـد إجابـة عمن خلـق اللـه انهـار إيماني جملة.

ولم أهتم بعدها بالبحث عن حل لتلـك المشـكلة الـتي علقت في ذهني، وإنما رحت أدعمهـا، وأحـاول بكـل الوسـائل أن أتملص من الإيمان.. بل رحت أرمي كـل من يـؤمن باللـه بـالجنون وخفـة العقل.. وأصور أن الإيمان لا يمكن أن يكون وليد العقل، وإنما هـو وليد للعواطف المجردة من البصيرة.. وأن الأطفال يرضـعون هـذا الإيمـان من أمهـاتهم، ويشـبون عليـه دون أن يعرفـوا دليلا يثبتـه.. وأمـا الكبـار، فـإنهم لا يؤمنـون إلا بسـبب خـوفهم من المجهـول، وسعيهم للبحث عن قوة تحميهم من المخاطر التي قـد يتعرضـون لها.

وكنت أصور ذلـك في مقـالاتي وروايـاتي بأسـاليب مختلفـة.. لقد قلت في ذلك: (الإنسان استمد فكـرة الإيمـان باللـه من نظم الطغيان والجـبروت السـائدة في الشـرق، فعلاقـة الإنسـان باللـه أشبه ما تكـون بعلاقـة العبـد الـذليل بالحـاكم المسـتبد، وهي ذلـة تأباها كل نفس تشعر بالمعزة والكرامة)(1)

وقلت: (إن الـدين لا يقـوم إلا على عوامـل الـترهيب والتلـويح بالعقاب، وبالتالي فإن الدين يشكل ضرباً من ضروب الشر الـتي تملأ

(1) ملحدون محدثون معاصرون، د. رمسيس عوض، ص 56.

هذا العالم.. وهذا هو السبب في أننا نجد أن أولئك الذين لم يبلغوا بعدُ درجة كافية من النضج الأخلاقي والعقلي هم وحدهم الذين ما زالوا يتمسكون بالمعايير الدينية التي تناهض بطبيعتها جميع المعايير الإنسانية الخيرة التي يجب أن تسود عالمنا الحديث)

وهكذا رحت أضرب كل المعاني الدينية، بحقائقها وقيمها.. وكنت أكذب في كل ذلك، فهل كان الخوف من القوى الطبيعية هو الذي دفع كبار العباقرة وأساطين العلم والفكر الذين برعوا في إلجام الطبيعة، وتسخير بعض قواها، ودرؤوا الكثير من أخطارها إلى الإيمان بالله.

هل يمكن أن يكون اعتقاد سقراط وأفلاطون وأرسطو، وغيرهم من كبار الفلاسفة الإغريق.. والفارابي وابن سينا والرازي وابن الهيثم ونصير الدين الطوسي وجابر بن حيان وغيرهم من عمالقة الشرق.. وغاليلو وديكارت ونيوتن وباستور وغيرهم من رجالات الغرب.. سببه عامل الخوف من الحوادث الطبيعية، وهم أهل عقل وفهم، ورجال علم واستدلال؟

وإن لم يكن اعتقاد هؤلاء ناشئا عن الخوف من الطبيعة، فلم لا يكون اعتقاد الإنسان البدائي ـ على غرار اعتقاد هؤلاء العلماء ـ مبنيّاً على الاستدلال العقلي المتناسب مع مداركه، وناشئاً من فطرته النقية[1]؟

سكت قليلا، ثم قال: أذكر ذلك اليوم الذي سئلت فيه عن حياة الإنسان بعد الموت.. ومع أن المسألة خطيرة جدا، وخاض فيها كبار الفلاسفة والعقلاء.. بل آمن بها أكثرهم.. إلا أنني بغروري وكبريائي رحت أملي فيها على السائل ما أملته علي الشياطين.. لقد قلت له بكل كبر: (عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم، وليس من خلال ضباب العاطفة نجد أنه من الصعب اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت، فالاعتقاد السائد بأننا نحيا بعد الموت يبدو لي بدون أي مرتكزٍ أو أساسٍ علمي، ولا أظن أنه يتسنى لمثل هذا الاعتقاد أن ينشأ وأن ينتشر لولا الصدى الانفعالي الذي

---

[1] () انظر: الله خالق الكون: دراسةٌ علميّةٌ حديثة للمناهج والنظريّات المختلفةِ حولَ نشأةِ الكونِ ومسألةِ الخالقِ، جعفر الهادي، ص31.

يحدثه فينا الخوف من المـوت. لا شـك أن الاعتقـاد بأننـا سـنلقى في العالم الآخـر أولئـك الـذين نكن لهم الحب، يعطينـا أكـبر العـزاء عنـد مــوتهم، ولكــني لا أجــد أي مــبرر لافــتراض أن الكــون يهتم بآمالنــا ورغباتنـا، فليس لنـا أي حـق في أن نطلب من الكـون تكـييف نفسـه وفقاً لعواطفه وآمالنا، ولا أحسب أن من الصواب والحكمة أن نعتنــق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية)[1]

وقلت بعدها .. أظن أن ذلك كان عـام 1925م .. حينهـا كنت الثالثة والخمسين من عمـري، وكنت أظن أنـني سـأموت قريبـا..: (أؤمن بأنني عندما سأموت فأنني سأتعفن، ولن يبقى شيء مـني. لست شابًا، ولا أزال أحب الحيـاة، ولكن عليَّ أن أزدري الارتجـاف برعب من فكرة الزوال. السعادة بذاتها هي سـعادة حقيقيـة لأنهـا ستصل لنهايتها. لا يفقد الحب والفكرة قيمتهما بسـبب أنهمـا غـير دائمين، الكثيرون من الرجال مضوا محمولين على السقالة بفخرٍ، وبالتأكيد فإن الفخر ذاته يجب أن يعلمنا أن نفكر بمكانــة الإنســان في العالم)[2]

ولم يكن لي في ذلـك أي حجــة إلا الظن والــوهم والخيــال.. فمن أين لعقلي القدرة على التعرف على حقائق الوجود، وهــو لم يتح له إلا التعرف على أشياء بسيطة جدا لا تكاد تــذكر.. لكن لــذة الغــرور والكــبر كــانت تحــول بين عقلي وبين التفكــير في هــذه المسألة الخطيرة.

وهكــذا كنت أســخر من الــدين ومن جميــع القيم والحقــائق والأخلاق.. لقد ذكرت في بعض كتبي أن للإنسان إرادة حـرة تدفعـه لأن يقيم لنفسـه في الحيـاة مثلاً عليـا، يطمح بهـا إلى تحقيـق حيـاة خيرة، تسير على هدى المعرفة والمحبة الإنسـانية، ومن شـأن حريـة الاختيـار هـذه أن تغـني الإنسـان عن البحث عن نظريـات أخلاقيـة لا طائل وراءها.. وذكـرت أنـه لا جـدوى للنظريـات الأخلاقيـة التجريديـة لضرورات الحياة العملية، وبرهنت على ذلك بالأم التي تواجـه مـرض

[1] () انظـر الـرد على هـذا القـول ومـا يشـبهه في روايـة (أسـرار الحيـاة) من هـذه السلسلة.

[2] () نقلا عن: ريتشارد دوكنز، وهم الإله ص 164.

طفلها الصغير، وقلت في ذلك: إن تلك الأم لا تحتـاج في سـعيها وراء شفاء طفلها إلى مشرعين أخلاقـيين، وإنمـا تحتـاج إلى طـبيب مـاهر قادر على وصف العلاج المناسب.

ولم أكتف في دعوتي للإلحاد بما كان يسـجله قلمي الممتلئ بالمـداد المسـموم، وإنمـا رحت أؤسـس التنظيمـات الـتي تنشـر الإلحاد، وتـدعو إليـه.. لقـد أسسـت مـع [جـورج مـور(1)] و[جـون الفيس ماك] ما سميناه [جامعة الرسل]

كـان أمامـه دورق كـرويّ كبـير(2)، فقفـر إليـه بخفـة مثـل الفئران، وما لبث حتى اشتعلت النار أسفله، فـراح يصـيح ويصـرخ ويطلب النجدة.. وما هي إلا لحظات حتى خفت النار، ثم انطفأت، فخرج من الدورق، وهو يقول: أظن أنني تأكدت الآن من أنني في يقظة، ولست في حلم.. فالنار قـد أحرقتـني، وقـد وصـل حريقهـا إلى قلبي.. هذا ما كنت أخافه.. وهذا ما حصل لي..

ثم سكت قليلا، وقال: كم يعذبني ذلك المشـهد الـذي التقيت فيه ذلك العالم الهنـدي المسـلم(3)، والـذي راح يلقمـني كـل حين من الحجج ما لم أجد له مدفعها.. لكنني بكبريـائي وغـروري رحت أدفعه عني، وكيـف لمثلي وأنـا اللـورد ابن اللـوردات.. النبيـل ابن النبلاء أن أستسـلم لرجـل ليس سـوى ابن لمسـتعمر من

(1) كان جورج مور (1852-1933م) لا أدريًّا، فقد قـال: (بقـدر مـا أعتقـد أنـه لا يوجـد دليل على وجوده، فإني أعتقد كذلك أنه لا يوجد دليل على عدم وجوده. ومن ثمَ فإني لسـتُ مُلحدًا بمعنى ما. إنـني لا أنكـر أن اللـه موجـود، فالمحاجـات الـتي أسـوقها هي لمجـرد حث الناس على أنه لا يوجد ثمة أسباب للاعتقاد بوجوده.. إني لا أؤمن أن اللـه موجـود ولكن في الوقت نفسه لا أؤمن بعـدم وجـوده. ليس هنـاك ذرة واحـدة من دليـل ينم عن أدنى احتمـال لوجود الله أو لعدم وجوده)[د. رمسيس عوض، ملحدون محدثون ومعاصرون ص 60، 61]

(2) من الأدوات المسـتخدمة في المخـابر الكيميائيـة، وويسـتخدم في تحليـل المـواد الكيميائيّة، ويتميز بقدرتهِ على تحمل درجات الحرارة المرتفعة، ومن الممكن توصيله بدوارق أخرى من أجل إجراء اختبارات للتفاعلات بين المواد الكيميائيّة.

(3) أشير به إلى (وحيد الدين خان)، وهو مفكر مسلم هندي معاصـر يجمـع بين الفكـر الإسـلامي، والفكـر العلمي الفلسـفي.. وبتلـك المقومـات اسـتطاع أن ينـاظر الملحـدين واللادينيين بحججه الدامغة في العديد من كتبـه، وقـد اسـتفدنا بعض مادتـه العلميـة في نقـد برتراند راسل من كتابه (الإسلام يتحدى)، مع العلم أننا قـد ذكرنـا حواراتـه معـه على شـكل مناظرة في كتاب [الباحثون عن الله]

مستعمرات دولتي العظمى التي لا تغيب عنها الشمس.

لقد قال لي حينها، وهو يحمل روايتي عن السديم: لقـد كتبت قصـة أدبيـة ذكـرت فيهـا أن السـديم الحـار دار عبثـاً في الفضـاء عصوراً لا تعد ولا تحصى دوراناً ذاتيـا، ثمّ نشـأت عن هـذا الـدوران هذه الكائنات المنظمة البديعة، بطريق المصـادفة، وأن اصـطداماً كبيراً سيحدث في هذا الكون، يعود به كل شـيء إلى سـديم، كمـا كان أولاً.. أتعرف هذه القصة؟

فقلت: أجـل.. وكيـف لا أعرفهـا، وهي بنـات أفكـاري.. فأنـا العبقري الـذي أبـدعها.. لقـد اسـتطعت أن أبين من خلالهـا نشـوء الكون وتطوره.. ونشوء الحياة وتطورها.. وأصل الإنسـان ونشـأته وتطـوره.. ونشـوء الـديانات والعبـادات والطقـوس وتطورهـا.. وذكرت فيها أن النهاية الحتمية لجميع الأشـياء هي الفنـاء والعـدم، ولا أمل لكائن بعدها بشيء.. فالحيـاة من السـديم، وإلى السـديم تعود.

فقـال لي: لقـد رأيت من خلال روايتـك تلـك، ومن خلال كـل كتبك أنك ترى ـ انطلاقا من معارفك في البيولوجيا ــ أن الحـوادث تحدث طبقـا لقـانون الطبيعـة.. ولهـذا لا حاجـة لأن نفـترض لهـذه الحوادث إلها مجهولا.

فقلت له بكل كبرياء: صحيح أنا أقول هذا.. ولست وحدي في ذلك.. فكل الفلاسفة الماديين يرددون هذا.

فقال لي: ذلك غير صحيح.. فكثير من علماء المـادة يؤمنـون بالله، ولا يرون تناقضا بين العلم والدين.. وقـد قـال بعضـهم يعـبر عن علاقة الطبيعة بالكون: (إن الطبيعة حقيقة من حقائق الكـون، وليست تفسيرا له)

شعرت حينها بهزة عظيمة، فهـذه الجملـة تعـبر عن الحقيقـة بدقة ووضوح، ولو أنني لم أكن حينها أفكر بعقل اللوردات والنبلاء، لقبلت الفكـرة بكـل سـرور، وتخليت عن كبريـائي، وغطرسـتي.. لكنني لم أفعل.. بل رحت أقول له: وما يعني هذا المجنـون بقولـه هذا؟

فقال: لتفهم هذا سأستعير لك مثالا بسيطا مقربا.. ألا ترى الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية، ويخرج منها بعدما تنكسر وكأنه مضغة لحم؟

قلت: ذلك صحيح.. وقد كان الإنسان البدائي الخرافي القديم يؤمن بأن الله أخرجه.. ولكننا اليوم بالمنظار نعلم أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله في تكسير البيضة لينطلق خارجا منها، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.. وبذلك قضى العلم على التفسير الخرافي الذي جاء به الدين.. فالقرن هو الذي أخرج الكتكوت، لا الإله.

ابتسم صاحبي الهندي، وقال: إن التأمل فيما كشفه العلم ـ بعيدا عن الغرور والكبرياء والزهو ـ لا يدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث، ولا يفسر الحادث..

فقلت له: كيف ذلك؟

فقال: إن العلم لم يكتشف بعد السبب الحقيقي.. لقد غير صيغة السؤال فقط.. فبدل أن يكون السؤال عن تكسر البيضة أصبح عن (القرن)؟ .. فالسبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن، العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير.. وهو مشاهدتنا بالمنظار إلا أنه مشاهدة للواقع على نطاق أوسع، ولكنه ليس تفسيرا له.

لم أجد ما أرد عليه.. فشجعه ذلك، فقال: لا بأس .. يمكنك ألا تقبل هذا من هندي منبوذ متخلف.. لكن يمكنك أن تسمعه من عالم أمريكي متخصص.

قلت مستغربا: عالم أمريكي متخصص؟

قال: أجل.. لعلك تعرفه .. إنه البروفيسور (سيسيل بايس هامان)، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا، فقد ضرب مثالا قريبا من هذا، فقال: (كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءا

من البدن تنسب من قبل إلى الإله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيماويا.. ولكن هل أبطل هذا وجود الإله؟.. فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا؟.. إن الغذاء بعد دخوله فى الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض، فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة!)

وعلى هذا المنوال نقول بأن الإنسان كان في القديم يعرف أن السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيرا لها.

فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية؟ والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.

لقد قال العالم الأمريكي سيسيل في هذا: (إن الطبيعة لا تفسر شيئا (من الكون) وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير)

لم أجد ما أرد عليه، فراح يسترسل في قوله: لو أنك سألت طبيبا: ما السبب وراء احمرار الدم؟.. لأجاب: لأن في الدم خلايا حمراء، حجم كل خلية منها جزء من البوصة.. فتقول له: حسنا.. ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟.. فيجيبك: في هذه الخلايا مادة تسمى (الهيموجلوبين)، وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين فى القلب.. فتقول له: هذا جميل.. ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التي تحمل الهيموجلوبين؟.. فيجيبك: إنها تصنع في كبدك.. فتقول له: عجيب! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها بعضها ببعض ارتباطا كليا، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟.. فيجيبك: هذا ما نسميه بـ (قانون الطبيعة).. فتقول له: ولكن ما المراد بـ (قانون الطبيعة) هذا، يا سيدي الطبيب؟..

فيجيبك: المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية للقوى الطبيعية والكيماوية.. فتقول له: ولكن لماذا تهـدف هـذه القـوى دائمـا إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء، ويعيش السمك في الماء، ويوجد إنسان في الدنيا بجميع مـا لديـه من الإمكانات والكفاءات العجيبـة المثـيرة؟.. فيجيبـك: لا تسـألني عن هـذا، فـإن علمي لا يتكلم إلا عن: (مـا يحـدث)، وليس لـه أن يجيب: (لماذا يحدث؟)

قال ذلك، ثم التفت لي بحزن، وقال: من هذه الأسئلة يتضـح لك مدى صلاحية العلم الحديث لشـرح العلـل والأسـباب وراء هـذا الكون.. ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء الـتي لم نكن على معرفة بهـا، ولكن الـدين جـواب لسـؤال آخـر لا يتعلـق بهـذه الكشـوف الحديثـة العلميـة، فلـو أن هـذه الكشـوف زادت مليـون ضعف عنها اليـوم فسـوف تبقى الإنسـانية بحاجـة إلى الـدين، لأن جميع هذه الكشوف (حلقات ثمينة من السلسـلة)، ولكن مـا يحـل محل الدين لابد أن يشرح الكون شـرحا كليـا وكـاملا، فمـا الكـون على حاله هذه إلا كمثل ماكينة تدور تحت غطائهـا لا نعلم عنهـا إلا أنها (تدور)، ولكنا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة يدور بعضها بعضا، ونشـاهد حركاتهـا كلها.. هل معـنى هـذا أننـا قـد علمنـا خـالق هـذه الماكينـة بمجـرد مشاهدتنا لما يدور داخلهـا؟ هـل يفهم منطقيـا أن مشـاهدتنا هـذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتيا؟ لو لم يكن هذا الاسـتدلال منطقيـا فكيـف إذن نثبت بعـد مشـاهدة بعض عمليات الكون أنه جاء تلقائيا ويتحرك ذاتيا؟

كـان لكلماتـه من القـوة والوضـوح مـا لم أسـتطع مواجهتـه، فرحت أسخر منـه، ومن لونـه وشـكله، فابتسـم، وكأنـه لم يسـمع شيئا، بل راح يواصل حديثه بقوله: لقد اسـتغل البروفيسـور هريـز هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقـاء فقـال: (إن الاسـتدلال بقـانون الانتخـاب الطـبيعي يفسـر عمليـة (بقـاء الأصلح)، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الأصلح)

حينها انتفضت غاضبا، وقلت: دعنا من هـذا، وأجبـني على مـا يقوله علم النفس الحديث المؤيـد بـالكثير من الوسـائل العلميـة..

لقد أعطى هذا العلم العظيم تفسيره للدين والإله.. فذكر أن الإله والآخـرة ليسـا سـوى قيـاس للشخصـية الإنسـانية وأمانيهـا على مستوى الكون.. ما تقول في هذا؟

فابتسم، وقال: سأسلم جدلا بما ذكرت.. فأعتبر أن ما تقولـه صحيحا.. ولكني أضم إلى ذلـك دعـوى أخـرى، وهي أن الشخصـية الإنسانية وأمانيهـا ليسـت محصـورة في الإنسـان فقـط.. بـل هي موجودة أيضا على مستوى الكون.. ولا يهمني ما عسـى أن يبطـل ادعائي هذا من منطـق المعارضـين.. لأنـه ليس لـديهم ــ بالنسـبة للإنسان في هذا ـ أي دليل.

نحن نعرف أن المـادة (الجـنين) الـتي لا تشـاهد إلا بالمنظـار تنبئ في ذاتها عن إنسـان طولـه 72 بوصـة، وأن (الـذرة) الـتي لا تقبـل المشـاهدة تحتـوى نظامـا رياضـيا كونيـا يـدور عليـه النظـام الشمسـي، فلا عجب إذن أن يكـون النظـام الـذي نشـاهده على مستوى الإنسان في الجنين، وعلى مستوى النظام الشمسـي في الـذرة موجـودا أيضـا.. بـل موجـود بصـورة أكمـل.. على مسـتوى الكون.. فضمير الإنسان وفطرته ينشدان عالما متطورا كاملا، فلو كان هذا الأمل صدى لعالم حقيقي، فلست أرى في ذلك أي ضرب من ضروب الاستحالة.

هذا أولا.. ثانيا.. أنا لا أكـذب مـا يـورده علمـاء النفس وغـيرهم من أن الـذهن الإنسـاني يحتفـظ بأفكـار قـد تظهـر فيمـا بعـد في صورة غير عادية.. ولكن سوف يكون قياسا مـع الفـارق أن نعتمـد على هذه الفكرة كي نبطل الدين.. لأن ذلك قياس في غير محله، وهو ـ بذلك ـ يعتبر استدلالا غير عادى من واقع عادى.. وذلك يشبه من يشاهد رجلا يصنع صنما، فيصيح: هذا الـذي قـام بعمليـة خلـق الإنسان.

ثالثا.. أرأيت لو أن رجلا كـان يسـير في شـارع، ثم أخـذ يهـذي بكلام غريب نتيجة لأفكار مختزنه في ذهنه.. فجـاء فيلسـوف مثـل حضرتكم، وراح يستغل هـذا الحـادث في البحث في كلام الأنبيـاء، وهو الكلام الذي يكشف سر هذا الكون.. ألا ترى أن هذا النوع من الاستدلال غير علمي وغير منطقي.. بل إنـه يـدل على أن صـاحبه يفتقـر إلى القيم حـتى يسـتطيع التفرقـة بين كلام رجـل الشـارع

وكلام الأنبياء، فلا يدعى أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين؟

ثم تخيل معي لو أن رهطا من سكان بعض الكواكب هبط الأرض، وهم يسمعون، ولكنهم لا يقدرون على الكلام.. ولنتصور أنهم ذهبوا يبحثون عن الأسباب التي تجعل الإنسان يتكلم.. وبينما هم في طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح واحتك غصنان أحدهما مع الآخر، فنتج صوت، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح، وإذا بهم يعلن كبيرهم: لقد عرفنا سر كلام الإنسان، وهو أن فمه يحتوى على فكين من الأسنان، فإذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت.

لا شك أن هذا الكلام صحيح.. ولكن واقع الكلام الإنساني أعظم من أن يفسر بمثل هذا.. فلهذا لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب كهذيان رجل الشارع، في حال الجنون أو الهستيريا.

رابعا.. لاشك أن اللا شعور ـ من الوجهة العلمية ـ ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته ولو مرة، ومن المستحيل أن يختزن اللاشعور حقائق لم يعلمها من قبل..

ولكن الذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات، فمن أين يأتى بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها؟

إن الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة[1] من الطبيعة، والفلك، وعلم الحياة، وعلم الإنسان، وعلم النفس والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم..

وكل حديث في التاريخ الإنساني مصدره (الشعور)، فضلا عن

1() لا ينطبق هذا انطباقا صحيحا شاملا إلا على الإسلام ومصادره المقدسة، وقد برهنا على هذا بتفصيل في رواية (معجزات علمية) من سلسلة [حقائق ورقائق]

اللاشعور، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة.

أما الكلام النبوي فإنه بريء ولا شك من كل هذه العيـوب رغم اتصاله بجميع العلـوم.. فقـد مـرت قـرون إثـر قـرون أبطـل فيهـا الآخرون ما ادعاه الأولون، ومـا زال صـدق كلام النبـوة باقيـا على الزمان، ولم يسـتطع أحـد أن يـدل على باطـل جـاء بـه، وكـل من حاول ذلك أخفق.

لم أجد ما أجيبـه إلا أنـني امتلأت احترامـا لـه، ولقـوة حجتـه، وأدبه.. فأبديت لـه بعض اللطـف، فقـال لي: أنـا أشـفق عليـك يـا أخي.. فأنا أعلم من خلال اطلاعي على مؤلفاتك ومؤلفات إخوانك من الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع أنكم لا تدرسون الدين من وجه صحيح.. ولهـذا يبـدو في نظـركم شـيئا غريبـا.. أنتم تتنـاولون الـدين على أنـه (مشـكلة موضـوعية)، فلهـذا تجمعـون في سـلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الـدين) من رطب ويـابس، في أي مرحلة من التـاريخ، ثم تتـأملون في ضـوء هـذا المحصـول حقيقـة الدين..

إن هذا موقـف ينحـرف بكم عن الصـواب من أولى مراحلـه، ولهذا يبدو لكم الدين ـ جراء هذا الموقف الفاسد ـ عملا اجتماعيـا، لا كشفا لحقيقة.. ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقـة من الحقائق مثلا أعلى، ولا بد عند البحث عن هذه الحقائق أن نـدرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى.. أما الأمور التي تأتى بها أعمـال اجتماعيـة فليس لهـا مثـل أعلى.. وبقاؤهـا رهن بحاجـة المجتمع إليها.

ومنهج البحث عن الدين يختلف عن هذا كل الاختلاف.. فليس من الصـحيح البحث عن حقائقـه، كمـا يبحث المؤرخـون عن تطورات فنون العمارة والنسـيج والحياكـة والسـيارات، لأن الـدين علم على حقيقة يقبلهـا المجتمـع أو يرفضـها، أو يقبلهـا في شـكل ناقص.. ويبقى الـدين في جميـع هـذه الأحـوال حقيقـة واحـدة في ذاتها، وإنما يختلف في أشـكاله المقبولـة، ولهـذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلـة لجميـع الأشـكال الموجـودة في المجتمعات باسم الدين.

لقد قلت له حينها، وقد خف بعض كبريائي: أراك انتقدت منهج بحثنا عن الإله.. فما المنهج الذي تراه سليما للبحث عنه؟

فقال: هذا أهم سؤال طرحته.. وينبغي لأي باحث أن يطرحه.. فقضية العصر الحاضر وكل العصور ضد الدين هي قضية طريقة الاستدلال.. سأضرب لك مثالا يوضح ذلك..

في بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا، فلما شاهدنا السماء بهذا النظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغاز تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوما، ولكنا حين تمكنا من صناعة منظار قوى وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض.

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين، وأن العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة.

لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة، ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون أمورا سطحية وغير مهمة نسبيا، أما النظريات التي يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى ملاحظتها.

والعلم الحديث لا يدعى ولا يستطيع أن يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة، فالحقيقة أن (الماء سائل)، ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة، ولكن الواقع أن كل (جزيء) من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم، غير أنها ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقي.

يقول في ذلك البروفيسور ا. ى. ماندير: (إن الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى (الحقائق المحسوسة)، بيد أن الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في (الحقائق المحسوسة)؛ فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة، ولكننا عثرنا

عليها على كل حال، ووسيلتنا في هذه السبيل هي الاستنباط، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه (بالحقائق المستنبطة)، والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين، وإنما الفرق هو في التسمية، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة وعلى الثانية بالواسطة، والحقيقة دائما هي الحقيقة سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط)

ويضيف ماندير قائلا: (إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر؟.. هناك وسيلة، وهى الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكرى، نبتدئ به بوساطة حقائق معلومة حتى ننتهي بنظرية: أن الشيء الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقا)

قاطعته قائلا: كيف يكون هذا الرجل بروفيسورا وهو يقول هذا؟.. كيف يصح الاستنباط المنطقي لأشياء لم نشاهدها قط؟.. وكيف يمكن أن نسمى هذا الاستنباط بناء على طلب العقل (حقيقة علمية)؟

ابتسم، وقال: لقد أجاب ماندير عن تساؤلك هذا.. فقال: (إن المنهج التعليلي صحيح، لأن (الكون) نفسه عقلي.. فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر؛ حقائقه المتطابقة، ونظامه عجيب، ولهذا فإن أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها هي دراسة باطلة)

وقال: (إن الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقائق الكون، غير أن هذه الحقائق التي ندركها بالحواس قد تكون جزئية، وغير مرتبطة بالأخرى، فلو طالعناها فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا، فأما إذا درسناها في ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سندرك حقيقتها)

وقد تحدث نيوتن في خطاب أرسله إلى (بنتلى)، فقال: (إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهى تؤثر على مادة أخرى مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما)

فنظرية معقدة غير مفهومة ولا طريق إلى مشاهدتها، تعتبر اليوم بلا جدال حقيقة علمية.. لماذا؟

لأنهـــا تفســـر بعض ملاحظاتنـــا فليس بلازم إذن أن تكـــون الحقيقـة هي مـا علمنـاه مباشـرة بالتجربـة، ومن ثم نمضـى إلى القول بأن العقيدة الغيبية التي تربط بعض ما نلاحظه، وتفسـر لنـا مضمونه العام تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة.

قال ذلك، ثم التفت لي، وقال: كما رفض العلماء نظرية الضوء التي قدمها نيوتن لأنها لم تنجح في تفسير مظـاهر حديثـة للضـوء؛ فإننا نـرفض أفكـار الفلاسـفة الملحـدين لأنهـا فشـلت في تفسـير مظاهر الطبيعة.

قال ذلك، ثم أخذ يضرب رأسه بأنبوبة زوجية إلى أن تكسرت، وسال دم كثير من رأسه، وهو يقول: يا ويلتى ليتني استمعت إليك أيها الهنـدي المسـلم.. ليتـني اتبعتـك .. ليتـني جلسـت تلميـذا بين يديك..

قال ذلك .. ثم ركب الدورق، وراح يشعله ويحترق..

كارل ساغان:

لم أسـتطع مشـاهدة [برترانـد راسـل]، وهـو يحـترق، ولهـذا صرفت بصري عنه إلى أنبوبة أخرى، حيث رأيت رجلا أعرفه تمـام المعرفة.. كـان يظهـر كثـيرا في الـبرامج والفيـديوهات المنتشـرة على مواقـع التواصـل الاجتمـاعي، وكـان الإقبـال على مشـاهدته كثـيرا، لأن لـه طريقـة خاصـة جذابـة في طـرح أفكـاره، وكـان يستعملها كوسيلة للتنفير من الدين والدعوة للإلحاد.

أذكر من تلك الفيديوهات التي شـدت انتبـاهي فيـديو بعنـوان [نقطة زرقاء باهتة(1)] يحاول من خلاله أن يبين صغر حجم الأرض أمام الكون الهائل، وقد تصورت في البداية أنـه شـريط يـدعو إلى الإيمان بالله، وإلى بيان عظمته وجميل إبداعه، وينعى على البشر كبرياءهم وغطرستهم وظلمهم، لكني وجدت الأمر مختلف تمامـا، فهو لا يصور الأرض بتلك الصورة إلا ليحقرها، ويحقر أهلها، ويحقر المعاني الإيمانية المنتشرة فيها..

---

(1) عنوان كتاب لكارل ساغان.

ومما جاء في الشريط قوله: (كوكبنا، هو ومضـةٌ وحيـدة، في فراغٍ كونيٍّ مظلم. خلال وجودنِا في هـذا الظلام الهائـل، لا نمتلـك أيَّ دليـلٍ بـأن مسـاعدةً سـتأتي يومـاً من الخـارج، لإنقاذنـا، من أنفسـنا. للآن، الأرض هـو الكـوكب الوحيـد الـذي يمكنـه احتضـان الحياة، ولا يوجد أيُّ مكانٍ ـ على الأقل خلال الفترة القريبة هـذه ـ يمكننا الرحيل إليه. ربمـاً يمكننـا زيـارة الخـارج، أمـا البقـاء خـارجَ الأرض! فليس بممكنٍ بعـد. سـواءٌ أعجبتـك الفكـرة أم لا؛ هـذا الكوكب: هو مصيرُنا)

وقد تعجبت حين سمعت هذا كثيرا، لأني لم أر أي علاقـة بين صغر حجم الأرض وبين احتقاره لها.. فالصـغير أو النـادر لا يحتقـر، بـل يوضـع في محلـه من سـائر الأشـياء.. وهـل يمكن لعاقـل أن يرفض الأفكار الـتي طرحهـا أينشـتاين بحجـة أنـه فـرد من ملايـير البشر، أو أجاء بأفكـاره وهـو في بقعـة جغرافيـة محـدودة، أو في زمن محدود من بحر الزمن العظيم..

وهكذا نجد مصير الإنسـان مرتبطـا بخلايـا محـدودة.. ومصـير المجتمعات مرتبطا بأشخاص معدودين.. بل حيـاة الإنسـان نفسـها مرتبطة بقرارات محدودة، وكلمات محدودة، كان لهـا تأثيرهـا بعـد ذلك في شيء.

لكـني مـع ذلـك لم أملـك إلا أن أشـاهده كمـا شـاهده سـائر الناس.. لأنه كان يملك طريقة خاصة جذابة مملوءة بألوان السحر والمغالطات.. فطربت لمشاهدته كما أطـرب لمشـاهدة السـحرة والمشعوذين.

أظن أنكم عرفتموه، أو رأيتم بعض فيديوهاته، أو قرأتم بعض كتبه، فهي من أكثر الكتب مبيعا في العالم.. إنه الفلكي الأمـريكي [كارل ساغان] صاحب كتاب [العالم المسـكون بالشـياطين: العلم الطبيعي كشمعة في الظلام]، والذي ألفه سنة 1995 .. وقام فيه بحملــة ترويجيــة للعلم الطــبيعي وطرائقــه في البحث والنظــر، باعتباره السبيل الوحيـد للنجـاة من الخرافـة والأسـطورة.. وكـان ذلك الكتاب من أوائل الحملات المُعاصـرة المبشـرة بملـة الإلحـاد الجديد.. أو النِّحلـة الطبيعيـة المعاصـرة.. والـتي كـان من أعلامهـا الكبار ريتشـارد دوكيـنز، وسـام هـاريس وآخـرون بـدعوى محاربـة

الخرافة في القرن الواحد والعشرين.

كـانت صـورته ــ كصـور كـل من في ذلـك الجنـاح ــ شـبيهة بالفئران البيضاء.. ولكن ملامحه الإنسانية لم تختف كليـا، بـل بقي منها ما يدل عليه، وما عرفته به..

كان يحمل تلسكوبا ضخما ينوء به ظهره، فيتصبب العرق من جبينه ومن كل أنحاء جسده، وكان يصيح فيه بشدة: إلى متى أظل أحملك أيها العبء الثقيل.. إلى متى أتخلص منك إلى الأبـد .. لقـد ملأت حياتي بالنكد.. لا أريدك .. ابتعد عني..

ثم يرميه إلى الأرض.. لكنـه يسـرع إليـه، ويمسـحه ويخاطبـه كما يخاطب الإنسان، ويقول له، وعيناه ممتلئتان بالدموع: اعذرني أيها التلسكوب العزيز.. اعذرني فقد أسأت إليك.. لقد علمني الله كيف أستخدمك لأتعرف عليه، وأعبده، وأعيش حياتي عاشـقا لـه.. لكنني أنا الظالم لنفسي جعلت من وسيلة هدايتي وسـيلة ظلالي، وحولت من أداة الإيمان به إلى أداة الجحود له.

لعلك تذكر معي كتابي [العـالم المسـكون بالشـياطين: العلم الطـبيعي كشـمعة في الظلام].. فقـد كتبتـه، وأنـا بجانبـك.. ذلـك الكتاب الذي أردت من خلاله ــ في الظـاهر ــ تعليم عامـة النـاس المنطـق العلمي الطـبيعي للتميـيز بين مـا هـو صـالح من الناحيـة العلمية، وما ليس كذلك، أو ما هـو من قبيـل العلم الكـاذب.. لكن باطنه كـان ممتلئـا بـالخبث والمغالطـات الـتي تـؤدي بـالواقع في شباكها إلى الإلحاد.

فقد أقمت الكتاب على إنكار عالم الغيب وتسفيه التصـورات الدينية للوجود جملة وتفصيلا، وقطع السبيل أمام العقـل البشَـري للتميـيز بين الحــق والباطــل إلا من خلال أدوات العلم الطــبيعي التجريبي.

نعم لم يكن كتابي يحمل تلك الجرأة التي جاء بها كتاب [وهم الإله] لدوكينز، أو [الإله ليس عظيمًا] لهيتشنز، أو [نهايـة الإيمـان] لهاريس.. لأن منظمتنا الإلحادية الكبرى، والـتي يقودهـا الشـيطان منعتنا أن نظهر بمظهر واحد.. بل نصحتنا بأن نتبادل الأدوار.. حتى يقتنص كل واحد منا أصنافا مخصصة من الناس.

وقد كلفت بجر أولئك البسطاء العامة الذين لا يعرفـون جيـدا كيف يستعملون عقولهم.. فـرحت أضـع لهم هـذا الكتـاب، وأمـزج فيه بين الصواب والخطأ.. والعقل والوهم .. حتى تختلـط عقـولهم بأوهامهم، لأنه لا يمكن أن يجحد الله صاحب العقل الخالص.

وقد كان منهجي[1] في ذلـك هـو صـياغة جملـة من القواعـد العقليـــة والفلســفية المســتنبطة من فلســفة العلم الطــبيعي المعاصـرة لتكـون بمنزلـة حقيبـة أدوات صـغيرة يسـتعملها عامـة الناس لكشـفِ الأباطيـل والخرافـات الـتي قـد تـروج تحت دعايـة العلم.

هذا هو الهدف الظاهر من الكتاب، وهو هـدف نبيـل وطـبيعي وجذاب.. لكن السم كان يتخلل كل قاعدة منها على شـكل مثـال، أو توضيح، أو نحو ذلك.. لأحول الحقيقة عن مجراهـا الطـبيعي إلى المجرى الذي حددته رغبتي وأهوائي وشياطيني.

لا أخفي أنني قلدت في هذا الأسلوب من المكيـدة الأسـلوب الــذي اســتعمله تلميــذي النجيب [مايكــل شــيرمر] ذلــك العــالم النفساني الملحد الذي جمَع عشرة أسئلة واعتبرها بمنزلة [حقيبـة أدوات لكشْفِ الخرافات والترَّهات]

سـكت قليلا، ثم راح يـربت على التلسـكوب كمـا يـربت على ظهـر إنسـان، ثم يقـول، وهـو يبتسـم: هـل تـذكر معي اسـتثماري للأخطاء التي يقع فيها رجال الأديان المختلفة، واستعمالي لهـا في نصرة الإلحاد؟

هل تذكر معي الأمثلـة الـتي ذكرتهـا عنـد حـديثي عن قاعـدة [الاحتجاج بالجهـل المُطلَـق]، أو [الجـواب بالأمـاني]، أو [التفسـير بالجهل].. فقد ذكرت من الأمثلة على ذلـك أنـه إذا سـئل أحـدهم: (كيف يمكن لإله رحيم أن يَلعن أجيالاً مستقبلية من الناس لعـذاب لا نهائي بسبب امـرأة واحـدة أغـرَت رجلاً واحـدًا ليَأكُـل تفاحـة؟)، فيجيب عنه بقوله: (أنت لا تفهم الطبيعـة الفريـدة لمفهـوم الإرادة الحرة!)

[1] () استفدت بعض المادة العلمية الوارد هنا من كتاب: آلـة الموحِّدين لكشـفِ خرافـات الطبيعيين، أبو الفداء ابن مسعود.

فمع أن أصل السؤال مرتبط بدين واحد من الأديان، إلا أني رحت أطبقه على الأديان جميعا، مع أني كنت أعلم أن هناك أديانا لا تردد هذا، لأنها لا تؤمن أصلا بتوارث الخطيئة.

ولو أنني كنت صادقا لضربت الأمثلة على هذا من أصحابي الملاحدة أنفسهم.. أو مزجت على الأقل بين أخطاء المتدينين وأخطاء الملاحدة.. حتى لا أقع في الانتقائية.

ذلك أن أولى الناس بأن يُخاطَبوا بهذا الكلام هم أصحابي من الملاحدة.. فلا يكاد يُناظرهم أحد في بطلان كثير من القضايا الفلسفية التي يُشيدون عليها اعتقادهم في إنكار الصانع وفي أصل الحياة وأصل الكون إلا رأيتَهم يُسارعون إلى تجهيله، واتهامه بأنه جاهل لا يفهم نظرية الارتقاء، ولا يفهم الانتخاب الطبيعي؛ إذ يخلط بينه وبين معنى الصدفة المحضة، وأنه لا يُحسن تصور نظرية الاحتمالات الإحصائية، ولا يحسن تطبيقها، ولا دراية له بضوابط العلم الطبيعي وقيود ممارسته، إلى آخر ما يثيرونه من دعاوى مشابهة لإسكات المخالف.

كان حريا بي أن أضرب المثل على ذلك بالكاهن الأكبر للملاحدة [ريتشارد دوكينز] الذي ذكر في أكثر من موضع من كتابه [وهم الإله] بأن تحقيق الفهم والاستيعاب الأكمل لنظرية داروين، وما يترتَّب عليها من تصورات تخالف الحدس البشري الطبيعي يتطلب ما يسميه بالرقي بالوعي البشري..

ألا ترى يا صاحبي التلسكوب أنه لا يختلف كثيرا عن زعم بعض علماء اللاهوت أن فهم الثالوث واستيعابه على حقيقته لا يصل إليه إلا قديس، يأتيه الرب بنفسه ويجالسه ويخاطبه كل ليلة.

سكت قليلا، ثم راح يربت على التلسكوب، ويقول: هل تذكر معي تلك القاعدة التي وضعتها في كتابي، والتي سميتها [الاستدلال بالعدم]، ونصصت عليها بأن (ما لم يَثبت بطلانه فإنه حق ولا بد، والعكس بالعكس).. وضربت على ذلك مثالا، فقلت: (قد يكون هناك البلايين من العوالم الأخرى، ولكن ما مِن واحد من تلك العوالم يُعرَف عنه أن فيه ما في الأرض من تقدم

أخلاقي، وبالتـالي فنحن لا نـزال مركـزيِّين في هـذا الكـون)، ثم ذكرت أن هـذا الحكم يمكن انتقـاده في عبـارة واحـدة، وهي: (إن عدم الدليل ليس دليلاً على العدم)

لاشك أنك تعرف نـوع المغالطـة الـتي أريـد أن أمررهـا بهـذا المثال.. وهي احتقار الأرض، واحتقار الإنسان.. وذلك كلـه لاحتقـار المعارف التي يحملهـا عن الكـون، بحجـة أنـه ليس مركزيـا فيـه.. وبالتالي التشكيك في المعرفة بالله، وفي كـل القيم الـتي جـاءت بها الأديان.

سكت قليلا، ثم راح يقول: من الأمثلـة الـتي كنت أتلاعب بهـا بعقـول البسـطاء والسـذج مـا ذكرتـه عنـد حـديثي عن [الاحتجـاج بـالعواقب غـير المرغوبـة].. فقـد ضـربت لـذلك مثـالا قلت فيـه: (الزعم بأن إلهًا يضع للخلائق العقوبات والمكافآت يجب أن يوجـد؛ لأنه إن لم يكن موجودًا، فإن المجتمع سينفك من القانون ويفتقـر إلى الأمن، وربما يكون غير قابل للحكم والقيادة)

وقد أردت من هذا المثال تحطيم تلك الحجج الـتي يسـتعملها المتدينون لإثبات المعاد والجزاء والعدالـة الإلهيـة.. ثم يبنـون على أساسها كل القيم الإنسانية النبيلة.

سكت قليلا، ثم قال: دعك من كل تلك القواعـد، ومـا تحويـه من مغالطات.. وهلم بنا إلى المغالطـة الكـبرى .. تلـك المغالطـة التي تستند إلى [شفرة أوكام]، وهي الـتي تنص على أننـا (عنـدما نواجَـه بفرضـيتين تسـتويان في معقوليـة تفسـيرهما لجملـة من البيانات، فعلينا أن نتخير الأيسر والأبسط منهما)

فهذه القاعدة من الركائز الأساسية التي يشيد عليها أصحابي من الملاحـدة ــ بمختلـف مدارسـهم ــ عقيـدتَهم الإلحاديـة.. فهي تتناسب مع عقولهم الكسولة الـتي لا تريـد أن تغـرق في مناقشـة الفرضيات الفلسفية.. لذلك تعتبر (التفسيرات الأيسر مقدَّمة على التفسيرات الأعقد عند التساوي)

مـع أن هـذه القاعـدة تخـالف المنطـق العقلي، لأنـه لا دليـل عليها.. فلم يدل الاستقراء الطبيعي على أن التفسيرات الأيسر أو الأبسـط ــ حـتى في دائـرة البحث الطـبيعي ــ تكـون هي الأحظى

بالصواب؟ .. وهل هناك حدٌّ مُنضبِط يمكن الاتفاق عليه للحكم على تفسير من التفسيرات بأنه بسيط، وعلى آخر بأنه معقد.

لا شكَّ في أن أفضل الطرق للوصول من نقطة (أ) إلى نقطة (ب) هو الطريق المستقيم، ولكن عن أي طريق نتحدث، وعن أي نقطتين؟ هنا يأتي الخلط عند كثير من فلاسفة العلم الطبيعي ومن تابعهم من علماء الملاحدة.

ولا شك كذلك في أن زيادة الافتراضات الطبيعية في تفسير ظاهرة من الظواهر دون مسوِّغ من القرائن العلمية المعتبَرَة يعدُّ تكلفًا لما لا حامل عليه، ومخالفةً لغاية العلم الطبيعي نفسه.. لكن هذا لا يعني ـ بالضرورة ــ أن التفسير الأيسر أو الأقل عددًا في فرضياته ومقدماته ـ أو فيما يفترضه من أسباب وتعليلات ــ هو الصواب الذي لا شك فيه..

لذلك فإنه إن كانت غاية التبسيط والتيسير: تسهيل التصور لتسهيل إصابة المقاصد الكلية من العلم الطبيعي، فإن هذه الغاية لا ينبغي أن تتجاوز أو تتقاطع مع غاية الوصول إلى معرفة الحقيقة بتمامها..

ولهذا فإنه لا يصح أن تطلق تلك القاعدة للاعتراض على وجود العامل الغيبي في سلسلة الأسباب، بدعوى أنه افتراض زائد لا داعي له ولا يمكن إثباته! لا داعي له عند مَن؟ ولأي غاية؟

صحيح أنَّه لا يفيد العالم الطبيعي في الوصول إلى الأسباب المادية المباشرة التي يُمكنه من خلال التعامل معها أن يتحكم في الظاهرة .. ولكن هذا لا يعني أن ذلك العامل الغيبي لا وجود له، أو أنه زائد عن الحاجة .. فالعلم الطبيعي قائم على الشهادة بأنه مهما أحصى الباحث من متغيرات ذات تأثير على الظاهرة محل الدراسة، فقام بعزلها وتثبيتها جميعًا لصالح البحث في واحد منها بعينه، فإنه لن يصل يومًا ما إلى إحصاء سائر الأسباب الطبيعية.

سكت قليلا، ثم قال: أتذكر معي روايتي [اتصال] التي حولتها [هوليود] إلى فلم سينمائي يحكي قصة عالِمة فلك تدعى [إيلي] كانت تدرس مع زملائها في مركز أبحاث [سيتي] إشارات واردة من أعماق الفضاء، ويتبين من خلال البحث أنها تتمتع بصفتي

التفرد والتعقيد، وذلك ما جعل أعضاء فريق البحث يؤكد أنها يستحيل أن تكون قد نشأت بالصدفة، ولذا يصيحون: (إنها ليست تشويشا كونيا.. إنها تحمل نظاما).. ثم تكشف أحداث الفيلم عن ورود تلك الرسائل بالفعل من عوالم أخرى.

فالفيلم الذي هو من تأليفي يؤكد أن رسالة معقدة واحدة تكفي لإثبات وجود مرسل ذكي، لكنني لم أستخدم نفس هذا المنطق عندما أرى أن تعقيد الحمض النووي لا يمكن أن ينشأ عن صدفة عشوائية.

لقد عبر بعض علماء المسلمين عن هذه الازدواجية التي وقعت فيها مع إخواني من الملاحدة، فقال: (إذا وجدنا في اكتشاف أثري حجرين موضوعين في نظام معين أو قُطّعا لغرض معين، فإننا جميعاً نستنتج بالتأكيد أن هذا من عمل إنسان ما في الزمان القديم. فإذا وجدنا بالقرب من الحجر جمجمة بشرية أكثر كمالاً وأكثر تعقيداً من الحجر بدرجة لا تقارن، فإن بعض العلماء المكتشفين لن يفكر في أنها من صنع كائن واع، بل ينظرون إلى هذه الجمجمة الكاملة أو إلى الهيكل الكامل الذي تتجلّى فيه قدرة صانعه كأنهما قد نشئا بذاتيهما أو بالصدفة)[1]

وهكذا ترانا نقيم مشاريع عملاقة للبحث عن مؤشرات لوجود كائنات حية في كواكب أخرى، وذلك برصد الإشارات اللاسلكية والميكروية القادمة من أعماق الكون، أملا في أن تحمل رسائل مشفرة تختلف عن النبضات والموجات الكونية العادية.. وهذا يدل على أننا نعتقد فعلا بأن العوالم الأخرى لا يجب أن تنسحب عليها مبادئنا العقلية.

قال ذلك، ثم راح يحمل تلسكوبه على ظهره.. ويصيح من شدة ثقله.

سام هاريس:

صرفت بصري عنه إلى أنبوبة أخرى، شدني إليها ما كتب عليها، وهو هذه العبارة [نهاية الإيمان]، وهي عنوان كتاب كنت قد

---

[1] الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش.

رأيت الكثير من الشباب يهتم به ويطالعه، وهو لناشط من نشطاء الإلحاد الجديد يدعى [سام هاريس[1]]

وبالفعل كانت صورة صاحب الأنبوبة تشبهه تماما، إلا أنها مزودة كسائر من في ذلك الجناح بملامح الفئران البيضاء.

كان يحمل على ظهره أوراقا كثيرة جدا موضوعة في كيس كبير شفاف.. وكان يدور على نفسه، وهو يحملها، ويتألم من شدة ثقلها.. ثم ما لبث حتى وضعها، وأخذ ورقة منها، وراح يقرؤها، ويقول: لقد ظللت طول حياتي أحاربك أيتها الورقة.. أنت وجميع زميلاتك.. ولم أكن أدرك خطورة تلك المحاربة.

لقد كنت أضرب بعضكن ببعض.. وأحمّل بعضكن أخطاء بعض.. وأتعامل معكن بكل أنواع التزييف والتزوير.. بحجة واحدة وهي أنكن جميعا أطلق عليكن في يوم من الأيام [كلمات مقدسة]

كان في إمكاني أن أتعامل بكل حيادية وموضوعية مع الحقائق الواردة على صفحات وجوهكن الجميلة.. لكنني لم أفعل .. بل رحت أرميكن جميعا بالدمامة.. وأرمي جميع المؤمنين بما ورد في صفحاتكن بالخرافة والضلالة..

لقد رحت أصيح في الإنسانية بكل غرور: (آن الأوان أن نشكك بفكرة الدين بشكل حر).. وبناء على ذلك رحت أضع الأديان جميعا في سلة واحدة، ثم أحكم عليها بأنها جميعا (من أشنع أنواع الإنحراف الذي يسيء استعمال الذكاء والإدراك الإنساني)

1() سام هاريس: ولد سنة (1967) مؤلف وفيلسوف ومفكر وعالم أعصاب أمريكي، وهو أحد مؤسسي مشروع إدراك ومديره التنفيذي. وهو مؤلف كتاب [نهاية الإيمان] الذي صدر عام 2004 والذي ظهر في لائحة النيويورك تايمز لأفضل المبيعات 33 أسبوعًا على التوالي. كما تُوّج الكتاب بجائزة بَنْ عام 2005.. وفي عام 2006، قام هاريس بنشر كتابه [رسالة إلى أمة مسيحية] ردّا على انتقادات كتاب [نهاية الإيمان]. تَبِع هذا العمل كتابه [المشهد الأخلاقي]، الذي صدر سنة 2010، ليتبعه بمقاله من الطراز الطويل [أنْ تكذب] سنة 2012، لتتم سلسلة مؤلفاته مع كتاب [الإستيقاظ: دليل إلى الروحانية الخالية من التدين].. وهو أحد المنتقدين المعاصرين للأديان، كما يُعتبر أحد أهم مؤيدي الشكوكية العلمية وحركة الإلحاد الجديد..

لقد قلت في كتابي [نهاية الإيمان]، وأنا في قمة غروري وكبريائي(1): (.. لماذا يحتاج الله القوي الجبار إلى السلطه الدنيويه لفرض وجوده، وتثبيت مؤسساته على الأرض؟ .. ولماذا يحتاج الله الكامل إلى الإنسان الفاني؟.. ولماذا يحتاج الكامل الجبار إلى الإنسان الناقص لتفسير آياته؟ .. ألايعتبر كل ذلك نقصا خطيرا في كمال الرب؟)

وكل هذا كان تلفيقا وتزويرا مني للحقائق، لأن كل مؤمن بشيء يحتاج إلى الدعوة إليه، والاستدلال له، ونصرته.. وأنا أريد أن أحرم المؤمنين من شرف تلك الدعوة، وشرف تلك النصرة.. مع أنني أنا الملحد وسائر زملائي كنا نمارس كل الأساليب لنصرة الإلحاد.. فهل الإلحاد محتاج لنا أيضا؟ .. ولماذا لا يقف على قدميه بنفسه بدون دعاة هو أيضا؟

سكت قليلا، ثم قال: لا أزال أذكر تلك المكاييل المزدوجة التي تعاملت بها مع الحقائق.. من ذلك أني ذكرت أن كل الحروب التي وقعت بين البشر كانت بأسباب دينية، وأننا لو تخلينا عن الدين، فسيعم العالم السلام (2) .. لقد كنت تابعا في ذلك لكل أزلام الإلحاد، وخصوصا الجديد منه، والذي استفاد من هجمات 11 سبتمبر ليستأصل الإله من قلوب المؤمنين.

وقد كان أستاذي الكبير [ريتشارد دوكنز] من أوائل من لقنني هذه الحجة.. حيث قال في مذكراته التي كتبها عام 2013: (الدين هو العلامة الرئيسية والأخطر التي بموجبها نقسم أنفسنا إلى طرفين: نحن وهم).. ثم أضاف: (إنه لو ألغي الدين لأصبحت الفرصة أكبر بكثير لعالم بلا حروب، كما كنا لاحظنا انخفاضاً في منسوب الكراهية لأن الكثير منها يعود للطائفية كما في إيرلندا الشمالية والهند وباكستان)

(1) النصوص المقتبسة هنا من مقال بعنوان [سام هاريس و الإلحاد و الإيمان: رد على سام هاريس في كتابه نهاية الإيمان]، وقد اقتبس نصوص الكتاب من [منتدى الملحدين العرب]، ساحة الترجمة.. وقد تصرفت في النصوص بناء على الأخطاء الكثيرة الواردة فيها أو في الترجمة.

(2) استفدت بعض المعلومات الواردة هنا من مقال بعنوان [هل الدين مسبب حقيقي للحروب؟ وهل يخلو تاريخ الملحدين منها؟]، موقع السوري الجديد..

وكل هـذا الـذي صـدر مـني ومن أسـتاذي دوكـنز وغـيره من الأساتذة كذب وزور.. فالدراسات الأكاديمية كلها تـدحض النظريـة التي تربط بين الحروب والدين.. ففي بحث نشره معهـد نيويـورك وسيدني للاقتصـاد والسـلام في أكتـوبر تـبين أنـه عمومـاً لا توجـد علاقة بين الدين والنزاعات في أي من الحروب التي اندلعت سـنة 2013. ومن بين خمسة وثلاثين نزاعـا مسـلحا خمسـة فقـط (14 بالمائة) كـانت أسـبابها المباشـرة مرتبطـة بالـدين، في حين غـاب العامل الديني تمامـاً في أربـع عشـرة حالـة أخـرى (40 بالمائـة)، واشتركت جميع الحالات قيد الدراسة في تعـدد مسـبباتها، وكـانت أكثر الأسباب شيوعاً هي مـا تعلـق بمعارضـة الحكومـة أو النظـام الاقتصادي أو الايديولوجي أو السياسي أو الاجتماعي للدولة، حيث برزت في ثلثي الحالات التي تمت دراستها.

وهكذا نجد في موسوعة الحروب ـ وهي دراسة شاملة لكافة الحروب الألف وسبعمائة وست وثلاثين عبر تـاريخ الإنسـانية ــ أن الحـروب الدينيـة في طبيعتهـا لم تتجـاوز المئـة وثلاثـة وعشـرين حرباً.. أي أقل من 7 بالمائة.

بل إن [معهد الاقتصاد والسلام] ذكر في تقريـر علمي لـه أن انحسار الدين في دولة ما لا يجعلها تلقائياً تتمتع بالسلم أكـثر، وأن نسبة الملحـدين في الدولـة لا علاقـة لهـا بمسـتوى السـلم فيهـا.. فالدول التي تعلو فيها نسبة الملحدين ـ بالأخص الـدول الشـيوعية أو التي كانت شيوعية مثل روسيا والتشيك ـ لم تنعم بالسلام.

وبحسـب التقريـر أيضـاً كـانت كوريـا الشـمالية ضـمن لائحـة الدول العشـر الأقـل سـلاماً رغم أنهـا الأقـل نسـبة من حيث عـدد السكان المنتمين إلى ديانة ما.

وعندما نترك هذه التقـارير وننظـر إلى الحـروب الكـبرى في المئة عام الأخيرة كالحرب العالمية الأولى والثانية والحرب الباردة وحرب فيتنام.. نرى بوضـوح كيـف يمكن للـدوافع غـير الدينيـة أن تكون أكثر تدميرا من الدوافع الدينية.. ففي الأنظمـة الفاشـية في القرن العشرين كنظام ستالين وتيتو وماو تسي تـونج وبـول بـوت وغيرهم.. صرع الملايين من الناس، كما أعدم الملحدون عشـرات الآلاف من الـروس المسـيحيين بسـبب معتقـداتهم بهـدف إفـراغ

الدولة من الدين.

وقد ذكر [جون وولف]، وهو أستاذ متخصص في هذا المجال، سبب ربط النزاعات بالدين، فذكر أنه عندما يكـون الواقـع معقـداً يتم توصيف الصراعات بأنها دينية كوصف مقتضب لها.

ويضيف: (حتى عندما نرجع بالتاريخ إلى مـا يعـرف بـالحروب الدينية في القرنين السادس عشر والسابع عشر فيمـا بعـد حركـة الإصلاح البروتسـتانتي في غـرب وشـمال أوروبـا نجـد أن العامـل الـديني كـان مهمـاً ولكن يتـبين أنـه كـان هنـاك أيضـاً تـأثير الأسـر الحاكمة والسلطة والاقتصاد التي كان من شأنها تحريك الحروب)

ثم يعقب على ذلك بقوله: (لعلني أتفق مع الطرح القائل بأنه تم توريط الدين في معظم الحـروب، لكن القـول بـأن الـدين هـو المسؤول عنها هو تحريف للأدلة)

وهكذا ذكرت الكاتبة الأسترالية [ريتشل وودكـوك] في كتابهـا [لفهم الإله] أن الاستخدام المشوه للدين في العنـف لا علاقـه لـه به، وضربت مثالا على ذلك بصـدام حسـين الـذي اسـتخدم العنـف كثيرا، بينما كان يظهر على شاشـات التلفـاز وهـو يصـلي للـه، ثم علقت على ذلك بقولها: (للأسف يوفر الدين غطاء مناسباً ومحركاً قوياً لأصحاب النوايـا السـيئة.. في الحقيقـة يكـون الـدين مختلفـاً تماماً عندما يمارسـه المتعطشـون للسـلطة عمـا يبـدو عليـه عنـد الأتقياء والصالحين، وهذا يدل على نفسية الإنسان أكـثر ممـا يـدل على الدين. ولذلك نرى الكثير من النزاعات الإنسانية تحـوم حـول الدين)

وهكذا حصل في ايرلندا الشـمالية حين تم توظيـف الخطـاب الديني من قبل الطرفين، وبالأخص في حالة القس البروتسـتانتي إيان بيزلي الذي قال عن البابا أنه عدو المسيح.

سكت قليلا، ثم قال مخاطبا أوراقه: هل رأيت كم كنت أكذب على النـاس.. لقـد حـاولت أن أخفي جميـع الأسـباب الـتي جعلت العالم يتقاتل.. ولم أظهر إلا سببا واحدا، قـد لا يكـون هـو السـبب الحقيقي.. ذلك أن الناس ـ كما قالت وودكوك ـ (يتشاجرون أيضـاً بسبب قطـع صـغيرة من الكربـون المضـغوط، أو قطعـة أرض، أو

مواد تسبب الإدمان، أو مباريات كرة القدم)

قال ذلك .. ثم راح يجمـع أوراقـه ويحملهـا..ويتـألم من شـدة ثقلها.

***

بينمـا أنـا في قمـة اسـتغراقي في سـماع مـا قالـه هـؤلاء الملاحدة الحسيون، نبهني صاحبي المرشد، وقال لي: أظن أن مـا سمعته هنا من اعترافات يكفي.. فهلم بنـا إلى جنـاح آخـر.. لـترى أهله وتعرف أسرار إلحادهم.

سرنا إلى الجناح الرابع في فندق الملاحدة، وقد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]

سألت المرشد عن الآية، وعلاقتها بهذا الجناح، فقال: هذا جناح العبثيين..

قلت: العبثيون .. عجبا .. هل هناك مدرسة إلحادية تحمل هذا الاسم؟

قال: أجل.. فكل الملاحدة عبثيون..

قلت: فلم كانوا كذلك؟

قال: لأنه لا توجد وراء الكون والحياة ـ عندهم ـ إرادة حكيمة تحدد مساره، وتضبط حركته، وتقيد وجهته.. لذلك فإنه عندهم جسد بلا روح، وحس بلا معنى.. هو كون ميت، وحياة مفعمة بالأسى، لأنه لا غاية لها، ولا مستقبل.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بقول قاله [شوبنهاور] فيلسوف التشاؤم المعروف.. فقد قال: (حياة الإنسان كلها ليست إلا نضالا مستميتا من أجل البقاء على قيد الحياة مع يقينه الكامل بأنه سيهزم في النهاية).. وقال: (ينبغي أن ندمر في داخلنا، وبكل الأشكال الممكنة، إرادة الحياة، أو الرغبة في الحياة، أو حب الحياة).. وقال: (يُقال أن السماء تحاسبنا بعد الموت على ما فعلنا في الحياة الدنيا.. وأنا أظن أنه بإمكاننا أن نحاسبها أولًا عن المزحة الثقيلة للوجود الذي فُرض علينا من دون أن نعلم لماذا؟ وإلى أي هدف؟)

ومثله قال عالم الأعصاب، والمحلل النفسي النمساوي (فكتور فرنكل): (للكثير من الناس اليوم وسائل للحياة، غير أنهم يفتقدون معنى يعيشون لأجله)

قال: كل ملحد يقول هذا.. لكن منهم من يصرح به.. ومنهم

من يكذب على نفسه وعلى النـاس ليفـر منـه، فالإلحـاد لا يلـد إلا العبث، والعبث لا يلد إلا التشاؤم والاكتئاب.

قلت: ولكني أرى الملحدين يتبجحـون بحـريتهم في ممارسـة كل شيء من دون رقيب، ويتصـورون أنهم بـذلك قـد تحـرروا من الله.

قـال: هم يكـذبون على أنفسـهم، ويكـذبون على الخلـق، وإلا فـإن فطـرتهم تصـيح فيهم كـل حين، فلا يمكن لمن يـرى الحيـاة بالصـورة الـتي يراهـا الملحـد أن ينعم بعيش، أو يهنـأ بحيـاة.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعـام: 125]

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قـال: كمـا أن الرئـتين تحتاجـان إلى الأكسـوجين لتتنفس، وتستمر الحياة.. فكذلك القلب يحتاج إلى الإيمـان، ليهنـأ، ويحصـل السعادة.. فلا سعادة من دون الإيمان.

قلت: صدقت.. وقد ذكرتني بحديثك هـذا واقعـة ذكرهـا بـديع الزمان النورسي قارن فيها بين الرؤية الإيمانيـة للوجـود، والرؤيـة الملحـدة، فقـال: (لقـد رأيت في واقعـة خياليـة أن هنـاك طـودين شامخين متقابلين نصب على قمتيهما جسر عظيم مدهش، وتحتـه واد عميق سحيق، وأنا واقف على ذلك الجسر والـدنيا يخيم عليهـا ظلام كثيف من كل جانب، فلا يكاد يرى منها شـيء، فنظـرت إلى يميني فوجدت مقبرة ضـخمة تحت جنح ظلمـات لا نهايـة لهـا.. ثم نظرت إلى طـرفي الأيسـر فكـأني وجـدت أمـواج ظلمـات عاتيـة تتدافع فيهـا الـدواهي المذهلـة والفواجـع العظيمـة وكأنهـا تتـأهب للانقضاض. ونظرت إلى أسفل الجسر فتراءت لعيني هوة عميقـة لا قرار لها.. كنت لا أملك سوى مصباح يـدوي خـافت النـور، أمـام كل هذا الهدير العظيم من الظلمـات، فاسـتخدمته فبـدأ لي وضـع رهيب، إذ رأيت أسوداً وضواري ووحوشاً وأشـباحاً في كـل مكـان، حتى في نهايات وأطراف الجسـر، فتمـنيت أن لم أكن أملـك هـذا

المصباح الذي كشف لي كل هذه المخلوقات المخيفة، إذ أنني أينما وجهت نور المصباح شهدت المخاطر المدهشة نفسها)(1)

قال: لقد عبر بذلك المصباح الباهت الضعيف عن رؤيته الذاتية للأشياء، والتي أحالتها في عينيه إلى تلك الصور المفزعة.

قلت: أجل.. وقد ذكر أنه بعد أن استشاط غيظا من مصباحه الضعيف، والتجأ إلى السراج المنير الذي تنكشف به الحقائق رأى أمورا مختلفة تماما.. لقد (انقشعت تلك الظلمات، وانكشفت وزالت نهائياً، وامتلأ كل مكان وكل جهة بذلك النور وبدت حقيقة كل شيء ناصعة واضحة.. فوجدت أن ذلك الجسر المعلق الرهيب ما هو إلا شارع يمر من سهل منبسط، وتبينت أن تلك المقبرة الهائلة التي رأيتها على جهة اليمنى ليست إلا مجالس ذكر وتهليل وندوة كريمة لطيفة وخدمة جليلة وعبادة سامية تحت إمرة رجال نورانيين في جنائن خضر جميلة تشع بهجة ونوراً، وتبعث في القلب سعادة وسروراً.. أما تلك الأودية السحيقة والدواهي المدهشة والحوادث الغامضة التي رأيتها عن يساري، فلم تكن إلا جبالاً مشجرة خضراء تسر الناظرين، ووراءها مضيف عظيم ومروج رائعة ومتنزه رائع، نعم هكذا رأيت بخيالي، أما تلك المخلوقات المخيفة والوحوش الضارية التي شاهدتها فلم تكن إلا حيوانات أليفة أنيسة) (2)

قال: صدق بديع الزمان.. لقد صور في مثاله هذا حقائق الوجود التي تاه عنها كل ملاحدة الدنيا، فأمضوا حياتهم ممتلئين رعبا.. ناسين أنهم في فنادق الضيافة الإلهية.

قلت: لقد فسر بديع الزمان تلك الواقعة، فقال: (فذاكما الجبلان هما: بداية الحياة ومنتهاها، أي هما عالم الأرض وعالم البرزخ، وذلك الجسر هو طريق الحياة، والطريق الأيمن هو الماضي من الزمن، والطريق الأيسر هو المستقبل منه، أما المصباح اليدوي فهو أنانية الإنسان المعتدة بنفسها والمتباهية بما

(1) الكلمات، النورسي، ص 350.

(2) الكلمات، النورسي، ص 351.

لـديها من علم، والـتي لا تصـغي إلى الـوحي الـسـماوي. أمـا تلـك الغيلان والوحـــوش الكاســـرة فهي حـــوادث العـــالم العجيبـــة وموجوداته) [1]

وعلى هذا، فلا الزمان الماضي مقبرة كبيرة واسعة للأمــوات يسودها الصمت الرهيب، بل تـاريخ مفعم بالحيويـة والعبـادة ونـور الإيمان، ولا الموت عدم وفناء، بل بداية لحياة جديدة وعـالم آخـر، ولا تحمـل تغـيرات الطبيعـة وثوراتهـا المـدمرة الـدمار والخـراب للبشــرية، بــل أدوات طيعــة بيــد القــدرة الإلهيــة يســوقها لحكم ومقاصد خيرة[2] .

قال: أجل.. فأنانية الإنسان وكبره وغروره وحبه المبـالغ فيـه لنفسه، هي التي تصور له الأشياء على غير حقيقتها.

قلت: لقـد ذكـر ذلـك بـديع الزمـان، فقـال: (فالإنسـان الـذي يعتمد على أنانيته وغروره ويقع في شراك ظلمـات الغفلـة ويبتلى بأغلال الضلالة القاتلة، فإنه يشـبه حـالتي الأولى في تلـك الواقعـة الخيالية ـ حيث يرى الزمن الماضي ـ بنور ذلـك المصـباح النـاقص الـذي هـو معرفـة ناقصـة منحرفـة للضـلالة، كمقـبرة عظيمـة من ظلمات العـدم، ويصـور الـزمن من المسـتقبل موحشـاً تعيث فيـه الدواهي والخطوب محيلاً إياه إلى الصدفة العمياء كما يصور جميع الحوادث والموجودات التي كل منها موظفة مسخرة من لدن رب رحيم حكيم، كأنها وحوش كاسرة وفواتك ضارية)[3]

مـا إن قلت هـذا حـتى فتح البـاب، فـرأيت مـا ملأني تعجبـا واسـتغرابا.. لقـد رأيت بشـرا كثـيرين، وعنـدهم أشـياء كثـيرة في منتهى الجمال.. وكـان يمكنهم أن يسـعدوا بهـا.. لكنهم لا يعرفـون كيف يتناولونها، ولا أين يضعونها..

---

[1] () الكلمات، النورسي، ص 351.

[2] () انظر: الأمثال في رسائل النور، د. الشفيع الماحي أحمد.

[3] () الكلمات، النورسي، ص 352.

وكمثال على ذلك، فقد رأيت رجلا يلهث من العطش.. لكنه بدل أن يضع فمه في صنبور الماء ليشرب، رأيته يضع أذنه، ثم يصيح ألما بسبب الماء الذي دخلها.. ثم يعاود الكرة، ويضع يده.. وهكذا كان حاله..

ورأيت آخر يحمل إناء، فتصورت أنه قد اهتدى إلى الحيلة التي يصل بها إلى الماء، لكني رأيته يقلب الإناء، ويضعه أسفل الحنفية، منتظرا أن يمتلئ.. ولكنه يظل فارغا.. فيرميه بقوة، ويصرخ في وجهه بكل ألفاظ البذاءة.

أبيقور اليوناني:

ورأيت رجلا كانت عليه ملامح الفلاسفة القدماء، فتحيرت أن يكون في هذا المحل.. وتحيرت أكثر عندما رأيته يجلس هادئا متأملا في المحيطين حوله، وقد تصورت أنه مختلف عنهم، لكني بعد أن سمعت حديثه، عرفت أنه أحدهم، ولا يختلف عنهم إلا في كونه أكثر هدوءا، وأقل صخبا.. لكن صدى الصوت الصادر من داخله، والذي أتيح لي أن أسمعه كان أكثر ألما وحزنا وشعورا بالعبث واللاجدوى.

ما هي إلا لحظات حتى قام من مجلسه، وقال يخاطب المحيطين به: قفوا جميعا.. فأبيقور[1] الصادق يريد أن يحدثكم.. فاسمعوا له.. لقد كنتم جميعا في نشأتكم الأولى تلاميذ لفلسفته الممتلئة بالإفلاس، فاسمعوا لنا آخر النتائج التي وصل إليها..

لقد كنت أقول لكم: إن اللذة هي الخير الأسمى.. وأنها وحدها غاية الحياة السعيدة.. وأن على الإنسان أن يسعى لأجلها، ويجعلها هدفه الأعلى، ومطلبه الأسمى، ومعبوده الأكبر.

وكنت أقول لكم: بما أن الإنسان جسد و نفس، فإن سعادته

[1] () إبيقور(341-270 ق.م) فيلسوف يوناني قديم، وصاحب مدرسة فلسفية سميت باسمه (الإبيقوريّة)، كتب أبيقور كثيراً حتى أنه فاق العديد من الفلاسفة، وبلغت مؤلفاته 300 كتاب كانت من خالص فكره.. وقد اختلف الكتَّاب في أفكاره وحياته الخاصة، فبعض الكتَّاب المتأخرين يصف حياته بالحياة المنعمة اللاأخلاقية، إلا أن البعض الآخر يقول بأن كل خطاباته تدل على أنه كان متواضعاً في طعامه، وأن مفهوم اللذة عنده لا يقصد به الإباحية الأخلاقية أو ما شابه ذلك من مفاهيم.. وهكذا اختلفوا في إيمانه وإلحاده، فبعضهم يعتبره ملحدا لا يؤمن بإله، وبعضهم يعتبره ملحدا لكونه أنكر الوثنية، ولم ينكر الله نفسه.

تكمن في تحقيـق الخـير الملائم لطبيعـة كليهمـا.. والخـير الملائم لطبيعة الجسد هو اللـذة.. أمـا الخـير الملائم لطبيعـة النفس فهي الطمأنينة.

لقد قلت لكم في ذلك: (أما أن اللذة خير فـذلك أمـر بـديهي يشـعر بـه الإنسـان كمـا يشـعر أن النـار حـارة وان الثلج أبيض).. وقلت: (إن اللـذة هي بدايـة الحيـاة السـعيدة وغايتهـا).. وقلت: (بالنسبة لي لا يمكنني أن أتصـور مـاهو خـير إذا اسـتبعدنا ملـذات الطعام والحب وكل ما يمتـع العين والأذن).. وقلت: (إننـا لا نبحث عن أية لـذة.. ولا ينبغي أن نتجنب كـل ألم، فاللـذة الـتي نقصـدها هي التي تتميز بانعدام الألم في الجسد والاضـطراب في النفس.. وبمجرد أن تتحقق لنا هذه الحالة حـتى تهـدأ كـل عواصـف النفس ولن يكون على الكائن الحي أن يسعى إلى شيء ينقصه)

وعندما سألتموني عن السـبيل إلى تحقيـق أكـبر قـدر ممكن من اللذة لينعم الجسد.. وعن السبيل إلى تحقيق الطمأنينـة لتنعم النفس كذبت عليكم كثيرا.. وانحرفت بالبوصـلة الـتي تـدلكم على قبلة اللذة والسعادة الحقيقية.

لقد رحت أقول لكم: (لاتخـف من اللـه، لاتخـف من المـوت، لاتخف من الألم، عش ببساطة، ابحث عن المتعة بحكمـة، واعقـد صـداقات وابحث عن أصـدقاء وعـاملهم بحسـن، كن مخلصـاً في حياتك وعملك، وابتعد عن الشهرة والطموح السياسي)

ورحت أشرح لكم دعوتي هذه في كل الرسائل التي كتبتهـا.. وقد ذكرت فيها أن الطمأنينة النفسـية الـتي هي أسـاس السـعادة وسببها الأكبر لا تتحقق إلا بالتخلص مما يسبب اضطراب النفس..

وكـان يمكنـني أن أدلكم على الحقـائق الـتي تحمي نفس الإنسان من الاضطراب، وتعيد لها الهدوء والتوازن.. كـان يمكنـني أن أردد على مسامعكم مـا قالـه الأنبيـاء والعقلاء الـذين دعـو إلى الارتباط بالله، والعيش في جواره، والأمل في لقائه، فالسـعادة لا تتحقق بذلك.

لكني لم أفعل ذلك، وإنما رحت إلى مصـدر الشـقاء، لأحولـه إلى مصـدر السـعادة.. فقـد ذكـرت لكم أن السـعادة لا تتحقـق إلا

بالتخلص من الله، والتخلص من الخوف ..

أما التخلص من الله، فقد ذكرت لكم أن الله في حال وجوده منشغل بنفسه وبكماله، وأنه لا يعيركم أدنى اهتمام.. فلذلك لا حاجة لكم للخوف منه، ولا الطمع فيه.

أما المخاوف المرتبطة بالموت، فقد رحت أضع لكم بعض الخدع التي تنسيكموه.. فذكرت لكم أنه ليس هنالك ما يدعو إلى الخوف منه.. وقلت لكم عبارتي التي حفظتموها، ورددتها الأجيال المخدوعة: (عندما أوجد لايوجد الموت، وعندما يكون الموت لن أكون موجودا فلم الخوف إذا؟)

ولهذا وقفت من الدين موقفي الذي تعرفونه، والذي طبقتموه بحذافيره من غير أن تميزوا بين الأديان.. لقد رحتم تعتبرون أن الذي يؤمن بالأديان يرتكب خطيئة دينية في الواقع، بينما الذي لا يؤمن بها هو الذي يسلك سبيل الصواب.

بل رحتم ترددون مع [لوكرتيوس[1]] ذلك الأبيقوري المخلص قوله: (إن الدين شر ما بعده شر، وإن الواجب على الإنسان ومهمة الفلسفة الأولى أن تتخلص نهائيا من كل دين، لأن الدين هو ينبوع كل شر)

وعندما راح بعض المتدينين يجادلني في الله، ويذكر لي أدلة وجوده، وأن منها عنايته بعباده، ورحمته بهم، والمتجلية فيما وفره لهم من مرافق، رحت أطرح بديلا لذلك، وتفنيدا له ما سميتموه بـ [معضلة الشر].. تلك المعضلة التي أصبحت دليلكم الأوحد على

[1] () يعدّ تيتوس لوكريتيوس كاروس واحداً من كبار الشعراء والفلاسفة الرومان. ويصنّفه بعض الدارسين ضمن الفلاسفة الأبيقوريّين. ولد نحو 99 ق.م. وتبدو المصادر التاريخيّة شحيحة في الإخبار عن تفاصيل حياته وطبيعة شخصيّته.

نفي الله، وتقديس الإلحاد[1] .

لقد عبرت عن هذه المعضلة بتلك العبارة التي رددتها الأجيال.. فقد قلت: (هل يريد الله أن يمنع الشر، لكنه لا يقدر؟ حينئذ هو ليس كلّي القدرة!.. هل يقدر لكنه لا يريد؟ حينئذ هو شرير! .. هل يقدر ويريد؟.. فمن أين يأتي الشر إذن؟ .. هل هو لا يقدر ولا يريد؟ فلماذا نطلق عليه الله إذن؟)

وعبر عنها آخرون جاءوا بعدي بقولهم: (كيف يسكت الله عن كل هذه الانتهاكات في حق الأطفال كل يوم؟ كيف يرضى الله عن كل هذا الشر، وكل هذا الدم؟ لماذا يخلق أطفالًا مُشوّهين إذا كان قادرًا على خلقهم في صورة سويّة؟.. هل الإله عاجز، فهو لا يستطيع أن يوقف كل هذا السوء والشر في العالم؟ .. أم أنه شرير، فهو يتغنّى بصراخ الأطفال، ويتلذذ بإهراق الدماء، ويستمتع بقتل العزل والأبرياء؟)

وعبر عنها كل واحد بلغته الخاصة.. ورددوها في كل المحافل ليقضوا بها على وجود الله بدليل عدم عنايته بعباده..

أما ملاحدة الفلاسفة، فقد اتخذوها وسيلتهم الأكبر للتنفير من الله والتحذير منه.. بل تصوروا أنها البرهان الأكبر والدليل الأعظم على نفي الله.. وقد قال (رونالد ناش): (الاعتراضات على الإيمان بالله تظهر وتختفي ... لكن كل الفلاسفة الذين أعرفهم، يؤمنون أن أهم تحد جاد للإيمان بالله، كان في الماضي، وكائن في الحاضر، وسيبقى في المستقبل، هو مشكلة الشر)

وقال (مايكل روس)، أشهر فلاسفة العلوم المنافحين

[1] () تعتبر [مشكلة الشر] في الغرب اليوم، أهم شبهة إلحادية، وقد صرح كثير من أئمة الإلحاد، مثل (أنتوني فلو)، أهم منظري الإلحاد في العالم، في النصف الثاني من القرن العشرين، قبل تراجعه في بداية القرن الواحد والعشرين، أن شبهة الشر هي سبب إلحادهم، وجحدهم وجود إله خالق.. وهكذا نرى الفيلسوف الأمريكي (مايكل تولي) في مناظرته مع (ويليام لين كريغ) (2010م)، اكتفى ـ تقريبا ـ باستعراض مشكلة الشر لإنكار وجود الخالق، مصرحا أن الحجة المركزية للإلحاد هي حجة الشر، وهو ما فعله أيضا الفيلسوف البريطاني الملحد (ستيفن لاو)، في مناظرته مع كريغ (2011م)، وقد نشر (باري وتني) دراسة ببليوغرافية عن المؤلفات الفلسفية واللاهوتية التي نشرت عن مشكلة الشر في ثلاثة عقود فقط، من (1960-1990)، فإذا هي تبلغ 4200 دراسة.

بشراسة عن الداروينية، في مناظرته مع (فزالا رنا)، فقد ذكـر لـه أنه (لا يرفض الإيمـان بوجـود اللـه إلا لسـبب واحـد، وهـو مشـكلة الشر)

وهكذا اعتبرها الشاعر الألماني الملحـد (جـورج بوخـنر) بأنهـا [صخرة الإلحاد]

أما كاهن الإلحـاد الأكـبر (ريتشـارد دوكـنز)، فقـد اعتـبر هـذه المشـكلة من أدلتـه الكـبرى على الإلحـاد، فقـال في كتابـه [وهم الإلـه]: (لا بـد من المسـير إلى قـول بسـيط وسـهل وهـو الإقـرار بوجود الشر، ورد وجود الله)

سكت قليلا، ثم قال: قد اعتبر كل هؤلاء، وأولهم أنا أن وجـود الشر في العالم يتنافى مع كون الإله عليما؛ لأن علمـه يقتضـي أن يمنع هذا الشر من الوجود.. ويتنـافى مـع كونـه قـديرا؛ لأن قدرتـه تقتضي أن يمنع هذا الشر من الوجود.. ويتنـافى مـع كونـه رحيمـا؛ لأن رحمته تقتضي أن يمنـع هـذا الشـر من الوجـود.. ولـذلك فـإن وجود الشر ينفي وجود هذا الإله الذي لا يمكن أن يفتقـد الصـفات الثلاث السابقة جملـة [وجـود إلـه كامـل العلم .. كامـل القـدرة .. كامل الرحمة]

لقد كان في إمكاني وإمكان هـؤلاء جميعـا، لـو أننـا اسـتعملنا ذرة واحدة من عقولنا أن نستحيي من هذه التي سميناها معضـلة، بينما هي ليست سوى خدعة خدعنا بها عقولنا لتنحرف عن ربها.

وأول ما يرد علي وعلى أولئك الملاحدة الذين نفوا الله بحجة وجود الشر(1) .. هو أنه لو فرضنا كون الشر مقصودا لذاتـه، وأنـه من عمل الإله، فإن ذلك لا ينفي وجوده، فــ (من الممكن جـدًا أن يكون موجودًا، لكنه شرير، هو خلق البشر، ومن حقـه أن يعـذّبهم)(2) .. ونحن نرى الملوك الظلمة، والطغاة المستبدين.. فهل ينفي طغيانهم حقيقة وجودهم؟

(1) اقتبسنا بعض الـردود هنـا من مقـال بعنـوان: [هـل يمكن للإلـه أن يكـون شـريرًا؟] محمود ماهر.

(2) طبعا هذا من باب التسليم الجدلي..

هـذا على التسـليم الجـدلي الـذي يمكن لأي عاقـل أن يصـل إليه.. فالشر لا يعني العدم.. بل الشر يعني أنه ليس شـيئا جميلا.. ولكنه ليس شيئا معدوما .. بدليل أننـا نـرى أشـياء كثـيرة شـريرة، فهل ذلك ينفي وجودها.

وبهذا فـإن هـذه الـتي سـميناها معضـلة تقضـي على نفسـها بنفسها.. فكيف تثبت وجود الشر، ثم تنفي وجـود صـانع لـه بحجـة أنه لا يمكن أن يكون الصانع شريرا.

هذا على التفكير المبدئي البسيط الـذي يتناسـب مـع العقـل الملحد الكسول.. أما على التفكير المتأني الراقي.. فإننـا نجـد أن الأصل في كل شيء هو الخير، وأن الشر غير موجود إطلاقًا، غـير أنه يتخلل الخير، كشذرات أو استثناءات.

فالأصل في كل شيء هو الصحة، وأما المرض فيدخل عليها، ولا يلبث ـ عـادة ــ أن يـذهب ثانيـة، وترجع الصـحة مـرة أخـرى. والأصل في المطر أنه خـير، ولكن يتخلـل هـذا الخـير اسـتثناءات، فيصـير المطـر سـيولًا تـدمّر الطـرق والـبيوت، لكن هـذا مجـرد استثناء.. والأصل في الحياة أنها سلام، ولكن يشـوب هـذا السـلام استثناءات؛ فتحدث حروب ونزاعات تدمر القرى والبلاد، لكن هــذا مجـرد اسـتثناء.. والأصـل في الجـو الاعتـدال، وأمـا العواصـف، أو موجات البرد والحر، فتحدث خلال فترات قليلة من السنة، ويظـل الجو معتدلًا بـاقي السـنة.. والأصـل في الـبراكين أنهـا تنفجـر في المحيطـات أو بعيـدًا عن البشـر، لكن تحـدث اسـتثناءات، فتنفجـر بجانب قرية ما.

أمـا لمـاذا صـرنا نشـعر بـأن كـل المطـر شـر، وأن الحـروب والمعارك تسود العالم، وبأن البراكين تنفجـر يوميًـا مسـببة مئـات الآلاف من القتلى، فذلك لأننا نسمع أخبار هـذه الاسـتثناءات ونهتم لها، حتى أمسينا نعتقـد أنهـا الأصـل: فنحن لا نسـمع في الأخبـار ـ مثلًا ـ عن هطول الأمطار بسلام في بلد كذا، وأنها سـقت النـاس، بعـد ظمـأ، وروت الـزرع، بعـد جفـاء، وصـار النـاس يهللـون من الفرحة، ولا نسمع في الأخبار عن الدولة كذا، الـتي تنعم بالسـلام، ويسودها الأمن والأمـان، ولا نسـمع عن البركـان الـذي انفجـر في

المحيط، ولم يؤذ أحدًا! نحن لا نسمع عن هذا أبدًا، بـل نسـمع عن الآلام والمصـــائب فقـــط؛ حـــتى ثبت في عقولنـــا أن الكـــوارث والحروب تعمّ الأرض.

ولذلك فإن الشر محدود جـدا مقارنـة بـالخير.. ومن يعـترض على أسباب الشر، كمن يعـترض على خلـق المـاء؛ اعتراضًـا على الفيضانات.. أو كمن يعترض على خلق المعادن المخصّـبة للتربـة، والحرارة اللازمة لحياة الإنسان؛ إعتراضًا على ثوران البراكين.

فالشر، ليس مطلقًا.. بل هو شرٌ نسبي.. وليس حقيقيًا، فمـا يكون شرًا لشـخص مـا، قـد يكـون خـيرًا لآخـر.. بالإضـافة إلى أن الشر يعد استثناء، والخـير هـو القاعـدة، فـإذا قلنـا إن سُـم الحيـة والعقرب شر، فهذا ليس وصـفًا واقعيًـا، بـل هـو وصـفٌ انـتزاعيّ، فبالقياس إليَّ أنا الذي أتأذي وأتضرر وأفقد حيـاتي الثمينـة؛ جـراء لدغة الحية أو العقرب، هذا يعد شـرًا، لكن بالنسـبة إليهـا ـ الحية ـ هل سُمها شر؟ بالعكس، فهو يعد من لوازم وجودها وبقائها، فلولا هذا السم لهلكت الحية.. إذن السم موجود والحية موجودة، وصف واقعيّ، أما السم شر، والحية شر، فوصف انتزاعي قياسي.

وهكذا إذا رأينا كائنات حية تموت مثل الجـراثيم والحشـرات، ثم نقول: هذا شر، وهذا يعد شرًا بالفعل؛ إذا ما نظرنا لـه وحـده.. أما إذا نظرنا إلى المنظومة ككل ـ إلى الكون ككل، سيتضح لنا أنه عين الخير، فهذه الكائنات لو عاشت لغطت سطح الأرض بكثرتها، أو لانقرضت كائنات أخرى كانت تتغذى عليها هذه المخلوقات، هذا مـا يسـمى بـالتوازن، فكـل شـيء في الوجـود، مهمـا كـان هيّنـا وصغيًرا، هو ضروري للحياة.

إن هذا وغيره كان يمكنه أن يحرك عقولنا للتسـاؤل عن هـذا السر.. فلو كان الإله شريرًا.. فلماذا الشر نسبي؟.. ولو كان الإلـه شريرًا، لماذا أعطانـا العقـل، وسـخر لنـا الأرض، وأمـدنا بـالأدوات اللازمة؛ لكي نتغلب على هذا الشر النسبي؟

سكت قليلا، ثم قال: لو أننا معشر الملاحدة قارنا بين ما نراه في عالم الدنيا من خير وما نراه فيهـا من شـر نسـبي، لعلمنـا أن هذا الإله له كامل العناية بعباده.. وأن عدم إدراكنا لسـر وجـود مـا

نراه من شر، لا يعني أنه شر بالفعل، وأن المقصود منه إذيتنا.

ولو أننا تركنا كبرياءنا وغرورنا ورحنا إلى المصادر المقدسة للأديان، لوجدنا عندها الحل السهل البسيط العقلاني لهذه التي سميناها معضلة..

فالإيمان بالله وبالمصير إليه حل وحيد يجعل الإنسان قادرا على التعامل مع وجود الشر والألم في حياته، فالذي يؤمن بالله واليوم الآخر يؤمن أن كل ما يصيبه من شر وألم في الدنيا، سيجد ما يقابله يوم القيامة من ثواب.. أما الذي يؤمن بأن الحياة الدنيا هي فترة الحياة الوحيدة، وأن الموت هو نهاية الوجود، فإنه محبوس بين جدران الميلاد والوفاة، وبالنسبة له تصبح كل قرصة ألم، وكل لسعة أنين، مجرد خسارة لدقائق من أيام فانية تسير بالإنسان إلى حتفه.

قال ذلك.. ثم عاد إلى سكونه وهدوئه.. وكأنه لم يلاحظ أن الجميع كان منشغلا عنه بالعبث والفوضى والتشاؤم، ولم يسمع كلامه أحد إلا أنا وصاحبي.

آرثر شوبنهاور:

ما هي إلا لحظات حتى قام رجل آخر كانت الكآبة تكسو وجهه، وكان الحزن القاتم يعلو محياه.. قام، وهو يقول: أنا (آرثر شوبنهاور)[1].. لا أحد منكم إلا يعرفني.. ومن لم يعرفني، فيكفي أن يقرأ ما كتب على صفحة وجهي من حروف الحزن والكآبة ليعرفني، ويعرف حقيقتي.

---

[1] () آرثر شوبنهاور: (1788-1860م) فيلسوف ألماني، ولد في دانزيج (غدانسك ببولندا).. أهم أعماله: العالم رغبة وعَرَض، إضافة إلى مجموعة مقالات بعنوان باريرجا وباراليبومينا، جلبت له شهرة عالمية حتى نهاية حياته. وقد ذكر د. عبد الرحمن بدوي الظروف النفسية التي عاشها في حياته، فقال: (ويقولون لنا أنه كان طوال حياته فريسة لكثير من المخاوف الشاذة التي تصل إلى حد الفزع المرضي، وفي سنة السادسة في أثناء تريّضه توقف مرة وشعر بالوحدة المخيفة وتخيل أن أبويه يريدان الخلاص منه، وحينما كان طالبًا في جامعة برلين كان يتصوَّر أنه مصاب بالتدُّرن، ولا يكاد يسمع دنو الحرب من برلين حتى يولي هاربًا مذعورًا، وظل دائمًا يَحذر الناس، ويعتقد أنهم جميعًا أعداء واقفون لإيذائه بالمرصاد) [د. عبد الرحمن بدوي ـ شوبنهور، ص30]

قد ترون أن سبب ذلك ما مررت به من ظروف عائلية وشخصية.. فتذكرون أن أبي مات منتحرا، وأنا في السابعة عشرة من عمري، وأنني عشت بعدها حياة شقية تعيسة بسبب خلافي مع أمي التي تحررت من كل قيود الفضيلة بعد وفاة أبي، وأنني لذلك قاطعتها، فلم أرها حتى ماتت، وأن ذلك سبب لي شعورا بالمقت الشديد للنساء لازمني طوال حياتي، فلذلك لم أرتبط بامرأة أبدا.

وتذكرون أني عند قيامي بالتدريس بجامعة برلين لم أكن موفقا ولا مقبولا من الطلاب.. وأن الأساتذة تآمروا علي.. وأن كتبي لم تلق الرواج الذي تستحقه.

وتذكرون أني ظللت في الثلاثين عاما الأخيرة من عمري أعيش في حجرتين في فندق، وحيدا بلا أم ولا زوج ولا ولد ولا أسرة ولا وطن ولا صديق، سوى كلبي الذي أطلقت عليه اسم (أطما)، أي روح العالم، أو الروح الكلي ــ كما يذكر البراهمة ـ وأطلق عليه الناس [شوبنهاور الصغير] سخرية مني واستهزاءا بي وعبثا بمشاعري.

وتذكرون أني ولدت في عصر دمرت الحروب فيه أوربا تدميراً شديداً، وشردت عشرات الآلاف من الأسر، ونشرت الفقر والبؤس بين الناس على مستوى دول أوربا.

قد تذكرون هذا وغيره لتبرروا غدوي كئيباً ساخراً مرتاباً، شديد الخوف والقلق، تستبد بي الهواجس والمخاوف، وأسيء الظن بالناس، وأخشى على نفسي من شرورهم وغدرهم، وأنه بسبب ذلك كنت أغلق على نفسي الأبواب بعناية شديدة، ولا أسلم ذقني لموسى الحلاق خوفاً من أن يتآمر مع الآخرين على ذبحي، وأني ظللت طيلة حياتي لا أنام إلا والسلاح بجواري محشواً بالرصاص في انتظار من تحدثه نفسه من اللصوص بالسطو علي أو قتلي.

قد تقولون كل هذا لتفسروا به حالتي النفسية، ولعلكم تفسرون به حالتي العقلية، وموقفي من العالم، وتعذروني بعد ذلك.. لأن ظروفي كانت ظروفا استثنائية.

وكل هذا غير صحيح.. فالكثير من الناس مروا بالظروف التي مررت بها، بل ربما يكونون قد مروا بظروف أخطر منها، ومع ذلك لم يقفوا ضد الإيمان، ولم يذكروا ما ذكرت عن الدين من أنه (صنيعة البشر، ابتكروها لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعية أو نفسية أو اجتماعية، وكان الغرض منه تنظيم حياة مجموعة من الناس حسب ما يراه مؤسس الدين مناسبا، وليس حسب الحاجات الحقيقية للناس الذين عن جهل قرروا بالالتزام بمجموعة من القيم البالية، وأنه من المستحيل أن تكون كل هذه الديانات من مصدر واحد، فالإله الشديد البطش الذي أنزل 12 مصيبة على المصريين القدماء، وقتل كل مولود أول ليخرج اليهود من أرض مصر هو ليس نفس الإله الذي ينصحك بأن تعطي خدك الآخر ليتعرض للصفع دون أن تعمل شيئا)

هل سمعتم موقفي من الدين ومن الله.. وهل هذا الموقف يتناسب مع الظروف القاسية التي مررت بها؟

هذا ما تقولونه أنتم، وكأنكم تلقون باللوم على الله، وليس علي.. وكأن الله لو وفر لي ظروفا أفضل لكنت مؤمنا به، وكنت أخرجت فلسفة مليئة بالإيمان والمحبة والتفاؤل.

وهذا كله غير صحيح.. فالإنسان ابن لأفكاره، وليس ابنا لظروفه.. والكثير من الملاحدة وفرت لهم كل أسباب الدنيا، ومعها كل ألوان السعادة، ومع ذلك حجبوا عن الله.. والكثير من المؤمنين نزلت بهم كل ألوان المصائب والبلاء، ومع ذلك لم يزدد إيمانهم إلا رسوخا وقوة.

فكفوا عني.. ودعوني أعذب نفسي الأمارة بالسوء التي راحت تحاول حجب الشمس بأهوائها، وتجعل من حرب الحقيقة رسالتها في الحياة.

جلس قليلا، ثم وقف قائما، وقال: لا تصدقوا كل ما كتب عني من ظروف قاسية مررت بها.. فقد وفر الله لي الكثير من فرص السعادة.. فقد أمضيت حياة ناعمة متنقلًا بين ربوع إيطاليا، وأنا أقول: (هذا البلد الجميل الذي فيه يشع الغناء).. وكنت حريصًا على حضور الحفلات الموسيقية والمسرحية.. وحريصًا على

أموالي التي استثمرتها في [دانزج]، وقد قلت للتاجر الـذي أفلس الذي لم يستطع سداد ديـوني: (بوسـع المـرء أن يكـون فيلسـوفًا، دون أن يكـون بسـبب ذلـك مغفلاً)، وقـد كتبت إلى [يوهـان أدوار ايرومان] أقول: (لقد كنت رجلًا موفقًا، وذا حظ عظيم، أعلمُ كيف أؤمّن مصدر عيشي على الدوام، ولا أضطر للعمل من أجل النقود أو البحث عن وظيفة)

قال ذلك، ثم راح يغلق أذنيه بيديه، ويقـول: إليـك عـني أيتهـا الضوضاء.. لقد مللت منك.. هـل تـذكرين مـا فعلت بسـببك.. لقـد دفعت جارتي التي كانت تعمل بحياكة الملابس، بسبب مـا أحدثتـه آلتها اللعينة من ضوضاء، على درج السلم، فأُصيبت بعجز، ورفعت الأمـر للقضـاء، فحكم علي بـدفع جـزء من تكـاليف الحيـاة لهـا، وظللت أدفع لها حتى موتها.

ثم هـدأ قليلا، وقـال يخـاطب أصـحابه الـذين كـانوا معـه في الجناح، وكانوا مشغولين عنه بالحديث مع أنفسـهم، ومـع الأحـوال الغربية الممتلئة بالعبث الـتي يعيشـونها: اسـمعوني جيـدا أعـزائي الملاحدة المغفلين، لأحدثكم عن نفسي، وعن حقيقـتي.. فلا شـك أن الكثير منكم مر في يوم من الأيام على كتـبي وأفكـاري، وامتلأ بها شؤما وعبثية وإلحادا.

لكـني اليـوم سـأقول الحقيقـة المجـردة الـتي دل عليهـا كـل شيء.. لا ذلك التزييف الذي ملأت به كتـبي ودفـاتري، ثم سـوقتها لكم، لتحتلكم الشياطين وأفكار الشياطين[1].

أقول لكم.. وأنا في كامل قواي العقلية.. أنني كنت ـ مع تلك الظروف الشديدة التي مررت بهـا ــ أرى كـل مـا في الوجـود من حكمة وخبرة وعناية وغائية.. وكنت أرى أنه يستحيل أن يكون هـذا الوجود من تلقـاء نفسـه، من غـير صـانع صـنعه، ولا مـدبر دبـره.. كانت فطرتي تصيح بهذا، وتكاد تجهر به.

كنت أرى ذلك متجليا ناطقا مفصحا عن نفسه في الجمـادات والنباتات والحيوانات، وكل شيء.. رأيت كيف يسعى هؤلاء جميعـا

[1] () استفدنا بعض المادة العلمية هنا من مذاهب فكرية معاصرة، عرض ونقد -، للدكتور محمود مزروعة، 189-207.

للحصول على الغذاء، للإبقاء على النفس والنوع..

وكنت أراه متجليـا في الإنسـان ومـا أوتي من قـوة عاقلة، وقـوة غريزية، للإبقـاء على نفسه وعلى تمـيزه عن كل ما حوله بإعمال عقله.

لاحظت ذلك كلـه، وكـان يمكنـني أن أتعـرف من خلالـه على الخالق العظيم، والصانع البـديع.. لكـني لم أفعـل على الـرغم من إقراري بوجود حكمة وقدرة وإرادة وإتقان.

لقد أقررت بذلك كله، لأنه لا يمكنني أن أكذب ما تراه عيني، وما تعيشه جوارحي.. ولكني لغفلتي وكبريائي، رحت أنسـب ذلـك إلى إله سميته [الإرادة الكلية العمياء الشريرة]، ورحت أضع لهذه الإرادة الكلية التصورات العقدية المرتبطة بها.

فـذكرت أن لهـا غايـات تسـعى لتحقيقهـا، ووسـائل تنفـذ من خلالها ما تشاء.. وأن الوجود كلـه مسـخر لهـا.. وخـانع ذليـل أمـام رغباتها.

قد تذكرون أنني بهذا لم أفعل سوى أن أبـدلت اسـم [الإلـه] باسم [الإرادة الكلية].. وذلك غير صحيح، فلم أكن أرى الوجـود إلا شيئا واحدا، وهو المادة المطلقـة.. ولم أكن أقـول بوجـود مفـارق لمادة غير مادي فاعـل فيهـا.. بـل كنت أعتـبر ذلـك خطـأ، وفكـرة فاسدة، ترجع إلى تصورات الذات، وأوهـام النفس الـتي لا حقيقـة لها في الخارج.

وكنت أنظر بتشاؤم كبير إلى تلك [الإرادة الكلية] التي تتحكم في الطبيعة، والتي لا تلقي بـالاً إلى الأفـراد الـذين تطحنهم الآلام، ويعذبهم الشقاء، ويغرقون في بحار المآسي والشرور.. لأن همهـا كله مصروف للنوع، وليس للأفراد.

لقد كنت بـذلك كلـه أحـاول أن أعطي تفسـيرا ماديـا طبيعيـا للغز الشر الذي حير الفلاسفة.. وحولهم إلى مؤمـنين أو ملاحـدة.. وقد تصورت أنني قـد وجـدت الحـل من خلال هـذه [الإرادة الكلية العمياء الشريرة]

وقد جعلني زهوي وفرحي باكتشافها أتتبع ما أتوهمه من حركاتها، وأرسم لها صورة ممتلئة بالسوداوية والتشاؤم.. فذكرت أن الموت هو عدو هذه الإرادة الكلية.. فهو الذي يحاول أن يقضي على الحياة والأحياء.. وأن الإرادة الكلية تستعمل كل ما تملكه من وسائل وغرائز لتهزمه .. وبذلك تعوض عن طريق النسل ما يأخذه الموت، وتبقي الحياة والأحياء تحقيقاً لرغبة الإرادة الكلية.

وذكرت أن الحياة كلها، بل الوجود كله شرور وأحزان ومشقات وآلام، وليس في الوجود كله خير قط، ولا يعرف معنى السعادة، وأن أقصى ما يتصور من خير في الوجود، أن تقل شروره، أو تخف آلامه.

وذكرت أن الشر والشقاء والتعاسة هي جوهر الحياة، وحقيقة الوجود.. وأن هذه الأشياء هي الجانب الإيجابي في الحياة.. أما ما يسمي بالسعادة، أو اللذة، أو الخير أو غير ذلك، فليست سوى سلب للآلام، وإخفاء للشقاء أو تخفيف منه..

وقد دعوت من خلال كل هذا إلى أن يقتل الإنسان نفسه منتحراً ليتخلص نهائياً من حياة كلها آلام وشقاء وتعاسة لا تنتهي.. وذكرت أنه لو فعل كل الناس ذلك لانتهت الحياة، وفشلت الإرادة الطبيعية في تحقيق أغراضها.

وقد ذكرت أن العقبة الكبرى التي حالت بين البشر وهزيمة الإرادة الكلية هو (العقل الذي هو من صنع الإرادة).. وليس من صنع الحقيقة..فلذلك يقوم بفلسفة الأشياء، واختراع الأفكار والمسوغات التي لاوجود لها، حتى يقتنع الإنسان بتقبل الشقاء والآلام والبؤس الذي تشتمل عليه الحياة، والرضى بذلك، بناء على أفكار وتصورات غير حقيقية يخترعها.

وذكرت أن من تلك المخترعات (وجود إله اقتضت حكمته ذلك.. وأن ما نراه من شرور إنما هو لحكمة لا نعرفها.. وأن هناك بعثا بعد الموت، ودارا أخرى سوف ينال فيها الصابرون أجر صبرهم ورضاهم، بل وترحيبهم بالشقاء والآلام في هذه الحياة)

لقد اعتبرت كل هذه الحقائق التي دلت عليها الأدلة العقلية، ودعا لها الأنبياء والرسل، وقامت عليها الأديان.. اعتبرتها جميعا

أفكـارا وتصـورات من اخـتراع العقـل الـذي هـو أداة من أدوات الطبيعة الكلية العمياء.

وتصـورت أنـني بـدعوتي للانتحـار أكـون قـد حققت الغايـة الكبرى التي تاهت عنها البشرية منشغلة بما توهمته من أفكار..

كنت أعلم ما تحمله هذه الدعوة من آلام .. ولهذا كنت أحاول البرهنة على أن الموت في ذاته لا يسبب للإنسـان ألما قط، ولكن الناس يتـألمون من فكـرة المـوت أكـثر ممـا يتـألمون من المـوت نفسـه؛ لأن الإنسـان لايلتقي بـالموت أبـدا، فكيـف يتـألم منـه؟ .. فالإنسان طالما هو حي لم يمت، فهو لا يرى الموت، ولا يلتقي به، ومن ثم لا يتألم منه، فإذا مـا انتحـر الإنسـان ومـات، فـإن المـوت حين يجيء يكون الإنسـان قـد ذهب، وعلى ذلـك فالإنسـان يخـاف من فكرة الموت، لكن الموت حين يقع يكون الإنسان قد اسـتراح من شقاء الحياة وآلامها، وتخلص نهائيـا من الإرادة الكليـة العميـاء الشريرة التي لا عمل لها إلا ترغيبه في الحياة وإغراؤه بهـا ليظـل يصلى شقاءها وآلامها .

هـذه هي فلسـفتي الـتي تلقفهـا الكثـير من الأغبيـاء، وراحـوا يـدافعون عـني وعنهـا لسـبب بسـيط، وهـو أنهـا ألغت اللـه من الوجود..

لقد تأثر بهـا إلى درجـة الثمالـة [نيتشه[1]] الـذي راح ينتصـر لها، ويتتلمـذ على كتـبي وأفكـاري، وراح من بعـده [هتلـر] ونازيتـه ينهلان من نيتشة .. وكانت تلك التصورات هي السبب فيما حصـل من مآسي خلال الحرب العالمية الثانية.. لأن الموت لم يعد موتـا، والقتـل لم يعـد قتلا، وإنمـا صـارت الحـرب بين الإنسـان والإرادة الكلية العمياء الشريرة.

لا أستطيع أن أذكر جميـع من تـأثر بأفكـاري من الملاحـدة .. لكن لا أزال أذكر كاهن الإلحاد الأكبر (ريتشارد دوكنز)، الـذي عـبر عن أفكاري بلغة تتناسب مـع أهـل عصـره، فقـال في كتابـه [وهم الإله]: (في الحقيقـة، أصـحاب الميـول الدينيـة لـديهم أيضـا عـدم

---

[1] كتب نيتشه [شوبنهاور مربّياً] عـام 1873 ضـمن الجـزء الثـالث من كتابـه [تـأملات خارج الأوان] ونشره في 1887. وكان في الأصل اعترافاً بفضل أستاذه..

تميـيز مـزمن بين الحقيقـة والأمـر الـذي يرغبـون أن يكـون هـو الحقيقة. بالنسبة للمؤمن بنوع من الذكاء [الكوني] الخارق [إلــه]، من السهل جدا التغلب على مشكلة الشر. يكفي أن تفترض وجود إله قذر، مثل ذاك المتفشـي في كـل صـفحة من صـفحات العهـد القديم [التوراة]، أو إذا لم يعجبك ذلك، اخترع إلها شريرا مســتقلا بذاته، وسمه الشيطان، وانسب الشر الذي في العالم إلى صراعه الكوني مع الإله الخير. وإن شئت هناك حل أكـثر تطـورا؛ افـترض وجود إله له اهتمامات أعظم من أن يأبه لكروب الإنسـان، أو إلهـا ليس سلبيا أمام الآلام التي تصيب البشر، لكنه يراها ثمنا لا بــد أن يدفع مقابل [نعمة] حرية الإرادة البشرية في كـون منظم وخاضـع للنــواميس. كثـير من اللاهوتـيين يعمــدون إلى تبـني مثــل هــذه التعقلنات)(1)

سكت قليلا، ثم قال يخاطب من حوله: هل تســمحون لي أن أذكر لكم مثالا يصورني، ويعبر عن حقيقتي.. إنني مثـل رجـل جـاء من الغابـات لا يعـرف عن المدينـة شـيئاً، ولا يعـرف عن التعليم وأنظمتــه قليلاً ولا كثــيراً.. وعنــدما دخــل المدينــة رأى الطلاب يدرســون نهــاراً، ويــذاكرون ليلاً، ثم يســرعون إلى الامتحانــات متوترين مرهقين، ثم ينتظرون متلهفين نتيجة الامتحانات، فإذا مــا ظهـرت ورأى السـعادة طافحـة على وجـوه النـاجحين.. ثم رآهم يسرعون فرحين في بداية العام إلى المسـتويات الجديـدة ليبـدأوا رحلة كفاح جديدة، وهم سعداء فرحين مستبشرين.

إذا رأى هذا من غـير أن يفقـه أسـراره يقـف فـاغراً فـاه في بلاهة وعته وغباء، يتعجب من هؤلاء البشر الذين يكدون ويكدحون، ثم ينتقلون إلى المراحل التالية، بعد أن حققوا المراحـل السـابقة، كل ذلك وهم سعداء..

إن رجـل الغـاب هـذا بـدل أن يسـألهم عن حـالهم وسـرهم ليسـتكنه حقيقـة وضـعهم راح يصـفهم بالعتـه.. ويصـف حيـاتهم بالشقاء.. ثم يصـنفهم على أنهم آلات في يـد إرادة عميـاء تسـخر منهم وتسخرهم ليعيشوا في شقاء..

---

(1) وهم الإله، ص108.

قال ذلك.. ثم عاد إلى سكونه وهدوئه.. وكأنه لم يلاحظ أن الجميع كان منشغلا عنه بالعبث والفوضى والتشاؤم، ولم يسمع كلامه أحد إلا أنا وصاحبي.

مايكل مارتن:

لفت نظري رجل كان كثير الحركة، وكان يخلط بين البكاء والضحك، ويتحرك حركات كثيرة تشبه حركات المدمنين.. وكان العرق يتصبب من جسده، ولكنه يضم ثيابه إليه بقوة، وكأنه يشعر بالبرد.. ثم ما لبث حتى خف عنه بعض ذلك، وراح يستجمع أنفاسه، ويقول: أنا [مايكل مارتن(1)] .. صاحب المخدر الخاص بالمدمنين، لأشغلهم عن تشاؤمهم وآمالهم، وأضع لهم الرهانات التي يمكنهم أن يواجهوا بها رهانات المؤمنين، وتحدياتهم.

لاشك أنكم تعرفونني، وتعرفون الرهان الذي وضعته مقابل الرهان الذي وضعه باسكال حول وجود الإله.. وسميته [رهان الملحد].. لقد وضعته عام 1990 في كتابي [الإلحاد: تعليل فلسفي] الذي قلت فيه: (ليس هدفي من الكتاب جعل الإلحاد معتقدا شائع أو حتى الحيلولة دون كونه معتقدا غير منظور.. فهدفي ليس مثالي. .هدفي هو مجرد تقديم أسباب جيدة للإلحاد .. غرضي هو أن أبين أن الإلحاد موقف عقلاني، وأن الاعتقاد بوجود الله ليس كذلك.. إنني ادرك جيدا أن المعتقدات الإلحادية ليست قائمة دائماً على المنطق.. برأيي هي يجب ان تكون كذلك)

لقد ذكرت أن ذلك الرهان يعتبر عوضاً عن الجزاء الحسن للإيمان كما في رهان باسكال، فقد يجازي الإله ـ في حال وجوده ـ عدم الإيمان جزاء حسناً، وفي هذه الحالة قد يخاطر الشخص بخسارة السعادة الأبدية عن طريق الإيمان بإله دون دليل، عوضاً

(1) مايكل ل. مارتن: (1932 ــ2015) فيلسوف أمريكي، وأستاذ فخري بجامعة بوسطن، وهو متخصص في فلسفة الدين، على الرغم من أنه عمل أيضاً على فلسفة العلوم الطبيعية والإجتماعية، وفلسفة القانون.. وهو مؤلف ومحرر لعدد من الكتب، منها الإلحاد: تبرير فلسفيّ (1989)، مرافعة ضد المسيحية (1999)، استحالة الإله (2003)، لاحتمالية الإله (2006)، دليل كامبريج إلى الإلحاد (2006). هو أيضاً عضو في هيئة تحرير جورنال فيلو.

عن عدم الإيمان على نحو مبرر.

لست أدري هل فهمتم هـذا الرهـان أم لم تفهمـوه.. لأني أنـا شخصيا صاحب الرهان، لم أستطع استيعابه، ولا فهمـه، ولا تعقـل ما فيه.. بل كنت خائفا كل حين من رهان [بليز باسـكال(1)]، فقـد كان أعقل مني حين استعمل الاحتياط في رهانـه المشـهور الـذي عبر عنه بعضهم، فقال: (قال الملحد للمؤمن: مـا موقفـك اذا مت ولم تجد الله! فـرد المـؤمن: لن يكـون اسـوأ من موقفـك اذا مت ووجدت النار!)(2)

أذكـر أن مثـل هـذا الرهـان خطـر على بـالي قبـل أن أضـع رهاني.. وكاد يؤثر في.. وكاد يدعوني إلى تعـديل حـدتي ومـوقفي من الدين، ومن الله.. بل كاد يدعوني إلى الرحلة للبحث عن الإله الحقيقي، والدين الحقيقي.. لكن كبريائي وتجبري وأحقادي الـدين منعاني من ذلك.

لقد قلت حينها: إنني بين أربع احتمـالات لا خـامس لهـا.. أمـا أولهـا، فهـو أنـني إن آمنت باللـه، وكـان اللـه موجـوداً، فسـيكون جزائي الخلود في الجنـة، وهـذا ربح لامحـدود، ولا ينبغي أن أرغب عنه.. وأما الثاني، فهو أنني إن لم أؤمن بالله، وكان اللـه موجـوداً، فسيكون جزائي ـ كما يذكر الكتاب المقـدس ــ الخلـود في جهنم، وهذه خسارة لامحـدودة.. وأمـا الثـالث، فهـو أنـني إن آمنت باللـه وكـان اللـه غـير موجـود، فلن أجـزى على ذلـك، وهـذه خسـارة محدودة يمكنني تحملها، لأنها لن تضرني شيئا.. وأمـا الرابـع، فهـو

---

(1) بليز باسكال (19 يونيو 1623ـ 19 أغسطس 1662)، فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسـي اشـتهر بتجاربـه على السـوائل في مجـال الفيزيـاء، وبأعمالـه الخاصـة بنظريـة الاحتمالات في الرياضيات. هو من اخترع الآلة الحاسبة. استطاع باسكال أن يسهم في إيجـاد أسلوب جديد في النثر الفرنسي بمجموعته الرسائل الريفية..

(2) رهـان باسـكال لا يعـني الإيمـان الحقيقي، ولكنـه نـافع للمتحـيرين كمقدمـة للبحث العقلي، وكمخلص للدوافع النفسية التي تدعو للإلحاد، وقد ذكر بعض المتحيرين كيف استفاد منه للوصول إلى الإيمان الحقيقي، فذر أنه كان في مرحلة من مراحـل حياتـه مؤمنـا بوجـود الله، لا عن اقتناع عقلي ولكن لأن الإيمان ـ في نظره ـ مناسـب لـه، وملائم للطمأنينـة الـتي يرجو تحقيقها في حياته، ويفتقر إليها الملحد في معيشته المضطربة المتحيرة.. وقد عبر عن هذا بقوله: أنا مؤمن لأن الإيمـان يلائمـني! ثم مـا زال الرجـل مسـتمرا في رحلتـه الإيمانيـة، متنقلا من الإشارات الوجدانية إلى البراهين العقلية، حتى تحول إلى الإيمان الحقيقي.

أنني إن لم أؤمن بالله وكان الله غـير موجـود، فلن أعـاقب لكـني سأكون قد عشت حياتي متحررا من شيء غير موجـود، وهـذا ربح محدود، لكنه مكتنف بخسارات كثيرة يجدها المؤمنون في إيمانهم بالله، ولا أجدها أنا بسبب إلحادي.

لقـد التقيت بعض المؤمـنين حينهـا، وقلت لـه سـاخرا: (مـاذا يكون الحال لـو اخطـأت حسـاباتك وانتهيت بعـد عمـر طويـل إلى موت وتراب ليس بعده شيء؟)

فقال لي بكل برودة: (لن أكون قـد خسـرت شـيئا .. ولكنكم أنتم سـوف تخسـرون كثـيرا لـو أصـابت حسـاباتي وصـدقت توقعاتي .. وإنها لصادقة.. سوف تكون مفاجئة هائلـة يـا صـاحبي) (1)

لكني مع ذلك لم أستطع أن أخضـع للإيمـان.. لأن ارتباطـاتي ومصـالحي كلهـا كـانت مـع الملاحـدة.. لقـد كنت مخـيرا بين اللـه ومصالحي.. فـانحزت إلى مصـالحي وبعت اللـه بـأبخس الأثمـان.. وها أنذا أدفع ثمن اختياري.

لقد رحت أجادل وأشاغب وأعبث بأبسط الضروريات العقليـة في سبيل إرضـاء نـزوتي ونـزوة زملائي الإلحاديـة.. والمشـكلة لم تكن متوقفة على الأدلة العقلية على وجود الله.. بـل كـانت هنـاك مشاكل أخرى لا تقل خطرا(2).. ولهذا رحت أضع رهاني لأتداركها، وأعلم الملاحدة كيـف يجيبـون المؤمـنين.. وشـتان مـا بين رهـاني ورهان المؤمنين.

لقد رأيت أثناء دراستي للتراث الإلحادي في القديم والحديث أنـه لا يصـطدم فقـط بالعقبـات العقليـة الـتي تحـول بين العقـول وتقبله.. فقد كنت أعلم أن كثيرًا من الناس لا يعير موضوع العقـل اهتمامًا حقيقيًا، وإن كان يبدي اهتمامًا ظـاهرًا مبالغًـا فيـه بالعقـل

---

(1) حوار مع صديقي الملحد.

(2) استفدت المادة العلمية هنا من مقال بعنوان [الأسس اللا عمليـة للإلحـاد.. مشـكلة معنى الحياة نموذجًا]، لعمرو بسيوني.

ومنزلته ومجالاتـه، ليغطي عجـزه وقصـوره أمـام العقـل المـؤمن المنسجم مع كل حقائق الوجود.

لكنه يقف في مواجهة البدائل الكثـيرة الـتي يطرحهـا الـدين، ولا يستطيع أن يعوضها.. وقد كان له ـ ما دام يطرح نفسـه كبـديل للدين ـ أن يعوضها، وأن يتسع مجاله لما يتسع له المجال الديني.. فالمجـال الـديني يتسـع لأغلب مجـالات النشـاط الإنسـاني، وهـو يتخطى المساحات العقديـة لينطلـق إلى مسـاحات أخـرى تتعلـق بالفرد والجماعة، تتمثل في العبادات، والأخلاق، والمعاملات، وهذا هو ما نعنيه بالمجال العملي للدين.

لقد وضع [نينيان سمارت] فيلسـوف الـدين الشـهير، نموذجـا سباعي الأبعاد لوصف أي مذهب بأنه الدين.. وهي: البعد الطقسي أو العملي، والبعــد التجريــبي أو العــاطفي، والبعــد الســردي أو الأســطوري، والبعــد العقائــدي أو الفلســفي، والبعــد الأخلاقي أو القانوني، والبعد الاجتماعي أو المؤسسي، والبعد المادي.

وكل هذه الأبعاد ما عدا البعـد العقائـدي أو الفلسـفي والبعـد السردي ذات طابع عملي، بطريقة مباشـرة.. ولـذلك فإنـه إذا خلا أي منظـور علمي أو عملي من أحـد تلـك المحـددات؛ غـدا مجـرد مذهب فلسـفي، أو تقنيـة عمليـة، مـع ملاحظـة أن خلـو المـذهب الفلسفي من الأثر السلوكي الواضـح يحولـه لمجـرد كلام بـارد، لا فائدة منه، وهكذا إذا خلت التقنية من المعنى والأسـاس النظـري؛ غدت عبثًا مجردًا، لا قيمة له.

نعم .. نحن نـرى أن جميـع كهنـة الإلحـاد لم يزعمـوا.. أو لم يزعم أكثرهم .. أنهم يطرحون دينـا جديـدا مقابـل الـدين المعتمـد على الإله.. حـتى يمكن إلـزامهم باسـتيفاء الجـوانب الـتي يقـدمها الدين للإنسان، ولكن الذي لا يمكن إغفاله أن الإلحـاد الـذي يقـدم رؤيـة كونيـة للإنسـان والعـالم ينحي بهـا الـدين جانبـا؛ لا يمكن أن يرضى بأن يكون فلسفة باردة، أو تقنيـة عبثيـة، ولـذا ينبغي عليـه، علميًا وأدبيًا وإجرائيًا، أن يقدم بدائل عن تلك التي يطرحهـا الـدين لكافة المجالات، لأن الإلحاد بطبيعته مذهب نفيٍ للـدين، فيجب أن يشتغل على كافة مساحات شغل الدين لينفيها ويؤكـد صـحته، وإلا فإنـه لا يسـتطيع الـزعم أن الـدين خرافـة والإلحـاد حقيقـة؛ لأننـا

ببساطة لا يمكن أن نترك الحقيقة لأجل الخرافة، ولو في مجال واحد من مجالات الحياة، هذا إذا كانت خرافة بالفعل!

لقد كنت أقول لأصحابي الملاحدة كل حين: يجب علينا أن نثبت فاعلية الإلحاد في كل المجالات التي يسهم الدين بفعالية فيها؛ حتى نحصل على مشروعية وجودنا.

وكنت أقول لهم: ألا ترون معي أن الإلحاد يخوض صراعات محمومة في مجال الأخلاق، وفي مجال البعد العاطفي، وفي المجال الطقسي والعبادي، ويحاول أن يقدم بدائل في تلك المجالات.. ولكنه يتلقى دائما صدمات موجعة على المستوى النظري التأسيسي، وعلى المستوى العملي الإجرائي.

وكنت أقول لهم: انظروا جيدا إلى الدين كيف يقدم للحياة معنى، فهو ينص على أن الله خلق الكون، وخلق الإنسان، ووهبه الحياة، وقضى عليه الموت.. وأن الله يبعث الموتى للحساب، ويكون هناك الثواب والعقاب.. إن كل هذه المعاني لا نجد لها أي بديل في طروحاتنا الإلحادية على الرغم من أهميتها، وصلتها الكبيرة بالنفس الإنسانية.

وكنت أقول لهم: إن هذه التصورات محل اتفاق بين الأديان الإبراهيمية جميعا، فهي تدعو إلى عبادة الله، وموافقة رضاه، والتنعم بذلك الرضا الحسي والمعنوي في الفردوس السماوي.. وهي موجودة في بعض الأديان غير الإبراهيمية.. فلا تخلو الحياة فيها من معنى متعلق بالألوهية، حتى في الأديان الهندوسية التي تتشبث بالتناسخ والكارما، أو النيرفانا البوذية التي تتوصل إلى السكون المطلق للتخلص من الألم، والاتحاد بالروح الكلي.

وكنت أقول لهم: إن الأسس التي تقوم عليها الأخلاق تعتمد على تلك البدائل التي نفتقدها. فالحرص على الفضيلة واجتناب الرذيلة يكون مبررًا على نحو عملي في الدين، وليس له أي مبرر عند الملاحدة.

وكنت أقول لهم: حاولوا أن تستفيدوا من الرؤية الكانطية للدين، فرغم أنه كان يرى أن (الدين في حدود العقل) غير مبرهن.. وكان يرى وجود الإيمان من نقائض العقل إلا أنه ومع

قيامه بمحاولة تفنيد الأدلة العقلية الذائعة على الوجــود الإلهي في (نقد العقل المحض)؛ راح يقــر بــأن الــدين من مصــادرات (العقــل العملي)؛ لأنه وحده فقط الذي يضمن الأخلاق، وحرية الإرادة.

وكنت أقــول لهم: مــا تــراكم تجيبــون المؤمــنين إن طــرحتم عليهم الإلحــاد بــديلا للــدين، فســألوكم عن معــنى الحيــاة بعــد أن يحذف الوجــود الإلهي من الحيــاة.. أو ســألوكم: لمــاذا نحن هنــا؟.. وإلى أين سنصــير؟ .. وهــل ســينتهي الأمــر إلى العــدم؟.. ولمــاذا نلتزم الفضيلة: الخير والحق والجمال؛ إذا كان أورع العُبَّاد مســتويا في المصير مع أفجر المجرمين؟

وكنت أقول لهم: ألا ترون معي أن الإلحاد يــؤدي إلى اليــأس، ويحــرم المظلــومين من الأمــل في تصــحيح ذلــك الظلم يومًــا مــا، ويحبط الرغبة الإنسانية الفطرية في الخلــود، ومن ثم فإنــه يحــرم من أي دافع حقيقي ـ غير آنٍ ـ للعمل في هذه الحياة.

طبعـــا لم أكن أقـــول هـــذا في العلن، بـــل كنت أقولـــه في مجالسي الخاصة المغلقة معهم، والتي كلفوني بعــدها بــأن أتــولى وضع إلحاد بديل للإيمان، يتوفر على كل عناصر التفــاؤل، ويقضــي على كل سموم التشاؤم.

ولهذا رحت أحاول ـ يائسا ـ تجاوز مشكلة عدميــة الحيــاة إلى تعليق معنى الحياة بــالمنجزات الشخصــية، فكنت أقــول لهم، وأنــا أكذب عليهم وعلى نفسي: (أنتم تبحثون عن معنى للحياة في ظل الإيمان.. وأنا أقول لكم: يمكنكم أن تجدوا لحياتكم معــنى مــادمتم تضعون لها هدفًا تســعون لتحقيقــه، كالدراســة، والعمــل، والكفــاح السياســي، وهكــذا يمكنكم أن تجربــوا أشــياء كثــيرة تحفظكم من القلق والاكتئاب والتشاؤم الذي يسببه الإلحاد)

لقد كنت أقوم بذلك، وأنا معرض عن لب المشكلة الحقيقية، فاعتقادنا بالفناء الكلي للكون والإنســان، والــذي هــو النهايــة الــتي تنتظر كل شيء كما كنا نعتقده تقضي على كل تلك الأطروحــات.. لأنه إذا فني الكون، فقد فني الإنسان بإنجازاتــه وطموحاتــه، حــتى لو حقق بعض المعنى لنفسه في إنجازاته الجزئية الآنية، لكن لابــد أن يأتيه الوقت الذي يرى نفسه بمثابة من يزرع وردة في مزبلة..

لأنه سيموت وتموت نجاحاته، ويصبح عدما، لا قيمة لـه، ولا إنجـاز، ولا معنى بطبيعة الحال.

سكت قليلا، ثم راح يضحك بهسـتيرية، ويقـول مخاطبـا بعض من كان في ذلك الجناح: هل تسمعني يا [لامتريه(1)].. لقــد رحت تقترح علينا في ذلك المجلس أن ننسى الموت، ونتجاهله، وذكرت لنا أن القلـق من المـوت لا ينشـأ إلا من العقائـد الدينيـة، لمـا في الآخرة من عقاب.. ومن ثم فإن إلغـاءه من الـذاكرة من شـأنه أن يلغي القلق.

وأنت يا [هولباخ].. لقد طرحت علينا حينها الرؤيــة الأبيقوريــة للمـوت، وأنــه لا يخضــع للتجربــة، ومن ثَمَّ فإنــه لا ينبغي أن يمثــل أهمية للبشر، لأن المذكور في الأديان عن عواقب الموت لا يمثــل قلقًا للملحد.

وأنتم جميعا يـا من رحتم تتلاعبـون بالحقـائق، وتجـادلون في اليقينيـات.. لقـد كنتم تخـدعون أنفسـكم، وتخـدعون عقـولكم في الوقت الذي تصورتم أنكم تسخرون فيه من المؤمنين الـذي كـانوا أكثر منكم طمأنينة، وأسعد منكم حالا.

التفت يبحث في المحيطين بـــه، ثم صـــاح: أين أنت [كلـــود أدريان هيلفيتوس].. وأنت يا [دنيسديدرو].. لقد كنتما صادقين مــع نفسـيكما على الـرغم من إلحادكمـا، فقـد اعترفتمـا بـأن النتـائج المترتبة على الإلحاد تتسق مع الاكتئاب.

لكنكما كسائر الملحدين رحتما تخدعان نفسيكما بالمخــدرات التي تبعدكما عن الواقع وعن جوهر الحقيقة.. كـذلك الغـبي الـذي تصور أنــه لإيجـاد الراحــة والقضـاء على القلـق من المـوت طـرح فكرة بقاء الأنواع.. لقد قال معبرا عن ذلـك: (الفـرد يمـوت.. لكن الأنواع لا نهاية لها)

أو كذلك الأحمـق [إتيـان دي سـينانكور] الـذي ذكـر أن الحـل الوحيد لمشـكلة المـوت هـو شـفاء البشـر من مـرض الرغبـة في الخلود.. وذلك من خلال اسـتغلال جميـع طاقتـه دفعـة واحـدة في

(1) فيلسوف ملحد فرنسي (1709-1751)

حياته الحاضرة.

أو كذلك التلميذ الغبي له [ماركيزدي ساد] الذي دعا إلى رفض الرغبة في الخلود، بل وازدرائها، والاستغراق الكامل في الشهوانية، وإلحاق المعاناة بالآخرين، باعتبارها وسيلة لإطفاء الخوف من الموت...

أو كذلك الأحمق المغفل المتكبر [نيتشه] رائد العدمية الذي فسر الرغبة في الخلود بالرغبة في القوة والسلطة.. واعتبر أن ذلك هو معنى الحياة، ومعيار الحسن والقبح والسعادة.. أو كما عبر عن ذلك بقوله: (أي شيء يعد حسنا؟ كل ما ينمي الشعور بالقوة.. أي شيء يعد سيئا؟ كل ما يتأتى من الضعف.. ما هي السعادة؟ الإحساس بأن القوة في تنام، وأن هناك مقاومة يتم التغلب عليها. ليس الرضا، بل مزيدا من القوة، ولا السلم في كل الأحوال، بل الحرب، لا الفضيلة، بل البسالة.. لابد أن يضمحل الضعفاء وذوي التكوينة المعوقة، وعلينا أن نساعدهم على ذلك)

أو كذلك الوجودي المتحرر [سارتر] الذي عبر عن أطروحاته الغبية في هذا المجال بقوله: (كنت أعلم جيدًا أنه (العالم)، (العالم) العاري الذي يظهر فجأة، وكنت أختنق غضبًا من هذا الكائن العبثي الضخم. لم يكن بإمكان المرء حتى أن يتساءل من أين كان ذلك كله خارجا؟، ولا كيف تم إن وجد عالم؟، ولم يوجد لا شيء؟. لم يكن لذلك أي معنى. كان العالم حاضرًا في كل مكان، أمام ووراء. لم يكن ثمة شيء (قبله) على الإطلاق. لم تكن ثمة لحظة لم يكن يستطيع فيها ألا يوجد).. ولذلك راح يدعو إلى الحرية المطلقة، لأنه ـ بحسب تصوره الأبله ـ لن يكون هناك أي معنى قبلي للوجود، ولا غرض بعدي له.

لقد عبر عن ذلك بقوله: (لقد كتب ديستوفيسكي مرة: إذا لم يكن الله موجودًا؛ فكل شيء مباح. وما كتبه ديستوفيسكي هو النقطة التي تنطلق منها الوجودية. والتي نعتقد فيها أن إنكار وجود الله يعني أن كل شيء يصير فعلاً مباحًا، وأن الإنسان يصير وحيدًا مهجورًا، لا يجد داخل ذاته أو خارجها أية إمكانية يتشبث بها)

هكذا قال أصحابي من المتفائلين من الملاحدة.. أما

المتشائمون منهم.. فقد راحوا يغرقون في العبثية والتشاؤم والاكتئاب..

أذكر منهم زميلنا في مدرسة الإلحاد [نيكولا دي شامفورت] الذي اعتبر الحياة مرضا، وأن الموت هو الدواء.. وأن الحياة ليست سوى تعذيب طويل، يمثل الموت تحررا منها.. وقد كتب يقول في لحظات انتحاره: (إنه من المؤسف حقًا أننا ولدنا)

وأذكر منهم زميلنا [برتراند راسل] الذي تحدث في محاضرته (لماذا لست مسيحيًا؟) عن حتمية فناء العالم، ثم التفت إلى ما تسببه تلك النظرة من اكتئاب وتشاؤم، ولا ينكرها، وإنما يحاول توجيهها إلى أنها ليست بتلك القدرة على الإِحْزان، فقال: (عندما يأخذ المرء قوانين العلم العادية سيجد المرء أن الحياة البشرية على هذا الكوكب والحياة بشكل عام ستنتهي في نقطة زمنية معينة، أي أنها مرحلة انتقالية في دمار وخراب المجموعة الشمسية. في مرحلة انتقالية معينة تكون البلازما مناسبة للحياة وذلك لمرحلة قصيرة من عمر المجموعة الشمسية. القمر يعرض أمام العيون كيف ستكون نهاية الأرض، ميتة، باردة، وبلا حياة. ماذا سيحدث للعالم بعد ملايين السنين؟، لا تتسبب في بؤس وتعاسة أي إنسان. بالرغم من أنها في الحقيقة نظرة قاتمة عندما يرى المرء أن الحياة ستنتهي، ورغم ذلك عندما أرى أحيانًا ماذا يصنع البشر في حياتهم، أرى ذلك نوعًا من التعزية. ولذلك فإن هذه النظرة التشاؤمية لا تتسبب بتعاسة حياتنا، إنما تدعونا إلى لفت النظر إلى أشياء أخرى)

قال ذلك.. ثم راح يبكي ويضحك.. ويتحرك كالقردة والمجانين.

ديفيد رونيجارد:

قام بعده رجل بحركات عشوائية كثيرة لا لم أفهم مقصوده منها.. ثم راح يحاول أن يحول من بكائه المرير إلى ضحك، ويحاول أن يرسم ابتسامة على وجهه، فيفتح شفتيه بكلا يديه، لكن الابتسامة تأبى أن ترتسم، ويبقى الحزن هو الوحيد الذي يكسو وجهه..

قام، وقال: أنا [ديفيد رونيجارد(1)].. اسمحوا لي معشر العبثيين أن أسرد عليكم ما كتبته من كلمات قبل موتي.. وما لم أكتبه.. ما سجله التاريخ.. وما لم يسجله.. ما عبر عنه لساني، وما عبرت عنه فطرتي التي قمعها لساني..

لقد كتبت في آخر رسالة لي للبشرية أقول(2): (أنا فيلسوف علماني التفكير.. لا يشكل الإيمان لدي فضيلة من الفضائل.. أدحض جميع الحجج التي تثبت وجود الرب وقدرته.. فلسفتي في الحياة مبنية على التفكير العقلاني، والأدلة المنطقية.. أعتبر الموت نهاية لحياتنا الواعية، وأرى أن الإنسان يصنع قدره بنفسه)

وكتبت أقول: (إن التأملات العامة التي تكتب عن الموت غالبا ما تكتب خوفاً منه لا أثناء مواجهته.. أنا في وضع متميز كوني أكتب عن الموت وأنا أواجهه.. للتو قيل لي، في سن 37 عاماً، أنني في المرحلة الرابعة من سرطان الرئة.. إن الإلحاد وتلقي أنباء الاقتراب الوشيك للموت لمزيج مؤسف حقاً.. من أين يستمد الفيلسوف الملحد العزاء؟ من الذي يعطي للحياة المعاشة معنى، ومن أين يتأتى التسليم بالمصير المتوقع؟)

وكتبت أقول: (لم يكن لدي ميل أبداً نحو الخوارق، ولم يشكل الدين في حياتي ذا مصداقية أو مصدراً للعزاء.. كما لم يشجعني الموت الذي يلوح في الأفق على فهم العزاء بصورة زائفة، بالرغم من حاجتي الماسة إليه.. في الواقع، أجدني بالرغم من هوسي بالموت، ألتمس العزاء من وصف سقراط للفلسفة بأنها عملية قبول الإنسان لموته.. الآن، وأنا أواجه النهاية الحتمية للحياة في سن مبكرة، أتساءل عما إذا كنت قد استطعت

(1) د. ديفيد رونيجارد، بروفيسور فلسفة سويدي في جامعة غوتنبرغ، وهو باحث ومدرس متخصص في مجال المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات.. وقد اقتبسنا حديثه هنا من مقال له بعنوان: [ملحد في الجحر: كيف يجد الملحد العزاء في مواجهة الموت؟] وقد نشر المقال في نوفمبر من عام 2014م في مجلة [الفلسفة الآن]، وترجمه: فواز البنفلاح، وهو يحكي انطباعات ما قبل الموت لدكتور سويدي ملحد مصاب بسرطان الرئة.. انظر: مجلة الفلسفة الآن، العدد 105، نوفمبر/ديسمبر 2014.

(2) النصوص التي بين قوسين هي من مقاله [كيف يجد الملحد العزاء في مواجهة الموت؟]

الوصول إلى مرحلة القبول بها على الصعيد الشخصي)

وكتبت أقول: (غالباً ما يتم تصوير الفلاسفة بأنهم يحاولون الإجابة عن الأسئلة الكبيرة، خاصة سؤال ما معنى الحياة؟ في الواقع أن هذا السؤال لا يتناوله الفلاسفة إلا في محادثاتهم العابرة، ولكنني نادراً ما لاحظت أنه مدعاة للقلق بين مدرسي الفلسفة، على الرغم من أن عدد غير قليل من المفكرين غير المتدينين قد حاول الإجابة عن هذا السؤال بوجه أو بآخر.. يكمن السبب في تجاهل الفلاسفة الإجابة عن سؤال معنى أو قيمة الحياة في أن لدى هؤلاء فهم ضمني بأن مثل هذا المعنى أو القيمة تجربة شخصية.. وإن كان معظم الفلاسفة لا يضيعون أوقاتهم في التفكير في معنى لحياتهم فلماذا يتوجب على سواهم فعل ذلك؟ إنها أمثولة الفيل في الغرفة بالنسبة للفكر العلماني..)

وكتبت أقول: (إن سؤال [معنى الحياة] في الفلسفة التحليلية غائب تماماً، فإلى وقت قريب تركزت المساهمات الفلسفية على فهم معنى [المعنى] و[الحياة] بدلاً من فهم [معنى الحياة].. وفي هذا تجيء مقولة برتراند راسل بأن [كل شيء غامض لدرجة أنك لا تدرك ذلك إلا عند محاولتك جعله دقيقاً] لتذكرنا بمدى الإعجاب الذي نكنه للفلسفة التحليلية التي تطمح إلى جعل كل شيء واضحاً.. لكن بصراحة، لا شيء من هذا مفيد لفرد يبحث عن معنى للحياة وهو موشك على الموت.. أما بالنسبة لعامة الناس فإنه أمر لا يحمل دلالة واضحة بل هو عصي على الفهم، كما أنه منزوع العاطفة ولا يفيد كتجربة شخصية.. ما يفيد في هذا المجال هي الفلسفة الوجودية كونها ترتكز على أصالة الوجود واعتبارية الماهية، مما يقربنا من فهم ما يشكل قيمة في حياتنا ويساعدنا بالتالي على إيجاد معنى لها ونحن نحاول أن نحقق هذه القيمة.. ولهذا، فإن سؤال [المعنى] لدى الفيلسوف الوجودي يعتبر بالنسبة له صيغة وصفية لا علاجية)

وكتبت أقول: (في هذا الفراغ، يزعم الدين احتكاره لصيغة حصرية لمعنى الحياة والموت.. هنا يرد المعنى الديني مع وعد في نهاية المطاف بالنجاة من الموت تماماً (على سبيل المثال، إنجيل يوحنا (25: 11) (من آمن بي ولو مات سيحيا).. إن توق الإنسان

إلى الدين ينبع جزئياً من خوفه من الموت وبحثه عن العزاء من خلال الإيمان بالدار الآخرة.. ومع ذلك، فإن الفكرة المطمئنة عن الدار الآخرة من غير المرجح أن تكون صحيحة، بل ليست هناك حاجة إليها.. ففي رأيي، لا أعتقد أن الموت يجب أن يخشى، لأنه حالة من العدم وامتداد للصمت المطبق الذي جئنا منه.. علاوة على ذلك، مع عدم وجود الحياة الأخروية، علينا أن نستغل ما تبقى لدينا من وقت في هذه الحياة بالصورة المثلى، خاصة وأن فرص الاستفادة مما تبقى لنا من هذا الوقت مجهولة إلى حد كبير لدى معظمنا.. ولذلك يجب أن تكون مخاوفنا، إما بسبب ضياع هذا الوقت، أو بسبب عدم حصولنا على ما يكفي منه..)

وكتبت أقول: (إن النظرة غير الدينية لا تشكل وعداً بالخلود، ولكنها توفر بعض الراحة.. على سبيل المثال، ليس لدي أي شعور بأنني قد عوملت بشكل غير عادل.. أنا لا أتساءل ماذا فعلت لاستحق ما يحدث لي، وأنا بالتأكيد لا أعتقد أن أي شخص آخر هو أحق بمصابي مني.. حسناً، أستطيع أن أفكر في بعض من يستحق ذلك، ولكن هذا خارج عن الموضوع.. المهم في الأمر بأنه ما من أحد كتب علي هذا المصير، وبالتالي لست بحاجة إلى تبديد ما تبقى لدي من وقت في التفكير بظلم ما وقع علي.. ببساطة كنت كمن وقعت في يديه ورقة يانصيب الطفرة الجينية الخبيثة..)

وكتبت أقول: (يقول رجال الدين أحياناُ بأنه ما من ملحد يستطيع بمجرد الوقوع في حفرة الاحتفاظ بإلحاده، بافتراض أن الملحد سيغير معتقداته ويؤمن بالخوارق بمجرد تغير حظوظه الدنيوية.. ولكن إن كان التمني سهلاً وفاعلاً في هذه الحالة، لكنت ببساطة تمنيت شفائي من السرطان.. إن المنحى الإنساني الذي يتجنب الخوارق يتيح لنا الاستفادة مما تبقى لنا من أعوام في هذه الحياة.. المعضلة تكمن في أننا لم نحصل على أعوام كافية كما كنا نأمل (ناهيك عن الآخرة).. أتمنى أن أقول في هذه اللحظة ما يبعث على المواساة ولكن ربما هي جزء من أزمة وجودية يتوجب أن يعيشها أي إنسان..)

وكتبت أقول: (عندما لا يوجد ما يمكننا أن نخسره فإننا ندرك تماماً ما يتوجب علينا ألا نخسره.. أنت تعيش الحياة بطريقة

مغايرة تماماً لأنك تعلم أنك ميت.. لدى ممرضتي وشم على ذراعها مكتوب فيه [عش حياتك كأنك ستموت اليوم، وأحب كأنك ستعيش إلى الأبد].. يصبح العيش في الحاضر أكثر يسراً عندما يدرك المرء بأن حياته شارفت على الانتهاء.. إنه يعي أيضاً أهمية من يحبهم، وتفاهة ما يملكه من أموال ومقتنيات مادية.. أنا أقول هذا الكلام لكوني أعيش في السويد وأتمتع بالرعاية الصحية الشاملة ولذلك لا أقلق بشأن الفواتير الطبية العالية المترتبة على علاجي.. ولكن بغض النظر، فإن المال لا نفع منه إن لم تستطع إنفاقه.. إن غياب القلق المادي، يمكن الإنسان من رؤية كل شيء بوضوح تام..)

وكتبت أقول: (تتبدى الحياة لدى معظم الناس كنوع من التطلع إلى المستقبل لا كعد تنازلي.. ولكننا نحتاج كلا المنظورين.. ففي مرحلة ما من حياتنا، سوف يلوح لنا الأفق وعلينا ساعتها أن نسأل أنفسنا السؤال التالي: ما الذي أراه عندما أنظر في المرآة الخلفية، وبماذا أشعر حيال ما أتركه ورائي؟)

وكتبت أقول: (إن التمييز بين ما هو [مطلق] و[نسبي] لمعنى الحياة يتوقف على ما إذا كان أي شيء ذو قيمة خارج تصورنا لمفهوم القيمة.. إن النظرة الدينية تفرض علينا تصوراً خارجياً مطلقاً للقيمة بينما تفرض النظرة الإنسانية علينا تصوراً نسبياً للقيمة.. لا أعتقد أن هناك تصوراً مطلقاً للقيمة لأنها حالة ذهنية تتطلب وجود طرف خارجي يقوم بها.. ومع ذلك، فقد يكون هناك مجال لمشاعر نعتبرها جميعاً ذات قيمة.. إن قرب انتهاء الحياة قد يساعدنا على رؤية تلك القيمة..)

وكتبت أقول: (إننا عندما نتطلع إلى المستقبل، فإن حياة الانغماس الذاتي لا تبدو غير معقولة، ولكن ما نقدره في الوقت الراهن قد لا يبدو في غاية الأهمية عندما ينظر إليه في سياق الحياة المحدودة.. عندما نضطر أن ننظر من خلال المرآة الخلفية، فإن حياة الانغماس الذاتي قد ولت تماماً.. ماذا تبقى بعد ذلك من قيمة تمكننا من الإحساس بأننا عشنا حياة ثرية؟ ما هي المشاعر التي ستبقى خالدة؟ .. كما أراها، فإن المشاعر الخالدة هي الذكريات التي اجتازت اختبار الزمن كلحظات الفرح مع من

نحب، وتلك السعادة التي تشع في النفس من إنجازات حققناهـا.. إنه لمن الصعب إيجاد كلمات تصف هذه المشـاعر الخالـدة لكنهـا مشاعر تحوي جانباً روحانياً.. يقال بأن الفلسفة تبتـدئ حيث ينتهي الـدين، ولكن في هـذه اللحظـة فـإن الشـعر قـد يعـبر عن هـذه المشاعر بطريقة تعجز عنها الفلسـفة التحليليـة.. إننـا نحتـاج بـدلاً عن الدقــة المفاهيميــة إلى إفســاح المجــال للغــة أكــثر ملاءمــة للمشاعر..)

وكتبت أقول: (إن ما يثير مشاعر خالـدة يختلـف من شـخص لآخـر، ولكنــني أرى بتواضــع أن هــذه المشــاعر ســوف تنبــع من الأحداث التي مست حياة الآخرين، وظلت محفورة في ذاكـرتهم.. إن النظـرة الإنسـانية للخلـود ليسـت ماديـة بـل تتبـدى في صـور متعددة تمس حياة الغير مثل الصداقات المتينة، ولحظات الــولادة الأولى، والمشــاريع الــتي نؤسســها، والكتب الــتي نكتبهــا.. في جوهرها، هي آثار الأقدام التي نتركها وراءنا..)

وكتبت أقول: (إن الحياة المعاشة بحق هي تلك التي عشناها من خلال الآخرين ونحن أحياء، إذ أن الآخرين يضفون معنى لحياتنا من خلال إتاحة الفرصة لنا كي نحبهم.. أما عند موتنا، فإن المعنى الــذي نقدمـــه لهم يكمن في الاســـتمرار في أن نكـــون موضـــع محبتهم.. إن الوعي بالموت يسلط الضوء على مثل هذه المشاعر الخالدة ويبين لنـا مـا يتـوجب علينـا تقـديره بعمـق.. ضـمنياً، فـإن الإيمان بالدار الآخرة، والذي يصل إلى حد إنكار الموت، قد يحجب عنا هذه البصيرة..)

هذا ما كتبته، وما قرأه الناس، ووجد فيه الكثير من الملاحـدة سلوى عن الآلام التي تصيبهم جراء تذكرهم للموت وللعدم بعده.. وللعبثية التي سبقت ذلك ولحقته.

لا أكتمكم أني كتبت ذلك، وأنا أتجـرع آلاف الغصـص والآلام.. وكنت أتجـرع معهـا كـذلك الكثـير من الكبريـاء.. وكـانت رسـالتي للبشرية هي نوع من الاستغاثة لرب البشرية الـذي تكـبرت عليـه، ولم أحترمه، ولم أقدره.. ولست أدري لم؟

لقـد كـانت فطـرتي تـود أن تصـيح في كـل كيـاني مخاطبـة

المبدع العظيم قائلة له: (ها أنـذا يـا إلهي قـد أنهيت مرحلـة هـذه الحياة بحلوها ومرها، وأنـا أريـد منـك أن تبـدلني منهـا حيـاة خـيرا منها، وأكرم في جوارك الكريم).. لكني لم أفعل.

وقد شاء الله أن يرسل لي في تلك اللحظات من ينبهني من غفلتي، ويوقظني من سـباتي، لأرى الوجـود بصـورته الحقيقيـة، لا صورته الـتي رسـمتها لي الفلسـفة التحليليـة والوجوديـة والعبثيـة التي حطمت فطرتي وحقيقتي.

بعد أن خرجت من عيـادة الطـبيب، وتجـرعت غصـص الخـبر المـؤلم الـذي هـز كيـاني كلـه، التقيت رجلا مؤمنـا .. كـان من المسلمين.. وكان لا يختلـف عمـره عن عمـري كثـيرا.. وكـان هـو الآخـر أيضـا دارسـا للفلسـفة ومهتمـا بهـا لكنـه درس معهـا كتابـه المقدس الذي كان يحمله معه..

والعجيب أنـه خـرج من نفس العيـادة، وأخـبره الطـبيب أن حالته لا تختلف عن حالتي، وأن أيامه معدودة في الدنيا.. لكني مع ذلك وجدته بحالة مختلفة عن حالتي التي كنت أحاول سترها.

اقـتربت منـه، وقلت لـه: ألا يمكنـك أن تخـبرني عن حالتـك النفسـية في هـذه اللحظـات.. فأنـا أريـد أن أكتب مقـالا في الموضوع.. ولعله آخر مقال أكتبه في حياتي.

قـال، والابتسـامة على وجهـه: هـذا يسـرني كثـيرا.. نعم أنـا حزين.. لأن كل إنسان فطـر على حب الحيـاة الـدنيا.. ولكـني مـع ذلك سعيد..

قاطعته، وقلت: ألأنك ستذهب للعدم؟

ضحك، وقال: وهل في العدم سعادة.. وهل هنـاك من يسـعد لأنه سيعدم؟

قلت: فإلي أين ستذهب؟ أليس إلى القبر؟

قـال: ذلـك جسـدي.. وهـو من الـتراب.. ولابـد أن يعـود إلى التراب.. أما أنا فشيء آخر.. أنا أكثر قداسـة وسـموا ورفعـة.. أنـا كـائن سـماوي هبـط إلى الأرض ليـؤدي وظائفـه.. وأظن أنـني

سأسرح وأحال إلى التقاعد عن قريب.. وأظن أن الله قـد وفقـني فعملت الكثير من الأشياء الطيبة.. ولذلك فأنا بمقدار حزني سعيد لأني سألاقي ذلك الجميل الذي عشت حياتي كلها في صحبته.

قلت: هذه فلسفة المجانين؟

قال: بل هـذه فلسـفة العقلاء والأنبيـاء والأوليـاء.. فمن خلـق هذا الكون جميعا، بهذا الإبـداع لا يمكن أن يكـون قـد خلقـه عبثـا.. العبثية شأن المهرجين لا شأن الحكماء.. والله أحكم الحكماء.

قلت: هلا وضحت لي ما تقصد.

قلت هذا وأنـا أنـوي أن أقـارن بين فلسـفته للحيـاة والمـوت وفلسفتي.. وللأسف فإني لم أتلق كلماته بقلبي، ولا بعقلي، وإنمـا تلقيتها لأسخر منها، وأهـزأ بهـا، وأكتب مقـالي الـذي قرأتـه عليكم للرد عليها.. مع أنه لا دليل لي إلا هواي المجرد.

لكنـه أجـابني بكـل أدب، وقـال[1]: اعلم يـا أخي أن الخـالق الرحيم والـرزاق الكـريم والصـانع الحكيم الـذي أبـدع هـذا الكـون جميعا، جعـل هـذه الـدنيا على صـورة عيـد بهيج، واحتفـال مهيب، وزينها بالآثار البديعة لأسمائه الحسنى، وخلع على كـل روح صـغيرا كـان أم كبـيرا، عاليـا كـان أم سـافلا، جسـدا على قـدره، وجهـزه بالحواس والمشاعر، وكل ما يوافقه للاستفادة من النعم المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى، والمبثوثة في ذلك العيد البهيج.

لكن بعد انتهاء الاستعراض الرباني لكل طائفة من الطوائف، وبعد استحصال النتائج المقصودة من ذلك العرض، يتفضل الفاطر الرحيم والصانع الكـريم على كـل طائفـة من الطوائـف، فيمنحهم رغبة في الراحة واشتياقا إليها، وميلا الى الانتقال الى عالم آخر.

وحينما يرخصون من تكاليف الحيـاة ويسـرحون من وظائفها، ينبه سبحانه في أرواحهم رغبة قوية وحنينا إلى موطنهم الأصلي..

---

[1] اقتبسنا هنا بتصرف كبيرا نصا من الكلمة السابعة عشـرة من كليـات رسـائل النـور للنورسي.

ولذلك فإن المؤمن لا ينظر إلى الموت باعتبـاره إعـداما، بـل يعتبره تبديل مكان.. والقبر عنده ليس فوهة بئر عميـق، بـل بـاب لعوالم نورانية.. والدنيا مـع جميـع مباهجهـا في حكم سـجن ضـيق بالنسبة لسعة الآخرة وجمالها.. ولذلك، فإنه يشعر أن الخـروج من سـجن الـدنيا والنجـاة من ضـيقها إلى بسـتان الجنـان الأخروية، والانتقال من منغصات الحياة الماديـة المزعجـة الى عـالم الراحـة والطمأنينة، والانسلاخ من ضجيج المخلوقات وصخبها الى الحضرة الربانية الهادئة المطمئنة الراضية، سياحة بل سعادة مطلوبة بألف فداء وفداء.

قلت: ألا ترى أنك تكذب على نفسك بذلك؟

قال: ومن قال لك إنك تصدق معها.. ألا يمكن أن يكون الحق معي.. أم أن الحــق حكــر عليــك، وعلى الفلاســفة الــذين بعتهم روحك.

قلت: ولكن الذي ذهب إلى مـا ذهبت إليـه فلاسـفة أصـحاب عقول.

قال: والـذي ذهب إلى مـا ذهبت إليـه أنبيـاء أصـحاب عقـول وأرواح، وقد أثبتوا لي صدقهم بآلاف الحجج والبراهين.

قلت: تلك خرافات الأديان.

قال: بل تلك حقائق الوجود الكبرى التي تلاعب بهـا الإنسـان ليفر من ربه إلى هواه.. وفي الأخير لن يجد شيئا.

قلت: فما قيمة الحياة عند ربك .. هذا الـذي يستضـيفنا، ثم لا يلبث حتى يقهرنا بالموت.

أخذ ينظر إلى الأفق البعيد.. وكأنه يتحدث نيابة عن ربه: ربي قال لي: الحياة الدنيا التي تعيشها ليسـت سـوى مزرعـة للآخـرة.. فازرع واجن ثمراتها واحتفـظ بها، واهمـل قـذاراتها الفانية.. واعلم أنهـا مجـاميع مرايـا متعاقبة، فتعـرف إلى من يتجلى فيها، وعـاين أنواره، وأدرك معاني أسمائه المتجلية فيها واحبب مسماها، واقطع

علاقتك عن تلك القطع الزجاجية القابلـة للكسـر والـزوال.. واعلم أنها موضع تجارة سيار، فقم بـالبيع والشـراء المطلـوب منك، دون أن تلهث وراء القوافل التي أهملتك وجاوزتك، فتتعب..

وقال لي: اعلم أن الحياة الدنيا متنزه مؤقت، فاسرح ببصرك فيهـا للعـبرة، ودقـق في الوجـه الجميـل المتسـتر، المتوجـه إلى الجميل البـاقي، وأعـرض عن الوجـه القـبيح الـدميم المتوجـه إلى هوى النفس، ولا تبك كالطفل الغريـر عنـد انسـدال السـتائر الـتي تريك تلك المناظر الجميلة..

وقال لي: اعلم أنها دار ضيافة، وأنت فيها ضيف مكرم، فكـل واشرب بإذن صاحب الضيافة والكرم، وقدم له الشكر، ولا تتحرك إلا وفق أوامره وحدوده، وارحـل عنهـا دون أن تلتفت إلى ورائك.. واياك أن تتدخل بفضول بـأمور لا تعـود اليـك ولا تفيـدك بشئ، فلا تغرق نفسك بشؤونها العابرة التي تفارقك.

التفت إلي، وقد رآني مستغرقا في حديثه، وقال: بمثـل هـذه الحقائق الظاهرة يخفـف ربي عـني آلام فـراق الـدنيا، وينبهي إلى أن ذلك ليس سوى أثر من آثار رحمته الواسعة في كل شئ، وفي كل شأن.. فلذلك أنا سعيد لألقى ربي.. وربما نلتقي هناك.

عندما قال لي هذا رحت أسخر منه.. وقد صادف أن متنا في يوم واحد.. وقد رأيته في حلة جميلة.. وأنا في الحلة التي تــرون.. وقد قال لي حينها: ألم أقل لك إننا في دار الضيافة الإلهيـة.. وأننـا عائدون لا محالة إليه.

قـال ذلـك.. ثم راح مثـل أصـحابه يخلـط الضـحك بالبكـاء.. ويتحرك كـالقردة والمجـانين.. ويحـاول أن يرسـم الابتسـامة على وجهه، وتأبى الابتسامة أن تكذب عليه.

***

بينمـا أنـا في قمـة اسـتغراقي في سـماع مـا قالـه هـؤلاء الملاحدة العبثيون، نبهني صاحبي المرشد، وقـال لي: أظن أن مـا سمعته هنا من اعترافات يكفي... فهلم بنا إلى جناح آخـر... لـترى

أهله وتعرف أسرار إلحادهم..

سرنا إلى الجناح الخامس في فندق الملاحدة، وقد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: 60]

سألت المرشد عن الآية، وعلاقتها بهذا الجناح، فقال: هذا جناح المصارعين..

قلت: المصارعون .. عجبا .. لم أكن أعلم أن في هذا الفندق محلا خاصا للمصارعة.. ما نوع المصارعة التي تمارس هنا؟

قال: هنا تمارس كل أنواع المصارعة، ابتداء من المصارعة مع الله إلى المصارعة مع الكون والبشر، وكل شيء.. أهل هذا الجناح يتصورون أنه لا يمكن أن تستقر الحياة، ولا أن تستمر دون أن يصارع أصحابها بعضهم.

قلت: لكن ما علاقة هذا بالإلحاد؟

قال: أول شيء يفعله الملحد مصارعته لربه.. وعدم سلامه أو استسلامه له..

قلت: لقد عرفت هذا في جناح الوجودية.. فهم يتصورون أن الله سيسلبهم حريتهم لو آمنوا به.. لذلك آثروا أن يغمضوا أعينهم عن آياته.. ويصموا آذانه عن نداءاته، حتى لا تحجبهم معرفته عن حقيقتهم وحريتهم.

قال: ومثلهم التنويريون، فقد تصوروا أن إيمانهم بالله سيسلبهم عقولهم وحضارتهم ورفاههم، لذلك راحوا يستعملون كل حيلة ليجحدوه.

قلت: وهكذا الحسيون الذين توهموا أن إيمانهم بالله يتصارع مع عقولهم وحواسهم.. وأن الحقيقة فقط ما تريه إياه مداركهم.

قال: وهكذا كل الملاحدة مصارعون.

قلت: ما دام الأمر كذلك، فلم خص هذا الجناح بالمصارعين؟

قال: لأن الصراع عندهم قد بلغ ذروته، حتى أنهم يتصورون أن الكون وجد بسبب الصراع بين العدم والبقاء، فانتصر البقاء، هكذا دون حاجة إلى صانع ومؤثر.. وهكذا تراهم يجعلون الصراع سببا في حصول كل شيء.. ولذلك يدعون المجتمعات إلى صراع بعضها لبعض.. وقد ملأوها إبان حكمهم بالصراع.

قلت: وعيت ما ذكرته، وهو لا ينطبق إلا على الشيوعيين، فهم الذين يذهبون إلى ما ذكرت.. لكن ما علاقة الآية بهم.

قال: الآية الكريمة تنطبق عليهم كما تنطبق على كل الملاحدة.. فهي تخبر أن الله تعالى خلق الكون والإنسان برحمته، وأنه لم يرد منه ولا من البشر إلا الخير والرحمة والفضل العظيم.. لكن أولئك المصارعين الجاحدين أبوا أن يسجدوا للرحمن.. وأبوا أن يتقبلوا الرحمة الإلهية، فوقعوا في النقمة الإلهية.. فتحول كل شيء في أعينهم إلى نقمة.

ما إن قلت هذا حتى فتح الباب، فرأيت شيئا عجيبا ملأني بالضحك في نفس الوقت الذي ملأني بالألم.. لقد رأيت نفرا كثيرين جدا، يضعون على أيديهم قفازات ملاكمة تبدو قاسية يابسة، وكأنها صنعت من الخرسانة المسلحة، وكانوا في الظاهر يتدربون، لكنه كان تدريبا قاسيا جدا، فقد كان يضرب بعضهم بعضا بمنتهى القسوة إلى أن تسيل الدماء منهم.. وكانت الدماء تملأ المكان.. والجروح الغائرة تكسو كل واحد منهم.

فجأة سمعت صوتا عاليا في الجناح يقول: كفوا الآن.. خذوا بعض الوقت للراحة.

ما إن صدر هذا الصوت حتى ارتمى الجميع على تلك الدماء، وهم يئنون من شدة الألم، وقد رأيت بعضهم من شدة عطشه يشرب الدماء التي تمتلئ بها ساحة الجناح.

لودفيج فويرباخ:

ما هي إلا لحظات حتى قام رجل، كانت الدماء تغطي كل نواحي جسمه، فلم أستطع تمييز لون وجهه، ولا معرفة شكله بسبب تلك التشويهات الكثيرة التي أحدثتها اللكمات التي وجهها

لها بيده، أو بيد غيره.

قام، وقال: اسمعوني أيها الرفاق، فأنا [لودفيج فويرباخ [1]] أستاذ ماركس في المادية، ومخلصه من المثالية، يريد أن يحدثكم.. ويعترف بين يديكم بالحقائق التي لم أسجلها في قراطيسي، ولا رواها التاريخ عني.

لا شك أنكم قرأتم عبارتي التي تحدد فلسفتي، وتصور نظرتي للوجود والكون والحياة، والتي قلت فيها: (إن الغرض من كتاباتي، هو تحويل علماء الآلهة إلى علماء الإنسان، ورجال الكهنوت إلى فلاسفة، وتطوير حكماء كل الأزمنة إلى مستوى طلاب حداثة، وتحرير العبيد من هيمنة الدين والسلطة الأرستقراطية، ليصبحوا مواطنين أحراراً، مفعمين بالوعي والإرادة الحرة)

هذه العبارة تلخص مذهبي ورسالتي التي استعملت كل الوسائل لنشرها، إنها مواجهة الدين، وكل فلسفة مثالية تريد أن تقترب منه.. فلهذا رحت أصوغ فلسفة بعيدة عن المثالية والدين.. فلسفة تتخذ من الإنسان نقطة للانطلاق، بعيدة عن الجوهر المطلق، قريبة من الكيان البشري النسبي، ومن تجاربه الملموسة، لذلك أُطلق على فلسفتي لقب [الفلسفة المادية الأنثروبولوجية]

لاشك أن الكثير منكم لم يفهم هذا العنوان، فلذلك سأشرحه لكم قبل أن أرد عليه.. وقد يكون شرحي وحده كافيا لنقده والرد عليه.. فليس هناك شيء أكثر تشويها للباطل من عرض صورته العارية من كل لباس يسترها أو يزينها.

لقد فسرت الدين في فلسفتي المادية بكونه ليس سوى

1() ودفيغ أندرياس فويرباخ [1804 ـ 1872] فيلسوف ألماني.. كان تلميذاً لهيغل ثم أصبح من أبرز معارضيه.. من مؤلفاته: في نقد الفلسفة الهيغلية) (1839) ـ (جوهر المسيحية) (1841) ـ (الموضوعات الجارية لاصلاح الفلسفة) (1842) ـ (أسس فلسفة المستقبل) (1843)، مات في مدينة نورنبرج الألمانية، إثر نوبة رئوية حادة، وكان في حينها فقير الحال، مشوش الأفكار.. ونشرت الصحف في ذلك الحين وصفاً لدفنه في مقبرة يوهان، في مدينة نورنبرج البافارية، جاء فيه: (لقد شارك في التشييع عدد هائل من الناس، والمنظمات، وحزب العمال الإشتراكي الديمقراطي)

انعكاس لأمنيات البشر وتصوراتهم، ومن أجل منفعة الإنسانية الحقيقية، وحتى يرى الإنسان نفسه وحدة متكاملة.

لقد صحت في الجموع الملتفة حولي، والتي جمعت لي من المال ما يكفي لأيام كثيرة بعد انهيار مصنعي، وطردي من مسكني: إن الكيان الإلهي لا وجود له.. وإن الضمير اللانهائي ليس سوى ضمير للانهائية الضمير.. وبذلك فإن ضمير الإله ماهو إلا الضمير الشخصي للإنسان.. ومعرفة الإله ماهي إلا معرفة الإنسان لِذاته.. والإله ليس سوى محض تعبير عن الذكاء البشري، والإرادة البشرية، بما فيها الكمال والعدالة والحب.. وقد صاغ الخيال الإنساني كيانا سماه [الإله] ليجسّد كل ما عنده من غرائز وقوى بشكل متكامل.

وقلت لهم: أما الدين فليس سوى سلوك الإنسان تجاه ذاته، وكأنه يتعامل مع كيان آخر.. ففي الدين يفصل الإنسان كيانه النهائي الفردي، عن كيانه اللانهائي كنوع، ويزيّن الأخير بنفائس الصفات، ثم يبدأ بعبادته.

وقلت لهم: إن التمييز الخاطئ بين الصفات البشرية والصفات الإلهية (أي فوق البشرية)، يؤدي إلى أن الفرد (الأنا الأول) يستشعر أنه ذو قيمة دونية، ومفعم بالخطايا، بينما يُبجّل نصفه الثاني (الأنا الآخر) كإله (كيان النوع البشري).. وينتج عن ذلك معاناة الإنسان من حدوث انفصام شخصي، واغتراب، وبؤس.

وقلت لهم: إن الإنسان هو الذي ابتدع فكرة الإله ليكون على شاكلته.. وقد آن الأوان لكي يستعيد العقل البشري حسيته، حتى تعود الوحدة الموضوعية بين الجسد والعقل.. وذلك ما أطلق عليه أصحابي [المادية الإنسانية]

لم أكتف بطرح تلك الأفكار على أولئك العمال البسطاء من أهل مدينة [بافاريا] الألمانية، وإنما رحت أسجله في الدفاتر والكتب، وأنشره بين الناس، ليبقى تأثيره في الأجيال التي لم أرها.

وقد حصل ذلك، فقد تأثر كل أعلام الشيوعية بكتاباتي

ومجدوها ابتداءا من الرفيق العزيز [كارل ماركس]

لكم وجهه ببعض اللكمـات، ثم راح يقـول: لقـد طـرحت كـل هذه الأفكار في كتابي [جوهر المسيحية] الذي أردت من خلاله أن أتقدم أشواطا جديدة في نقد الدين مقارنة بما فعله من قبلي من أمثال [جوردانو برونوز]، أو [باروخ سبينوزا]

وكنت أيضـا أريـد أن أتقـرب من كـل التنـويريين من أمثـال [فولتـير]، و[ديـدرو]، و[دولبـاخ].. والـذين ركبت من فلسـفاتهم وانتقاداتهم للدين ذلك التصور الجديد الذي وضعته له.

لكم وجهـه بعض اللكمـات، ثم راح يقـول: أتـذكر ذلـك اليـوم الذي ذهبت فيـه إلى إلقـاء محاضـرة في جامعـة هايـدلبرج.. لقـد قلت حينها: (سأذهب إلى هايدلبرج لإلقاء محاضـرات حـول جـوهر الدين. ولو أن بذرة واحدة فقط مما سوف أزرع هنـاك، نبتت بعـد مئـة عـام، وأصـبحت شـجرة، فـإنني أكـون قـد أديت خدمـة إلى البشرية)

وقلت: (حقـاً أن الإنسـان يجهـل الكثـير ممـا يحـدث لـه من حوله، لكن ذلك لايـبرر اللجـوء إلى مـاوراء الطبيعـة، للعثـور على التفسير.. كم من أسرار عجـز أسـلافنا عن معرفـة كنههـا، واليـوم يلم الإنسان بكل خفاياها)

وقد حصل بالفعل ما أملته، فقد تتلمـذ الكثـير على فلسـفتي من الشيوعيين وغيرهم، حـتى أنـه صـار كـل من يكتب عن الفكـر الديني يذكر نظريتي التي صار يطلق عليها [النظرية الإسـقاطية]، وتفسـر بأنهـا النظريـة الـتي تنص على أن الإنسـان ابتـدع الآلهـة حسـب صـورته، وأن الإلـه ليس سـوى الفكـرة الـتي يتمناهـا كـل إنسان لنفسه، ولا يفقه عنها شيئاً، رغم وجودها في داخلـه، أو مـا عـبرت عنـه بقـولي: (لا شـئ حقيقيـاً سـوى البشـري الفعلي المحسوس)

اسمحوا لي أن أقرأ لكم بعض ما علق في ذاكرتي من كتابي [جوهر المسيحية](1)

1() النصوص المقتبسة هنا بين قوسين هي من كتابه [جوهر المسيحية]

لقد قلت فيه: (إن الكائن الإلهي ليس سوى الكائن الإنساني، أو بالأحرى، الطبيعة الإنسانية، وهي خالصة ومتحررة من كل قيود الإنسـان الفـرد، مجعولـة موضـوعية، أي متأمـل فيهـا ومحترمـة باعتبارها وجودا منفصلا. الإله هو تأليه الطبيعة الإنسانية)

وقلت: (إن الإنسان، وخاصـة الإنسـان المتـدين، هـو بالنسـبة لنفسه مقياس لكل الأشياء، لكل الواقع. كـل مـا يـؤثر بقـوة على الإنسان، وكل ما أنتج تأثيراً على عقله، إذا كان صوتا مميزا أو غير مفهوم، أو ملاحظة، فهو يشخصها باعتبارها كائنا إلهيا)

وقلت: (كي تدرك الإله باعتباره مقدساً ولا تدرك أنك نفسـك مقدس؛ كي تدرك البركة ولا تعـرف أنـك نفسـك مصـدرها، فهـذه هي حالة من الانفصال، التعاسة. الكائنات العليا لا تعرف مثل هذه التعاسة؛ فهي ليس لديها أي تصور عما هي ليست عليه)

وقلت: (طالما كـان الإنسـان في حالـة الطبيعـة الأولى، فـإن إلهـه هـو إلـه طـبيعي ــ تشـخيص لقـوة الطبيعـة. وعنـدما يسـكن الإنسان بـيوتا، فإنـه يُسـكِن آلهتـه في معابـد. فالمعبـد هـو مجـرد تعبير عن القيمـة الـتي يضـفيها الإنسـان على الأبنيـة الجميلـة. إن المعابد المهداة للدين هي في حقيقتها معابد مهداة لفن العمارة)

وقلت: (كي يكون الإله غنياً، يجب أن يكـون الإنسـان فقـيراً؛ وكي يكون الإله هو كل شئ، يجب أن يكـون الإنسـان لا شـئ..مـا يخرجه الإنسان من ذاته وينكره على نفسه، يتمتع بـه في مقيـاس أعلى وأكمل، في الإله)

وقلت: (إن أفكار الإله هي أفكار إنسانية، دنيوية. فالإله مثلـه مثل الإنسان، لديه خطط في ذهنـه، ويكيـف نفسـه مـع الظـروف ومع الأذهان، مثله مثل المعلم مع تلاميـذه. إنـه يحسـب بدقـة أثـر منحه ووحيه؛ إنه يراقب الإنسان في كل ما يفعل؛ إنـه يعـرف كـل شئ، حتى أكثر الأشياء دنيوية وعمومية وعرضية)

وقلت: (الإنسان في علاقته بالإله ينكر معرفته وأفكاره ذاتهـا كي يضعها في الإله. الإنسان ينكر شخصيته؛ لكن في المقابل فإن الإله القادر اللامتناهي هـو الـذي يتمتـع بـأعلى شخصـية. الإنسـان ينكر على نفسه الكرامة البشرية والأنا البشرية، لكن في المقابـل

فإن الإله بالنسبة له هو كـائن أنـوي، يسـعى لذاتـه فقـط، لمجـده وحده، لأهدافه وحسب؛ إنه يصور الإله على أنه يهدف إشباع ذاتـه فقط)

وقلت: (الدين هو انفصال الإنسان عن نفسه؛ إنـه يضـع الإلـه إزاءه باعتبـاره نقيضـه. الإلـه هـو كـل مـا ليس عليـه الإنسـان، والإنسان هو كل ما ليس عليه الإله. الإله لا متناه، الإنسان متنـاه.. الإله كامل، الإنسان ناقص.. الإله خالد، الإنسان فان..الإله مطلــق القدرة، الإنسـان ضـعيف.. الإلـه مقـدس، الإنسـان مـدنس. الإلـه والإنسان نقيضان: الإله هو الموجود بإطلاق، والإنسان هو السالب بإطلاق)

وقلت: (كلمـا كـانت الحيـاة خاويـة، كلمـا كـان الإلـه ممتلئـاً وعينيـاً. إن إفقـار العـالم الحقيقي وإغنـاء الإلـه هـو نفس الفعـل. الإنسان الفقير وحده هو الذي يحوز على إله غني. الإلـه ينشـأ من الشعور بالحرمان؛ كل ما يحتاجه الإنسان، سواء كان هذا الاحتيـاج واعياً أو غير واع، فهـذا هـو الإلـه. وبالتـالي فـإن الشـعور البـائس بالفراغ والوحدة يحتاج إلهاً به يجتمع، وحـدة من الكائنـات المحبـة لبعضها)

وقلت: (كان الإلحاد ولا يزال مفترضاً فيه أنه نفي لكـل مبـدأ أخلاقي، ولكـل الأسـس والروابـط الأخلاقيـة: فـإذا لم يكن الإلـه موجوداً، فإن كل تمييز بين الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، يصـبح لاغياً. ولذلك فإن هذا التمييز يكمن فقط في وجود الإلـه؛ فواقعيـة الفضيلة لا تكمن في ذاتها بل خارجـاً عنهـا. وبالتأكيـد فـإن ارتبـاط الفضـيلة بالإلـه لا ينبـع من ارتبـاط بهـا هي ذاتهـا أو بيقين قيمتهـا الذاتية. بـل على العكس، فـإن الاعتقـاد في أن الإلـه هـو الشـرط الضروري للفضيلة هو الاعتقاد في عدمية الفضيلة في ذاتها)

وقلت: (كلمـا كـانت رؤيـة الإنسـان محـدودة، وكلمـا جهـل بالتاريخ والطبيعة والفلسفة، كلما ارتبط أكثر بدينه. ولهذا السـبب فإن الإنسان المتـدين لا يشـعر بحاجـة إلى الثقافـة. لمـاذا لم يكن لدى اليهود فناً أو علماً، مثلما كان لدى اليونـان؟ لأنهم لم يشـعروا بأي حاجـة لهـذه الأشـياء. فبالنسـبة إليهم فـإن هـذه الحاجـة كـان يشبعها إلههم يهوة)

وقلت: (في الإله كلي العلم يرفع الإنسان نفسه خارج حـدود معرفته؛ وفي الإله كلي الحضور، يرفع نفسـه خـارج حـدود نقطـة ارتكازه المحلية؛ وفي الإله الخالد يرفع نفسه خارج حدود زمانه)

وقلت: (الإنسان المتدين سعيد في مخيلتـه، فلديـه كـل شـئ ضمنيا، وكل ممتلكاته محمولة، في خياله. الإله يصحبه أينما ذهب: أنا لا أحتـاج الخـروج عن ذاتي، فأنـا أمتلـك في إلهي مجمـوع كـل الثروات والأشياء القيمة، وكل ما يسـتحق المعرفـة والتـذكر. لكن الثقافـة تعتمـد على الأشـياء الخارجيـة؛ ولـديها احتياجـات كثـيرة ومختلفة، لأنها تتغلب على حدود الوعي والحياة الحسـية بالنشـاط الواقعي، لا بـالقوة السـحرية للمخيلـة الدينيـة. ولـذلك فالـدين..لا يمتلـك في جـوهره مبـدأ للثقافـة، ذلـك لأنـه ينتصـر على حـدود وصعوبات الحياة الدنيوية من خلال المخيلة وحسب، الإله وحسب، في السماء وحسب)

وقلت: (طالما يضـع الـدين نفسـه في مواجهـة العقـل، فإنـه يضع نفسـه نقيضـا للحس الأخلاقي، لأن الحس الأخلاقي الحقيقي قـائم على العقـل. ففي الحس بالحقيقـة وحـده يتواجـد الحس بالصدق والخير. إن إفقار العقل هو في نفس الوقت إفقار للقلب. إن ذلك الذي يخدع عقله ليس لديه قلب فاضـل وكـريم. إن من لا يحترم عقلي لا يستحق إحترامي)

لطم وجهه ببعض اللكمات، ثم قال: هذا بعض ما كتبته.. وهـو يدلكم على غيره، فقد كنت أسعى كل جهدي لتصوير الإلـه بكونـه منتوجا بشريا محضا.. وأنه لا وجود له في الحقيقة إلا في الضـمير الإنساني المغفل واللاعقلاني.

لقـد قلت هـذا تحت تـأثير تلـك الحركـة السـاخطة على المسيحية ورجـال الـدين المسـيحي الـذين صـوروا أنفسـهم ورثـة للمسيح نفسه، والذي يعتبرونه إلها، أو ذا طبيعة مزدوجة بين الإله والإنسان.. وكانوا يتحدثون عنه كما يتحدثون عن الإنسـان.. وذلـك أول ما أوحى لي هذه الفكرة الـتي تصـور البعض أنهـا من إنتـاجي بينما لم تكن في الحقيقـة إلا نتـاج أولئـك الرجـال الـذين اتشـحوا بلباس الدين، وصوروا أنفسهم أوصياء عن اللـه، وراحـوا يتحـدثون باسمه.

يمكنكم اعتبار موقفي هذا، وإلحادي من نوع [الإلحاد الانتقامي]، لأني لم أذكر في كتبي ولا محاضراتي أي دليل على نفي وجود الله.. ولم أناقش كل ذلك الركام الذي وضعه الفلاسفة والمفكرون وعلماء الدين للبرهنة على وجود الله.. إنما اكتفيت فقط بأن أجلس على أريكتي، لأبرر وجود الدين ووجود الإله، بكل برودة وسخافة.

مع العلم أن كل مواقفي كانت مرتبطة بالبيئة التي ولدت فيها، وعشت بينها، ومت وأنا في أحضانها، فأنا لم أتحرك من أوروبا لأرى العالم وأديانه ومذاهبه وفلسفاته حتى أطلع على ما ينير عقلي للحقيقة، فقد كنت مشغولا في معظم وقتي في حماية مصنع زوجتي الذي كان يهتز كل حين، ويصيبه من الكساد ما يملؤنا بالتشاؤم إلى أن سقط أخيرا، وصرنا شحاذين نأكل فتات موائد الناس.

ربما كان من أسباب كتابتي لتلك الأفكار الشيطانية هو إرضاء ذلك الواقع الساخط على الأديان، والذي كان لا مناص لي من إرضائه، فحياتي كانت متوقفة عليه..

قال ذلك.. ثم راح يلكم وجهه، ثم يرتمي على بطنه، ويشرب الدماء السائلة التي تمتلئ بها الأرضية.

كارل ماركس:

ما هي إلا لحظات حتى قام رجل آخر تبدو عليه ملامح كارل ماركس[1] بلحيته الطويلة، لكن وجهه كان مشوها جدا بفعل الضربات الكثيرة التي تلقاها، وقد كانت لحيته حمراء، وكل شيء فيه كان أحمر قانيا.

وقف، وقال: أنا كارل ماركس.. أنا المصارع الأعظم لله.. أنا صاحب (المادية الجدلية).. تلك التي تلخص حقائق الوجود في هذا الشعار الذي ابتدعته، ورحت أنشره بين العالم (لا إله والكون مادة).. وأنا صاحب شعار (وحدة العالم تنحصر في ماديته)..

1() كارل ماركس (1818-1883م)، وهو فيلسوفٌ ألماني واجتماعي وثوري محترف، كان المؤسس الرئيسي لحركتين جماهيريَّتين قويتين هما: الاشتراكية الديمقراطية، والشيوعية الثورية.

وغيرها من الشعارات الكثيرة التي راح أتباعي ينعقون بها من غير أن يفهموها، ولا أن يقتنعوا بها.. فقد كان يكفيهم أن يكـون قائلهـا المصارع الأكبر لله وللوجود وللقيم.

أنا صاحب قـانون (المـادة سـابقة فى الوجـود على الفكـر).. وصاحب قانون (لم يكن هناك وقت لم تكن المـادة موجـودة فيـه، وليس هناك وقت لا تكون المادة موجودة فيـه).. وصـاحب قـانون (الإنسان نتاج المادة).. وصاحب قانون (الفكر نتاج الدماغ والدماغ مادة)..

وهكذا راح عقلي المستكبر يفرض قوانينه على الوجود، وهـو لا يعـرف أبسـط الحقـائق المرتبطـة بإنسـانيته ولا كينونتـه، بـل لا يعرف أدنى الحقائق المرتبطـة بجسـده.. ومـع ذلـك راح بكبريائـه يضع القوانين، لا قـوانين بيئتـة أو المكـان الـذي وجـد فيـه فقـط.. وإنما قوانين الكون جميعا.. بل قوانين الوجود جميعا..

قـام يفعـل ذلـك، وهـو سـكران بخمـرة النعم الكثـيرة الـتي أفاضها الله عليـه، وبـدل أن يشـكرها، ويعـرف حقهـا، راح يـزاحم صاحبها ويحاربه ويصارعه.

ولم أكتف بذلك، بل رحت أفـرض الصـراع على المجتمعـات، وعلى حركة التاريخ، كما فرضته على الكون.. ولـذلك أضـفت إلى قـوانين (المـادة الجدليـة) الـتي تفسـر الكـون والوجـود.. قـوانين (المادية التاريخية) الـتي تفسـر حركـة التـاريخ، وتربطهـا بالمـادة، وبوسـائل الإنتـاج، وتجعـل الصـراع بين البشـر قائمـا على أسـاس المادة.. المادة وحدها.

حتى أني فسرت الأديان والأخلاق والقيم جميعـا على أسـاس مادي..

لقد كان لكل ذلك عوامله الكثيرة التي ورثتها من بيئتي الـتي عشت فيهـا، ومن قـومي الـذين ربيت بينهم.. فقـد كـانت الماديـة طبيعـة متجـذرة فيهم، ورثوهـا من قـديم الزمـان.. من الإغريـق والرومان.. وبما أنني يهودي، فقد أضـفت إليهـا يهوديـتي الممتلئـة بالتعلق بالمادة، والعشق لها.

ثم ورثتها من بيئتي الزمانية، فقد كان عصر النهضة الأوروبية يموج بالإلحاد وإلغاء الإله، وكان السباق فيـه على من يكـون أكـثر إلحادا، وأكثر قدرة على إعطاء بديل كامل للـدين، يفسـر الوجـود، ويبين كيف نشأ الكون، ويضع للحياة والإنسان القيم المرتبطة بها، والتي تكون بديلة عن الدين الذي وضعه الله لعباده..

لقد انتشرت فيه كل القيم التي تلغي الله لتستبدله بالإنسان، وتجعلـه مصـدر المعرفـة.. وتجعـل الفكـر الإنسـانى ـ لا الـوحى الربانى ـ المرجع الـذى يرجـع إليـه الإنسـان فى النظـر إلى أمـور حياته ومتطلباتها.

لقد قال [رايوبرث] يصـف عصـر النهضـة الـذي عشـت فيـه: (وامتـاز ذلـك العصـر بشـعور الإنسـان فيـه بشخصـيته المطلقـة وبمعارضته للسلطة وذويها، وذهابه شوطا بعيدا فى اعتبـار العـالم كله وطنا له .. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسـانية والحيـاة الدنيوية مخالفة فى ذلك طريقة التفكير فى القـرون الوسـطى .. ولـذلك يسـمى العلمـاء الـذين خصصـوا أنفسـهم لدراسـة آداب اليونان والرومان والعلـوم عنـد القـدماء [الإنسـانيين].. وكـان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون [نمو الفردية] أعـنى الـرأى القائـل بـأن الإنسـان ينبغى أن يفكـر بنفسـه لنفسـه . وهـو رأى كـان قـد أهمل فى عصر عبودية العقل)[1]

وقال [برينتون] واصفا له، ولتدخل العقل فيه في كل شـيء: (فالمـذهب العقلى يتجـه إلى إزالـة اللـه ومـا فـوق الطبيعـة من الكون، ومن الوجهة التاريخية فـإن نمـو المعرفـة العلميـة وازديـاد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبـط بشـدة مـع نمـو الوضـع العقلى نحو الكون)[2]

وقد أصبحت الفكرة السائدة في ذلـك العصـر تعتـبر تحصـيل الإنسـان للحقـائق الكونيـة ومعرفتـه بهـا محصـورا في التجربـة الحسـية وحـدها.. أي أن الحس المشـاهد لا غـيره هـو مصـدر

1() كتاب مبادئ الفلسفة، ترجمة محمد امين، ص 119 ـ 120.

2() المرجع السابق.

المعرفة الحقيقية اليقينية .. أما انتزاع المعرفة مما وراء الظـواهر الطبيعية الحسية، والبحث عن العلة فى هـذا المجـال، فـأمر كـان مرفوضا، بل كان يدعو إلى السخرية (1)

وهكـذا اسـتغلت الاكتشـافات العلميـة لتفسـر تلـك النظـرة المادية الحسية.. ومن الأمثلة على ذلـك أنـه بعـد اكتشـاف نيـوتن لبعض القوانين التي يسير بها الكون، لم يرجع أهل ذلك الزمان أو من بعدهم ذلك لتصريف الله، وتقديره، وحكمته في خلقه، وإتقانه لتدبيره لهم..وإنما راحوا ينفون الله ويزيلون الحاجة إليه.

وأحسنهم حـالا من راح يعطي اللـه راحـة أبديـة، ويصـور أنـه خلـق الكـون، ثم اعتزلـه.. كمـا عـبر عن ذلـك بعض أصـحابنا من الطبيعيين، فقال: (الإلـه فى عـرف نيـوتن أشـبه بصـانع السـاعة.. ولكن صانع هذه السـاعة الكونيـة، ونعـنى بهـا الكـون، لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد، فبإمكانه أن يجعلها تعمـل حـتى الأبـد . أما الرجال على هذه الأرض فقـد صـممهم الإلـه كـأجزاء من آلتـه الضخمة هذه ليجروا عليها . وإنه ليبـدو أن ليس ثمـة داع أو فائـدة من الصلاة إلى الإله صانع هذا السـاعة الكونيـة الضـخمة، الـذى لا يستطيع إذا ما أراد التدخل فى شئون عمله)(2)

وقال معبرا عن الصـنف الـذي راح يلغي [اللـه] انبهـارا بتلـك النظريات العلمية البسيطة التي اكتشفها أهل ذلك العصـر، وتـبين بعد ذلك خطأ الكثير منهـا: (ولكن ثمـة أنـاس ذهبـوا إلى أبعـد من ذلك واعتبروا فكرة الإله فكـرة شـريرة، وخاصـة إذا مـا كـان إلـه الكنيسـة الكاثوليكيـة . وأطلقـوا على أنفسـهم بكـل فخـر اسـم الملحـدين . وهم يعتقـدون أن ليس ثمـة وجـود لمسـيح أو لإلـه المسـيحية، ويقولـون إن الكـون ليس إلا مجموعـة متحركـة ذات نظـام معين يمكن فهمـه بـاللجوء إلى السـببية المعتمـدة على أساس العلوم الطبيعية)(3)

1() الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص 297.

2() منشأ الفكر الحديث ص 151.

وقال آخر: (إنه لأقرب إلى الطبيعى والمعقول أن نشـتق من صور المادة كل شئ موجـود، لأن كـل حاسـة من حواسـنا تـبرهن على وجودها، ونختبر كـل لحظـة نتائجهـا بأنفسـنا . ونراهـا فاعلـة متحركـة، تنقـل الحركـة وتولـد القـوة دون انقطـاع، من أن نعـزو تكون الأشياء لقوة مجهولة ولكائن روحى لا يستطيع أن يخرج من طبيعته ما ليس هو بذاته، كائن بعجز بحكم الجوهر المنسوب إليـه أن يفعل أى شئ أو أن يحرك أى شيء([4])

هذه بعض المقـولات الـتي راحت تـتردد على عقلي الصـغير، وتطلب منه أن يبدع إبـداعا جديـدا يفسـر من خلالـه الكـون.. بـل يعطي من خلاله القيم المرتبطة بكل شيء.. فلست أقل شأنا من أولئـــك الفلاســـفة المـــاديين أو الطبـــائعيين أو الوجـــوديين أو الإنسانيين..

وكنت حينها قد قرأت بعض الفلسفات التي كـانت تحـاول أن تفسر الوجود.. وكـان ممـا شـدني منهـا ثلاثـة رؤى .. رحت أمـزج بينها لأشكل بكل بلاهة فلسفتي خاصة.. لأصبح نبيهـا وإلههـا الـذي يسبح الملاحدة بحمده.. بل حصل ذلك، فقد سبح بحمـدي الملايين وعشرات الملايين الذين ألغوا عقولهم وعقول الأنبيـاء والفلاسـفة والأولياء على مدار التاريخ.. لأتحول أنا أنموذجهم الأعلى، ومثـالهم الأسمى.

أمـا الفلسـفة الأولى.. فهي الفلسـفة الـتي عرضـتها لكم.. والتي تفسر الوجود بالمادة البحتة.. وكـان لي فيهـا أسـاتذة كـثر.. ابتدأوا منذ بـدأت هـذه الحضـارة.. لكن أشـهرهم اثنـان (أوجسـت كونت)، و(لودفيج فـويربـاخ).. وقـد قـامت فلسـفتهما على سـيادة الطبيعة، بل عبادتها.. فالطبيعة هى الـتى تنقش الحقيقـة فى ذهن الإنسان.. وهى التى توحى بها وترسـم معالمهـا.. هى الـتى تكـون عقل الإنسان.. والإنسان ـ لهذا ـ لا يملى عليه من ذاته الخاصة.. إذ ما يأتى من (ما وراء الطبيعة) خداع للحقيقة، وليس حقيقة..ومثله

---

[3]() المصدر السابق 152.

[4]() تكوين العقل الحديث ج1، ص 439.

ما يتصوره العقل من نفسه هو ليس إلا وهما وتخيلا للحقيقة، وليس حقيقة أيضا.

وبناء على هذه النظرة يكون الدين الذي يعبر عما بعد الطبيعة مجرد خدعة.

وأما الفلسفة الثانية.. فهي الجدلية .. وقد كان من أساتذتي فيها (فيشته) و(هيجل)..

ربما لم تفهموا المراد منها، لا عليكم، فقد تعمدت ذلك.. لأني رأيت أنه لا تنال فلسفة من الفلسفات حظها من الاهتمام حتى تكون فلسفة غريبة، تفسر الأشياء بأنواع من التعقيد.. حتى يتبارز الكل في محاولة التوضيح والتفسير الذي لا يزيدها إلا تعقيدا، ولكن ذلك يفيدهم أيضا حتى يبرزوا عقولهم ونفوسهم وأنانيتهم التي هي المنطلق والغاية.

سأشرح لكم لم اخترنا الجدل.. لقد اخترناه لسبب بسيط، وهو تفسير وجود المتناقضات فى الكون والحياة.. ذلك أننا عزلنا الخالق الذي يفعل ما يشاء، ويدبر كونه كما يريد.. ولهذا احتجنا إلى بدائل عن الإله المدبر صاحب الإرادة الحرة.

لقد كان المنطق اليونانى القديم، وهو المنطق الصورى ينفى وجود التناقض فى الكون والحياة، ويقيم تفكيره على أساس أن الشئ ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أى شئ هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه.

لكن الفكر الذي ولدت في أحضانه.. أي الفكر الأوروبى في عصر النهضة كانت له وجهات نظر مختلفة، ولهذا قام بعض الفلاسفة يشير إلى وجود التناقض فى الكون والحياة، ويحاول تفسيره، وكان من أبرزهم (فيشته) و(هيجل)

أما فيشته، فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة.. وأما هيجل فاستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة، ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد، وتأكيد الوحى كمصدر أخير للمعرفة، فهو يعتبر الخالق عقلا.

لقد تصور هيجل ـ الذي ربط بعضهم فلسفتي به ـ أن هناك فكرة مطلقة.. أطلق عليها اسم (العقل المطلق)، انبثقت عنه الطبيعة، وهى تغايره تماما، لأنها مقيدة ومتفرقة وهى عنده العقل المقيد.. ثم انتقلت الفكرة من الطبيعة أو العقل المقيد إلى جامع يلتقى فيه

الشئ ونقيضه، وهو العقل المجرد الذى هو نهاية الطبيعـة المحـدودة وغايتها.

وأما الفلسفة الثالثة .. فهي نظريـة التطـور.. وتتلمـذت فيهـا على دارون صاحب هذه النظرية وتلاميذه وخصوصا الملحدين منهم..

لقد جاءت نظرية التطور ــ وخصوصـا في شـقها الملحـد ــ تؤلـه الطبيعة، وتذكر أنهـا تخلـق كـل شـئ، ولا حـد لقـدرتها على الخلـق.. وجاءت لتؤكد أن الإنسان هـو نهايـة سلسـلة التطـور الحيوانيـة.. وأن التطور ذاته ـ الذى أنشأ الحياة المادية الميتة أول مـرة، ثم تـدرج بهـا من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان ـ هو نتيجة أسباب ماديـة بحتـة، وأنـه يتم مسـتقلا عن إرادة الكـائن الحى، وبصـورة حتميـة لا يملـك الكائن الحى الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها.

هذه هي الفلسـفات الثلاثـة الـتي مـزجت بينهـا لأشـكل فلسـفتي الخاصة..

راح يضحك بصوت عال، ويلكم وجهه لكمات كثيرة، يتطـاير الـدم خلالها من أنفه وفمه، ثم يقول: أنتم تتساؤلون عن الجديـد الـذي أتى به ماركس ما دام قد ذكر أنه اعتمد على كل هؤلاء..

سأجيبكم علي ذلك.. فأنا الأبله الغبي الذي راح ينافس المجرمين إجرامهم.. رحت أمزج بينها كما يمزج الطباخ بين الخضـر والتوابـل .. وكأن الكون كان بين يدي مطبخا، وكنت الطباخ الوحيـد الـذي ينتظـر الكون جميعا إعداده لوجبة الوجود، ليأكلها.

لقد رحت بكبريائي وغروري، وبكبرياء بيئتي وغرورها أنشأ فلسفة مترابطة متكاملة تحاول أن تحل العقد، وتفسر كـل المعضـلات بعيـدا عن الـدين وعن اللـه وعن القيم الـتي توارثتهـا الإنسـانية، وارتضـتها الفطرة.

لقد رحت أفسر الوجود بالمادية الجدلية.. وهي الفكرة التي تعزل (الله) عزلا تاما عن تفسير الوجود.. فالمادة هى الشئ الوحيد الأصيل فى هذا الكون، وكـل مـا فى الكـون ومن فيـه منبثـق منهـا ومحكـوم بقوانينها، ولا وجود له خارج نطاقها.

ولأقنع العقول التي تتساءل عن سر هذا الانبثـاق رحت أدعي أنـه [وجود التناقض فى طبيعة المادة].. ومن ثم فى كـل مـا ينبثـق عنهـا من مخلوقات ومن كيانات بما فى ذلك الكيـان الإنسـانى، فهـو كيـان مادى من جهة، ومحكوم بصراع المتناقضات من جهة أخرى.

وهكذا أخذت من هيجل جدليتـه.. ولكـني خالفتـه مخالفـة كـبرى، فهيجل اعتبر الفكرة هى الأصل، وهى سابقة فى وجودها على المادة ومسيطرة عليها، بينما ذكرت أنا أن المـادة هى الأصـل، وهى سـابقة على الفكرة ومسيطرة عليها.. ولهذا سـميت جدليـة هيجـل (الجدليـة المثالية)، بينما سميت جدليتنا (الجدلية المادية) أو (الماديـة الجدليـة)، أو (المادية الديالكتيكية)

أما (الله)، فقد كنا نعتبره مجرد خرافـة ابتـداعها خيـال الإنسـان.. لأن الحقيقـة الوحيـدة هى المـادة، والوحـدة الـتى تجمـع الكـون هى ماديته.

قال ذلك، ثم راح يلطم وجهه ورأسه بكل قوة، ويتطاير الدم أثناء ذلك، ثم قال: لقد كنت أقول هذا وأكتبه، وكـان النـاس يسـمعون لي، لكن فطرتي كـانت تسـخر مـني، وتضـحك علي، وتسـتهزئ بي لأنهـا تعلم أن الطبيعة والمادة لا يمكنها أن تفسر الوجود بتلك الصورة التي فسرتها بها.. ذلك أن أي ذهن سيتسـاءل لا محالـه: مـا الطبيعـة على وجه التحديد؟.. وأين تكمن قدرتها على الخلق؟..وفى أى مكان منها؟

وكنت أعجز عن الإجابة، لأن إجابتي عن ذلك لن تؤدي إلا للإيمـان بالله الذي كنت أهرب منه، كما كـان قـومي يهربـون منـه.. ذلـك أني أعلم ـ كما يعلم قـومي ـ أن الطبيعـة ليسـت سـوى اسـم اخترعنـاه لنفسر به الظواهر مع أنه ليس لها وجود ولا مكـان ولا حـيز.. فـإذا لم تكن محسوسة، ولم يكن يحدها المكـان، ولا الحـيز، وكـانت (غيبـا) لا تدركه الأبصار، إنما تدرك آثاره فقط ومظـاهره، فمـا الـذى يـبرر فى منطق العقل أن نعدل عن الاسـم الحقيقى، اسـم (اللـه)، ونلجـأ إلى هذه المسميات؟

وإن كان (الله) فى هذا المنطق لا حقيقة له، فما الذى يـبرر ـ فى منطق العقل أو فى منطق العلم ـ أن يقـول قائـل: إنـه ليس حقيقـة حين يكون اسمه (الله)، ثم يكون هو ذاته حقيقيـة حين يكـون اسـمه (الطبيعة)؟

لقد قالت لي فطـرتي، وهي تعـرض علي مثـل هـذه الأفكـار: إن كان سبب هـذا التحريـف هـو الخـوف من الكنيسـة وطغيانهـا، أو هـو البغض لهـا والحقـد عليهـا.. فليكن ذلـك.. وفي هـذه الحالـة، فلنهجـر الكنيسة، ونفر منها إلى الله الحق، وهو إله لا كنيسة له فى الحقيقـة، ولا رجال دين.

وقالت لي: ثم ما المادة الأزلية الأبدية الخالقة، وما قصتها؟ وكيف

نناقشها مناقشة علمية؟ ألا تعلم ــ حضرة الرفيق ــ أن القول بأن (المادة لا تفنى ولا تستحدث) لم يعد صحيحا من الوجهة العلمية، وهو القول الذى تصيده أساتذتك تصديا ليبنوا عليه تفسيرا علميا للكون والحياة والإنسان، ولقضية الألوهية؟

ألا تعلم ـ حضرة الرفيق ـ أن طلاب الجامعات يدرسون هذه الأيام أن الكون المادى حدث ذات يوم، ولم يكن موجودا من قبل، وأن عمر هذا الكون المادى يكاد يحدد الآن تحديدا علميا دقيقا على ضوء المعلومات التى ترسلها الأقمار الصناعية التى تدور حول الشمس وغيرها من الأفلاك.

ألا تعلم ـ حضرة الرفيق ـ أن أساتذتك الذين تتيه بهم وبعلومهم لم يكونوا مطالبين بثقافة علمية أكبر من ثقافة عصرهم الذى وجدوا فيه، ولكنهم ــ مع ذلك ــ مسؤولون ولا شك مسؤولية كاملة عن دعواهم بأن المادة هى التى تخلق، وأن من بين خلقها الإنسان؟

وقالت لي، وهي تشد على تلابيب ثيابي، وتوبخني على جرأتي على الله: متى شوهدت المادة وهى تخلق؟ وكيف تخلق؟!

سكت قليلا، ثم قال: لم تكن فطرتي تذكر لي ذلك فقط، بل كانت تؤنبني كل حين، فكنت ألكمها وأصفعها وأسيل الدم من كل جزء منها حتى أرديتها في الأخيرة ميتة .. ولم أعد بعدها أسمع عتابها ولا توبيخها.

ارتمى على ظهره فوق الدماء التي تمتلئ بها الأرضية، ثم راح يقول: أتذكر آخر مرة حدثتني فيها، لقد قالت لي، وهي تعتصر ألما وحزنا على حالي[1]: إنك تستعمل الحق لتنصر به الباطل، فما ذكرته من من أن الطبيعة كلٌّ واحد متماسك ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً تاماً صحيح لاشك فيه، ولكنه لا يدل على ما ذهبت إليه.. بل يدل على أن هذه الظاهرة تدل على أن الخالق البارئ المصور واحد مهيمن على كونه.. وهو يدبّره كونه بنظام واحد مترابط الأسباب متشابك العناصر.

أما ما ذكرته من أن الطبيعة (أي الموجود المادي الذي هو كل الوجود) سرمدية أزلية أبدية لا بداية لها ولا نهاية، فهو ادّعاء منقوض ببراهين العقل ودلائل العلم، التي تثبت حدوث الكون، وتثبت مصيره

---

[1] () هذه المناقشات ملخصة بتصرف واختصار من كتاب (كواشف زيوف) لحبنكة.. وقد اقتصرنا منها على الجانب المتعلق بالمادية الجدلية، دون سائر المبادئ الشيوعية المرتبطة بالتاريخ والاقتصاد لعدم تناسبها مع الموضوع.

إلى الفناء.. وما عليك إلا أن تسير في هذه البلدة قليلا لترى من العلماء من يبين لك ـ حسا ـ أن المادة ليست أزلية كما تزعم.

أما ما ذكرته من أن الطبيعة ليست ساكنة، بل هي ملازمة للحركة، وهي في تطور وتغير دائمين.. فهو مبدأ لا حرج فيه.. بل إنه من مقررات المؤمنين بالله، سواءٌ أكانوا أتباع دين رباني صحيح أو فلاسفة مثاليين.. وهو من الأدلة التي هدتهم إلى حدوث الكون، وحاجته إلى محدثٍ خالق بارئ مصور، إذ يقولون: العالم متغير، وكل متغير حادث، فالعالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، فالعالم لا بد له من محدث.

أما ما ذكرته من أن الوعي لمادة عالية التنظيم وهي الدماغ، وأن الحياة وظيفة من وظائف المادة متى وصل تركيبها إلى وضع خاص، فهو مخالف لما كشفته العلوم الكثيرة.. فآخر ما توصلت إليه العلوم الإنسانية، والتي أنفقت في سبيلها ألوف الملايين، وعشرات السنين، قد انتهت إلى قرار علمي جازم هو أنه لا تتولد الحياة إلا من الحياة، وأن وسائل العلوم الإنسانية لا تملك تحويل المادة التي لا حياة فيها، إلى أدنى وأبسط خلية حية(1).

وبما أن الوعي مرتبط بالحياة فهو مظهر من مظاهرها وصفة من صفاتها، فلا سبيل للمادة الميتة أن يكون الوعي أحد وظائفها، مهما كانت عالية التنظيم(2).

على أن هذا المبدأ في الأساس ادعاء غير مقترن بأي دليل عقلي أو علمي، وهو من لوازم المبدأ الباطل الذين يرى أن المادة هي أساس الوجود وجوهره.

أما ما ذكرته من أن كل الأشياء وحوادثها تحوي تناقضات داخلية، مجتمعة متزاحمة في وحدة، يعبر عنها بوحدة الأضداد أو وحدة المتناقضات. وهي تتصارع فيما بينها وفق نظام (جدلية هيجل) فيدفع بها الصراع إلى التطور الصاعد لأنه السبيل الوحيد لحل التناقض أو التضادّ القائم بينها.. فهي قضية تحوي مغالطات كثيرة.

منها أن النقيضين كالوجود والعدم، وكإيجاب الشيء وسلبه، لا يجتمعان في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما مستحيل عقلاً.. ولا

1() سنرى الأدلة العلمية المفصلة على هذا في محلها من هذه السلسلة.

2() الوعي المراد هنا هو الوعي الكامل.. أما أصل الوعي فقد ذكرنا في مناسبات كثيرة أنه لا تخلو منه ذرة من ذرات الكون.. انظر رسالة (أكوان الله)

يرتفعان معاً من شيء واحد في وقت واحد، وارتفاعهما معاً مستحيل عقلاً.. فلا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد موجوداً ومعدوماً معاً، ولا موجباً وسالباً معاً من الجهة التي يكون فيها موجباً.. ولا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد غير موجود وغير معدوم معاً، أو غير موجب وغير سالب معاً.

ومنها أن الضدين كالأبيض والأسود، وكالواجب والحرام، وكالجبر على الهداية والجبر على الضلال، لا يجتمعان معاً في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما معاً مستحيل عقلاً.. فلا يكون الشيء الواحد بالذات أبيض وأسود معاً من الجهة نفسها في وقت واحد، ولا يكون حكم العمل الواحد واجباً وحراماً معاً فيوقت واحد لشخص واحد من جهة واحدة، ولا يكون المخلوق الواحد مجبوراً على الهداية ومجبوراً على الضلالة معاً، في وقت واحد، ومن جهة واحدة.

لكن الضدين ــ خلافا للمتناقضين ــ قد يرتفعان معاً في وقت واحد، فيكون الجسم لا أبيض ولا أسود معاً في وقت واحد، إذ قد يكون أحمر أو أصفر أو غير ذلك من ألوان..

لكن المادية الجدلية نسفت هذا الأصل العقلي المنطقي نسفاً كلياً، فأقامت الوجود كله على فكرة اجتماع الأضداد أو المتناقضات واتحادها.

وفي ادعاء اتحاد الأضداد والمتناقضات استهانة بالغة بالعقل البشري، وإقامة مذهب كامل على أمر باطل واضح البطلان.. فاللحظة التي يكون فيها الشيء متحركاً، لا يمكن أن يكون فيها ساكنا، واللحظة التي يكون فيها ساكناً لا يمكن أن يكون فيها متحركاً.. لكن الشيء الواحد قد تتداول عليه الحركة والسكون بلحظات متتابعات مهما صغرت ودقت هذه اللحظات، وقد ينخدع بذلك بعض أهل الفلسفة، فيظن أن السكون كامن في الحركة، فيعتبر ذلك من اجتماع النقيضين، وليس الأمر كذلك.

وقد يمثل مدعو اجتماع الضدين أو النقيضين بتماس السالب والموجب في الكهرباء، الذي ينجم عنه الظواهر الضوئية والحركية.. لكن التمثيل بهذا تمثيل باطل، فالسالب والموجب في الكهرباء ليسا ضدين ولا نقيضين منطقيين.

إن السالب المنطقي للكهرباء هو لا كهرباء، ويصدق ذلك بأي شيء غير كهرباء في الوجود، فالخشب والحجر والتراب والثلج والملح والحلاوة والملاسة والخشونة وغير ذلك كلها ليست بكهرباء.

أما السـلك السـالب في الكهربـاء، فليس هـو السـالب المنطقي للكهرباء، إنما هو مشتمل على قوة أخرى منافرة للقوة الكهربائية.

فالموجب والسالب في الكهرباء قوتـان متنافرتـان متقابلتـان، إذا تماسا تفاعلا، فأنتجا بحسب قوانين إنتاجهما ظواهر ضوئية أو حركيـة، كالذكر والأنثى، وما ينتج عنهما.

إن القوى المتنافرة والمتآلفة والمتفاوتة كلها إذا تلاقت أو تماست أو اجتمعت كانت ذات آثارٍ ما، وآثارها تخضع لقوانين خاصة بكل منها.

وقالت لي: أما ما ذكرته من أن حركة التطور هي تغير ينتقـل من تغـيرات كميـة تـتراكم، إلى تغـيرات كيفيـة، بشـكل سـريع ومفـاجئ وارتقائي من حالة أدنى إلى حالة أعلى وبشكل ذاتي.. فإن هذا المبدأ لا يمكن أن يعتـبر قانونـاً عامـاً ينطبـق على كـل حركـة تطـور في الطبيعة، فالعلوم الماديـة الإنسـانية لا تقـر بـه، وهـو إن صـدق ببعض الأمثلة، فإنه لا يصدق بآلاف الأمثلة الأخرى.

إن التراكم في الكم لا يقتضي دائماً تطورا في الكيف، ما لم يكن نظام ذلك الشيء يقتضي ذلك.. فالملاحظة تثبت أن لكل حالة تطـور في الكون شروطاً معينة في أنظمته وسننه الثابتة، فمـتى اسـتوفيت هذه الشروط تحقق التطور.

فبيضـة الدجاجـة الملقحـة إذا وجـدت ضـمن حـرارة ذات مقـدار معين، ورطوبـة ذات مقـدار معين، بـدأ جنينهـا يتكـون تـدريجياً حـتى يتكامل داخل القشرة، وفي نهاية ثلاثة أسابيع يكون قـد تكامـل، وبـدأ ينقر القشرة من الداخل حتى يكسرها، وعندئذٍ يخـرج من غلافـه إلى الهواء، ليبدأ رحلة حياته على الأرض.

لقد حصل التطور، ولكن على خلاف ما ادعاه أساتذتك المـدعين، فلا تراكم الحرارة هو الذي أحدث ظاهرة التغير، ولا تـراكم الرطوبـة، بل ثبات درجة الحرارة، وثبات درجة الرطوبة، قد سـاعدا على تكـون جنين البيضة تكوناً تدريجياً، ضمن الوقت المخصص في نظـام الكـون لتكامل تكوينه.

ولـو أن الحـرارة تـراكمت أكـثر من المقـدار المحـدد في نظـام التكوين لسلقت البيضـة، ولهلكت نـواة جنينهـا، ولـو زاد هـذا الـتراكم لاحترقت البيضة.

فنظام الكون هو نظام تحديد مقـادير لكـل شـيء، ضـمن خطـط ثابتة، وليست تغيراته ثمـرة تراكمـات.. هـذه هي الحقيقـة الـتي تـدل عليها الملاحظات والتجارب العلمية.

إن هذا المثال وحده كافٍ لنقض فكرة التراكم التي تعتبرونها قانوناً شاملاً لكل تطور في الوجود.. وهو كافٍ لنقض فكرة التطور السريع المفاجئ، إذ الأمور تتطور في الغالب تطوراً تدريجياً..

بالإضافة إلى هذا، فإن الكائنات الحية تبدأ حركة بنائها منذ لحظة التقاء خلية لقاح الذكر بخلية ببيضة الأنثى، ثم يسير بناء الكائن في نمو متدرج، حتى إذا استوفى الشروط اللازمة لظهور الحياة دبت الحياة فيه.. ثم يسير ضمن نظام نمو متدرج، حتى إذا استكمل نموه الجنيني، تمخضت عنه أمه فولدته.. ثم يسير في نمو تدريجي حتى يبلغ، ويتدرج في النماء حتى يكون شاباً فكهلاً.. ثم يعود إلى طور الانحدار، فيصير شيخاً، فهرماً، ثم يقضي أجله المقدر له، فيموت، فيتفسخ جسمه، ويعود تراباً كما بدأ من التراب.

وقد يموت في أي مرحلة من المراحل السابقة، فينحدر ويعود إلى مثل مرحلة البدء، دون أن يمر في المراحل المعتادة للأحياء.

وتخضع كل المراحل لنظام المقادير المحددة في كل شيء، في العناصر، وفي الصفات، وفي الزمان، وفي درجة الحرارة، وفي سائر ما يلزم لتكوين الحي، وإعداده لأداء وظائفه.

ولهذا، فإن فكرة التراكم المقررة عندكم فكرة منقوضة، ذلك لأن الأحياء تخضع لنظام المقادير المحددة سواء في جواهرها وأعراضها، ولا تخضع لفكرة التراكم الكمي.. ومثلها فكرة التطور السريع المفاجئ، ذلك أن الأحياء تسير وفق نظام البناء المتدرج، لا وفق التطور السريع المفاجئ.

وفكرة الارتقاء المقررة عندكم على أنها قانون شامل عام، فكرة لا تصلح لأن تكون مبدأ عاماً، فعمومها منقوض، وذلك لأن تطور الأحياء ليس حركة ارتقائية دائماً، بل قد تكون حركة إلى الأدنى أو إلى المساوي.. فالتعميم المدعى في المبدأ تعميم باطل.

قال ذلك، ثم راح يضحك بهستيرية، وهو يضرب وجهه وكل جسمه بقوة إلى أن أصابه الإنهاك والعياء الشديد، فارتمى على الأرض، ثم احتسى بعض الدماء المنتثرة، وراح يقول: يا لغبائي وغفلتي .. لقد كنت أتصور عقلي شيئا كبيرا استطاع أن يحيط بكل شيء، ويفهم كل شيء، ويفسر كل شيء.

فبعد أن صارعت الله، رحت أصارع أنبياءه ودينه.. لأن تفسير الدين للوجود والكون والإنسان تفسير جميل وعقلاني، ولكنه مع

ذلك يقضي على كل فكري وفلسفتي وشخصي وأنانيتي التي كانت أهم عندي من كل شيء.

لقد كان في إمكاني أن أميز بين الأديان، وأبحث عن الحق فيها.. لكني لم أفعل، بل رحت أستغل أخطاءها وضلالاتها وانحرافاتها لأقضي عليها جميعا، واعتبرها مجرد أفيون مخدر استعمله السلاطين ليلهوا شعوبهم.

لقد رحت أعتبر الدين مجرد مرحلة من مراحل تطور الفكر الإنساني.. وأن الإنسان عند مواجهته للطبيعة القاسية كان يطلب المساعدة من قوى تصور أنها قادرة على مساعدته أو أنها سبب معاناته. فعبد كفه مثلا لأن كفه كانت وسيلته الكبرى للحصول على طعامه، وعبد الحيوان الذي كان يعيش على اصطياده..

ورحت أعتبره مجرد حركة تلبي بعض حاجات المجتمع في حينها سرعان ما تنسجم مع التكوين الطبقي للمجتمع. فكما أن المجتمع في كافة المراحل يتكون من طبقات مستغلة وطبقات مستغلة تصبح الديانات أيضا جزءا من هذا التركيب الطبقي. فتتألف فئات دينية تشكل جزءا من الطبقات المستغلة وجزءا لا يتجزأ من دكتاتورية الدولة القائمة بينما تتحول الأغلبية الساحقة من أتباع تلك الديانات إلى جزء من الطبقات المستغَلة. وبذلك تتحول الديانة إلى أدوات استغلال لتابعيها.

قال ذلك.. ثم راح يرتمي على بطنه، ويشرب الدماء السائلة التي تمتلئ بها الأرضية.

فريدريك إنجلز:

ما هي إلا لحظات حتى قام رجل آخر تبدو عليه ملامح [فريديريك إنجلز(1)] الصديق المقرب من كارل ماركس.. وكان

---

(1) فريدريك إنجلز: [1820ـ 1895] كان فيلسوفا ورجل صناعة ألماني، يُلقّب بـ [أبو النظرية الماركسية] إلى جانب كارل ماركس.. اشتغل بالصناعة وعلم الاجتماع وكان كاتبا ومنظرا سياسيا وفيلسوفا.. في عام 1848، أصدر مع ماركس، بيانهما المشهور والمعروف ببيان الحزب الشيوعي، والذي يسمى اختصارًا البيان الشيوعي. وقد ساعد كارل ماركس ماديا من أجل أن يكتب هذا الأخير كتابه الرأسمال. بعد وفاة ماركس، نشر إنجلز الجزئين الثاني والثالث من هذا الكتاب. إضافة إلى ذلك، نظم انجلز مختلف تخمينات كارل ماركس، مما أعطى الجزء الرابع من كتاب الرأسمال.

وجهه لا يقل تشويها عن باقي زملائه في الجناح، قام وقال: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا [فريدريك إنجلز] ذلك الذي لولاه ما كان ماركس، ولا كانت الشيوعية..

أنا الذي قمت عام 1849م مع ماركس بإصدار النداء المعروف باسم [المانيفتسو الشيوعي]، والذي رفعنا فيه شعار [يا عمال العالم اتحدوا].. ودعونا فيه إلى أكبر خدعة في التاريخ .. خدعة المجتمع المثالي الذي يتساوى فيه الجميع.. والذي تصير فيه وسائل الإنتاج ملكًا للجميع.. وتنتهي الملكية الفردية، والنظام الملكي.. إلى المجتمع الذي يرتفع فيه مستوى المعيشة، ويعيش الكل متحررين من البطالة والفقر والجهل، وتختفي الرغبات الأنانية وتتحول إلى مشاعر جماعية.

وكل هذا لم يكن إلا كذبا وخداعا، فلم نكن ندعو إلى المجتمع المثالي، بل كنا ندعو إلى المجتمع البهيمي.. ولم نكن ندعو إلى المساواة الإنسانية، بل كنا ندعو إلى الصراع الإنساني.. ولم نكن ندعو إلى الرفاه الذي تحققه الشيوعية، وإنما كنا ندعو إلى السرقة والنصب باسم الشيوعية، وباسم العمال.

وكيف لا نكون كذلك، ونحن لا نعرف الله، ولا نعرف القيم، ولا نعرف الإنسانية.. وهل يمكن لمن يجهل هؤلاء جميعا أن يكون صادقا مع نفسه أو مع غيره؟ .. وهل يمكن للإلحاد أن يقيم أي منظمة أخلاقية أو اجتماعية أو إنسانية؟

لقد كانت اللبنة الأولى التي أسسنا عليها دعوتنا هي تلك الضلالات التي اجتمع عليها كل ملاحدة التاريخ، وهي التفسير المادى لكل شيء ابتداء من الدين .. وانتهاء بالأخلاق والأسرة والمجتمع.

لا أزال أذكر تلك المنشورات التي كنت أكتبها مع صديقي ماركس، وأوزعها على أولئك الذين لا يعرفون من وجودهم غير الخبز..

لقد قلت في بعضها ـ وأنا أحاول إعطاء تفسير للدين وكل الحقائق والقيم المرتبطة به ـ: (ومهما يكن من شئ فليس الدين إلا الانعكاس الوهمى فى أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى

تسيطر على حياتهم اليومية، وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعية (يقصد قوى خارقة)([1])

وقلت ـ وأنا في قمة كبريائي وعتوي وتطاولي على التاريخ ـ: (من الأزمنة الموغلة فى القدم وصل الفكر بالنـاس وهم بعـد فى جهـل تـام ببنيـاتهم الجسـدية الخاصـة، وتحت تـأثير أحلامهم، إلى القول بأن أفكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسـادهم ذاتهـا، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة الموت.. منذ ذلك الحين اضطروا لأن يصطنعوا لأنفسهم أفكار عن علاقـات هذه الروح مع المعالم الخارجي)

وقلت ـ أنا الذي لم أسـر في الأرض، ولم أبحث في الأديـان، ولم أتجـاوز العمـل في مشـاريعي التجاريـة ــ: (وعلى هـذا النحـو تماما ـ عن طريق تشخيص القوى الطبيعية ـ ولـدت الآلهـة الأولى التى اتخذت خلال التطور اللاحق شكلا غير أرضى أكثر فأكثر، إلى أن حـدث أخـيرا عمليـة تجريـد .. فنشـأ على نحـو طـبيعى خلال التطور العقلى أن تولـدت فى عقـل النـاس من الآلهـة المعتـددين ذوى السلطة الضعيفة والمقيدة بعضـهم حيـال بعض، فكـرة الآلـه الواحد المنفرد فى الديانات التوحيدية)

وقلت: (وهكذا كانت الآلهة ــ وهى الكائنـات المهمـة الجبـارة المسيطرة على الطبيعة والمجتمع ــ انعكاسـا ذاتيـا لعجـز النـاس الموضـوعى أمـام الطبيعـة والمجتمـع، وكـان على تقـدم العلـوم الطبيعية والاجتماعية أن يظهر طابع المعتقدات الـوهمى: الاعتقـاد بوجود آلهة متعددة، ثم الاعتقاد بوجود إله واحد)([2])

وقلت ـ على لسـان قـدراتي الوهميـة الـتي تصـورت أنهـا لم تكتف بالتحدث باسم التاريخ، بل راحت تتحدث عمـا قبلـه ــ: (أمـا المجــالات الأيدلوجيــة الــتى تحــوم أعلى فى الفضــاء كالــدين والفلسفة .. فإنها مؤلفة من بقية تعـود إلى مـا قبـل التـاريخ وقـد

([1]) هذا النص وما بعده من كتاب [ضد دوهرنغ]، وهو كتاب بقلم فريـدريك إنجلـز، نشـر لأول مرة باللغة الألمانية في عام 1878. ضد دوهرنغ، ص 381.

([2]) أصول الفلسفة الماركسية، ج1 ص 296 ـ 297.

وجدها العهد التاريخى أمامه فالتقطها لما نسميه اليـوم غبـاء . إن هـذه التصـورات المختلفـة الخاطئـة عن الطبيعـة . وعن تكـوين الإنسان ذاتـه، وعن الأرواح، وعن القـوى السـحرية، ليس لهـا فى الغالب إلا أساس اقتصادى سـلبى، فـالتطور الاقتصـادى الضـعيف لعهد مـا قبـل التـاريخ تكـون فيـه كتكملـة، ولكن كـذلك على نحـو جزئى كشرك أو حتى كسبب، تصورات خاطئة عن الطبيعة)[1]

وهكـذا رحت إلى نظريـة التطـور البيولوجيـة لأطبقهـا على الأديـان من غـير دراسـة علميـة لمحتوياتهـا.. فـذكرت أن الأديـان تطورت نتيجة تغير الأوضاع الماديـة والاقتصـادية.. وأن الـدين فى عهـد الـرق والإقطـاع اسـتغل لتخـدير الكـادحين حـتى لا يشـعروا بـالظلم الواقـع عليهم، ولتمـنيتهم بنعيم الجنـة تعويضـا عن عـذاب الدنيا.

هذا موقفي من الدين أمـا مـوقفي من الأخلاق، فـإنني رحت أصارعها كما صارعت الدين، وكما صارعت كل القيم، وقـد عـبرت عن بعض صراعي لهـا بقـولي: (وهكـذا فإننـا نـرفض كـل محاولـة لإلزامنـا بأيـة عقيـدة أخلاقيـة مهمـا كـانت على اعتبارهـا شـريعة أخلاقية أبدية، نهائية، وثابتة أبدا، بحجـة أن للعـالم الأخلاقى أيضـا مبادئه الدائمة التى تنهض فوق التاريخ وفوق الفوارق بين الأمم .. إننا ننادى على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقيـة قـد كانت حـتى هـذا التـاريخ، فى آخـر تحليل، نتاجـا لأوضـاع المجتمـع الاقتصادية السائدة فى زمنها)[2]

وقلت: (وما دام المجتمع قد تطور حتى الوقت الحاضر ضمن التضادات الطبقية، فإن الأخلاق كانت على الـدوام أخلاقـا طبقيـة، فهى إما أن تبرر سلطة الطبقة الحاكمة ومصالحها، وإما أن تمثـل ـ حالما تحوز الطبقة المضطهدة ما يكفى من القوة ـ التمـرد على تلك العقيدة، ومصالح المضطهدين المقبلة فى الوقت نفسه)[3]

---

[1] نصوص مختارة، فردريك إنجلز، جمع جان كانابـا، ترجمـة وصـفى البـنى، ص 177 ـ 178.

[2] ضد دوهرنج، ص 114 ـ 115.

وهكذا قضيت بجرة قلم ــ أنا البرجوازي صاحب المشاريع الاقتصادية ـ على كل القيم الجمالية التي تملأ حياة الكادحين راحة وطمأنية وأملا وسلوكا رفيعا.. رحت أحطمها لأحول من البشر مجرد حجارة قاسية لا مشاعر لها إلا تلك المشاعر التي تتنزل عليها من وسائل الإنتاج.

لقد عبرت عن ذلك بقولي: (إن الأخلاق التى نؤمن بها هى كل عمل يؤدى إلى انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافيا للأخلاق المعمول بها)(1).. وقلت: (يجب على المناضل الشيوعى الحق أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل، فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية).. وقلت: (إذا لم يكن المناضل الشيوعى قادرا على أن يغير أخلاقه وسلوكه وفقا للظروف مهما تطلب ذلك من كذل وتضليل وخداع فإنه لن يكون مناضلا ثوريا حقيقيا) (2)

ولم تتوقف جرائمي عند هذا الحد، بل رحت إلى تلك العلاقة المتينة التي جعلها الله لأفراد الأسرة فيما بينهم.. والتي يتفق عليها البشر جميعا، وعلى فطريتها.. بل إننا نجدها في الحيوانات نفسها.. رحت إلى هذه العلاقة أستعمل كل الوسائل لتحطيم كل القيم التي تحفظها.

لقد قلت في كتابي [أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة]: (ولئن كان ثمة أمر أكيد فهو أن الغيرة عاطفة نشأت فى عهد متأخر نسبيا ،وهذا يصدق على مفهوم [المحرم]، لأن الأخ والأخت لم يكونا وحدهما يعيشان فى الأصل كما يعيش الزوج والزوجة، بل إن العلاقات الجنسية بين الآباء والأولاد مسموح بها أيضا لدى شعوب عديدة حتى اليوم، وقبل اختراع المحارم لم يكن الوصال الجنسى بين الآباء والأبناء ليثير من الاشمئزاز أكثر مما يثيره

3() ضد دوهرنج، ص 115.

1() عن كتاب اشتراكيتهم وإسلامنا، تأليف بشير العوف ص 36.

2() عن كتاب اشتراكيتهم وإسلامنا، تأليف بشير العوف ص37.

الوصال بين أشخاص من أجيال مختلفة، كذلك الذى يحدث فعلا اليوم حتى فى أكثر البلاد تظاهرا بالتزمت من دون أن يثير النفرة الشديدة)[1]

وقلت: (إذا كان التقدم الأول يتألف من حرمان الآباء والأولاد من العلاقات الجنسية المتبادلة، فإن التقدم الثانى يتألف من حرمان الأخوة والأخوات منها.. وقد حدثت هذه الخطوة بالتدريج، مبتدئة فى أقرب الاحتمالات بحرمان الأخوة والأخوات الطبيعيين (أى من جهة الأم) من العلاقات الجنسية، وذلك فى حالات متفردة فى أول الأمر، ثم أصبح حرمانهم بالتدريج هو القاعدة، وتنتهى هذه الخطوة بتحريم الزواج حتى بين الأخوة والأخوات الأباعد)[2]

وقلت: (فى جميع أشكال الأسرة الجماعية لا يعرف من هو والد الولد معرفة أكيدة، أما والدته فتعرف معرفة أكيدة.. وفى أغلبية الحالات يبدو أن مؤسسة العشيرة قد انبثقت مباشرة من أسرة الشراء)

وقلت ـ عند حديثي عن المرحلة التالية من مراحل تطور الأسرة الزوجية ـ: (فى هذه المرحلة يعيش الرجل الواحد مع امرأة واحدة، لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية يقللان من امتيازات الرجال، وإن لم يكن تعدد الزوجات يمارس إلا نادرا لأسباب اقتصادية فقط، وفى الوقت ذاته يطلب من المرأة الإخلاص التام طوال فترة العيشة المشتركة، فإذا زنت عوقبت بقسوة . غير أن رباط الزيجة يمكن حله من قبل أى الطرفين، فيرجع الأولاد إلى أمهم كما كان الأمر فى السابق) [3]

أما أحلامي بالأسرة المثالية التي تنتجها الشيوعية، والتي تمثل آخر تطور للأسرة الإنسانية، فقد عبرت عنها في كتابي

[1] أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ترجمة أديب يوسف ص 53.

[2] أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص 58.

[3] أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص 72.

[المرأة والاشتراكية] بقولي: (إن العلاقات بين الجنسين ستصبح مسألة خاصة لا تعنى إلا الأشخاص المعنيين والمجتمع لن يتدخل فيها، وهذا سيكون ممكنا بفضل إلغاء الملكية الخاصة، وبفضل تربية الأولاد على نفقة المجتمع، وبنتيجة ذلك يكون أساسا الزواج قد ألغي، فالمرأة لن تعود تابعة لزوجها، ولا الأولاد لأهلهم، هذه التبعية التى لا ما تزال موجودة بفضل الملكية الخاصة)(1)

وقلت في كتابي [أصل الأسرة]: (فبانتقال وسائل الإنتاج إلى ملكية عامة لا تبقى الأسرة الفردية هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع، وينقلب الاقتصاد البيتى الخاص إلى صناعة اجتماعية، وتصبح العناية بالأطفال وتربيتهم من الشئون العامة . فيعنى المجتمع عناية متساوية بجميع الأطفال سواء كانوا شرعيين أم طبيعيين، وبذلك يختفى القلق الذى يستحوذ على قلب الفتاة من جراء العواقب التى هى فى زمانها أهم حافز احتماعى اقتصادى وخلقى يعوقها عن تقديم نفسها بلا حرج لمن تحب .. أفلن يكون هذا سببا كافيا لازدياد حرية الوصال الجنسى شيئا فشيئا، ومن ثم لنشوء رأى عام أكثر تساهلا فيما يتعلق بشرف العذارى وعار النساء؟!)(2)

قال ذلك، ثم لكم وجهه لكمات كثيرة، وانبطح على الأرض يشرب بعض الدماء، ثم رفع رأسه، وقال: هذه بعض مقولاتي التي كان لابد لي أن أقولها.. لأن من تخلى عن الله، وتخلى عن القيم التي أرسل بها رسله، سوف لن يهتدي إلا إلى عوالم الأنعام أو أضل سبيلا.

فلاديمير لينين:

ما هي إلا لحظات حتى قام رجل آخر تبدو عليه ملامح [فلاديمير لينين (3)]، لكنها كانت أشبه بتمثاله الذي بقي فترة

---

(1) المرأة والاشتراكية، ص 51.

(2) أصل الأسرة، ص 118.

(3) فلاديمير لينين (1870-1924م): ثوري روسي ماركسي وقائد الحزب البلشفي

كبيرة معلقا.. وقد زاد في تشويهها الدماء الكثيرة التي كانت تنبعث من كل أنحاء جسده.

قام، وقال: اسمعوا جيدا أيها الرفاق، فإن فلاديمير لينين العظيم يريد أن يحدثكم عن كل خدعه وتلبيساته وأكاذيبه واستبداده وظلمه.. اسمعوه فإنه المثال الأعلى، والقدوة الأسمى لشخصية الملحد.

أنتم ترونني الآن على شكل تمثال.. وحق لكم ذلك.. وحق لربي أن يحولني إلى هذه الصورة.. فأنا لم أنشغل في حياتي إلا بصناعة تمثال ذاتي وصنمها.. ولذلك حاربت الله لأني شعرت أنه يزاحمني في ألوهيتي.

اسمعوني جيدا.. فأنا لينين.. أو [حيام غولدمان] كما سماني والدي اليهودي الألماني.. وكما سمتني أمي اليهودية (صوفيا غولدمان).. وقد عرفت فيما بعد باسم (فلاديمير ايليتش أوليانوف).

بدأ أمري بعدما أعدم أخي (الكسندر أوليانوف) في تهمة اغتيال امبراطور روسيا سنة (1881م) (اسكندر الثاني)، وقد كان لإعدامه أعمق الأثر في نفسي، مما جعلني أفكر بالإنتقام من الشعب الروسي، بل من كل البشر.. لقد كان الانتقام هو بداية أمري.

لكم وجهه لكمات كثيرة، وسال منه دم كثير، ثم تنفس الصعداء، وقال: نفيت أكثر من مرة.. وأخيرا استقر بي المقام في سويسرا مع سبعة من اليهود.. وقمنا للتخطيط للثورة في روسيا.

أخرجنا حينها مجلة اسمها (إسكرا) أي (الشرارة)، وكانت زوجتي اليهودية المتعصبة (تروبسكايا) هي سكرتيرة التحرير، وكانت الأموال تغدق علينا من (جاكوب شيف) المليونير اليهودي صاحب شركة (كوهين لوب) في نيويورك.. وكانت هذه الشركة

والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي.. بالإضافة إلى عمله ونشاطه السياسي كان فيلسوفا ومؤلفا سياسا غزير الإنتاج، كتب العديد من النشرات والكتب والمقالات، مجموع ما ألف يصل إلى خمسة وأربعين كتابا من مؤلفاته [ما العمل]، و[الامبريالية واعلى حالات الراسمالية] و[المادية والمذهب النقدي التجريبي]

إحـدى الشـركات الكـبرى للبـارون اليهـودي (هـيريش) فولاهـا (جاكوب شيف).

لقد كنا نخطط ـ حسب النظرية الشيوعية ـ لقيام الثـورة في بريطانيا، ولأجل ذلك تسـللنا إلى المناصـب الكـبرى في بريطانيـا، ولكن الأمر تغير بعد إعلان البيان الشيوعي سنة (1848م).

وفي سـنة (1897م) عقـد هرتـزل مـؤتمر بـال للمنظمـات الصهيونية العالمية، وكان التأكيد على إقامـة الثـورة البلشـفية في روسيا، أحد بنود مقررات صهيون التي انبثقت عن هذا المؤتمر.

ثم حدث حادث جلل، لقد قمنا باغتيال الإمـبراطور الإسـكندر الثاني سنة (1881م).. فاندفع الشعب الروسي يعمـل فينـا تقـتيلا وتشـريدا، وأقـاموا لنـا مجـازر كثـيرة، فصـممنا على الانتقـام من الشعب الروسي.

سـكت قليلا، ثم قـال: نعم كنت يهوديـا.. ولكن مـوقفي من الأديـان كـان شـديدا وقاسـيا.. مثلي مثـل زملائي وأسـاتذتي في اليهوديـة.. فقـد رددت مـع كـارل مـاركس قولـه:(الـدين أفيـون الشعوب)، وقوله: (إن الله لم يخلق الجنس البشري، بل الإنسـان هو الذي خلق الله)

ورددت مع ستالين قولـه: (يجب أن يكـون مفهومـا أن الـدين خرافة، وأن فكرة الله خرافة، وأن الإلحاد مذهبنا)

ورددت مع [البرافدا السوفييتية]:(نحن نؤمن بثلاثـة: مـاركس ولينين وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، الدين، الملكية الخاصة)[1]

وكنت أقـول في كـل التجمعـات الشـعبية: (الـدين خرافـة وجهل)

وكنت أردد في كل المجالس:(إننا لا نؤمن بإله، ونحن نعـرف كـل المعرفـة أن أربـاب الكنيسـة والإقطـاعيين والـبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالا)

1() كتاب المسلمون والحرب الرابعة ص(47).

وكنت أسجل في دفاتري وكتبي: (إن كل فكرة دينية، أو فكرة عن الله، حتى التمادي بفكرةٍ عنه، هي قباحة لا يُنطق بها، وهي أعظم خطرًا وأشد عدوى من أية عدوى كانت، فملايين الخطايا والأعمال القبيحة ومظاهر الضعف والعدوى الجسدية، لهي أقل خطرًا من فكرة روحيَّة خدَّاعة عن الله)[1]

وكنت في خطاباتي التي يسمعها الملايين أقول بكل وقاحة: (الدين هو أفيون الشعوب.. الدين نوع من الخمر الروحية يُغرِق فيها عبيد الرأسمالية صفتهم الإنسانية ومطالبهم بأي حياة إنسانية كريمة)[2]

سكت قليلا، ثم قال: لن أحدثكم بلغة الفلسفة التي حدثكم بها رفاقي في الشيوعية، فأنا ـ مع كوني فيلسوفا شيوعيا ـ كنت أميل إلى تنفيذ أخلاق الشيوعية أكثر من الحديث عنها.. ولذلك سأحدثكم عن منجزاتي.. وهي منجزات طبيعية لشخص ملحد، ليس له ضمير، ولا عليه رقيب.

خلاصة تلك الأخلاق هي أنني ذهبت أنشر الخراب في كل مدينة استولي عليها.. فلم يشهد التاريخ في أحقابه جميعا مثيلا للمجازر التي أقمتها مع رفاقي للمسلمين، فعند قيام الثورة البلشفية وجهت مع ستالين في (15/12/1917م) نداء للمسلمين قلنا فيه:(أيها المسلمون مساجدكم، صلواتكم، أعيادكم، تقاليدكم في أمان، قوموا وساعدوا الثورة ضد القيصرية، لقد جاءت ساعة خلاصكم)[3]

فصدقنا المساكين ببلاهة منقطعة النظير، بل لقد تصوروا أن ساعة الخلاص قد حانت، فهبوا للتخلص من القيصرية والاستراحة من نيرها، وإذا بهم يقعون بين أنيابنا، لنمزقهم تمزيقا.

---

[1] () ريتشارد وورمبلاند، تعريب كريم خاشو، العذاب الأحمر ص 98.

[2] () ريتشارد كيتشام، ترجمة عزت فهيم، هذه هي الشيوعية ص 63.

[3] () انظر: مجلة البلاغ الكويتية العدد (478) نوفمبر سنة (1978م)

لقد وقع حوالي (60-65) مليونـا من المسـلمين تحت وطـأة الثورة البلشفية، وهؤلاء المسلمون ينتشرون على أرض مسـاحتها أكثر من (15) مليون ميل مربع (أكثر من مساحة إفريقيا).

وبعد أن انتصرنا حصدناهم حصـدا.. ففي تركسـتان الشـرقية التي احتلتهـا الصـين سـنة (1934م) ــ بمسـاعدة الجيش الأحمـر الروسـي ــ قتلنـا (ربـع مليـون مسـلم) من المفكـرين والعلمـاء والشباب.

وعندما قـامت الثـورة الصـينية سـنة (1952م) قتلت (122) ألفا من المسلمين.

وفي يوغسـلافيا أبـاد تلميـذنا المخلص [تيتـو] بعـد الحـرب العالمية من المسلمين (24) ألفا.

وفي القـرم، أبـدنا سـنة (1921م) (مائـة ألـف)، وهجرنـا (خمسين ألف) في عهد بيلاكون، وكان عدد مساجدها قبل احتلالنا لها زمن كاترينا الثانية (1554) مسجدا، وعدد سكانها (5) ملايين، فمـا زالت تهجـر وتقتـل وتنفي إلى سـيبريا حـتى بقي منهم (3) مليون وبقي من المساجد (700) مسجد.

وعندما ذهبنـا إليهـا سـنة (1920م) أغلقنـا المسـاجد، وشـننا على أهل القرم حرب التجويـع.. لقـد نشـرت الأزفسـتيا في (15) يوليو سنة (1922م) تقريرا للرفيـق (كـالينين) عن مجاعـة القـرم يقول:(بلغ عدد الذين أصابتهم محنـة الجـوع في ينـاير (302090) مات منهم (14413)، وارتفع عددهم في مـارس إلى (379000) [1]

وفي سـنة (1946م) كـان قـد بقي من شـعب القـرم نصـف مليون نفاهم ستالين إلى سيبريا[2].

وفي القفقاس، بلاد الشيشـان والشـركس، نفى سـتالين إلى

---

[1] انظر: الإسلام في وجه الزحف الأحمر لمحمد الغزالي ص(142)

[2] انظر: مجلة البلاغ الكويتية العدد (478) نوفمبر سنة (1978م)

سيبريا وأذربيجان جميع الشعبين: (800) ألف من الشيشان، و(300) ألف من شعب كارة شاي و(250) ألفا من شعب كالموك.

ولم نترك في جمهورية الشيشان كلها مسجدا واحدا.. لقد هدمنا المساجد وحولناها إلى اصطبلات ودور للسينما ومراكز للحزب ودور للترفيه ونوادي..

أما المساجد الباقية في المناطق الأخرى، فقد أجبرناها على أن تدفع ضرائب للدولة، فمسجد لينين جراد الباقي للسياحة، يدفع عنه المسلمون ضريبة سنوية قيمتها (24 ألف) روبل.

وفي تركستان الغربية كان مجموع ماقتل من المسلمين فيها (6) ملايين مسلم سنة (1919م)، هرب منها مليونان ونصف، وسنة (1934م) قتلنا مائة ألف مسلم.. وفي سنة (1937-1939م) أعدم ونفي إلى سيبريا نصف مليون مسلم.. وفي سنة (1934م) نفي منها 9300 ألف مسلم.. وفي سنة (1950م) قتل منها (7) آلاف مسلم.. وفي سنة (1932-1934م) مات جوعا 3 ملايين مسلم، أخذت محاصيلهم وقدمت إلى الصين.. وفي سنة (1951م) اعتقل منهم (13565) مسلما.. وفوق هذا لقد ثبت بالإحصائيات الروسية أن ستالين قتل وحده 11مليونا من المسلمين [1].

لكم وجهه ببعض اللكمات، ثم قال: لم نحكم لنقتل الأجساد فقط.. بل حكمنا لنقتل الأرواح والعقول والقلوب أيضا.. لقد رأينا أنه لا يمكن أن نقيد الإنسان بقيودنا التي لا ترحم إلا بعد أن نقيد عقله ونفسه وروحه وحقيقته.

فلذلك استعملنا كل الوسائل لتحقيق ذلك.. بدأنا بالتعليم.. فمنعناه منعا باتا في مدارس الدولة في السوفيات.. باستثناء المدارس الدينية المحضة التي تخرج الأنماط التي نريدها من العلماء.. ومع ذلك، فمنذ سنة (1945م) لم يسمح إلا بمدرسة واحدة، وهي مدرسة (ميري عرب) في بخارى التي أعيد

[1] المسلمون في الإتحاد السوفياتي لكاتبين فرنسيين هما (شانتال كلكجي، الكسندر بينيغسن) تعريب د. إحسان حقي ص(267).

فتحها[1].

أما المساجد، فقد كان عددها في روسيا وحدها ـ عدا مساجد بخارى وخيوه الكثيرة جدا ــ (26279) مسجدا، ولم يبق منها مفتوحا للمصلين سنة (1931م) إلا (1312) مسجدا.

وفي سنة (1964م) صدرت نشرة عن طشقند بالفرنسية تخبر أنه يوجد في كل آسيا الوسطى بما فيها قزقستان (250) مسجدا فقط.

هذا عن الصلاة والمساجد، أما الزكاة، فقد كانت فمحظورة، وأما الحج فكان مستحيلا، ثم سمح به بعد سنة (1945)، ولكن عدد من حج منذ تلك السنة حتى سنة (1977م) فكان لا يزيد على مائة شخص.

أما صيام رمضان، فلم يمنع رسميا إلا أنه يكاد يكون مستحيلا من الناحية العملية، حتى اضطر بعض المفتين أن يفتوا المسلمين بصيام ثلاثة أيام تحسب لهم عن ثلاثين يوما[2].

أما رجال الدين، فقد كان عددهم سنة (1917م) ـ فيما عدا بخارى وخيوه ــ لا يقل عن (45339).. لكنه تضاءل سنة (1955م) إلى (8052).. لأن معظمهم سحق في الثلاثينات.

ولم نكتف بهذه المحاربة لكل ما يمت للإسلام بصلة، بل رحنا نروج الدعايات ضد الإسلام.. وقد أنشأنا اتحادا سميناه (إتحاد من لا إله لهم) وبعد الحرب (جمعية نشر المعلومات السياسية)، وقد كان معظم عملها محاربة الإسلام.

ففي الفرع القازاقي: نظمت الجمعية بين سنة (1946-1948م) ما يساوي (30528) محاضرة منها (23000) محاضرة ضد الإسلام.

---

[1] انظر: المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، محمود شاكر، ص(64) فما بعدها.

[2] أول ومنتصف وآخر رمضان، انظر: المسلمون في الإتحاد السوفياتي ص(267) فما بعدها للمؤلفين الفرنسيين.

وفي أوزبكستان: سنة (1941) نظمت الجمعية أكثر من (10) آلاف محاضرة ضد الإسلام.

وفي تركمانستان: سنة (1963م) نظمت الجمعية أكثر من (5) آلاف محاضرة ضد الإسلام.

وطبعت من الكتب بين سنة (1955-1957م) (84) كتابا في (800) ألف نسخة ضد الإسلام.

وطبعت من الكتب بين سنة (1962-1964)ـ (219) كتابا ونشرة ضد الإسلام وموجهة للمسلمين.

لكم وجهه لكمات كثيرة، ثم راح يقول: لقد تصور الكثير أننا فعلنا هذا لنحقق الرفاه للمجتمعات التي حكمناها، وكذب في ذلك.. فقد أفسدنا حياة الناس ودمرناها وملأناها فقرا وخرابا..

لقد استطعنا في فترة حكمنا أن نثبت أن حكم الإلحاد أخطر وأشد ظلما من الحكم الذي مارسته الكنيسة بأضعاف كثيرة..

أذكر جيدا أن الفيلسوف الفرنسي (أندريه جيد) كان متحمسا للشيوعية ويرى أن خلاص البشرية من آلامها سيكون في ذلك الفردوس. وقد كان يقول عن الإتحاد السوفيتي:(إنه لم يكن مجرد الوطن المختار أو المثال، أو مهبط الوحي، بل كان أكثر من ذلك وأسمى، لقد خيل إلي في البداية أن أشق الأمور قد أنجزت، فكنت على استعداد لأن أوقع عن البشرية المعذبة دون قيد ولا شرط)[1]

لكنه ما إن زار روسيا سنة (1936م) حتى تحطمت كل آماله، وعاد يائسا من الشيوعية وقال:(هل هنالك دولة أخرى في العالم قد كان فيها الروح والعقل أقل حرية وأكثر ذلة واستعبادا وجبنا منها في السوفيات)

وقال يخبر عن الحياة الخالية من البركة التي أسسها استبدادنا:(لقد كانت الوجبة الواحدة من الطعام الذي يقدم إلي تكلف (200-300) روبل بينما لا تزيد أجرة العامل عن (5)

---

[1] الصنم الذي هوى ص(236)

روبلات في اليوم)

ويقول:(لقد ذهبت إلى الإتحاد السوفياتي حتى لا أجد فيها فقراء، ولكنني وجدت أناسا يعيشون في أعشاش حقيرة، كل حجرة من حجرها الصغيرة بمساحة (6 قدم2) مخصصة لأربعة أفراد)

ويقول:(لقد آن للعمال في خارج الإتحاد السوفياتي أن يعلموا أنهم خدعوا من قبل الأحزاب الشيوعية، كما خدع عمال الإتحاد السوفياتي من قبل)[1]

لكم وجهه لكمات كثيرة، ثم راح يقول: وكيف لا نفعل ذلك والإلحاد لا يعرف شيئا اسمه القيم.. ولا شيئا اسمه الأخلاق.. ولذلك فإن الخداع عنده مساو للصدق.. والمكر عنده مساو للإيثار.. والظلم عنده مساو للعدل.. فمن يا ترى يحاسب الملحد على أي سلوك يسلكه؟

لقد خدعنا في مسيرتنا التي حاولنا أن نطبق فيها أفكارنا الإلحادية الكثير من الناس.. ولكن أول من خدعنا العمال، فقد جذبناهم ببريق المساواة، وبعد نجاح الثورة البلشفية فاتحناهم بأن المساواة مستحيلة، وأن المساواة هي تحطيم الطبقات، أي الوصول إلى الحكم.

لقد صرحت للجماهير في (6/2/1919م) قائلا:(لقد أصاب انجلز ألف مرة حين صرح بأن كل طلب للمساواة يتجاوز المناوأة لمحو الطبقات، هو تحيز سخيف عن دائرة المعقول)[2]

وصرح ستالين في تقريره إلى مؤتمر الحزب السابع عشر عام (1934م) قائلا:(نحن نستطيع أن نجد في فوارق الأجور بين الأعلى والأدنى في الإتحاد السوفيتي، وهذا ما ذهب إليه إنجلز ولينين وستالين، فهذه الفوارق كثيرا ما تزيد مثيلتها في المجتمعات الغربية أو تبلغ حدوده، فهي مرة عشرة أمثال، وهي

---

[1] الصنم الذي هوى ص(236)

[2] التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية ص(197-198)

مرات عشرون مثلا أو يزيد)(3)

أما المساواة التي رفعنا شعارها.. فقد احتلنا عليها هي الأخرى.. نعم.. لقد أزحنا الطبقية القديمة، ولكن لنؤسس على أنقاضها طبقية جديدة.. طبقية يتربع الحزب الشيوعي في قمة قممها.. فهو الذي يعيش، وبقية الشعب لا حياة له.

أما الحرية والديمقراطية التي كنا ننادي بها، ونتصورها أنها لن تتحقق إلا مع الإلحاد.. فلم تكن سوى شعارات مزخرفة.. خدعنا الكل بها.. لقد كان ماركس يرى أن ديكتاتورية البروليتاريا ضرورية في البداية لتصفية الرجعية والبرجوازية، ثم تختفي الحاجة إلى السلطة والدولة، وتسقط الدولة طبيعيا، وتدار الدولة بلا جيش ولا بوليس.. ولهذا درجت الدول الإشتراكية على تسمية نفسها الديمقراطية الشعبية.

لقد كان الشعب كله يعيش بين مطرقة اللجان المركزية للحزب، وبين سندان قواعده.

لقد قسمت برلين سنة (1945م) إلى قسمين الغربي تحت حكم الغرب والشرقي تحت سيطرة الشيوعيين، وفصل بينهما بجدار، ولو اطلعت على هذا الجدار وما يسلط عليه من أضواء، لعجبت وهلعت، هناك شبكة من الأسلاك الكهربائية التي تصعق كل من يمسها أو يقترب منها، وكم من الناس صعقوا على هذا الجدار وهم يحاولون الهرب من جحيم الشيوعية إلى برلين الغربية.

لقد تحدثت الصحف الغربية في شهر أيلول (1979م) عن قصة عجيبة، قصة هرب أسرتين من برلين الشرقية.. بقيت الأسرتان تجمع قطعا من محلات كثيرة مختلفة حتى ركبتا منطادين ثم خاطرتا بأنفسهما وركبتا المنطادين وطاروا إلى برلين الغربية.

وأما اللجوء السياسي للأدمغة الهاربة، ومن أناس من جميع القطاعات، وعلى جميع المستويات: فنانين ورياضيين وصحفيين

(3) التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية ص(197-198)

وكتـاب، والكـل نـاقم سـاخط يتنفس الصـعداء بمجـرد فتح أقفـال الستار الحديدي الأحمر.

لقد أبادت الثورة البلشفية عشـرات الملايين من أعـدائها، ثم عـادت تصـفي جنودهـا، سـحقت ثلاثـة أربـاع قيـادات الحـزب في روسيا.. كان مجلس الشـعب سـنة (1936م) 21 شخصـا لم يبـق منهم بعد سنتين سوى خمسة والبقية أبيدوا.. وكان أعضاء اللجنــة المركزيــة سـنة (1938م) (71 شخصــا)، ولم يبــق منهم سـنة (1938) سوى (21) شخصا، وأما الباقون: ثلاثة ماتوا طبيعيا، واحد ذبح، و(36) اختفــوا في منــافي سـيبريا، و(9) قتلــوا بالرصــاص، ومارشال انتحر.

لم يكن أي إنسان يستطيع أن يتفوه بكلمة في داخل الإتحــاد السوفياتي ضد الحزب؟.. ولم يكن أي إنسان يستطيع الــدفاع عن نفسه أو توكيل محام عنه.

وقد جر الظلم الشديد الممارس على طبقات الشعب عامـة، والمثقفين خاصة إلى انتحار كثير من الكتاب المرمـوقين في سـن الشباب أمثال: (مايكو فسكي، دايسين، وباجر سسـكي) اذ انتحـر ثلاثتهم قبل سن الخامسة والثلاثين[1].

أما الإنتاج.. ذلك الإله الذي بعنا الله من أجله، فقد تمرد علينا هو الآخر.. لقد أصـبح الانتـاج يقـل عامـا بعـد عـام حـتى اضـطرت روسـيا لــبيع رصـيد الــذهب من أجــل شــراء القمح من الــدول الرأسـمالية.. لقـد أصـبح المـارك في بـرلين الغربيـة يعـدل أربعـة ماركات شرقية.

لكم وجهه لكمات كثيرة، ثم قال: لقد أسسـنا اسـتبدادنا على الماديـة.. والماديـة لا يمكن أن تنشـئ فكـرا أو حضـارة.. لقـد كنـا نتعامل مـع الإنسـان كآلـة من الآلات، أو حيـوان يعيش بلا شـعور، ويحيا بلا فكر.. إن كان فيورباخ يرى أن عظماء الرجـال هم الـذين يصنعون التاريخ ويقيمون الحضارات ويبنون الإقتصاد، فإن ماركس ـ نبي استبدادنا ـ فقد كان يرى ـ وكنا نرى معه ـــ أن الإقتصـاد هـو

[1] كتاب أفيون الشعوب للعقاد ص(135)

الذي يصنع عظماء الرجال.

كان ماركس يرى أن المجتمعات البشرية عبارة عن حظائر تنقلها من حالة إلى حالة مقادير الطعام والشراب والفساد.

وبعد أن قامت الثورة البلشفية أصبح الأدب والفن والشعور والقصص والمسرحيات كلها تدور مع دولاب الآلة، وأصبح الكلام صناعة ونفاقا لأن أية كلمة تخرج عن خط الحزب ستدفن مع صاحبها تحت التراب أو تحت سياط العذاب.

لقد عبر ريمون أرون -أستاذ العلوم الإجتماعية في المدنية المعاصرة في كوليج دوفرانس عن هذه الحقائق المرة التي تفننا في فرضها:(وخرافة الثورة إلتي يذهب الماركسيون إلى أنها طوق النجاة للإنسانية من آلامها ليست إلا خدعة كبيرة لا تعني سوى إضرام حرائق الفتيل لدك الأسس الحضارية للمجتمعات وسفك الدماء البريئة، ليعقبها قيام نظام دكتاتوري رهيب يفرض سيطرته بقوة الحديد والنار على جموع الشعب، وما يلازم ذلك من تقييد الحريات وخنق الأفكار وإخماد التطلعات المشروعة نحو حياة أفضل ومستقبل أمثل)[1]

وقال صديقنا الذي تحول إلى عدو لدود لنا:(إن أية ثقافة أو فن لا يتفق مع آراء الحزب يعتبر شكليا، ويدفن ويسخر منه ولا يستطيع أن يرى النور)[2]

لم يكن للكاتب والمبدع في ظل الاستبداد الذي أنشأناه إلا ثلاثة خيارات:

إما الهرب إلى الدول الغربية ــ إن تسنى له ذلك ــ وهذه ظاهرة كبيرة في الدول الإشتراكية، فقد هجرت الأدمغة هذه الأوطان التي عاشت فيها.

وإما أن يتخلص من الحياة بالإنتحار أو الشذوذ النفسي

1() كتاب أفيون المثقفين لريمون أرون الفرنسي ص(61)

2() الصنم الذي هوى ص(236)

والتمرد.

وإما أن يجد مكانة بين المصفقين الذين يحرقون البخور ويهللون ويكبرون باسم الحزب، ويدفن جميع أفكاره لتصبح الحياة وقيمها عنده لقمة غذاء أو خرقة كساء.

لكم وجهه لكمات كثيرة، ثم قال: وأخيرا انهارت امبراطورية الاستبداد التي أسسناها.. وكان لا بد أن تنهار كما تنهار كل الامبراطوريات.. لقد انهارت امبراطوريتنا ـ التي أرادت أن تزاحم الله ــ في معاقلها بعد قرابة سبعين عاماً من قيام الحكم الشيوعي، وبعد أربعين عاماً من تطبيق أفكارها في أوروبا الشرقية.

لقد أعلن كبار خلفائنا من المستبدين في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه أن الكثير من المبادئ الماركسية لم تعد صالحة للبقاء، وليس بمقدورها أن تواجه مشاكل ومتطلبات العصر.

قال ذلك.. ثم انعقد على لسانه، وراح يصيح بهذيانه، وهو يلكم وجهه وكل أجزاء جسمه بحركات جنونية.

ثم ما لبثت بعدها حتى سمعت صوتا يردد: انتهت فترة الراحة.. هيا أسرعوا إلى العودة للتدريب.

ثم رأيت جميع أولئك المجانين ــ بمجرد سماعهم للصوت ـ يضرب بعضهم بعضا بقسوة وشدة لا نظير لها.

***

بينما أنا في قمة استغراقي في تلك المشاهدات العجيبة لهؤلاء الملاحدة المصارعين، نبهني صاحبي المرشد، وقال لي: أظن أن ما سمعته هنا من اعترافات يكفي.. فهلم بنا إلى جناح آخر.. لترى أهله وتعرف أسرار إلحادهم.

سرنا إلى الجناح السادس في فندق الملاحدة، وقد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: 15]، وبجانبها قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15]

سألت المرشد عن الآيتين، وعلاقتهما بهذا الجناح، فقال: هذا جناح المتجبرين..

قلت: المتجبرون.. عجبا .. وما علاقة التجبر بالإلحاد؟

قال: لا يكون المتجبر متجبرا حتى يكون ملحدا.. لأنه لا يستقيم الإيمان مع التجبر.. ألم تقرأ ما ذكره الله تعالى عن فرعون وتجبره وطغيانه؟

قلت: بلى.. وقد ذكر الله تعالى أنه كان يصيح بملء فيه:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:24).. وكان يقول مخاطبا قومه: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف: 51 ـ 53)

قال: أرأيت حديثه عن نفسه، وحديثه عن ربه.

قلت: أجل.. فهو بقدر ما يعظم نفسه، بقدر ما يحقر ربه.

قال: فهذا مثال عن التجبر.

قلت: ولكن الآية المكتوبة على الباب عن ثمود.. وليست عن فرعون.

قال: كلهم متجبرون .. عاد وثمود.. فرعون وهاما.. كانوا أفرادا أم جماعات.. أمما أم شعوبا.. متقدمين أم متأخرين.. كل من عزل الله عن حياته، فسيقع في عبودية نفسه.. ومن وقع في

عبودية نفسه لن يكون إلا جبارا مستكبرا ظالما طاغية.

قلت: صدقت في هذا.. فكل الحركات النازية والفاشية والعنصرية تنطلق من فلسفات إلحادية.. أو فلسفات علمانية تعزل الله من التأثير والحكم.

قال: وهذا الجناح مخصص لهم.

قلت: مخصص للنازيين الفاشيين والعنصريين..

قال: لكل من ألحد.. ولم يكتف بإلحاده بل راح يتكبر على الخلق.. ويظلمهم.. ويضع لهم من وحي الشيطان ما يملأ حياتهم نكدا وصراعا.

قلت: لكنا مررنا عليهم في الجناح السابق .. جناح المصارعين.

قال: أولئك كانوا يظلمون الناس تحت خدعة الصراع.. وهؤلاء يظلمونهم تحت خدعة العنصرية والكبرياء والقوة الوهمية.

قلت: لا شك أننا سنلاقي هذا الجناح نيتشة.. فقد كان من دعاة القوة والعنصرية، وقد أوحت أفكاره لهتلر بالنازية.

قال: الجناح أكبر من أن ينحصر في نيتشة وهتلر.. هو أكبر بكثير.. فتاريخ البشرية الفلسفي والسياسي ممتلئ بأمثال هؤلاء المتجبرين.

قلت: لقد ذكرني قولك هذا بمقارنة جميلة أجراها بديع الزمان النورسي بين حكمة الفلسفة وحكمة القرآن في المجال الاجتماعي، فذكر أن (حكمة الفلسفة ترى [القوة] نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية.. وتهدف إلى [المنفعة] في كل شيء.. وتتخذ [الصراع] دستوراً للحياة.. وتلتزم [بالعنصرية والقومية السلبية] رابطة للجماعات.. أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس واثارة الهوى)[1]

---

[1] الكلمة الثانية عشر، رسائل النور، النورسي.

قال: صدق في ذلك.. وستسمع من أهل هذا الجناح من يؤكد لك ذلك..

قلت: وقد ذكر آثار ذلك على المجتمعات، فقال: (من المعلوم أن شأن [القوة] هو [الإعتداء].. وشأن [المنفعة] هو [التزاحم] اذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم.. وشأن [الصراع] هو [النزاع والجدال].. وشأن [العنصرية] هو [الإعتداء] اذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى)

قال: صدق في ذلك.. وكل شيء يدل عليه..

قلت: أما حكمة القرآن الكريم، أي القيم القرآنية الإيمانية البديلة (فهي تقبل [الحق] نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلاً من [القوة].. وتجعل [رضى الله سبحانه] ونيل الفضائل هو الغاية، بدلاً من [المنفعة].. وتتخذ دستور [التعاون] أساساً في الحياة، بدلاً من دستور [الصراع] .. وتلتزم برابطة [الدين] والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلاً من العنصرية والقومية السلبية.. وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الامارة ودفع الروح إلى معالي الامور، واشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية)

قال: صدق في ذلك.. فـ (شأن (الحق) هو (الاتفاق).. وشأن (الفضيلة) هو (التساند).. وشأن دستور (التعاون) هو (إغاثة كل للآخر).. وشأن (الدين) هو (الأخوة والتكاتف).. وشأن (إلجام النفس) وكبح جماحها وأطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو (سعادة الدارين)

قلت: أراك تحفظ كلامه بحروفه..

قال: أجل.. ولولاه ما كنت في هذا المحل.. فقد أرسلني معلمي [معلم الإيمان] للتلمذة عليه في أول دراستي في المرحلة الابتدائية.

ما إن قال هذا حتى فتح الباب، فرأيت شيئا غريبا لم أكن أتصور إمكانيته.. فقد رأيت أقزاما صغارا جدا.. لا يكاد أطولهم يتجاوز طول الإصبع.. حتى أني لم أكد أراهم بصورة جيدة، لولا أن

أعطاني المرشد نظارة خاصة..

كانوا كثيرين جدا.. وكانوا متشكلين على شكل جماعات مختلفة، ويبذلون جهودا كبيرة في حفر بعض الصخور التي لم أدر سبب حفرهم لها.. وكانت شظايا الصخور تتطاير عليهم، فتسيل دماؤهم التي تختلط مع التراب، فتزيد في تشويههم.

هربرت سبنسر:

بينما كنت منشغلا بالعجب من حالتهم إذ سمعت صوتا عاليا يصدر من بعض الجهات، فالتفت إليه، فإذا به قزم من الأقزام يصيح في أصحابه قائلا: هيا أسرعوا.. لابد أن ننتهي من هذه الصخور اليوم.. فهناك صخور كثيرة تنتظرنا.. صخور لا نهاية لها.. فاعملوا لتبنوا قصركم الأكبر .. قصر الإنسان الكامل.. فأنتم عصارة البشرية.. وأنتم آخر سلسلة التطور.. والبقاء لكم .. لا لغيركم.. فلا بقاء إلا للأقوى والأصلح.

قال ذلك، ثم قام بطرق بعض الصخور بمطرقته الضخمة مقارنة بحجمه، ثم مسح العرق عن جبينه، وقال: لاشك أنكم لم تعرفوني.. فأنا [ربرت سبنسر[1]].. أنا ذلك الفيلسوف الكبير الذي استطاع أن يكتشف أسرار التاريخ وحركته.. وأسرار الإنسانية والقبلة التي تتجه إليها.. أنا سبنسر .. صاحب شعار [البقاء للأصلح].. يخطئ من يذكر أن هذه المقولة لدارون.. دارون لم يقلها.. بل أنا الذي قلتها.. ولو أن دارون قالها، فإنما اقتبسها مني.

أنا صاحب نظرية [الداروينية الاجتماعية].. لعلكم لم تسمعوا بها.. فدعوني أشرحها لكم..

لاشك أنكم تعلمون أن نظرية التطور الطبيعية تنص على أن هناك صراعًا بين أنواع الحيوان والنبات للاستمرار في الوجود.. فإذا تغيرت البيئة والظروف، فإنه لا يستمر في الحياة إلا تلك

---

[1] ربرت سبنسر (1820ـ 1903): فيلسوف بريطاني، مؤلف كتاب [الرجل ضد الدولة]، وهو أحد أكبر المفكرين الإنجليز تأثيرا في نهاية القرن التاسع عشر، وهو الأب الثاني لعلم الاجتماع بعد أوجست كونت الفرنسي، اشتهر بنظريته عن التطور الاجتماعي.

الأنواع القوية القادرة على التأقلم مع البيئة الجديدة، أما الأخرى فتندثر وتنقرض في العملية التي سماها أصدقاؤنا التطوريون [الانتقاء أو الانتخاب الطبيعي]

لكني لم أتوقف بهذه الرؤية عند حدها الطبيعي، بل رحت أطبقها على الإنسان والمجتمعات، ولذلك أطلق على فلسفتي [الداروينية الاجتماعية]، وهي فلسفة تدعو إلى ممارسة كل أنواع التجبر والطغيان لإلغاء المستضعفين من الوجود حتى لا يبقى في العالم إلا الأقوياء.. فالبقاء لهم وحدهم.. ولذلك لهم أن ينتهبوا ثروات الفقراء المستضعفين.. ولهم أن يبيدوهم.. حتى لا يبقى في الأرض إلا الأصلح والأقوى.. وهو بالتأكيد ليس سوى (الإنسان الأبيض)، والأوروبي على وجه التحديد.

لقد كان هذا المعيار هو الذي فتح المجال للرأسمالية البشعة.. والتي تعني عدم تدخل الدولة في الأعمال والسوق التجارية نهائيًا، بل تترك الباب مفتوحًا للمنافسة، ومن يستطع التنافس يبقَى في الحلبة، ومن لا يجاري الأقوياء عليه مغادرة حلبة الصراع، فلا مكان للضعفاء! وليس الضعفاء إلا أولئك الذين لا يملكون من رأس المال ما يمكنهم من منافسة المليارديرات والمليونيرات.

وكان هذا المعيار هو الذي دعا إلى التخلص من دولة الرفاه.. وهي الدولة التي تقدم التعليم والتأمين الصحي ومعاشات التقاعد والمساعدة في تأمين السكن وغيرها مجانا للمستضعفين .. لأن ذلك سيترك لهم الفرصة البقاء مع استضعافهم.. وهذا مناف للقوانين التي وضعناها.

وكان هذا المعيار هو الذي دعا المستكبرين الأقوياء إلى استعمار الشعوب المستضعفة.. فتلك الشعوب لا تستحق الحياة.. لأن الحياة لا تكون إلا للأقوى.

لم يتوقف تأثير تلك الأفكار التي طرحتها على المجال الاقتصادي، والمآسي التي أحدثها.. بل رحت ــ وأصحابي من الفلاسفة والمفكرين والسياسيين ورجال الأعمال ــ ندعو إلى استعمال كل الوسائل لإبادة المستضعفين.

لقد كنا نعتقد بتوريث الصفات.. أي أن الوراثة هي التي تلعب دورًا مهمًا في تحديد طبيعة الإنسان، والسمات الفردية له كالذكاء والهوية الشخصية.. وكنا نعتقد أن الجينات الوراثية تستطيع تفسير خصائص الشخصية البشرية وحل المشكلات الإنسانية سواء كانت اجتماعية أو سياسية.. وكنا نكذب كـل مقولـة تـذكر أن البيئـة هي التي تؤثر في سلوك الإنسان وسماته الشخصية[1] .

وبنـاء على هـذه الاعتقـادات رحنـا نـدعو إلى ممارسـة كـل الوسـائل حـتى لا يبقى على الأرض إلا العناصـر الصـالحة القويـة، والتي تجعل الإنسان أكثر تطورا ورقيا.

ولأجل تحقيـق هـذا كلفنـا الكثـير من البـاحثين في المجـالات المختلفـة ليمـيزوا بين العناصـر الإنسـانية الصـالحة القويـة، وبين العناصر التي لم تصل بعد إلى المرتبة الإنسانية.

وقد وصلنا إلى الكثير من النتـائج.. وكـان من بينهـا مـا ذكـره بعضــهم، فقــال: (إن للبــالغين الســود جمــاجم طويلــة ،وبشــرة داكنة ،وفكان بارزان بقوة إلى الامام ، فى حين أن لـدى البـالغين البيض ولأطفـال السـود جمـاجم قصـيرة ،وبشـرة فاتحـة، وفكـان صغيران ، ومن ذلك فـإن العـرق الأبيض هـو الأكـثر رقيـا وتطـورا بإعتباره الأكثر احتفاظا بسمات الحدث)

وقــال [هــافلوك إيليس]: (قلمــا يكــون أطفــال العديــد من الأعــراق الإفريقيــة أقــل ذكــاءا من الطفــل الاوروبي ، ولكن فى الـوقت الـذي يكـبر فيـه الإفـريقي يصـبح غبيـا وبليـدا، ويحتفـظ الاوروبي بالكثير من حيويته الطفولية)

لا شك أن هذه الدراسات لم تكن وليـدة تلـك الفـترة فقـط، وإنما كانت وليدة الكبرياء التي رافقت فلاسفتنا وباحثينـا وعلماءنـا في جميع المجالات.. كانت التفرقة بين البشر كالتفرقـة بين الغنم هي الأساس لكل فكر مادي بعيد عن الله.

فقد ميَّز [إرنست رينان] بين الآريين والساميين على أســاس

---

[1] () ذكـر ذلـك بتفصـيل السـير فرانسـيس غـالتون في كتابـه (العبقـري الـوراثي) عـام 1869. و هو عالم بريطاني وأحد أقرباء تشارلز دارون..

لغوي، ثم انتقل من الحديث عن اللغات السامية إلى الحـديث عن الروح السامية والعبقرية السامية مقابـل الـروح الآريـة والعبقريـة الآرية التي هي أيضاً الروح الهيلينية أو النابعة منها [1] .

ثم سـادت الفكـرة العضـوية الخاصـة بالفولـك أو الشـعب العضوي، ومفادها أن لكل أمة عبقريتها الخاصة بها ولكل فـرد في هذه الأمة سمات أزلية يحملهـا عن طريـق الوراثـة، وانتهى الأمـر إلى الحـديث عن تفـوُّق الآريين على (السـاميين) ، هـذا العنصـر الآسيوي المغروس في وسـط أوربـا، كمـا دار الحـديث عن خطـر الروح السامية على المجتمعات الآرية.. مما دفع إلى استعمال كل الوسائل لمحاربتهم.

وكان هذا النوع من العداء يستند إلى نظريـات ذات ديباجـات ومسـوغات علميـة عن الأعـراق عامـة، وعن السـمات السـلبية الافتراضية (الاقتصادية والثقافية) الثابتة والحتميـة للشـعوب الـتي يراد تصنيفها عرقيا.

ضرب بمطرقته على بعض الصـخور، ثم قـال[2]: لقـد كـانت هذه الداروينية الاجتماعية من أهم مصادر الفكر المـادي الإلحـادي الذي انتشر في العالم الغربي.. لقد كـان يتم تـبرير إبـادة الملايين في أفريقيـا واسـتعبادهم في آسـيا على أسـاس أن هـذا جـزء من عبء الرجل الأبيض ومهمته الحضارية، فهو يبيد الملايين ليؤسـس مجتمعات متقدمة متحضرة!

والرجل الأبيض ـ كما تعرفون ـ كان في نظرنا الرجل الأقـوى الذي لا يكترث كثيراً بالخير أو الشر..

ضـرب بمطرقتـه على بعض الصـخور، ثم قـال[3]: بمناسـبة الحديث عن الرجل الأبيض.. فقد قسم الكونت جوبينو البشـر إلى

1() هذه النصوص مقتبسة من [موسوعة اليهودية].

2() هذه النصوص مقتبسة من [موسوعة اليهودية].

3() هذه النصوص مقتبسة من [موسوعة اليهودية].

أعــراق: أبيض (آري) ، وأصــفر، وأســود.. وذهب إلى أن الجنس الآري الأبيض هو مؤسس الحضـارة، وأن السـمات المتفوقـة لهـذا العرْق لايمكن الحفاظ عليها إلا عن طريق النقاء العنصري.. وأكــد أن التيوتونــيين هم أرقى العناصــر الآريــة لأنهم وحــدهم الــذين احتفظوا بنقائهم.

وبناء على هذه الأبحاث، وعنـد حاجتنـا لاستئصـال اليهـود من أوروبا، أو طردهم لأي مكان آخـر في العـالم، رحنـا نلتمس لـذلك كل الذرائع العلمية، وأولها الأبحاث المرتبطة بالأعراق.. فقد كانت [الأبحاث العلمية] هي وسيلتنا لتحقيق كل ما نرغب فيه.

لقد كتبت في سبيل تلك الفكرة الكثير من الأعمـال العرْقيـة المعادية لليهود، ومن أهمها كتاب ولهلم مار [انتصار اليهودية على الألمانيـة: من منظـور غـير ديـني]، وكـان مـار مواطنـاً ألمانيـاً، ثم انضم إلى جماعة فوضوية إلحاديـة في سويسـرا بعـد فشـل ثـورة 1848.

ومن أهم الشخصيات الـتي أضـفت كثـيراً من الاحـترام على النظريات العرْقية المعاديـة لليهـود الموسـيقار الألمـاني ريتشـارد فاجنر.. وكان صديقاً لجوبينو، وتأثر بكتابات مـار. وقـد ذكـر فـاجنر في كتابه [أضـوء على اليهـود]، مصـوراً إيـاهم باعتبـارهم تجسـيداً لقـوة المـال والتجـارة، ومنكـراً علىهم أي إبــداع في الموسـيقى والثقافة.

ثم نشر سلسلة مقالات بعنـوان: (الفن الألمـاني والسياسـة) طـرح فيهـا فكرتـه الخاصـة برسـالة الشـعب الألمـاني (الخـالص) المعاديــة للماديــة الفرنسـية واليهوديــة. وقــد اتهم فــاجنر اليهــود بالهيمنـة على الحيـاة الثقافيـة في ألمانيـا وطـالب بحرمـانهم من حقوقهم السياسية، كما تحدث عن دمار أو إبادة أو اختفاء اليهــود، أي تخليص الحياة الثقافية من اليهود بــالقوة، أو دمجهم تمامـاً عن طريق الفن والموسيقى.

وقد تركت أفكار فاجنر أثـراً عميقـاً في هتلـر، ومن ثم كـانت ذات مكانة خاصة في التجربة النازية.

وكان لإسهام المفكر السياسـي والمستشـرق الألمـاني بـول

أنطون دي لاجارد أبعد الأثر في تضخيم الهالة الثقافية والعلمية حول معاداة اليهود.. حيث كان لاجارد يحن إلى حضارة العصور الوسطى التيوتونية الخالصة (العضوية) ، كما كان يؤمن بالشعب العضوي (الفولك) الألماني وتفوُّقه على الشعوب الأخرى، ويرفض مبدأ المساواة.. وانتهى به المطاف إلى اكتشاف وجود الأممية الرمادية التي استنكرها لأنها تشكل حجر عثرة في سبيل تحقيق خلاص الأمة الجرمانية وأداء رسالتها (نحو العلم)

ومن الشخصيات التي ساهمت في إشاعة هذه الأفكار المعادية لليهود على أساس عرْقي، المؤرخ والسياسي الألماني هنريش فون ترايتشكه الذي كان يُعَدُّ من أهم المفكرين الألمان في عصره، وهو ما أكسب هذه الأفكار قدراً كبيراً من المصداقية والاحترام.

وقد وصف ترايتشكه الهجوم على اليهود بأنه هجوم وحشي، ولكنه رد فعل طبيعي للمشاعر القومية الألمانية ضد عنصر غريب، ثم طرح الشعار المشهور (اليهود مصيبتنا) . وحذر الألمان من التدفق اليهودي من الخزان البولندي، وهو تدفُّق لا ينضب، (جمع من الشباب الطموحين بائعي الملابس القديمة الذين سيسيطر أطفالهم وأطفال أطفالهم يوماً ما على سوق الأوراق المالية والصحف في ألمانيا)

ومن الشخصيات التي أشاعت الفكر العرْقي المعادي لليهود هيوستون ستيوارت تشامبرلين (1855 ـ 1927) ، والذي تأثر بأفكار جوبينو ولاجارد، وألَّف أهم كتب العنصرية الغربية .. وقد آمن تشامبرلين بتفوُّق الإنسان النوردي الأشقر، وبأن قدر التيوتونيين هو قيادة الإنسانية جمعاء، فكل ما هو عظيم في العالم من إبداعهم. وأكد تشامبرلين أن اختلاط الأجناس هو سبب التخلف.

ومن المفكرين الإنجليز الذين بادروا إلى معاداة اليهود، المؤرخ والمصلح التربوي البريطاني جولدوين سميث، فقد نشر عام 1878، مع بدايات هجرة يهود اليديشية من روسيا إلى إنجلترا، عملاً حاول فيه أن يبرهن على استحالة أن يصبح اليهود مواطنين في دول أوربا المضيفة، كما حاول أن يبرهن على أن

وجودهم يشكل خطراً سياسياً على بلده.

ضرب بمطرقته على بعض الصخور، ثم قال: ألا تعجبون من أننا نحن الذين فعلنا ما فعلنا بالعرق اليهودي.. نحن أنفسنا رحنا نتظاهر بأننا بعد أن طردناه من بلادنا، وسمناه كل ألوان الخسف والعذاب.. رحنا ندعي أننا من دعاة حقوق الإنسان، ونطالب بحق اليهودي في أن يقيم دولته على أرض غيره، ويقهرهم بمثل ما قهر.

لقد كانت تصرفاتنا مع اليهود أو الغجر أو المستعمرات مجرد نماذج.. أما الواقع فكان أكبر من ذلك بكثير..وماذا تنتظرون من أمة ملحدة لا تعرف إلها، وليس لها أي قيم إنسانية إلا تلك القيم التي يوحي بها لها الشياطين؟

قال ذلك، ثم انصرف بحزن شديد إلى الصخور يضربها بشدة، وكأنه يضرب نفسه.

فريدرك نيتشة:

ما انتهى سبنسر من حديثه حتى قام رجل قصير جدا.. كان أقصر الأقزام، وكان يحمل مطرقة أضخم منه بكثير، وقد تعجبت في قدرته على حملها.. كان يشبه في ملامحه الفيلسوف المعروف [فريدرك نيتشة[1]]، قام، وقال: من عرفني منكم، فقد عرفني.. ومن لم يعرفني فأنا فريدرك نيتشة.. أنا العاصفة الهوجاء التي أطاحت بكل ما قيل حول الإنسان.. أنا الذي أحدث أكبر قطيعة مع كل الاتجاهات الفكرية والفلسفية سواء في الشكل أو المضمون أو اللغة.. أنا الذي اتهمت سقراط بأنه وراء الكارثة التي حلّت بالحضارة الإنسانية، لاحتكامه إلى العقل وحده.. وأنا الذي اعتبرت التراجيديا الموسيقية وراء فقدان الإنسان سيادته على ذاته برضوخه واستسلامه لقيم وأخلاق

---

[1] () فريديرك نيتشه (1844 ـ 1900م) فيلسوف ألماني، عالم نفس، وعالم لغويات، تميز بشخصية عدوانية جداً، و كونه ناقدا حادّا للمبادئ الأخلاقية،و النفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُموماً.. وفي مجال الفلسفة والأدب، يعتبر نيتشه في أغلب الأحيان إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة. روج لأفكار اللاعقلانية والعدمية، واستخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل إيديولوجيي الفاشية.

وعقائد كبلته وأفقدته حريته..

أنا العدو اللدود للمسيحية على الرغم من أنني ابن قس بروتستانتي.. أنا الذي قلت بأن المسيحية عبارة عن مجموعة أساطير الشعب اليهودي.. بل قلت بأن المسيحية أذلت الإنسان بعد ما أقامت عقائدها على بقايا تصورات بالية ومتناقضة حول العالم..

أنا الذي قلت في (هكذا تكلم زرادشت):(لقد مات الإله و نحن الذين قتلناه).. وأنا الذي قلت:(كل الأشياء خاضعة للتأويل، وأيا كان التأويل فهو عمل القوة لا الحقيقة).. وأنا الذي قلت:(كل المصداقية وكل الضمير وكل أدلة الحقيقة تأتي من الحواس فقط)..

أنا الذي قلت مخاطبا أختي: (إذا ما مت يا أختاه لا تجعلي أحد القساوسة يتلو علي بعض الترهات في لحظة لا أستطيع في الدفاع عن نفسي)[1].. وأنا الذي قلت:(أشعر أن علي أن أغسل يدي كلما سلمت على إنسان متدين)..

وأنا الذي قلت على لسان (زرادشت): (إذا كان هنالك آلهة، فكيف أطيق أن لا أكون إلهاً؟ وإذن فلا آلهة هناك).. وقلت: (لقد ماتت الآلهة جميعاً، ونريد الآن أن يعيش السوبرمان)

وأنا الذي قلت: (إني أهيب بكم يا إخواني أن تخلصوا عهدكم للأرض، وأن لا تصدّقوا من يحدثونكم عن أملٍ سماوي، إنهم ينفثون فيكم السم بذلك، سواءٌ أعلموا بذلك أم لم يعلموا)

وأنا الذي قلت: (ليس بعد الموت شيء.. وما بعد الموت لا يعنينا بعد)، وقلت: إن القوة هي كل شيء.. ولذلك فإنا أدعو إلى الموت الإرادي.. وأنا من الداعين إلى الانتحار حينما يكون الوقت مناسباً لاختيار الموت.. فمتى وجد الإنسان أن الحياة لم يَعُد لها هدف لديه، فأحسن خيار له هو أن يسلم نفسه لرحى الموت.. لقد قلت على على لسان (زرادشت): (كثير من الناس يموتون في وقت متأخر جداً، وبعضهم يموتون في وقت مبكر جداً، ولا زال هذا القول: (مت في الوقت المناسب) يبدو غريباً)

---

[1] () لكن أمنيته لم تتحقق، اذ تلى عليه القساوسة في ساعة دفنه.

وقلت: القوة هي الفضيلة العظمى الـتي تجكم الوجـود.. بـل هي الفضيلة الوحيدة.. ولـذلك لا أدعـو إلا إلى القـوة.. القـوة وحـدها دون الرحمة والشفقة هي محور الأخلاق.. ولذلك فأنا (فيلسـوف القـوة).. لقد كنت أردد دائما: (الخير هو كل ما يزيد الشعور بـالقوة، هـو إرادة القوة، هو القوة نفسها.. والشـر هـو كـل مـا ينشـأ عن الضـعف، هـو الضعف)

وقلت: إن كان مذهب النشوء والارتقاء يذكر أن كل صـنف يخلـق صنفاً أرقى منه.. فأنا أدعو الإنسان لأن لا يتوقـف عنـد الإنسـان.. أنـا أدعوه ليضحي بالإنسان.. ليصـل إلى (السـوبرمان).. ذلـك الإنسـان الأعلى والأرقى.. والذي يضحي بالإنسان البسيط كمـا نضـحي بـالغنم والماعز والخنازير.

لقـد كنت أصـيح في الجمـاهير المحيطـة بي .. وكلهم متجـبرون أقوياء: إنني أدعوكم ـ يامن تسميتم باسـم الإنسـان ــ إلى أن تخلعـوا الإنسان.. وتلبسوا الإنسان الأعلى.. فإن الإنسان شيء يجب أن يُعلى عليه.. فماذا عملتم من أجل العلاء عليه؟

إن كل الكائنات حتى الآن قد خلقت شيئاً أعلى منها، فهل تريدون أنتم أن تكونوا جزراً لهذا المد العظيم، وتفضلوا الرجوع إلى الحيوانية على العلاء على الإنسانية؟!

ضرب بمطرقته على بعض الصخور، ثم قال: هل فهمتم فلسفتي .. إنهـا تعتـبر الغايـة من الإنسـانية هي خلـق هـذا الإنسـان الأعلى.. السوبرمان.. وهو لا علاقة له بأي شخص.. ولا بأي وطن.. ولا بأي نوع من أنواع الشفقة والعطف.. هو فوق كل قيمة.. وفـوق كـل قـانون.. وفوق كل ما يعتقـده عامـة النـاس.. ولا يعنيـه قـول النـاس عن هـذا الشيء: إنه خير، أو قالوا عن الآخر: إنه شر.. لأن مهمته أن يكون هو خالقاً للقيم، يضع للأشياء من القيم مـا يريـد، ممـا يـؤدي إلى تحقيـق الغاية من الإنسانية.. فهو حرٌّ في أن يضـع شـرعة القيم الـتي يرتئيهـا في الأخلاق، والسياسة، والفلسفة، وغير ذلك.

هذا ما كنت أردده في كل المجالس.. ليس ذلك فقـط.. بـل كنت أقول لهم: إن هذا الإنسان الأعلى هـو الـذي يحـدد معتقـدات العصـر بأكمله.. وهو الذي يعطي للحضارة صـورتها.. وهـو الـذي يخلـق القيم في حرية تامة، غير آبه لما يسمى بالخير والشر، أو الحـق والباطـل.. فهو كـل شـيء، يخلُـق الأخلاق، ويحـدّد الحـق بإرادتـه، ويفـرض على الناس ما يضـع لهم من قيم فرضـاً، وليس عليهم هم إلا أن يطيعـوه، فالطاعة أولى فضائل الذين ليسوا هم من طبقة الإنسان الأعلى.

ولهذا كله أعلنت موت الإله.. فقد وجدت أن الإله هو الوحيد الذي يحول بيننا وبين هذا الترقي.. ولذلك أردت أن أجعل من السوبرمان هو الإله..

قال ذلك، ثم انصرف بحزن شديد إلى الصخور يضربها بشدة، وكأنه يضرب نفسه.

آدولف هتلر:

ما انتهى نيتشة من حديثه حتى قام رجل في مثل قصره.. كان يحمل مطرقة مثل مطرقته.. كان يشبه في ملامحه الطاغية الكبير [آدولف هتلر(1)]، وقد تعجبت من وجوده في ذلك المحل الذي لم يكن فيه إلا الفلاسفة والمفكرين، قام، وقال: لا شك أن العالم جميعا يعرفني.. فلا حاجة لأن أذكر لكم اسمي الذي عشت عمري جميعا أعبده، وأطلب من البشر أن يعبدوه.. وفي سبيل ذلك ألغيت الله من وجودي، ودعوت إلى إلغائه.. ولذلك ترونني الآن بينكم.. نعم أنا لست فيلسوفا.. ولكني كنت تلاميذ للفلاسفة..

كنت تلميذا مخلصا لفريدرك نيتشة.. العاصفة الهوجاء.. وقد استفدت منه كل معاني القوة والجبروت والعنصرية. لقد تشبعت بأفكاره وكتاباته.. وكان أهمها عندي مقولة [لقد مات الله]، وفكرة [الإنسان السوبرمان].. لقد اقتنعت بهذه الفكرة، فرحت أشعل العالم كله بالحروب.. وأنا غارق في أحلام العظمة والسوبرمان..

وكنت تلميذا نجيبا لدارون وجميع التطوريين، وخاصة الملاحدة منهم، وقد ملأ عقلي ذلك بفكرة الصراع بين الأجناس مقتنعًا بأن البقاء للأصلح، حتى أنني طالبت بإبادة الضعفاء حتى يكون المجتمع أصح وأفضل وأقوى مما هو عليه.

بل طالبت بإعدام السلالات الضعيفة من البشر، واستيلاد

1()فريدريك نيتشه (1844 ـ 1900م) فيلسوف ألماني، عالم نفس، وعالم لغويات، تميز بشخصية عدوانية جداً، و كونه ناقدا حادّا للمبادئ الأخلاقية،و النفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُموماً.. وفي مجال الفلسفة والأدب، يعتبر نيتشه في أغلب الأحيان إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة. روج لأفكار اللاعقلانية والعدمية، واستخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل إيديولوجيي الفاشية.

سلالات قوية بدلها.. لقد ذكر ذلك المؤرخ [هيكمان]، فقال عني: (لقد كان مؤمنًا راسخًا بالتطوُّر ومبشرًا به، وأيًّا كانت عقده النفسية الأعمق والأغوص، فأنه من المؤكد أن فكرة الصراع كانت مهمة بالنسبة له، لأن في كتاب [كفاحي] بيَّن بوضوح عددًا من الأفكار التطوُّريَّة، وخاصة تلك التي تؤكد على الصراع، والبقاء للأصلح، وإبادة الضعفاء لإنتاج مجتمع أفضل)[1]

وكنت تلميذا للفيلسوف الوجودي [مارتن هايدجر]، والذي كان يستعمل كل أساليبه في الخداع الفلسفي ليحرض الجامعة الألمانية على أن تخوض غمار حرب حاسمة بروح (النازية) التي يجب إلا تخنقها أية نزعات إنسانية أو مفاهيم مسيحية [2] .

وهو الذي أوحى إلي، وإلى جميع النازيين بتبني الحل الصهيوني للمسألة اليهودية، إذ كان يرى ضرورة توطين اليهود في فلسطين، أو أي مكان آخر خارج ألمانيا وأوربا.

ولذلك كان أصحابي من النازيين يعتبرونه فيلسوفهم.. بل إنه لم يكتف بأن يطرح فلسفته النازية في كتبه، وإنما راح يتخلى عن وقار الفيلسوف لينضم إلى الحزب النازي عام 1933، وكان من أعز أصدقائه بيوجين فيشر، الذي سأترك له المجال بعدي ليحدثكم عن نفسه، فخير من تحدث عن الإنسان لسانه.

ضرب بمطرقته على بعض الصخور، ثم قال: دعوني أحدثكم عن نفسي، وعن إنجازاتي، أما الفلاسفة الذين تتلمذت عليهم، والذين جرعوني الإلحاد، فسيحدثونكم بألسنتهم، وإن لم تجدوهم هنا، فستجدونهم في أي محل آخر من هذا الفندق اللعين الذي ظللنا حياتنا كلها نبنيه.

لعلكم تعرفون أن مشروعي الأكبر كان هو [الإبادة النازية]، والتي تعتبرونها نموذجا للظلم والاستبداد.. ولكنكم تنسون أن تعتبروها نتيجة طبيعية للإلحاد والغفلة عن الله.. فلو كان الله

1() أورده هارون يحيى، خديعة التطوُّر ص 11.

2() هذا الكلام وما بعده مقتبس بتصرف من موسوعة اليهود واليهودية للمسيري.

موجـودا في قلوبنـا وعقولنـا وضـمائرنا مـا حصـلت منـا كـل تلـك الجرائم.. فالإلحاد هو أم الخطايا وأبوها وسيدها.

سكت قليلا، ثم قال[1]: ويلي من الغجر.. ماذا فعلت بأولئــك البســطاء المســاكين.. لقــد كــانوا من الشــعوب الــتي شــملتهم عنصــريتي وكبريــائي.. فــرحت أبيــدهم ـــ مــع أصــحابي النــازيين الملاحدة ـ بكل ما أتاحت لنا وسائلنا من قدرات على الإبادة.

أتذكر جيدا أنه كان لدى شرطة إقليم بافاريـا الألمـاني قسـمٌ خاص بشئون الغجـر يتلقى نسـخاً من قـرارات المحـاكم المكلّفـة بالبت في المخالفات التي يرتكبها الغجـر.. ثم تحـوَّل هـذا القسـم إلى مركـز وطـني مقـره ميونيــخ، وحُظـر على الغــجر منـذ ذلـك التاريخ التنقـل بـدون تصـريح الشـرطة، وكـان الغجـر الـذين يزيـد أعمارهم على السادسة عشـرة ولا يعملـون يُجـبرون على العمـل لمــدة ســنتين في مركــز من مراكــز التأهيــل.. وابتــداءً من عــام 1933، أي تــاريخ وصــولي إلى الحكم، زادت تلــك القيــود شــدة وصرامة، وطُرد الغجـر الـذين لا يحملـون الجنسـية الألمانيـة، وزُجّ بالباقين في المعتقلات بحجة أنهم (غير اجتماعيين)

ثم بدأ الاهتمام بالبحث في الخصائص العِرقية للغجر، فـأعلن الدكتور هانز جلوبكه ـــ وهـو أحـد المسـاهمين في صـياغة قـوانين نورمبرج ـ عام 1936 ـ أن الدم الذي يجري في عروق الغجر (دم أجنبي)، ثم صنَّفهم الأستاذ هانز ف. حينثر في فئـة مسـتقلة تمثـل مزيجاً عرْقياً غير محدَّد، إذ لم يسـتطع نفي أصـلهم الآري.. وبلغت الخصائص العرْقية لدى الغجر من الأهمية درجـة أهلتهـا لأن تصـلح موضـوعاً لرسـالة دكتـوراه، وممـا قالتـه إيفـا جوسـتين مسـاعدة الـدكتور ريتّـر في قسـم الأبحـاث العِرقيـة بـوزارة الصـحة (عنـد مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري (يُشكِّل خطراً بالغاً على صــفاء الجنس الألماني)

ووجَّه طبيب يُدعَى الدكتور بورتشي مـذكرة إلي يقـترح فيهـا فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمـهم بالجملـة نظـراً لأنهم (يُشكِّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان)

[1] المادة العلمية في هذا المحل مقتبسة من: الموسوعة اليهودية، للمسيري.

وفي 14 ديسمبر عام 1936، صدر قرار أدى إلى تفاقم أوضاع الغجر إذ وصمهم بأنهم (مجرمون معتادون على الإجرام)، وفي نهاية عام 1937 وخلال عام 1938 شُنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد الغجر، وخُصِّص لهم جناح في معتقل بوخنولد.. وفي رافنسبروك، راحت كثيرات من نساء الغجر ضحايا لتجارب أطباء الشرطة العسكرية الهتلرية الإس. إس.

وفي عام 1938، أصدرت بنفسي أمراً بنقل مقر المركز الوطني لشئون الغجر إلى برلين، وفي السنة نفسها اعتُقل ثلاثمائة غجري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويرت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم.. وقد أمرت حينها بتصنيف الغجر في الفئات التالية: غجري صرف، وخلاسي يغلب عليه العِرْق الغجري، وخلاسي يغلب عليه العِرْق الآري، وخلاسي يتساوى فيه العرْقان الغجري والآري.

لم أكتف بذلك.. بل رحت أستعمل كل الوسائل لإبادة هذا الشعب المسكين.. من ذلك مثلا أني كنت أدعو إلى إزالة القدرة على الإنجاب.. ومنها اختطاف الأطفال.. ومنها الإبادة عن طريق الزج في المعتقلات.. ومنها الإبادة عن طريق الإفناء.

لقد عُقِّمت في مستشفى برسلدورف ــ لبيرنفلد نساء غجريات متزوجات من غير الغجر، ومات بعضهن على أثر تعقيمهن وهنَّ حوامل، وفي رافنسبروك، قام أطباء الإس. إس. بتعقيم مائة وعشرين فتاة غجرية صغيرة.

وكان من أمثلة الإبادة الجماعية عن طريق الاعتقال ترحيل خمسة آلاف غجري من ألمانيا إلى جيتو لودز في بولندا، وكانت ظروف المعيشة في هذا الجيتو من الفظاعة بحيث لم ينج أحد من هؤلاء الغجر من الهلاك.

ومع ذلك فإن الطريقة التي أؤثرها، ويؤثرها أصدقائي الملحدين المشبعين بالفكر النازي هي طريقة الإفناء المباشر.. وقد اتخذت قرار إبادة الغجر بالإفناء في ربيع عام 1941 عندما شُكِّل ما عُرف باسم (فرق الإعدام)، ولكي يتحقق ذلك كان يتعيَّن جمع الغجر في أماكن محددة.. ثم جاءت القرارات تحظر عليهم

ترك منازلهم.. ثم رُحل ثلاثون ألف غجري إلى بولندا فلاقوا حتفهم في معتقلات الموت في بلزك وتربلينكا وسوبيبور ومايدانك، شأنهم شأن آلاف آخرين رُحلوا من بلجيكا وهولندا وفرنسا إلى معتقل أوشفيتس.

وفي بولندا، كان الغجر يُقتلون في معسكرات الموت أو يُعدمون في البراري.. وامتد نطاق القتل إلى الاتحاد السوفيتي عندما اندلعت نيران الحرب بين الألمان والسوفييت، فكانت فرق الإعدام التابعة للإس. إس. تسير مع الجيوش الألمانية، وكانت القبور الجماعية تملأ مناطق البلطيق وأوكرانيا والقرم.. وفي ليلة 24 ديسمبر 1941 أُعدم رمياً بالرصاص في سيمفيروبول ثمانمائة غجري من الرجال والنساء والأطفال.. وحينما زحفت الجيوش النازية، كان الغجر يُعتقلون أو يُرحلون إلى المعسكرات أو يُقتلون.. وفي يوغسلافيا، كان الغجر واليهود يُعدمون في غابة باجنيس.

ضرب بمطرقته قليلا، ثم قال: اضرب يا هتلر على الصخر.. وعش حياتك قزما، فهذا مصيرك المناسب لك.. وانتظر ذلك اليوم الذي تطالبك فيه كل تلك الشعوب بحقوقها.. فالله العادل لن يضيع عنده حق.

قال ذلك، ثم انصرف بحزن شديد إلى الصخور يضربها بشدة، وكأنه يضرب نفسه.

أدولف أيخمان:

ما انتهى هتلر من حديثه حتى قام رجل يرتدي ثيابا عسكرية.. وكان يحمل مطرقة مثل مطرقة زملائه في الجناح.. وكان يشبه في ملامحه ذلك العسكري النازي المشهور بمذابحه في الفترة النازية [أدولف أيخمان[1]]، وقد تعجبت من وجوده في

---

[1] أدولف أيخمان [1906 -1962] أحد المسؤولين الكبار في الرايخ الثالث، وضابط في القوات الخاصة الألمانية أو ما تعرف بقوات العاصفة، تعود إليه مسؤولية الترتيبات اللوجستية كرئيس جهاز البوليس السري جيستابو في إعداد مستلزمات المدنيين في معسكرات الاعتقال وإبادتهم فيما يعرف آنذاك في الحل الأخير.

ذلك المحل الذي لم يكن فيه إلا الفلاسفة والمفكرين، قام، وقال(2): أنا [أدولف أيخمان].. أنا الثمرة الكبرى لأفكار كل الفلاسفة الذين مجدوا الإنسان، وعزلوا الرحمن.. أنا النتاج الحقيقي لتلاقح الإنسان الهارب من الله مع الشيطان المتمرد على الله.. أنا ثمرة الخطيئة الكبرى للفلسفة التنويرية والتطورية والعلمانية الوضعية وكل الفلسفات البشرية.. أنا ثمرة الإلحاد.

أنا ابن للعلمانية .. والإمبريالية .. والعرقية المادية .. والبيولوجية الداروينية.. واليد الخفية عند آدم سميث .. والمنفعة عند بنتام .. ووسائل الإنتاج عند ماركس.. والجنس عند فرويد.. وإرادة القوة عند نيتشه.. وقانون البقاء عند داروين.. و الطفرة الحيوية عند برجسون.. والروح المطلقة عند هيجل.. أنا ابن لهؤلاء جميعا، وثمرة طبيعية لأفكارهم وإلحادهم وكبريائهم وغرورهم.

أنا الذي كنت أصيح مع النيتشويين: بعد موت الإله لا داعي للتمَحُكِ في ظلاله كما يقول نبينا نيتشه.. بعد موت الإله لا داعي للقول بالأخلاق أو المساواة بين البشر أو القيم أو الغائيات..

لذلك لا تتعجبوا من تبريري لكل الجرائم التي ارتكبتها في الفترة التي أتيح لي أن أمارس فيها دوري كملحد.. يعبد الوطن أكثر مما يعبد الله.. بل إنه يقتل الله لأجل الحفاظ على الوطن.. لقد ذكرت في الدفاع عن نفسي (أنني مواطن صالح يتبع تعليمات الدولة العليا)

لقد قلت في رسالتي الأخيرة للبشرية، وفي تبريراتي التي سمعها الملايين وتعجبوا منها، لكنهم لم يتعجبوا من الفلاسفة الذين طروحها، والذين لا يزالون يتحدثون عنهم بهالة كبيرة من التعظيم، بل يدرسون كتبهم للأجيال.

اسمحوا لي في هذه اللحظات أن أصب جام غضبي عليهم.. فبسببهم تحولت إلى هذا القزم اللعين الذي لا هم له إلا تحطيم الصخور.. لأن قلبي تحول إلى صخر.. ولا ينفعني إلا أن أحطمه كما تحطم الصخور.

---

(2) استفدنا المادة العلمية الواردة هنا من كتب د.عبد الوهاب المسيري، وخاصةً كتاب [العلمانية الجزئية العلمانية الشاملة]

لقد قلت في تبريراتي أمام المحكمة: ما دمت مواطنا صالحا.. فإن مقتضى التعليمات التي لقنني إياها فلاسفتكم ومفكروكم أن أخضع لتعليمات الدولة.. وتعليمات الدولة أمرت في ذلك الحين: أن نقلع النباتات المريضة، ونقوم بإبادتها كما تمت إبادة ملايين اليهود والغجر، فالولاء للوطن هو الذي حل محل الولاء لله.

وقلت: أليست الدولة العلمانية هي التي حلت محل الدين كما يقرر فلاسفتكم ومفكروكم.. وهي التي أصبح لها الحق في تحديد الإطار الإجتماعي والأخلاقي الذي على المواطنين أن يسيروا في حلقته؟

أليست هي التي تسببت في تآكل الدعائم الأخلاقية والثقافية، وظهرت بدلاً عنها ثقافة المجتمع وأخلاقيات المجتمع.. وظهرت النُخب الفاسدة التي لا تحقق ثروتها بفضل استثمارها بقدر ما تحققه بقدر استغلالها وانتهازيتها؟

إن هذه الدولة والفلسفة التي تقف وراءها هي التي صنعتني.. وصنعني معها الإعلام المزخرف والمواكب البهية والتشريفات العالية.. لذلك لا تلوموني ولوموا مناهجكم وأفكاركم وفلسفاتكم الغارقة في المادية.

وقلت: في صغري لم أكن بتلك القسوة التي تحولت إليها، كنت إنسانا طبيعيا رحيما ممتلئا بالمشاعر الإنسانية.. لكن كل ذلك الركام من الأفكار الذي تنشره الجامعات ووسائل الإعلام سلب مني إنسانيتي.. وحولني إلى صخرة بشرية.. لقد صارت الطبيعة بدل الله هي الأساس، ومنها المبدأ وإليها المآل، وبذلك تم تهميش الإنسان في ذاتي، بل تم تصفيته وسقطت مثل الجميع في أحضان المادية.. حيث لا مُطلقات ولا مرجعيات ولا خطوط حمراء.

وقلت: كيف تطلبون مني في إطار المادة العقلانية أن أفرق بين ما هو أخلاقي وبين ما هو غير أخلاقي؟ .. فالعقل ــ كما تذكرون ـ لا يُشع نوراً، وإنما هو مجرد موصل جيد للنور أو الظلام، فمرجعيته النهائية هي الطبيعة .

وقلت: ماذا لو أثبت أحدُ العلمانيين أنـه من المُجْـدِي القضـاء على العجزة والمعاقين والأقزام باعتبـارهم فائضـا بشـريا لا قيمـة مادية منه مثلما فعل صديقي هتلر؟

ألا تسعون حينها إلى تحديد النسـل من خلال إبـادة المرضـى المزمنين؟.. إن إبـادة مثـل هـؤلاء أمـرٌ مُسـتوعَبٌ داخـلَ النمـوذج العلماني، فالمرجعية هي الطبيعة والطبيعة لا تحابي أحدًا.

ولهـذا عنـدما شـببت عن الطـوق، ورأيت بعيـني كيـف كـان الأطباء يطبقون تعليمات الفلاسفة بكـل دقـة تحـولت إلى صـخرة صماء، لا عاطفة فيها، ولا قلب لها.

أذكر جيدا أني حضرت مجلسا لعالم لألماني مشبع بالفلسـفة المادية .. كان يضع الطفل التوأم وشقيقه في حجرتين منفصلتين، ويجرى على أحدهما تجارب ليرى مدى تأثر الآخر، فيُعرض أحدهما للتسخين أو التبريد أو التعذيب أو الموت..

وقلت: لقد أصبح سهلا على الإنسان في هـذا العـالم المـادي إغـراؤه بـأن مـا يـرغب فيـه قـرارٌ حـرٌّ نـابعٌ من داخلـه، لكنـه في الحقيقة ليس كذلك، بل هو أسير لمئات الإعلانات التي ولَّدت لديه قراراته.. ماذا لو تم إجماع الأغلبية على إبـادة الأقليـة؟.. مـاذا لـو أجمعت الشـعوب الأوربيـة على اسـتعمار الـدول الفقـيرة ونهب ثرواتها؟.. أليس هذا قراراً ديموقراطيًا نابع عن إرادة الشعب؟

ضرب بمطرقته على بعض الصخور، ثم قـال: أذكـر جيـدا أن مؤسسة الإبادة في الدولة النازية كانت تُسـمى [مؤسسـة تـدعيم القومية الألمانية].. ومن خلال هذه المؤسسة المادية ذات الكفاءة المثالية كـان يتم عمـل خـط التجميـع للمسـاجين، ويتم اعطـاؤهم أرقامـاً ثم فـرزهم ثم إدخـالهم أفـران الغـاز، ليحـترقوا بمنتهى الكفاءة والمثالية..

كان الفرز يتم بمنتهى الكفاءة، فمَن هو صالح للاستخدام يتم إيداعه في المصـانع العملاقـة للإنتـاج الضـخم بأقـل من الكفـاف، وغير الصالح للاسـتخدام يـدخل أفـران الغـاز بمنتهى الحياديـة، ولا يستطيع باحثٌ بعيداً عن المعايير الاخلاقيـة أن ينكـر مـدى التقـدم الرهيب الذي أحرزته الفترة النازية في كافـة العلـوم، وكم الإنتـاج

منقطع النظير الذي زوّد النازي بالسلاح والذخيرة والطعام أثناء الحرب الطويلة.

وعندما دخل الألمان شبه جزيرة القرم وجدوا اليهود القراءين، فتم تشكيل لجنة بمنتهى الحيادية لمعرفة مدى جدوى استخدامهم أم حرقهم فتبين أنهم أكفاء وبالتالي تم تأجيل قرار إبادتهم .

وفي مؤتمر فانسي الذي عُقد عام 1942 تم تقسيم ضحايا النازية إلى أربعة أقسام: القسم الأول مَن ستتم إبادته على الفور، والثاني من تتم إبادته من خلال الجوع، والثالث الذي سيتم تعقيمه، أما الرابع فيتم دمجه في المجتمع الألماني، وجرى الحديث عن إبادة المعاقين باعتباره نوعاً من الصحة العرقية وعلاج الأمراض الوراثية الخطيرة، والعملية كلها كانت عملية تطهير للجنس الألماني لا أكثر، فإبادة البشر عملية مجردة تماماً وترشيدية داخل المنظومة العلمانية الحيادية .

وفي عام 1933 صدر قانون التعقيم لمنع المرضى من التكاثر، وتم إصدار قرار منع إقامة علاقات بين اليهود والجنس الآري الراقي، وطُلب من كل طبيب أن يبلغ عن كل مولودٍ جديدٍ مُعوَّق، وبدأت عمليات القتل الرحيم، وقُتل بالفعل 70 ألف معاق وعاجز لسبب بسيط، وهو أنهم يأكلون ولا ينتجون.. وقد ذكرت الإحصاءات الألمانية حينها بأن مقتل هؤلاء أدى إلى توفير 239 طن من المربى في عام واحد فقط.

ضرب بمطرقته على بعض الصخور، ثم قال: كان من أصدقائي في تلك الفترة الدكتور [هانس إيسيل]، هو الآن موجود بيننا، لكنه مشغول بقطع الصخور، ولا يستطيع أن يتكلم أبدا.. لقد قام بعمل تجارب طبية على المعتقلين في منتهى الغرابة، مثل تعريضهم لغرف تفريغ الهواء لمعرفة كم يستطيع الإنسان أن يمكث حتى يموت.. وتعريضهم لغازات سامة لمعرفة مدى فاعليتها والتركيزات المطلوبة لإحداث الوفاة.. وقام بعمليات جراحية بدون تخدير لمعرفة درجات الألم ومسارات الأعصاب.. وقد وفّرت الفترة النازية كمية عملاقة من المعلومات الطبية في كافة المجالات.

ومثله كان الدكتور [راشر] ـ الموجود بيننا، والممتنع هو الآخر من الحديث ـ يُعرض مرضاه للتجميد لمعرفة الفترة التي بعدها يموت الإنسان ودرجة التجمد الكافية للموت، وكان أسلوب عمله هو تجميد السجناء تدريجياً مع متابعة النبض والتنفس والحرارة وضغط الدم بانتظام، وقد مات أغلب من تمت التجارب عليهم، والباقون أصيبوا بلوثات عقلية وتمت إبادتهم بعد ذلك.

وهكذا أجرى بعض أصدقائي تجارب زرع الغرغرينة في الجروح، كما تم الحَقن بالميكروبات لمعرفة الأسرع فتكاً.

ضرب بمطرقته على بعض الصخور، ثم قال: لقد كان من نتائج تأثري وتأثر زملائي بالداروينية الطبيعية والاجتماعية أن أصبح الإنسان عندنا ليس سوى شيء من الأشياء.. لقد ظهر بلا أي مرجعية عُليا.. ظهر ضائعاً في هذا العالم؛ فهو نتاج تطور، وبداية هذا التطور كانت داخل مستنقع، وهذا التطور لن يقف عند الإنسان، بل هو مستمرٌ وغيرُ متوقف.

لقد أصبح الإنسان وفق هذا المنظور لا يختلف عن الأميبا، ولا يتمتع بأي حرية أو أعباء أخلاقية، لأن القانون الأخلاقي مجردُ تطور؛ ولذا فهو نسبي وقتي، فلا يوجد فارق بين مجموعة قتلة مجرمين، وبين ذئاب يخطفون شاة ..

البقاء أصبح هو القيمة الوحيدة.. والصراع هو الآلية.. والعالم ما هو إلا حربُ الجميع ضد الجميع، ومهما تطورت الكائنات فلن تنتج فكراً متجاوزاً.

ولهذا بررت الداروينية المشروع الإمبريالي، والمشروع النازي، وأراحت مجرمي الحروب من أي أعباء أخلاقية.

ضرب بمطرقته على بعض الصخور، ثم قال: لست أنا وحدي الذي كنت أمارس الإجرام.. بل كلهم مارسه.. حتى الذين حاكموني مارسوه بأبشع الأشكال.. لأن نجاح الدولة عندهم كان مرتبطاً أساساً بمدى النهب الذي مارسوه أثناء الحقبة الاستعمارية.. فتراكم الثروات الرأسمالية هو تراكم إمبريالي استعماري في الأساس.

لقد قررت كل تلك الدول الظالمة التي تدعي أنها تحافظ على حقوق الإنسان، أن تضع نفسها فوق الجميع، فتقوم بغزو الآخر والاستيلاء على أرضه واستباحته ما دام ذلك في صالح مقدرات الدولة العليا.

لا تتصوروا أن ذلك كان مرحلة من مراحلها، وأنها تابت وعادت إلى وعيها.. كلا.. ليس ذلك كذلك .. بل إنها غيرت استراتيجية المعركة فقط بعد أن أدركت أن المواجهة العسكرية مع الدول الفقيرة لنهب الثروات صارت مكلفة ومرهقة بعد انتشار وسائل الإعلام والهزائم المتتالية.. فقررت أن تلجأ إلى التفكيك، وتصدير المادية إلى النخب المثقفة، وتدويل الشركات عابرة القارات، وتدجين المثقفين من خلال ندوات تُنفق عليها الملايين، وأندية الروتاري والليونز حيث يتم استئناس النخب المثقفة، لاستعمار البلاد من خلالهم.

ضرب بمطرقته قليلا، ثم قال: اضرب يا أدولف على الصخر.. وعش حياتك قزما، فهذا مصيرك المناسب لك.. وانتظر ذلك اليوم الذي تطالبك فيه كل أصحاب تلك الدماء التي أسلتها.. فالله العادل لن يضيع عنده حق.

قال ذلك، ثم انصرف بحزن شديد إلى الصخور يضربها بشدة، وكأنه يضرب نفسه.

***

بينما أنا في قمة استغراقي في تلك المشاهدات العجيبة لهؤلاء الملاحدة المتجبرين، نبهني صاحبي المرشد، وقال لي: أظن أن ما سمعته هنا من اعترافات يكفي.. فهلم بنا إلى جناح آخر.. لترى أهله وتعرف أسرار إلحادهم.

سرنا إلى الجناح السابع في فندق الملاحـدة، وقـد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْـقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: 51]

سألت المرشد عن الآية، وعلاقتهـا بهـذا الجنـاح، فقـال: هـذا جناح الطبائعيين..

قلت: الطبائعيون.. أتقصد أولئـك الـذين يـذكرون بـأن العـالم وجد بفعل (الطبيعة) ، أي أن ذوات الأشياء؛ من نبات ، أو حيوان ، أو جماد ، وخصائصها ، أوجدت نفسها ، وحركاتها بنفسها، من غـير تدخل طرف خارجي أجنبي عنها.

قال: أجل.. أولئك الذين قال اللـه تعـالى تعـالى لهم متحـديا: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35]

قلت: صـدق اللـه العظيم.. فمـا تـرك القـرآن من شـيء إلا ذكره.. ولكن لم سموا الطبـائعيين.. وهـل هنـاك فـرق بينهم وبين الصدفيين القائلين بأن الخلق تم عن طريق المصـادفة المحضـة.. أي أن الــذرات ، والجزيئــات تجمعت عن طريــق الصــدفة.. ثم تكونت المادة.. ثم ظهرت الحياة ، وتكونت المخلوقـات المتنوعـة بلا تدبير ولا إحكام مسبق..

قال: كلاهما شيء واحد.. وكلاهمـا هـارب من ربـه مستسـلم لهـــواه .. يبحث عن أي علـــة تبعـــده عن الـــدين، وتقربـــه من الشياطين.. كما قال تعالى: ﴿اسْـتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّـيْطَانُ فَأَنْسَـاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: 19]، فهؤلاء كذلك استحوذ عليهم الشيطان، فأبدلهم ذكر الله بذكر الطبيعة، وأبدلهم ذكر العنايـة الإلهيـة بـذكر الصدفة العبثية.

قلت: ولكن ما علاقة الآية الكريمة المعلقة على الباب بهذا؟

قال: لأن هؤلاء الطبائعيين سواء كانوا من القـائلين بالطبيعـة المحضة، وأنها الخالق المـدبر، أو القـائلين بالصـدفة، دخـل عليهم

الشيطان أثناء بحثهم عن سر الخلق، وكيف بدأ، ومن قام به؟ ولذلك طلبت الآية الكريمة من هؤلاء أن يعودوا إلى رشدهم ووعيهم، فهم لم يحضروا ساعة خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم، فمن أين لهم الحديث في هذا؟

قلت: ذكرتني بطرفة تروى عن الشّعبي، فقد جاءه رجل، فقال: يا إمام إني خبأت لك أسئلة ــ يقصد التحدي ــ فقال له الشعبي: هاتها.. فقال: يا إمام ما اسم زوجة ابليس؟ فقال الشعبي: ذاك عرس لم أشهده.

قال: ليت هؤلاء أجابوه بما أجاب به الشعبي.. فمن أين للعقول أن تتكهن بما لا تعلم؟

قلت: صدقت.. وقد تعجبت في بحث هؤلاء في مثل هذه المسائل التي خلطوا فيها بين العلم والفلسفة والدين .. مع أنهم يذكرون أن العلوم لا تدرس سوى ما يتعلق بالمادة الجامدة أو الحية وحركتها، والطاقة وأنواعها، وتحاول أن تفهم الظواهر المرتبطة بها، والقوى المؤثرة في سيرها، وصياغة المعرفة في قوانين دقيقة مضبوطة.

قال: ولكن الشيطان لم يدعهم دون أن يفتهم عن عقولهم ودينهم.. ولذلك أضاف لتلك المعاني العلمية فضولا لا دليل عليه سوى الهوى المجرد.. وهو محاولة التعرف على حقيقة الكون ومصدره وصيروته وغيرها من غير أن تكون لديهم الأدوات الكفيلة بذلك.

قلت: صدقت في هذا.. ولهذا أرى الباحثين في هذا مع اتفاقهم على أكثر الحقائق العلمية يختلفون في مثل هذه المسائل.. وهذا دليل على أنه لا علاقة لها بالنتائج العلمية التي وصلوا إليها، وإنما هي متعلقة بأذواقهم ورغبتهم.. ولهذا توزع أعلام العلوم الفيزيائية والفلكية بين مؤمنين وملحدين.. وتوزع أعلام علوم الحياة كذلك بين مؤمنين وملحدين.

ما إن قلت هذا حتى فتح الباب، فرأيت مشهدا جميلا جدا كدت أفتن به، وكدت أطلب من صاحبي أن أدخل الجناح، وأسكن بين أهله .. فقد كانت المناظر في غاية البهاء والجمال، وكانت الحدائق مليئة

بالزهور، وكانت الأرض ممتلئة بالعشب الجميل.

لكن ما هي إلا لحظات حتى ظهر بشر كثيرون يشبهون الخنازير البرية الوحشية الشرسة، خرجوا من مخابئ لهم تحت الأرض.. كانت مملوءة بكل أنواع القاذورات.. وكان بعضهم يأكلها.. وقد تعجبت من ذلك مع كونهم يعيشون في مثل تلك الحدائق الغناء الممتلئة بكل صنوف الثمار.

والذي زاد من عجبي أنهم عند خروجهم أخذوا يفتكون بتلك المروج الجميلة، ويفسدونها، ويستعينون بخطمهم القوي على حفر الأرض للوصول إلى النباتات وجذورها مع الاستعانة بأنيابهم الحادة.

ثم لم يأكلوا من ذلك النبات الذي أفسدوه، وإنما راحوا إلى القاذورات يملأون بطونهم منها..

ديموقريطس اليوناني:

فجأة وقف أحدهم، وقد كان يشبه في ملامحه صورة تمثال كنت أراه كثيرا في الكتب المؤرخة للحضارة اليونانية، والتي كانت تذكر أنه تمثال فيلسوف اسمه [ديموقريطس(1)].. وصح ظني، فما هي إلا برهة قصيرة، حتى قال: من عرفني منكم، فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا [ديموقريطس] اليوناني .. الفيلسوف العبقري .. صاحب [المذهب الذري (2)]

لاشك أن كل من في هذه الغابة المتعفنة بالنبات والزهور كان في يوم من الأيام من تلاميذي.. فأنا أبو الكل .. أبو جميع الطبائعيين

(1) ديموقريطَسْ (460؟ ق.م -370؟ ق.م)، هو فيلسوف مادّي يوناني، حاول أن يبرهن أنَّ العالم مكوَّن من عدد غير محدود من الذَّرات، يتحرك في فراغ لا حدود له. وهذه الذَّرات جُسَيمات من المادَّة غير المرئية، وغير القابلة للانقسام، وغير المولَّدة أو القابلة للإتلاف. وتختلف عن بعضها في الحجم والشَّكل والوضع. وكل شيء في هذا العالم مكوّن من مجموعة مختلفة عن غيرها من هذه الذَّرات، وقد جاء عالمنا من تركيب عَرَضي لهذه الذَّرات. وبسبب وجود عدد غير محدود من الذَّرات، فقد وجدت عوالم أُخرى أيضًا.

(2) المذهب الذرّي هو عبارة عن فكرة فلسفية تطوّرت في اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد.. وهي ترى أن العناصر الأساسية للحقيقة تتشكّل من الذرة غير القابلة للانقسام والإتلاف، وهي مادة سابحة في الفضاء.. ويظنّون أن الذرّة لها حركة، ولكنها تنعدم وترتدُّ بعد ارتطامها. وقد تكوّنت الدنيا نتيجة هذه الحركات. ووجدت لفترة من الزمن ثم اختفت. وهذه العوالم والأشياء الظاهرية التي وجدت عليها تختلف فقط في الحجم والشكل وموضع ذراتها.

والماديين .. الأولين والآخـرين .. القـدامى والمتـأخرين.. حـتى الـذين تصوروا أنهم عرفوا كل شيء، وتحققوا من كـل شـيء لم يعرفـوا إلا ما عرفته أنا في ذلك الزمن الغابر.

أنا الذي أمليت عليهم أن الوجود واحد لاغـير.. وهـو ذلـك الوجـود المادي الذي لا روح فيه، ولا خالق وراءه.. وأنه ينقسم إلى عـدد غـير متناهٍ من الوحدات غير المتجانسـة وغـير المدركـة بـالحسّ، والواحـد منها هو الجوهر الفرد، أو الجزء الذي لا يتجزأ.

وأمليت عليهم أن هـذه الوحـدات غـير المتجانسـة قديمـة أزليـة، نظـراً إلى أن الوجـود لا يمكن أن يخـرج من العـدم الكلي المحض.. وهي دائمـــة أبديـــة، إذْ لا ينتهي الوجـــود إلى العـــدم الكلي المحض (اللاوجود مطلقاً)

وأمليت عليهم أن النفس مادّيـــة أيضـــاً، وهي مؤلفـــة من أدقّ الجـواهر وأسـرعها حركـة.. وأن كـلّ ظـواهر الوجـود الكـوني تتحكم بوجودها آلية الحركة الذاتية للوحدات غير المتجانسة التي يتألف منهـا الوجود كله.

وأمليت عليهم أن كلّ شيء امتداد وحركة فقط.. ولم أسـتثن في ذلك أي شيء.. لا النفس الإنسـانية.. ولا الآلهـة الـتي كـان يعتقـد بهـا أجدادنا اليونانيّون.. فالآلهة مركبة من جواهر كالبشـر، إلا أن تـركيبهم أدقّ، فهم لذلك أحكم وأقدر، وأطول عمراً بكثير، ولكنهم لا يخلدون.

هـذا مـا كنت أعتقـده، ومـا كنت أمليتـه.. ومـا حولـني إلى هـذه الصورة الخنزيرية وطباعها القذرة.. فأنا في حياتي لم أمـارس سـوى ما تمارسه الخنازير من الفتك بـالمزارع وإفسـاد الحقـول.. وتخـريب العقول.

لقد أعطـاني الله من الفـرص، وأرسـل لي من الحجج، مـا كـان يمكن أن يحافظ على إنسانيتي.. لكني صرفت نظري عن ذلـك كلـه، ورحت إلى ثياب الخنازير أتقمصها.. وإلى وظائفها أؤديها.

أذكر في ذلك الزمن الغـابر أن اللـه أرسـل لي تلميـذا من تلاميـذ الأنبياء الذين كانوا ينتشرون في الأرض في اليونـان وغيرهـا.. وجلس إلي ليسـتمع لحججي، وبعـد أن انتهيت منهـا، راح بكـل أدب يقـول لي[1]: أنت عرضت علي ما تراه من أطروحات تفسر الوجود.. ولم

---

[1] نذكر هنا باختصار وتصرف ما ذكرناه في المناظرة الأولى من كتـاب [البـاحثون عن الله]، وهي مناظرة افتراضية أجريناها بين ديموقريطس والباقلاني.

تذكر لي دليلا واحدا يدل عليها.

فقلت له، وقد تملكني الغضب: هي بمنطقيتها وبساطتها تفسر الوجود بما لا تحتاج معه إلى أي برهان.. فهي نفسها برهان على نفسها.

فقال لي بكل هدوء: فأذن لي أن أناقشك فيما ذكرته.. لأبين لك أنها مجرد مقولات لا تستند إلى أي منطق، ولا إلى أي عقل.

لم أملك إلا أن أجيبه، وأنا أسخر منه، لأن قلبي كان مغلقا دون الاستماع له.. لكني أحببت أن أتسلى بحديثه.. قال لي بكل هدوء وأدب: لقد ذكرت لي أنك تذهب إلى أن العدم الكلي المحض لا يمكن أن يتحول إلى الوجود بنفسه، وأن ما هو أزلي لا بد أن يكون أبدياً.. وهذا حق لا يمكنني أن أجادلك فيه.. لأن العدم الكلي المحض لا يمكن ــ عقلاً وبداهة ــ أن يتحوّل بنفسه إلى الوجود، فالعدم لا شيء، ويستحيل عقلاً أن يتحول اللاشيء إلى شيء.. وما هو أزلي ـ أي: واجب الوجود ـ لا يمكن أن تأتيه حالة يكون فيها ممكناً حتى يقبل فيها العدم.

انفرجت أساريري عن ابتسامة عريضة، فقال: لقد صدقت في هذا.. لكنك لم تأت فيه بجديد، فكل العقول توقن بهذا..

قلت: ولكني استنتجت من هذا أزلية المادة.

ابتسم، وقال: ما ذكرته هو قانون.. وإثبات أزلية المادة يحتاج إلى أدلة خاصة تثبتها.. ولا توجد مثل هذه الأدلة.. فالمادّة بطبيعتها المتغيّرة والمتحوّلة القابلة للتحليل والتركيب، لا تصلح أن تكون أزلية، وما ليس أزلياً فهو حادث، وما هو حادث لا بدّ له من مُحْدث.

قلت: فما أدلة الحدوث[1]؟

ابتسم، وقال: هناك أربعة دعاوى تتعلق بهذا، لكل دعوى برهانها،

---

[1] ذكرنا هنا أدلة المتكلمين.. والعلماء المحدثون يستدلون على الحدوث بأن الكون لو كان قديما لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود، وهذا ما يؤكده العلم التجريبي في (القانون الثاني للحرارة الديناميكية)، والذي ينص على أن الطاقة في الكون تقل تدريجياً بصورة مطردة.

وهي تشكل جميعا البرهان الدال على حدوث الكون[1].

قلت: فما **الدعوى الأولى**، وما برهانها؟

قــال: نحن نــدعي أن العــالم مكــون من أجســام وأعــراض.. فالأجسام هي ما قامت بنفسـها.. والأعـراض مـا قـامت بغيرهـا وهي الأجسام ومثالها الحركة والسكون والافتراق والاجتماع.

ولا أظن أنك تجادلني في هذا.. فالإنسان ــ مثلا ــ يبـدأ نطفـة، ثم يتحول علقة، فمضغة، ثم يكتمل خلقه فى رحم أمه، ثم يولـد فيصـير طفلا، فشـابا، فكهلا، فشـيخا، حـتى يدركـه المـوت.. فكلهـا تغـيرات مرتبطة بالزمن.. ويقاس على ذلك كل مـا فى الكـون من جزئيـات.. فكل ما فى الكون متغير.

قلت: لا أجادلك في هذا.. فما **الدعوى الثانية**؟

قـال: نحن نـدعي أن الأعـراض محدثـة.. والـدليل على ذلـك أنهـا تعدم.. والقديم لا يعدم..

قلت: فما الدليل على عدمها؟

قال: الحس هو دليلي على ذلك.. فنحن نشاهد كل ما هو متحرك ينعدم، فيسكن، وهكذا في الباقي.

قلت: فما الدليل على عدم انعدام القديم؟

قال: الدليل على أن القديم لا ينعدم هو أن القديم إمـا أن يكـون لذاته أو لغيره.. وليس من الجائز أن يكون القديم لغيره.. لأنه لو كان كذلك فمن حق هذا الغير الـذي هـو علتـه تقـدم هـذا القـديم فيكـون حادثا.. وليس من الجائز أن يكون قدمها لذاتها، فإذا كـان كـذلك فـإن ذاتها باقية، فيستحيل عدمها لكنها عدمت، فيلزم أنها حادثة.

1() هذا الدليل هو متمسك المتكلمين على اثبات حدوث العـالم، وهـو مـذكور في أكـثر كتب الكلام كالتمهيـد للبـاقلانى، وأصـول الـدين لعبـد القـاهر البغـدادى، وشـرح المقاصـد للتفتازانى وشرح العضدية للجرجانى.. وقد عبر الباقلاني عنه باختصار في الإنصـاف مسـتدلا له بالنقل، فقال: (يجب أن يعلم: أن العالم محدث؛ وهـو عبـارة عن كـل موجـود سـوى اللـه تعالى، والدليل على حدوثه: تغيره من حـال إلى حـال، ومن صـفة إلى صـفة، ومـا كـان هـذا سبيله ووصفه كان محدثاً، وقد بين نبينا ﷺ هـذا بأحسـن بيـان يتضـمن أن جميـع الموجـودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن بدء هذا الأمر؟ فقال: نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلـق اللـه الأشـياء فـأثبت أن كـل موجـود سـواه محـدث مخلوق. وكذلك الخليل عليه السلام، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرهـا وانتقالهـا من حالـة إلى حالة؛ لأنه لمـا رأى الكـوكب قـال: هَـذَا رَبِّي)(الأنعـام: من الآية76)، إلى آخـر الآيـات، فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقـة، وأن لها خالقاً، فقال عند ذلك وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض)

قلت: فما **الدعوى الثالثة**؟

قال: الدعوى الثالثة، هي أن الأجسام لم تخل من الأعراض المحدثة، ولم تتقدمها في الوجود.. والدليل على ذلك أنها لو خلت من الأعراض المحدثة أو تقدمتها في الوجود لجاز أن يكون الجسم لا متحركا ولا ساكنا.. وهذا لا يمكن فإنه إن كان غير متحرك فمعناه أن يكون ساكنا.. أما أن يكون الجسم ساكنا وغير ساكن في آن واحد فهذا مستحيل.

قلت: فما **الدعوى الرابعة**؟

قال: الدعوى الرابعة هي أن مالم يخل من الحوادث ولم يتقدمها في الوجود فهو حادث مثله.. والدليل على ذلك هو أن الحادث هو ما له أول، وكان معدوما قبلها، فلو كانت الأجسام قديمة، وهي غير منفكة عن الأعراض لكانت الأجسام موجودة قبل وجود الأعراض، وبالتالي انفكت عن وجود الاعراض، وهذا خلف فتعين أنها حادثة.

قلت: فما ترد على من من يجيز حوادث لا أول لها؟

قال: إن إثبات حوادث لا أول لها يلزم عنه ثلاثة محالات(1)..

أما **الأول**، فإنه لو ثبت ذلك لكان قد انقضى ما لا نهاية له، ووقع الفراغ منه وانتهى، ولا فرق بين قولنا انقضى ولا بين قولنا انتهى، ولا بين قولنا تناهى، فيلزم أن يقال قد تناهى ما لا يتناهى، ومن المحال البين أن يتناهى ما لا يتناهى وأن ينتهي وينقضي ما لا يتناهى.

وأما **الثاني**، فهو أن دورات الفلك إن لم تكن متناهية، فهي إما شفع وإما وتر، وإما لا شفع ولا وتر، وإما شفع ووتر معاً.. وهذه الأقسام الأربعة كلها محال؛ والمفضي إليها لا شك أنه محال..

إذ يستحيل عدد لا هو شفع ولا هو وتر، أو لا هو شفع ووتر.. فإن الشفع هو الذي ينقسم إلى متساويين كالعشرة مثلاً، والوتر هو أحد الذي لا ينقسم إلى متساويين كالتسعة، وكل عدد مركب من آحاد إما أن ينقسم بمتساويين، أو لا ينقسم بمتساويين، وأما أن يتصف بالانقسام وعدم الانقسام، أو ينفك عنهما جميعاً فهو محال.. وباطل أن يكون شفعاً لأن الشفع إنما لا يكون وتراً لأنه يعوزه واحد، فإذا انضاف إليه واحد صار وتراً، فكيف أعوز الذي لا يتناهى واحد؟.. ومحال أن يكون وتراً، لأن الوتر يصير شفعاً بواحد، فيبقى وتراً لأنه يعوزه ذلك الواحد، فكيف أعوز الذي لا يتناهى واحد؟

(1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

وأما **الثالث**، فإنه لو ثبت ذلك للزم عليه أن يكون عدداں، كل واحد منهما لا يتناهى، ثم أن أحدهما أقل من الآخر، ومحال أن يكون ما لا يتناهى أقل مما لا يتناهى، لأن الأقل هو الذي يعوزه شيء لو أضيف إليه لصار متساوياً، وما لا يتناهى كيف يعوزه شيء؟

قلت: دعنا من هذا.. وأجبني على ما ذكرته من أنّ هذا الوجود نشأ صدفة.

قال: سأجيبك بما ذكره أحفادك وتلاميذ مدرستك ممن هم أوفر علما، وأقدر على البحث في هذا باعتبار تخصصهم فيه[1].

انتفضت غاضبا، وقلت: أحفادي!؟.. من تقصد؟.. لا.. يستحيل أن يقول أحفادي هذا.. لقد قال (هكسلى) ضاربا المثل على إمكانية الصدفة: (لو جلست ستة قردة أمام آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير! فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في (المادة) لبلايين السنين)

قال: وما أدرى (هكسلى) بمثل هذا.. إن كلامه هذا يناقض ما أثبته كل الرياضيين والعلماء الذين يحترمون أنفسهم وبحوثهم.

قلت: فأخبرني بما قالوا.

قال: لقد قال البروفيسور (ايدوين كونكلين): (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاقي) شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة)

ويقول أحد العلماء الأمريكيين: (إن نظرية الصدفة ليست افتراضا وإنما هي نظرية رياضية عليا، وهى تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية، وهى تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق، وللتدقيق في إمكان وقوع حادث من نوع معين وللوصول إلى نتيجة هي معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة)

وقال أحد العلماء..

قلت: دعنا من آراء الرجال.. وأقنعني بالحقيقة التي تدل عليها العقول.

---

[1] () استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان.

قال: صدقت.. فآراء الرجال لن تزيدنا إلى تيهـا.. ولهـذا سـأحاول إقناعك **بعدم إمكانية الصدفة** علميـا بتصـوير مـا تحتاجـه الصـدفة لتحقيق أي عمل.. لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعـداد من 1 إلى 10، ثم رميتها في جيبك وخلطتها جيدا، ثم حاولت أن تخرجهـا من الواحد إلى العاشر بـالترتيب العـددي، بحيث تلقى كـل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى.. فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه في المحاولة الأولى ه واحد على عشرة؛ وإمكان أن تتناول الدرهمين (2،1) بالترتيب واحد في المائة وإمكان أن تخرج الدراهم (4،3،2،1) بالترتيب هو واحد في العشـرة آلاف.. حـتى إن الإمكـان في أن تنجح في تنـاول الـدراهم 1إلى 10 بـالترتيب واحـد في عشـرة بلايين من المحاولات!!

لقـد ضـرب هـذا المثـال العـالم الأمـريكي الشـهير (كريسـى موريسن)، ثم استطرد قـائلا: (إن الهـدف من إثـارة مسـألة بسـيطة كهذه، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد (الوقـائع) بنسـبة كبـيرة جـدا في مقابل (الصدفة)

قلت: فكيـف تطبـق هـذا المثـال على مـا نحن فيـه من محاولـة تفسير وجود الكون؟

قال: لو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكـون.. وافترضـنا أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها ـ وليس هناك أي دليـل على هذا ـ ففي هذه الحال أيضا لن نظفر بأي تفسير الكون، فإن (صدفة) أخرى تحول دون طريقنا.. فالرياضيات الـتي تعطينـا نكتـة (الصـدفة) الثمينـة هي نفسـها الـتي تنفى أي إمكـان رياضـي في وجـود الكـون الحالي بفعل قانون الصدفة.

لقـد اسـتطاع العلم الكشـف عن عمـر الكـون وضـخامة حجمـه، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كافيين في أي حـال من الأحـوال لتسـويغ إيجـاد هـذا الكـون عن قـانون الصـدفة الرياضي.

سأضرب لك مثا يقـرب لـك ذلـك.. أنت تعلم أن الأجسـام الحيـة تتركب من (خلايا حية).. و(الخلية) ـ كمـا تعلم ــ مـركب صـغير جـدا، ومعقـد غايـة التعقيـد، وهى تـدرس تحت علم خـاص يسـمى (علم الخلايا) ومن الأجزاء الـتي تحتـوى عليهـا هـذه الخلايـا: الـبروتين وهـو مــركب كيمــاوي من خمســة عناصــر هي الكربــون والهيــدروجين والنـتروجين والأوكسـجين والكـبريت.. ويشـمل الجـزيء البروتيـني الواحد أربعين ألفا من ذرات هذه العناصر.

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيماوي كلها منتشرة في أرجائه، فأية نسبة في تركيب هذه العناصر يمكن أن تكـون في صـالح قـانون (الصدفة)؟

أيمكن أن تـتركب خمســة عناصــر من هـذا العـدد الكبـير لإيجـاد (الجزيء البروتيني) بصدفة واتفاق محض؟

إننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضـي ذلـك القـدر الهائل من (المادة) الذي سنحتاجه لنحدث فيـه الحركـة اللازمـة على الدوام؛ كما نستطيع أن نتصور شيئا عن المدة السحيقة الـتي سـوف تستغرقها هذه العملية.

لقد حاول رياضي سويسري شـهير هـو الأسـتاذ (تشـارلز يـوجين جواي) أن يستخرج هـذه المـدة عن طريـق الرياضـيات، فـانتهى في أبحاثه إلى أن (الإمكان المحض) في وقوع الحادث الاتفاقي الذي من شأنه أن يؤدى إلى خلق كون، إذا مـا تـوفرت المـادة هـو واحـد على 60/10 (أي 10×10 مائة وستين مرة)، وبعبارة أخرى:نضـيف مائـة وستين صفرا إلى جانب عشرة.. وهو عدد هائل وصفه في اللغة.

إن إمكان حـدوث الجـزيء البروتيـني عن (صـدفة) يتطلب مـادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سـائر الكـون، حـتى يمكن تحريكهـا وضـخها، وأمـا المـدة الـتي يمكن ظهـور نتيجـة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من 243/10 سنة.

إن جـزيء الـبروتين يتكـون من (سلاسـل) طويلـة من الأحمـاض الأمينية، وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هــذه السلاسل بعضها مع بعض فإنها لـو اجتمعت في صـورة غـير صـحيحة سما قاتلا، بدل أن تصبح موجدة للحياة.

لقد توصل البروفيسور ج. ب. ليـتز إلى أنـه لا يمكن تجميـع هـذه السلاسل فيما يقرب من 48/10 صورة وطريقة.. وهو يقول: إنه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل بمحض الصدفة في صــورة مخصوصة من هـذه الصـور الـتي لا حصـر لهـا، حـتى يوجـد الجـزيء البروتيني الذي يحتوى أربعين ألفا من أجـزاء العناصـر الخمسـة الـتي سبق ذكرها.

ولابـد أن يكـون واضـحا أن القـول بالإمكـان في قـانون الصـدفة الرياضي لا يعنى أنه لابد من وقوع الحـادث الـذي ننتظـره بعـد تمـام العمليات السابق ذكرهـا، في تلـك المـدة السـحيقة؛ وإنمـا معنـاه أن حدوثه في تلك المدة محتمل لا بالضرورة، فمن الممكن على الجانب

الآخر من المسألة إلا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد.

وهذا الجـزيء البروتيـني ذو وجـود (كيمـاوي) لا يتمتـع بالحيـاة إلا عندما يصبح جزءا من الخلية، فهنـا تبـدأ الحيـاة، وهـذا الواقـع يطـرح سؤالا مهما علينـا هـو: من أين تـأتى الحـرارة عنـدما ينـدمج الجـزيء بالخلية؟.. ولا جواب عن هذا السؤال في أي سفر من أسفار العلم.

إن من الواضح الجلي أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضي لا ينطبـق على الخليـة نفسـها وإنما على جزء صغير منهـا هـو الجـزيء البروتيـني وهـو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش، وفي جسد كل فرد منا مـا يربـو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا.

لقد أعد العالم الفرنسي (الكونت دى نواي) بحثا وافيـا حـول هـذا الموضوع وخلاصة البحث:أن مقادير (الوقت، وكمية المادة ،والفضــاء اللانهائي) التي يتطلبها حدوث مثـل هـذا الإمكـان هي أكـثر بكثـير من المادة والفضاء الموجودين الآن، وأكثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحيـاة على ظهـر الأرض، وهـو يـرى: أن حجم هـذه المقـادير الـذي سنحتاج إليه في عمليتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطـه في حـدود العقـل الذي يتمتـع بـه الإنسـان المعاصـر، فلأجـل وقـوع حـادث- علي وجـه الصدفة- من النوع الذي ندعيه، سوف نحتـاج كونـا يسـير الضـوء في دائرته82/10 سنة ضـوئية (أي:82 صـفرا إلى جـانب عشـرة سـنين ضوئية) وهذا الحجم أكبر بكثير جدا من حجم الضوء الموجود فعلا في كوننا الحالي؛ فإن ضوء أبعد مجموعة للنجـوم في الكـون يصـل إلينـا في بضعة (ملايين) من السنين الضوئية فقط.. وبناءا على هـذا، فـإن فكـرة أينشـتين عن اتسـاع هـذا الكـون لا تكفى أبـدا لهـذه العمليـة المفترضة.

أما فيما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها، فإننا سـوف نحـرك المادة المفترضة في الكون المفترض بسـرعة خمسـمائة (تريليـون) حركة في الثانيـة الواحـدة، لمـدة243/10 بليـون سـنة (243 صـفرا أمام عشرة بلايين)، حتى يتسنى لنا حـدوث إمكـان في إيجـاد جـزيء بروتيني يمنح الحياة.

ويقول (دى نواي) في هـذا الصـدد: (لابـد إلا ننسـى أن الأرض لم توجـد إلا منـذ بليـونين من السـنين وأن الحيـاة- في أي صـورة من الصور- لم توجد إلا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض)

هذا وقد حاول العلماء معرفة عمـر الكـون نفسـه، ومـا ذكـروه لا يكفي على أي حـال من الأحـوال خلـق إمكـان، يوجـد فيـه الجـزيء

البروتيني، بناء على قانون الصدفة الرياضي.

وأما ما يتعلق بأرضنا التي ظهرت عليها الحياة، فقد عرفنا عمرها بصورة قاطعة، فهذه الأرض كما يعتقد العلماء جزء من الشمس انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسيار عملاق آخر، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور في الفضاء، شعلة من نار رهيبة، ولم يكن من الممكن ظهور الحياة على ظهره حينئذ لشدة الحرارة، وبعد مرور زمن طويل أخذت الأرض تبرد ثم تجمدت وتماسكت، حتى ظهر إمكان بدء الحياة على سطحها.

ونستطيع معرفة عمر الكون بشتى الطرق.. ومنها الطريقة التي توصلنا إليها بعد كشف (العناصر المشعة)، فإن الذرات الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة؛ وهذا (التحلل) يقل الذرات الكهربية في هذه العناصر، لتصبح تلقائيا عناصر غير مشعة عبر الزمان، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة، وهو يتحول إلى معدن (الرصاص) بنسبة معينة نتيجة لتحلل الذرات الكهربية، وهذه النسبة في الانتشار لا تتغير تحت أي ظروف من أدنى أو أقصى درجات الحرارة أو الضغط، ولهذا سنكون على صواب لو اعتبرنا أن سرعة تحول اليورانيوم إلى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير.

إن قطع اليورانيوم توجد في كثير من الهضبات والجبال منذ أن تجمد في شكله الأخير، عند تجميد الأرض.. وإلى جانب هذا اليورانيوم نجد قطعا من الرصاص، ولا نستطيع أن ندعى أن كل هذا الرصاص نتج عن تحلل اليورانيوم، والسبب في هذا أن الرصاص الذي يتكون من تحلل اليورانيوم يكون أقل وزنا من الرصاص العادي، وبناء على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما إذا كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم، أو أنها قطعة رصاص عادى ونحن هنا نستطيع أن نحتسب المدة التي استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقة، فهو يوجد في الجبل من أول يوم تجمد فيه ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه!

لقد أثبتت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال التي تعتبر- علميا- أقدم جبال الأرض، وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفا أو ضعفين عن عمر هذه الجبال ولكن التجارب العلمية تنفي بشدة هذه الظنون الشاذة، ويذهب البروفيسور (سوليفان) إلى أن (المعدل المعقول) لعمر الأرض هو

ألفا مليون سنة[1].

انظر.. فبعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يتسنى مجرد إمكان الحدوث لجزيء بروتيني فيها بالصدفة، فكيف ـ إذن ـ جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات، وأكثر من 200.000 نوع من النبات؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض في كل مكان؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه (الإنسان)؟

لقد قال عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ب. كريدر ملخصا كل هذا:(إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق- عن طريق الصدفة ـ في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من (لا شيء)

وقال الأستاذ (كريسى موريسن) ــ ردا على مقولة (هيكل): (إيتونى بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان) ـ: (إن هيكل يتجاهل في دعواه: الجينات الوراثية ومسألة الحياة نفسها فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان، هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم سيخلق (الجينات)، أو حملة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هذه الذرات، حتى يعطيها ثوب الحياة.. ولكن إمكان الخلق في هذه المحولة بعد كل هذا لا يعدو واحدا على عدة بلايين، ولو افترضنا أن (هيكل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها (صدفة)، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته)

وقال عالم الطبيعة الأمريكي (جورج إيرل ديفيس): (لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن الكون هو الإله.. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله)؛ ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيبا: إلها غيبيا وماديا في آن واحد!! إننى أفضل حاكمه ومديره ومدبره، بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات)

ما إن قال هذا حتى تغير وجهي، ثم نظرت إلى الأفق البعيد، ورحت أحضر الموقف المناسب للتعامل معه.. وهل أسير معه في طريق الأنبياء.. أم أختار طريقي الخاص، طريق الفلسفة، وتلاميذي الذين كانوا يلتفون بي بسببها، والذين يعتبرونني نبيا.. بل أكثر من نبي.

---

[1] المعلومات العلمية المحضة هنا ــ والتي استفدناها من كتاب (الإسلام يتحدى) ــ ربما تكون قد تغيرت بفعل التطور العلمي، ولكنها مع ذلك تبقى صالحة للاستدلال.

وبعد تفكر وتدبر وتقدير للعواقب اخترت أن أكـون ديمـوقريطس الغبي صاحب المذهب الذري.. واخترت أن أكون خنزيرا بريا بـدل أن أكون إنسانا سويا.

قال ذلك ثم راح يمد أنفه الطويل إلى الأرض ليحفرها، ويستخرج بعض الجذور منها، ثم يرميها، ويأكل بدلها بعض القـاذورات المحيطـة به.

فيكتور شتينجر:

بعد توقف [ديموقريطس] عن الحديث، وانصرافه إلى الفتـك بجذور الأشجار.. قام آخـر، عرفتـه من ملامحـه الـتي تشـبه ملامح بعض الملاحدة المعاصرين الذين يظهرون كـل حين على القنـوات الفضائية، كان اسـمه [فيكتـور شـتينجر(1)]، وهـو صـاحب العبـارة المشهورة التي يمجد فيها العلم، ويسـخر فيهـا من الـدين، والـتي يقول فيها(العلم يطير بك إلى القمر، والدين يطير بـك إلى داخـل المباني)

كـان وجهـه مثـل غـيره أقـرب إلى الخنـازير البريـة منـه إلى الإنسان، وكان أنفـه الطويـل ممتلئـا بـالتراب، وكـان يمضـغ بعض القاذورات التي كان يحملها بيده..

عنـدما جـاء دوره في الحـديث رمى مـا بيـده من قـاذورات، ومسـح عن أنفـه بعض الـتراب، ثم راح يقـول: أهلا بكم أعـزائي المشاهدين.. معكم على الهواء مباشرة أكبر غبي في التاريخ.. إنه المقامر .. صـاحب الفرضـية الفاشـلية الـتي لم تسـلب منـه مالـه فقط، بل سلبت منه حقيقته أيضا، لتحوله إلى خنزير بري يمـارس دوره في إفساد الحقول، كما مارس دوره في إفساد العقول.

مسـح عن أنفـه بعض الـتراب العـالق، ثم قـال: لاشـك أنكم

(1) فيكتـور شـتينجر: (1935 -2014) أمـريكي مختص في فيزيـاء الجسـيمات، وفيلسوف وكاتب و مشكك ديني.. وهو من أعلام الإلحاد الجديد، و كـاتب للأدبيـات العلميـة.. نشر اثني عشر كتابا عن الفيزياء و ميكانيكا الكم، وعلم الكون، والفلسفة، والدين، والإلحاد، والعلوم الزائفة، وآخرها كتاب [فشل فرضية الالـه: كيـف يظهـر العلم ان اللـه غـير موجـود] الـذي نشـر في عـام 2007، و [الإلحـاد جديـد: اتخـاذ موقـف للعلـوم والعقـل] (2009)، و[مغالطة التوافق الدقيق: كيف أن الكون ليس مصمما من أجل الإنسانية] (2011)، و[الله و حماقة الإيمان: التعـارض بين العلم والـدين] (2012)، و[اللـه و الـذرة: من ديمـوقريطس إلى هيغز بوسون] (2013)

تعرفونني، فأنا فيكتور شتينجر الذي كنت أزهو كل حين بأني أفكر بطريقة علمية منهجية.. لكني لم أكن كـذلك، بـل كنت أخلـط بين العلم والأهواء، وأمزج بين رأيي والحقيقة، وبين ما هـو كـائن وبين ما أحب أن أكون.

لـذلك كنت سـاحرا، ولم أكن عالمـا.. وكنت أفاكـا ولم أكن محققا.. وكنت أفكر برغبتي ومزاجي، ولم أكن أفكر بعقلي.. فقـد أعطيت عقلي إجازة منذ رحت أستعمل أهوائي الـتي اسـتعبدتني، وملكت علي حقيقتي.

سـأذكر لكم بعض مـا قلت.. وبعض مـا رددتـه الأجيـال من تلبيساتي التي لا أزال أدفع ثمنها..

لقـد كنت أدعي العلميـة والعقليـة، وأن العـالم لا يمكن أن يحكم على شيء دون أن يحيط معرفة به.. لكـني كنت أكـذب في ذلك، لأن إلحادي كـان بسـبب تصـورات عاميـة بسـيطة، ولم تكن وليـدة بحث معمـق، وكـانت ناتجـة عن فهـوم سـطحية لبعض النصوص الدينيـة، ولم تكن وليـدة فهم حقيقي.. وكـانت نابعـة من مواقف عشتها، لا مواقف بحثت عنها.

من الأمثلـة على ذلـك أني قلت في كتـابي [فشـل فرضـية الاله]: (ولكن الله يفترض أن يكون موجودا فى كل مكان، بما فى ذلك فى كل صندوق مهما صغر، ولهذا علينا إما أن نجـده مؤكـدين بذلك وجوده، أو لا نجده مفندين بذلك وجوده)[1]

وهذا قول في منتهى السخافة، ومبني على معلومات خاطئـة عن الدين.. فالدين الحق، ومعه العقـل الخـالص ينزهـان اللـه عن المكان مطلقا.. فالله غني عن المكان، كما هو غـني عن الزمـان، كما هو غني عن كل شيء.. أما كيـف ذلـك.. فالعقـل يسـتحيل أن يتصور ذلك، لأنه لا يـدرك إلا مـا هـو من عالمـه وجنسـه.. والعقـل دوره أن يبحث ويتعقل، لا أن يتصور ويتخيل.

لقد كان في إمكان أي مؤمن بأي دين أن يسخر مني، ويقول

---

[1] فشل فرضية الاله، ص33.

لي، وهو يمسك ببعض أعضائي[1]: هيا أرنا [شتينجر].. أخبرنـا فى أى عضو سنجده، أو فى أى خلية سنجده.. فإذا لم نجده، فـذلك لا يعني سوى أنه ليس موجودا.

وهكذا قد ننكر كل شيء بحجـة أننـا لم نـره ولم نلمسـه ولم تصله حواسنا..

لم أكتف بذلك الغبـاء الفلسـفي الصـبياني، بـل رحت أسـأل: (إن كان الله موجودا فأين هو؟)، ثم أعقب على ذلك بقولي: (لقد سمى الفيلسوف ثيودور درينج هذا برهان غياب الأدلة)[2]

وهذا طرح عجيب .. فهل من العقل أن أنكر أي شيء بسبب عدم معرفتي بالمحل الذي يوجد فيه.. أو بسبب عجـز إدراكي عن الوصول إليه؟

في هـذه الحالـة يمكنـني أن أنكـر المغناطيسـية، والجاذبيـة، والمــادة المظلمــة، والطاقــة المظلمــة، بســبب أن مــداركي لا تشاهدها.. وأنها تكتفي للإيمان بها بمعرفة آثارها.. وهكـذا اللـه لم يؤمن به المؤمنون والفلاسفة والعقلاء إلا لمعرفتهم بآثاره.. فالآثار تدل على المؤثر.

هـذا بعض دلائـل بعـدي عن التفكـير المنطقي، أمـا الـدليل الأكبر.. وهو أيضا يدل على غبائي وغفلتي، فهو أنـني ــ مـع كـوني عشت في عصر أتيح لي أن أتصل فيه بأي شخص من أي منطقـة على أي دين للتحقــق والبحث ـــ لكــني لم أفعــل، ورحت أبـــرز جهالاتي بالأديان من خلال فهومي البسيطة التي تضحك الصبيان.

من الأمثلـــة على ذلـــك أني قلت في كتـــابي: (لقـــد ادعى مؤسسو وقادة الأديان الكبرى دوما أن الله يمكن رؤيته فى العالم من حولنـا.. والقـرآن يقـول: ﴿سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِي الْآفَـاقِ وَفِي

[1] اقتبست بعض المـادة العلميـة الموجـودة هنـا من مقـال بعنـوان [نقـد كتـاب اللـه: الفرضية الفاشلة لستينجر]، لرضا البطاوى، مع العلم أن الكثير من ردوده خاطئة، لأنـه ينكـر الكثير من الحقائق العلمية من دون دليل.

[2] فشل فرضية الاله، ص27.

أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت: 53])(1)

فمع أن الآية واضحة في الدلالة على أن الله يعد عباده، بـأن يريهم الآيات والـبراهين الدالـة عليـه إلا أنـني رحت أحـرف الآيـة، وأستنتج منها أن الله أخلف وعده بأن يري عباده ذاته.. وذلك كلــه نتيجة تصوري الحسي لله، وعدم تثبتي في الحـديث عن الحقـائق، لأن الرغبة كانت هي المسيطرة، ولم يكن العلم.

وهكذا رحت أحكم على [اللـه] من خلال صـفاته الـواردة في الأديان كمـا أفهمهـا، لا كمـا هي في حقيقـة الأمـر.. لقـد قلت في ذلك: (لاحظ أن الصفات التقليديـة: العلم الكلى، والقـدرة الكليـة، والرحمة الكلية .. الكليات الثلاث المرتبطـة عـادة بالإلـه اليهـودى المسيحى الإسلامى قد تم حذفها)(2)

ثم ذكـرت من الأدلـة على ذلـك بعض تلـك الفهـوم الخاطئـة الـتي لا يصـح نسـبتها للـدين نفسـه.. فكلام أتبـاع الأديـان لا يمثـل الأديان، ولا يمكن أن يلغي الحقيقة الكـبرى، حقيقـة اللـه وصـفات كماله..

من تلك الأدلة قولي: (كقـولهم أن الأرض المسـطحة سـاكنة فى مركز فلك من النجوم والكواكب كان ببساطة خطأ)(3) مـع أن هـذا القـول ليس قـول العلمـاء المحققين، بـل هـو قـول الأتبـاع المخرفين.. وكان يمكنني أن أتجاهلهم، لكن مصلحتي كانت معهم، ولم تكن مع المحققين، فلذلك راح مزاجي أميل لهم.

وهكـــذا قلت: (ولكن هـــذا ليس هـــو اللـــه فى اليهوديـــة والمسـيحية والإسـلام الـذى يـولى قيمـة كبـيرة للكـائن البشـرى،

---

(1) فشل فرضية الاله، ص28.

(2) فشل فرضية الاله، ص42.

(3) فشل فرضية الاله، ص51.

وكذلك يفترض أنه خلقنا على صورته ومثاله)[1]

وهذه أيضا معلومة خاطئة، وهي مقتبسة من تحريفات الدين لا من حقيقتــه.. وكــان في إمكــاني أن أســأل المحققين .. لكن مزاجي لم يسمح لي.

وهكذا قلت: (واتخذ اللــه فى اليهوديــة والمســيحية والإســلام هيئة ملك ذكر مستقر على كرسى يعلو خلقه) [2]

وهذا كذب وتدليس .. فليس في العقائد الإسلامية على الأقل هذه الخرافات.. بل فيه هذه الآية التي تصفه بدقــة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]

وهكذا رحت أقول: (فى أديان التوحيــد الثلاث يعــد اللــه كائنــا فائقا متعاليا وراء المادة والزمان والمكان، ولكنه أيضا أساس كــل ما تلتقيه حواسنا .. فالإله اليهــودى المســيحى الإســلامى مشــارك بنانوثانية بعد نانوثانية فى كل حدث يحصل فى كل نــانومتر مكعب من الكون من تفاعلات الكواركات داخل نــوى الــذرات إلى تطــور النجوم إلى أبعد المجرات، وفوق ذلــك فاللــه يســتمع لكــل فكــرة، ويشارك فى كل فعــل لخلقــه الممــيز جــدا قطعــة صــغيرة من كم المادة تسمى البشرية وتتحرك على سطح نقطة صغيرة فى كون شاسع)[3]

ولســت أدري مــا الضــرر في هــذا؟.. وهــل يــدل العقــل على اســتحالة علم الإلــه الــذي صــمم كــل هــذا الوجــود بكــل جزئياتــه وتفاصيله بكونه الذي خلقه؟.. أم أن العقل يدل على ضــرورة علم الإله بخلقه.. لأنه لا يمكن تدبير شؤونهم من دونه؟

لقد قرأت في القرآن هذا، وبهرني ما فيــه من دلائــل لكــني ـ لكبريائي ـ امتنعت من الاستجابة له.. لقد قرأت فيه قولــه تعــالى:

---

[1] فشل فرضية الاله، ص150.

[2] فشل فرضية الاله، ص220.

[3] فشل فرضية الاله، ص20.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]، فهـذه الآيـة تنبئ عن سر علم الله بكل شيء.. وهو لطفه وخبرته.

لكن عقلي البسيط لم يهضـم ذلـك لسـبب بسـيط، وهـو أني كنت أتخيل الله في حال وجوده مثل تخيلي لنفسي.. ولـذلك فقـد كنت أتصـور أنـه كمـا أحتـاج أنـا إلى المكـان يحتـاج هـو أيضـا إلى المكان.. وكما أن قدراتي العلميـة وغيرهـا محـدودة، فاللـه كـذلك ينبغي أن يكون كذلك.

لقد كان صديقي [دوكينز] في مثل غبائي وغفلـتي وجـرأتي، فهو أيضا يتحدث عن عقائد الأديان الثلاثة بثقة مطلقة من دون أن تكون لديه معرفة حقيقية بها.. كل ما قرأه عنها لا يعدو قصاصـات الجرائد الساخرة، أو بعض الأشـرطة الوثائقيـة الممتلئـة بـالتلفيق والتزوير.

لقـد قـال في كتابـه [وهم الإلـه]: (إن موسـى يمكن اعتبـاره كمثل أعلى أكثر من إبراهيم لأتباع الديانات التوحيدية الثلاث، ربما يكون إبراهيم الأب الأول لتلك الديانات، ولكن الـذى يمكن دعوتـه بالمؤسس والملقن الأول لتلك الديانات هو موسى)[1]

وهذا خطـأ كبـير.. والخلـط بين اللـه فى الأديـان الثلاثـة وهم كبـير.. فتلـك الـديانات تختلـف عقائـدها في اللـه اختلافـا جـذريا، فبعضها منزهة وبعضها مجسمة، ومن الخطأ الجمع بينها في محـل واحد.

مسح بعض التراب عن أنفه، وأخذ بعض القاذورات، ووضـعها في فمـه، ثم قـال: من مغالطـاتي الـتي كنت أنشـرها، فيتقبلهـا الحمقى من غير اعتراض ادعاء عجـز المؤمـنين عن إثبـات وجـود الله، وكونه المصمم للكـون.. لقـد قلت في ذلـك: (إن كنت أو لم تكن توافـق على تفسـيرى لأصـل القـانون الفيزيـائى أتمـنى أنـك ستقبل بأنى على الأقـل قـدمت تتابعـا طبيعيـا معقـولا لفجـوة فى المعرفة العلمية تتمثل بإجماع واضح على أصل القانون الفيزيائى، ومن جديد لا يقع على عبء إثبات هذا التتـابع، أمـا المـؤمن الـذى

[1] () وهم الاله، ص245.

يحاول المجادلة بأن الله هو مصدر القانون الطبيعى، فعليه عبء إثبات أن تفسيرى خطأ أنه ما من تفسير طبيعى آخر ممكن وأن الله فعل ذلك)(1)

ولست أدري لم ذكرت هذا.. وهل يتعارض التفسير العلمي للظواهر الكونية مع وجود الله؟.. وهل تفسير أحد من الناس للكيفية الفيزيائية التي تعمل بها الطائرة يدل على أنه ليس هناك من صممها، وأن القوانين الفيزيائية وحدها هي التي تولت ذلك؟

هذه من الأغلوطات التي كنت أمارسها.. لأن كنت موقنا أنها ستنطلي على أولئك الذين يتبعونني لأنهم أصلا لم يتبعوني إلا لقدرتي على التحايل على العقول.

من الأغلوطات التي كنت أحتال بها قولي: (أما القرآن فهو لا يقل وحشية عن العهد القديم، إذ يمكن العثور على إشارات وفيرة إلى المصير المرعب الذى ينتظر الكفار، ولكن الله بنفسه هنا هو من يوزع هذا العذاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 56] والمسلمون مأمورون بقتل الكفار أينما وجدوهم، ولكن فقط حين يبدأون بالعداوة)(2)

وهذه مغالطة واضحة .. فالقرآن الكريم يصور الله بصورة الرحيم الودود اللطيف، وفي نفس الوقت يبين قدرته على كل شيء، وعدالته المطلقة، ومن مقتضيات العدالة معاقبة المستحقين للعقوبة..

ثم ما دخل العقل بهذا.. وهل يمكن للطائرة أن تفرض على مخترعها ما تريد من الصفات.. وهل يمكن لأحد أن يستنبط صفات شخص من خلال ما اخترعه؟

ثم إن أي عاقل يقارن القرآن الكريم بالعهد القديم يجد الفرق الشاسع.. فلا يوجد في القرآن ما فى العهد القديم من

---

(1) فشل فرضية الاله، ص128.

(2) فشل فرضية الاله، ص200.

جـرائم الإبـادة ليس للنـاس وإنمـا لكـل مـا فى البلـدة من نـاس وحيوانات ونبات ومساكن.

من الأغلوطـات الـتي كنت أمارسـها لأنشـر الإلحـاد قـولي: (والمفجر الانتحـارى المسـلم قـد تم اقناعـه بـأن فعلـه الاجـرامى سيضمن لـه الجنـة، وأمـا من جهـة أخـرى فسـلوى الملحـد أنـه لا يخشى من حياة أخرى، ولا يسعى لتفجير نفسه)(1)

وقد ردد المـترجم المسـكين هـذا الكلام كالببغـاوات، وقـال: (هل سمعنا عن انتحارى ملحد صرخ العزة لداروين قبـل أن يفجـر حزامه الناسف فى وسط الأبرياء؟.. هل سمعنا أن مسئولا ملحـدا سـرق أمـوال الغـذاء والـدواء لينفقهـا ببـذخ على نسـائه الأربعـة وعشـيقاته العديـدات؟.. هـل رأينـا ملحـدين متعصـبين ينظمـون استعراضات فى وسط العاصمة يسـتفزون بهـا كـل أم ثكلى وأب مكلوم وأخ انكسر ظهره على أيديهم؟)(2)

وهذا كله تـدليس .. فأنـا أعلم مقـدار الجـرائم الـتي ارتكبهـا الملحـــدون .. فمن قتـــل الملايين فى الاتحـــاد الســـوفيتى، ومن سـجنهم أو نفـاهم لسـيبريا، ومن أغلـق المسـاجد والكنـائس ومن كـان يسـتعرض قوتـه فى الميـدان الأحمـر؟.. أليس الملاحـدة هم الذين فعلوا ذلك؟

ومن قتل الملايين فى الصين وسجنهم، ومن كان يسـتعرض قوته فى ميدان السلام السماوى؟.. ومن صاحب الثـورة الثقافيـة فى الصـين، ومـاذا فعـل بالمقـاومين لهـا؟.. ومن صـاحب مذبحـة ميدان السلام السماوى تيان آن مين؟.. أليس الملاحدة هم الـذين فعلوا ذلك؟

وما دام الأمر كذلك، فلم لم يعتبر الإلحـاد جريمـة أيضـا، كمـا اعتبر الدين جريمة؟

هكذا كنت أفكر، وهكذا كنت أتلاعب بالحقائق.. لكن الحقائق

(1) فشل فرضية الاله، ص146.

(2) فشل فرضية الاله، ص3.

تأبى إلا أن تنتصر.

قضم بعض القاذورات، ثم راح يضحك بهستيرية، ويقول: هل تعلمون سر كل ذلك؟.. سأجيبكم .. إنها الكبرياء التي ختمت على قلبي، فجعلتني أرى الأشياء بالصورة التي تتناسب مع ذاتي وطبيعتي..

لقد عبرت عن هذا في كتابي، فقلت: (العلم المشار إليه يدعى [العلم الغربى] الذى طوره الأوربيون أصلا مستغلين بصائر رياضية من الهند.. فكرة الصفر العالم العربى.. الأعداد الجبر وثقافات أخرى.. والشعوب فى كل المجتمعات إلا أشدها بدائية اليوم تستغل العلم)(1)

هل سمعتم اعتباري للعلم بأنه [العلم الغربي] وهذا تعبير عنصرى ناتج عن عنصريتي المقيتة.. وهي التي جعلتني أحجب عن كل الحقائق التي لم ينطق بها ذلك العلم الغربي، والرجل الأبيض الذي يقف وراءها، لتصوري أن الحقائق حكر على أصحاب العيون الملونة.

قال ذلك ثم راح يمد أنفه الطويل إلى الأرض ليحفرها، ويستخرج بعض الجذور منها، ثم يرميها، ويأكل بدلها بعض القاذورات المحيطة به.

ريتشارد دوكينز:

بعد توقف [فيكتور شتينجر] عن الحديث، وانصرافه إلى الفتك بجذور الأشجار.. قام آخر، عرفته من ملامحه التي تشبه ملامح كاهن الإلحاد الأكبر [ريتشارد دوكينز(2)]، وكان مثل زملائه

---

(1) فشل فرضية الاله، ص46.

(2) لينتون ريتشارد دوكينز (ولد 1941 في نيروبي، كينيا) عالم بيولوجيا تطورية وإيثولوجيا بريطاني وكاتب أدبيات علمية..من كتبه التي يتعلق بها الملاحدة، ولها انتشارها الواسع في المواقع المختلفة [الجين الأناني] الذي حاول فيه تصحيح ما وصفه بسوء الفهم للداروينية، ومنها [النمط الظاهري الموسع] (1982)، [صانع الساعات الأعمى] (1986)، النهر الخارج من عدن (1995)، والصعود إلى جبل اللااحتمال (1996). في التسعينيات، بدأ دوكينز بإصدار برامج تلفزيونية وأفلام وثائقية عن التطور. في كتابه [تفكيك قوس القزح] المنشور عام 1998.

صاحب ملامح خنزير بري، لم يبق منه من البشرية غير ملاح محدودة قليلة.

قام، ومسح التراب عن أنفه، ثم أكل بعض القاذورات، وقال: شكرا جزيلا صديقي فيكتور.. أظن أن الوقت حان لإدلائي بتصريحاتي.. لا بأس لن أطيل عليكم أعزائي المشاهدين.. فأنتم تعرفون أني حريص عليكم، وعلى رضاكم عني، فلهذا لا تقلقوا، فلن آخذ من وقتكم الكثير.

أردتم أن أحدثكم اليوم عن إلحادي.. ولست أدري من أين أبدأ مع كوني نلت شرف لقب [كاهن الإلحاد الأكبر].. ومع كوني أسست المؤسسات، وألفت الكتب، وشكلت الجمعيات، واستعملت كل الوسائل للدعوة إلى الإلحاد.

ربما أحسن بداية أبدأ بها هي ما وقع لي في مناظرتي مع بروفيسور الرياضيات المسيحي [جون لينوكس]، والمعنونة بـ [هل دفن العلم الله؟].. لقد كان المناظر قوي الحجة، ولم أستطع ـ مع براعتي في المناقشات ــ التفلت منه، ولا مواجهة أدلته، ولذلك اضطررت إلى الاعتراف بأني لست ملحداً صرفاً.. وربما كان ذلك أصدق تعبير عن حقيقي التي حاولت أن أخفيها عن الناس.

وقد عبرت عن هذا في الشعار الذي رفعته للدعوة إلى الإلحاد، والذي ألصقته على وسائل النقل العام في لندن، وقلت فيه: (على الأرجح ليس هناك إله، فتوقف عن القلق، واستمتع بحياتك)

لكني مع ذلك كنت أكابر، وكنت أحاول إقناع نفسي وقرائي بأن الحقيقة لا تكمن إلا في الإلحاد.. لقد قلت في مقدمة كتابي [وهم الإله]: (لو كان لكتابي هذا مفعوله الذي بذلته له: سيُلحد المؤمنون قبل أن يضعوه جانبا)(1).. ووضعت على غلافه هذه

ومن أهم كتبه وأكثرها شهرة بين الملاحدة [وهم الإله] المنشور عام 2006 الذي زعم فيه أنه يشرح المغالطات المنطقية في المعتقدات الدينية ويستنتج أنه لا يوجد أي خالق غيبي وأن الإيمان هو مجرد وهم. في نفس العام أطلق دوكينز مؤسسته المعروفة بمؤسسة ريتشارد دوكينز للمنطق والعلوم، وهي مؤسسة تسعى لتعزيز القبول بالإلحاد وتدافع عن الأجوبة العلمية للأسئلة حول الوجود. أطلق دوكينز عام 2007 الحملة العلنية لتشجيع الملحدين (اللاربوبيين) على الظهور والإعلان عن اعتقاداتهم.

العبارة: (إذا لم يُغير هذا الكتاب العالم، فالويل لنا جميعا)

هـذه هي حقيقـتي الـتي كنت أخفيهـا بـالكتب الـتي أؤلفهـا، والصيحات التي كنت أصرخ بها.. لأنه لا يمكن لأحد أن يجزم بعـدم وجود الإلـه.. فلا أحـد يملـك دليلاً يقينيًـا على ذلـك، ولـذلك نلجـأ ـ معشر الملاحدة ـ في أحسن أحوالنـا للإيمـان بــ (غيبٍ) آخـر غـير الغيب الديني.. حتى نهرب من الله.. ومن الالتزامات التي يكلفنـا بها.

وقد كان ذلك التردد محيرا للكثـير من أتبـاعي.. وقـد سـألني بعضهم قائلا: (كيف لعاقلٍ أن يرهن حياةً أبديةً في نارٍ وعــذابٍ إذا صحت احتمالية الخالق في الأديـان.. وكيـف يفـرط في نعيم مقيم إن صح مـا تعـد بـه الأديـان؟)، وقـد احتلت عليـه بإجابـات كثـيرة، جعلت عقله ينغلق مرة أخرى، لكن عقلي بقي في حيرته.

والعجب أني شاهدت صاحب العقل الذي تصورت أني أغلقته بتلك الإجابات الملفقة يتدخل في بعض القنـوات الفضـائية، ويعلن إيمانه بالله، ويعلن في نفس الوقت الـبراءة مـني، وعنـدما سـأله المذيع عن سبب ذلك، حكى لهم ما حصل له معي، ثم عقب عليـه بقوله: عندما عدت إلى بيـتي رحت أتأمـل فيمـا ذكـره لي، ورحت أتساءل بيني وبين نفسي قائلا[1]: نعم إن [ريتشارد دوكينز] عــالم وبـاحث متخصـص في علم الأحيـاء.. ولكن هـل الحـديث عن اللـه وإنكـار وجـوده مرتبـط بعلم الأحيـاء.. فـإن كـان كـذلك، فلم كـان أستاذ أساتذة هذا العلم مؤمنـا.. ولم كـان كبـار أعلام علم الأحيـاء مؤمنين، حتى المعتقدين منهم بنظرية التطور؟

وعنــدما قلت لنفســي هــذا راحت تقــول: أجــل.. فلا يمكن الوثوق في العالم إذا تحدث خارج معملـه.. لأنـه سـاعتها لا وزن لـ

---

[1] () وهم الإله، ص5.

[1] () استفدت المادة العلمية الواردة هنا من مقال بعنوان: [الوجه الآخـر للعلم ريتشـارد دوكيـــنز في مـــيزان العلم والعقـــل والمنطـــق والنفس والأخلاق] من موقـــع [البـــاحثون المسلمون]، وقد ذكروا في كل محل المصادر المرتبطة به، والموجودة على النت، وخصوصا على اليوتيوب، وقد أعرضنا عن ذكرها لإمكانية الوصول إليها بسـهولة ويسـر من غـير حاجـة لتوثيق.

(علمه) بل وجب النظر إليه كأي شخص من الأشخاص لـه عقيـدة وأفكار يدافع عنها وعن صحتها مهما كانت صوابا أو خطأ.

وقالت لي نفسي: ماذا لـو كـان العلمـاء (الملحـدون) ليسـوا سوى مجموعة من المضطربين نفسيا.. ولا يتبعهم الملايين اتباعـا لعلمهم، وإنما انخداعا بهم وبشعاراتهم الرنانة عن حرية (التفكـير) و (العقل) و (العلم)

وقالت لي: إلا يمكن أن يكون الـدافع خلـف آرائهم الإلحاديـة شخصياتهم المضطربة أو مشاكل حصلت لهم في الصغر أو الكـبر مع رجال الدين أو غيرهم؟

وقـالت لي: مـاذا لـو كـان كلام [بـول فيـتز] صـحيحا، وهـو بروفيسـور متخصـص في علم النفس بجامعـة نيويـورك، ويتحـدث عن مجاله الخاص به، والـذي كتب فيـه كتابـه [إيمـان اليـتيم: علم نفس الإلحاد]

وقـالت لي: مـاذا لـو كـان لكـل من (العلمـاء) (الملحـدين) جوانب ودوافـع نفسـية وحياتيـة مظلمـة هي الـتي دفعتهم لأدلجـة العلم بأفكارهم، مثلما أشار [د. جيري برجمان] في كتابه [الجانب المظلم من تشارلز داروين: تحليل نقدي لأيقونة العلم]

مسح دوكينز بعض التراب من أنفـه، وأكـل بعض القـاذورات، ثم قال: لست أدري كيف بدا لي أن أشاهد تلك الحلقة المخصصة لنقدي.. ولسـت أدري كيـف أعجبتـني على الـرغم من الانتقـادات الشديدة التي تعرضت لها فيها.

ربما يكون ذلك لأن القناة استعملت كل الوسائل المشـروعة وغير المشروعة لإظهـاري على حقيقي.. وأنـا كنت أحتـاج إلى أن أرفع ذلك الطلاء المزيـف الـذي وضـعه أتبـاعي علي فمنعـني من رؤية حقيقتي.

اسمحوا لي ـ معشر المشاهدين الأعزاء ـ أن أنقل لكم بعض الشهادات التي وردت في تلك الحصة عني..

لقد تدخل أحدهم، وكـان من زملائي في الدراسـة الجامعيـة،

بل كان متفوقا علي فوق ذلك إلا أنه لكونه مؤمنا لم يلق من الاهتمام ما لقيته.. تدخل وقال: على عكس ما يظن البعض أن ريتشارد دوكينز (جراح) مثلا أو متخصص في (التشريح) أو حتى في (االحفريات ولمتحجرات) .. هذا كله غير صحيح.. فالرجل عالم (سلوك حيوان) في الأصل من جامعة أكسفورد بريطانيا ـ وعندما أرادوا ترقيته لحديثه عن التطور صار يُرفق بتعريفه وصف [عالم البيولوجيا التطورية].. وكل ذلك من باب الدعاية، لا من باب الحقيقة.

حينها تدخل الناقد البريطاني الكبير [تيري إيغلتون]، وقال عني: (تخيل رجلا يُسهب في الحديث عن علم البيولوجيا ومبلغه فيه لا يتجاوز ما ورد في (كتاب الطيور البريطانية!!)

ضحك الجميع، وضحكت معهم، لأنه لم يعدو الحقيقة، فمعلوماتي حتى في تخصصي كانت محدودة جدا.

بعده تدخل بروفيسور البيولوجيا الملحد [آلين أور]، وقال: (بالرغم من إعجابي السابق بنشاط دوكينز، لكنني أخشى أنني من أولئك العلماء المضطرين لمفارقته هنا. بالتأكيد يبدو لي كتاب [وهم الإله] معيبًا بشدة، فأنا مجبر بعد قراءة كتابه الجديد لاستنتاج أنه في الحقيقة مجرد هاو!!)

وقال آخر: لم يكن هذا المدعي [دوكينز] ليحصل على هذه الشهرة لولا حادثة تفجيرات 11 سبتمبر 2001م، فقد استغلته القنوات الفضائية حينذاك مثله مثل الملحد [سام هاريس] وغيرهما لتوجيه النقد اللاذع للأديان، واعتبارها أصل الشرور في العالم، على الرغم من أن مئات الملايين في القرن العشرين ماتوا وأبيدوا بوحشية على أيدي الملحدين من الشيوعيين والاشتراكيين والعلمانيين، وبمباديء تطورية تماما مثل البقاء للأصلح، وتفوق الجنس الأوروبي على باقي أجناس البشر)

وقال آخر ــ وكان متخصصا في علم النفس ــ: إن فصل الحديث عن أفكاره وعن طفولته شيء مستحيل.. رغم أن البعض قد يحاول وصف ذلك بمغالطة (الشخصنة) أو (تسميم البئر).. ولكننا نتحدث هنا عن (شخصية) و(تفكير) مَن يراه الملايين مفكرا

في الحياة كذلك وليس مجرد عالم محدود بمعمله..

وعندما سأله المذيع عن طفولتي، قـال: يمكنكم أن تسـألوه، وسيجيبكم.. ويمكنكم أن تشاهدوا حديثـه عن طفولتـه، فقـد قـال فيه: (وأنا أنظر عدة عقـود إلى الـوراء، إلى طفولـتي، أرى أشـياء مثـل الضـرب بالعصـا أو الاعتـداء الجنسـي على الاطفـال، هـذه الاشياء لايمكن أن أدينها بنفس المعايير التي أُدين بها شخصا يقوم بنفس الفعل في وقتنا الحالي)

سأله المذيع عن معنى قوله هذا، فقال: هـذا القـول واضـح.. فهل يمكن أن نقول أنـه في الماضـي مثلا (عنـدما كـان طفلا غـير ملحــد) كــانت هــذه الأشــياء (ســيئة) و(مرفوضــة) و(ظالمــة) و(مستبدة)، أمـا اليـوم (عنـدما صـار رجلا ملحـدا ماديـا لا يعـترف بالروح والنفس والمشاعر والعواطف) صار لا يمكنه إنكارها؟!

طلب منه المذيع أن يوضح أكثر، فقال: المشـكلة أن دوكيـنز لا يرى إشكالا في (التحرش بالأطفال) طالما كان بلطف، ولا يرى أن (الاعتداء الجنسي) على الأطفـال (بلطـف واعتـدال) سيسـبب الأذى لهم.. فهــل يمكن تفســير ذلــك الكلام علميــا أو عقليــا ومنطقيا؟ .. هل يمكن تفسـيره (إلحاديـا) و(ماديـا) حيث لا معـنى للحياء أو الضمير أو المشاعر والعواطف الـتي لا يـرى دوكيـنز لهـا وجودا للتأذى أصلا!!

كــان المــذيع لحوحــا، فســأله أن يوضــح أكــثر، فقــال: أنت تضطرني لأن أدلي ببعض المعلومـات الخطـيرة الـتي قـد أتعـرض بسببها للمحاكمة [1].

قال آخر: دعوني من الجـوانب النفسـية.. وهلم إلى الحـديث عن القيم الخطيرة التي طرحها.. فالإنسان يحاسب على أفكــاره، لا على تاريخه أو جغرافيته.

قال المذيع: فهلم حدثنا عن القيم التي طرحها.

قال الرجل بغضب: إن دوكينز يريد أن يدك عــرش الإنســانية

[1] أعرضنا عن ذكر بعض المعلومات هنا، والتي ذكرها دوكينز بنفسـه، من بـاب حفـظ الأعراض، وإنما أشرنا إلى هذا هنا حتى نبين دور الآثار النفسية والاجتماعية على الملاحدة.

السامي، ويحولنا إلى خنازير برية.. إنه يهدد كل الأخلاق المتعارف عليها بين البشر.. لقد سمعته مرة يذكر أن المجتمع هو الذي يُشكل تصرفات البشر بصورة آلية مهما كانت، حتى الاغتصاب.. فلا وجود لمعاني الخير والشر الفطري أبدا لتحكم على ذلك.

وعندما سأله [جاستن بيرلي] إبان مناظرته مع عالم الرياضيات وفلسفة العلم جون لينوكس عن الاغتصاب، استعمل دوكينز كل الوسائل التهرب من الإجابة التطورية المعروفة له (كملحد).. وحتى لا تنكشف الصورة (الهمجية) أو (الوحشية) للإلحاد قال له بيرلي أخيرا بعد عدة محاولات: (في نهاية المطاف: إيمانك بأن الاغتصاب خطأ هو مثل القول بأنه تطور لنا 5 أصابع بدلا من 6).. يقصد أن التطور لو اعتبره صوابا فسيكون صوابا)، فرد دوكينز: (نعم .. يمكنك قول ذلك)

قال آخر: صدقت.. وقد قرأت له مقالا بعنوان (إبعاد الوحش ذي العين الخضراء)، حاول فيه أن يغرس فكرة أن (الخيانة الزوجية) لا شيء فيها بالصورة التي يراها الناس من التهويل، وأن فرض اكتفاء الزوج أو الزوجة جنسيا بالآخر فقط هو من باب السيطرة المكروهة، وليس من حقه..ومما بقي في ذهني من المقال قوله: (لماذا كل هذه الهواجس حول الإخلاص لزوجة واحدة؟).. وكتب فيه: (لماذا نعتبر كلمة (الغش) هي الوصف لذلك؟! ولماذا يشعر الإنسان بأن له ملكية خاصة في جسد إنسان آخر؟)

قام بغضب، وقال: أنتم أمام إنسان قام ببرمجة نفسه في حياته على التجاهل التام لكل معاني المشاعر الإنسانية أو العاطفية أو القلبية .. ماذا يعني كل ذلك في عالم من الذرات المادية؟

قال آخر: صدقت، وقد قرأت له مقالا يذكر فيه أنه كان بالفعل في الماضي يملك الشعور بالغيرة، ولكن ذلك الشعور الآن ينضم إلى المشاعر التي تركها وصار يندم عليها، وقد قال معبرا عن ذلك: (لو افترضنا أننا وجدنا طرقا للقضاء على الأمراض الجنسية المعدية، ووجدنا طرقا للقضاء على مشاكل الأبوة .. السؤال: ما الخطأ في حب أكثر من شخص؟ ولماذا تستنكر

المتعة الجنسية لحبيبك مع شخص آخر إذا كان هذا ما يميل إليه؟)

قال آخر: إن أردتم أن تفهموا دوكينز، فاقرأوا كتابه [الجين الأناني]، فهو أشهر كتبه على الإطلاق.. وهو من المتسببين في شهرته.. لقد ذكر في هذا الكتاب أن (الجينات) هي الهدف من الحياة ذاتها.. وأن كل الكائنات الحية ليست سوى مجرد عبيد عندها، تخدمها وتتصرف وفق ما تمليه عليها، وتحمي نفسها من خلالها، وتحمي بقاءها..

وبناء على هذا فما أسهل أن يرمي المجرم بتبعة جريمته على الجينات الأنانية.. ذلك أنه لا شيء عند دوكينز يحمل اسم (حرية إرادة)

قال آخر: وهل للجينات عقل أصلا أو حرية اختيار وتفكير ومشيئة لتقرر بها أو لا تقرر.. إنها منذ اكتشافها أول مرة وإلى اليوم، وهي خاضعة للإنزيمات التي تتحكم فيها.. هي التي تقطعها وتنسخها وتحدد ما سيتم تكراره منها أو مزجه وخلطه من صفات الكائن الحي وصفاتها.

قال آخر: والعجيب أن دوكينز كتب كتابه هذا سنة 1976 .. أي قبل التعرف على كامل الجينوم البشري ولا الحيواني .. لقد أراد بذلك ـ كعادة الملاحدة ـ أن يستثمر فرصة اهتمام الناس بالجينوم البشري قبل خروجه، ليعطي النتائج قبل الحصول عليها.. إنها الحركة الاستباقية التي يحجز بها التطوريون والملحدون دوما مكانا لإلحادهم على الساحة.

قال آخر: ذلك يشبه تماما فكرة (الأعضاء الضامرة أو الآثارية) منذ أواخر القرن التاسع عشر، والتي ذكروا أنها لا وظيفة لها، لأنها من بقايا التطور.. ثم راحوا يتكهنون حولها بما شاء لهم الهوى إلى أن اكتشف العلم وظائفها بعد ذلك.

قال آخر: والأغرب من ذلك أن دوكينز وضع نظرية أخرى سماها نظرية (الميميتك) أو (الميمات)، وهي الشق (الفلسفي) من خرافة الجين الأناني، والذي حاول به دوكينز تبرير الدين.. فتلك الميمات التي لا وجود لها إلا في خياله لتبقى شاهدة على تناقض الملحدين مع العلم التجريبي المادي الذي يزعمونه: هي

وحـدة التناقـل الثقـافي بين الأجيـال.. أي هنـاك ميم للـدين، وميم للعادات، وعن طريق هذه الميمات ينتقل الدين بين الأُمم جميعا.

ضحك آخر، وقال: من العجيب أن دوكينز العالم الملحد الذي ينشـــر بين النـــاس عـــدم الإيمـــان إلا بالمحســـوس والمرصـــود والتجريبي يتحدث عن ِشيء أسماه الميمات لم يرصده أحد لا في الجينـــات، ولا في الخلايـــا، ولا حـــتى في العصـــبونات، ولا في أي شيء، فماذا نسمي ذلك؟

قال آخر: هل رأيتم كيف تنتشر الأفكار الساذجة بالبروباجاندا والتهويل الإعلامي.. لقد تم فك الجينوم البشري بالكامل في عــام 2001 ، ولم يظهر أي شــيء لـه علاقـة بمـا يمكن وصـفه بـالجين الأناني.. ولم يظهر أي شيء له علاقة بمـا يمكن وصـفه ميمـات.. ولكن مع ذلك بقيت البروباجانـدا والإعلام تصـف الكتـاب على أنـه (من أعظم كتب الأحيـاء والتطـور في العصـر الحـديث بعـد كتـاب داروين!!)

قال آخر: كما كان هناك تداعيات خطيرة لأفكـار داروين على الأشخاص والمجتمعـات، فكـذلك حـذر العلمـاء من أفكـار دوكيـنز الشاذة والتي تصور البشر والكائنات الحية على أنهـا آلات نسـخ لا أكثر لخدمـة الجينـات، وذلـك مثلمـا ذكـره كتـاب بينـتز بيريبيسـكا [الميميتيك: الفكرة الخطيرة]

قال آخر، وهو يضحك: مـا دامت الميمـات موجـودة للـدين.. فلماذا ظهر ريتشارد دوكيـنز نفسـه كملحـد؟.. ولمـاذا كـان هنـاك ملحدون منكرون للأديان أصلا.. وهل هو تمرد على الميميز؟.. وإذا كانت الميميز ثابتـة في تـاريخ البشـر فلمـاذا الاختلاف في الأديـان والمعتقدات؟

قال آخر: من الأمور التي تحتاج إلى الاهتمام ما ذكره دوكينز في كتابه (الجين الأناني).. فهو عندما يتحدث عن دافـع مثـل أكـل اللحم مثلا في الأسود، والـتي يـذكر أن لهـا سـببا جينيـا، يتسـاءل: (لماذا لا تأكل الأسـود بعضـها البعض طالمـا هي أيضـا مكونـة من لحم؟).. ثم يستشهد بظاهرة أكل بعض إناث العناكب لذكورها في بعض الأنواع، ثم يتعرض بوجـه عـام لظـاهرة أكـل الجنس الواحـد

لبعض أفراده.. والغريب هو قوله بأن مثل هذا السلوك .. أي أكل الجنس الواحد لأفراده.. تمثل تماما ما يعنيه من وصف الجينات بالأنانية.

قام، وقال: اسمعوني.. ما المفترض انتظاره في رأيكم من شخص يقرأ مثل هذا الكتاب بعد تلك الهالة الإعلامية التي أشهرته، ووصفته بأن كل ما فيه حقيقة لا تقبل النقاش.. هل ــ يا ترى ـ يقتنع القارئ البسيط بالكتاب، ولا يكبح أي تصرف يشعره بأكل إنسان آخر أو قتله أو اغتصابه أو الاعتداء عليه.. أم يقتنع بالكتاب، ولكنه لا يفعل ذلك، ويكبح رغباته واحتياجاته التي فيها تعدي على الآخرين؟ وهنا يكون إما متناقضا أو منافقا أو يحارب شيئا من المفترض أنه سينتصر في النهاية لأنه هو السيد الجيني.. أم أنه يغلق الكتاب، ويعرف أنه أمام تفكير شخص غير سوي شاء الإعلام والبروباجاندا أن تلبسه لباس التفخيم والتعظيم لتمرير إلحاده وأفكاره الشاذة والفاسدة للناس، تماما كما فعلوا مع غيره.

قال آخر: بالطبع لسنا في حاجة للتذكير بخطر مثل هذه الأفكار الإلحادية العدمية في الحياة، حيث يمكن لأي أحد أن يرتكب أبشع الجرائم بدعوى أنه مُجبر، وليس لديه اختيار.. بل سيكون الأعجب من ذلك لو سيطر الملحدون على القضاء في يوم من الأيام، وحينها كيف سيحاسبون المجرمين إذا لم يؤمنوا بحرية اختيارهم حين ارتكبوا جرائمهم.

قال آخر: والأخطر من ذلك .. هل يمكن أن تقول أن هذه الذرات تصرفت تصرفا صحيحا، والأخرى تصرفت تصرفا خاطئا.. أين المرجعية التي ستحتكم إليها، أو تقارن بها، إذا كانت تصرفات واستجابات العالم المادي لا تتغير إذا تكررت في نفس الظروف، ولو لمليارات المرات؟

قال آخر: إن مطالبة الملاحدة بتفسير مصدر حرية الاختيار عند الكائنات الحية والإنسان رغم كونها مكونة من ذرات مادية فقط معضلة من أكبر معضلات الإلحاد القاتلة.. ولذلك فالأسهل عندهم هو نفي وجودها أصلا.

قال آخر: أنا لا أدري أي الفكرتين الإلحاديتين سبقت أولا إلى عقل دوكينز؟ .. هل فكرة انعدام حرية الإرادة في العالم.. وهذا ما ينادي به الإلحاد المادي الذي لا يرى الكون إلا ذرات لا حياة فيها.. أم فكرة الجين الأناني التي سبقت إلى عقل دوكينز للتوافق بعد ذلك مع فكرة انعدام حرية الإرادة؟ .. والحقيقة أن الإجابة لا تعنينا كثيرا لأن الناتج واحد، وهو غير مقبول، بل غير واقعي، ولم يحدث في حياتنا كبشر ولا عند دوكينز المتناقض نفسه.

قال آخر: أنا لا أدري لم يصر الملاحدة على الربط بين التطور والإلحاد.. مع أنه ــ حتى في حال القول بصحة نظرية التطور، فإنها لا علاقة لها بالإلحاد، كما يذكر ذلك سماسرة الإلحاد لتمريره إلى المؤمنين.. لأن السؤال سيبقى دائما عن المحرك الذي أظهر الكون أولا، وطوره ثانيا.

قال آخر: صدقت.. ولذلك، فإن الذين يربطون نظرية التطور بالإلحاد لا يستعملون أي منطق علمي، بل هم يعبرون فقط عن أمزجتهم وأذواقهم ورغباتهم الشخصية التي لا تقدم ولا تؤخر.. لقد قال الملحد الأمريكي التطوري الشهير [ويليام بروڤين] ـ بروفيسور تاريخ العلوم والبيولوجيا التطورية ــ يذكر هذا: (إن نظرية التطور تعتبر أكبر محرك تم اختراعه للإلحاد)

ومثله قال دوكينز في مقابلته الشهيرة عام 2005 بعنوان [المشكلة مع الله]: (شعوري الشخصي أن فهمي للتطور قادني إلى الإلحاد)، وعندما سئل: (ماذا كنت لو عشت قبل داروين؟)، فرد قائلا: (على الأرجح كنت سأؤمن بالله إن عشت قبل داروين)

وهكذا قال في كتابه [صانع الساعات الأعمى]: (داروين جعل من الإمكان أن تكون ملحدا متكامل الفكر)

ضحك آخر، وقال: ألا تعجبون من هذا العنوان (صانع الساعات الأعمى).. ألا ترون إلى أي مدى انحدرت القوى العقلية للملحدين بسبب خرافات التطور؟.. لقد انحدرت لدرجة الإيمان بإمكانية صنع الساعة من رجل أعمى!

قال آخر[1]:لقد قرأت هذا الكتاب، وهو يحـاول بكـل صـنوف المراوغة والخداع أن يثبت أن الحركة الفوضـوية والعميـاء لـذرات المـادة في الخلايـا الحيـة تسـتطيع صـناعة المليـارات من الصـور المبدعة والذكيـة والمبهـرة والنظم المعقـدة والراقيـة في الأنـواع الحية، والتي تتجاوز عشرة ملايين نوع على وجه الأرض.. وهو يقر مراراً أنـه من المحـال أن يتخلـق هـذا الكم من الجمـال والنظـام شديد الضبط والتعقيد دفعـة واحـدة تبعـاً لقـوانين الاحتمـال الـتي يوردهـا بإسـهاب كفيصـل في مثـل هـذه الأفكـار، ولكن الفكـرة العظيمة بنظره، والتي اكتشفها داروين جعلت ذلـك ممكنـا.. وهي في المراهنة على الزمن الطويل جـداً، والتغـيرات الصـغيرة جـداً في الكائنات الحية والمتراكمة عبر هذه السنين.

قال آخر: لقد حاول دوكينز بكل دهـاء وحيلـة أن يتجـاوز كـل تلك الإشكالات التي يضعها العقل أمام تشكل الحياة بهذه الصورة البديعة، فراح يضع قانون احتمال يـراعي الـزمن.. لقـد ذكـر ذلـك بصراحة، فقال: (لتقييم مصداقية أي فكرة، فإن الطريق الصـحيح هو قياس قلة احتمالها)[2] .. والقانون الذي يراعي الزمن يسـمى [الحد الكوني]، وهو القانون الذي يضع حداً لأصغر احتمـال ممكن، اعتماداً على حدود الكون أو جملته المكونة من عمر الكون وعـدد ذرات الكـون، وأقصـى حركـة ممكنـة لهـذه الـذرات خلال ذلـك العمر.. وبهذا كل احتمال يصغر عن هذا الحد يكون مسـتحيلا بغض النظر عن الزمن، وقد حسب بعضهم، و هو [وليام ديمبسـكي [3]]

1() استفدنا المادة العلمية هنا من مقال مطول بعنوان: الرد على كتاب صانع الساعات الأعمى، للدكتور فؤاد دمشقي، والفصل الرابع من كتاب [وهم الإله] لريتشارد دوكنز.

2() صانع الساعات الأعمى، ص70.

3() وقد حسب هذا الرقم اعتمادا على عدد الجسيمات الذريـة في الكـون، وهـو 1080 وهذا الرقم أكده ستيفن هوكنج في كتابـه تـاريخ مـوجز للـزمن صـ 133.. وأقصـى عـدد من الحركات الممكنة لكل جسيم في الثانية الواحدة حسـب زمن بلانـك 1045 (زمن بلانـك هـو أصغر زمن ممكن ويساوي جزء من الثانية قيمته (1045-) وبالتالي لا يمكن أن توجـد حادثـة تحدث أسرع من هذا الـزمن). وعمـر الكـون (بعـد أن ضـاعف عمـره مليـار مـرة) ويسـاوي بالثواني (1025).. والنتيجة هي: (1080) × (1045) × (1025) = (10150)، وهذا الرقم في الواقع هو أكبر من الرقم الواقعي بكثير فلا يمكن للجسيمات أن تتحرك باسـتمرار بمثـل هذه السرعة من بداية الكون إلى الآن إضافة لمضاعفة عمر الكون مليار مرة.

هذا الرقم، وكان الناتج هو الاحتمال (150(1/10 أو أن الاحتمال الذي يساوي واحد إلى واحد وأمامه مئة وخمسين صفر هو العدم، والرقم الذي يصغره هو المستحيل.

قال آخر: أما التطور فيحتاج إلى قانون أقل بقيمه بكثير من قيم هذا القانون، فنحن نحتاج إلى أربعة مليارات عام فقط لعمر التطور، كما يدعون، وليس عمر الكون مضروباً بمليار مرة.. ونحتاج لعدد ذرات الكائنات الحية فقط، وليس عدد الجسيمات الذرية بالكون كله، ولأقصى حركة ممكنة في الثانية لكل ذرة، وليس لحركة الجسيمات الذرية الجنونية المفترضة على حسب زمن بلاك.. وبذلك فإن الرقم الناتج سيكون صغيراً جداً أمام رقم ديمبسكي!

قال آخر: لقد حاول دوكينز في كتابه [صانع الساعات الأعمى] أن يحسب قوانين الاحتمال في المادة الحية، وحسب احتمال ظهور بروتين واحد مكون من 146 حمض آميني، فقال: (يتكون جزء الهيموغلوبين من أربع سلاسل من الحموض الآمينية المضفورة، ولننظر في سلسلة واحدة فقط، إنها تتكون من 146 حمض آميني، والحموض الآمينية عشرون حمضاً، ومنه فإن احتمال ظهور هذه السلسلة من الفوضى هو 20 مضروبة في نفسها 146 مرة أو1 إلى 10 أس 190 .. أو واحد إلى واحد وأمامه 190 صفر، واسمه [حد أو عدد الهيموغلوبين])(1) .. فسلسلة واحدة من أربع سلاسل بروتينية تشكل الهيموغلوبين، والذي تشكل في فترة متأخرة من التطور لكي تظهر من الفوضى تحتاج إلى هذا الرقم الذي تجاوز الحد الكوني بأربعين صفراً.. وذلك لا يعني سوى نسف نظريته بالكامل في جملتين!

قال آخر: يمكننا قراءة هذه النتيجة بطريقة أخرى، وهي أن

ومع هذا نجد من يعترض على هذا القانون بقوله: (إن عدد الجسيمات الذرية في الكون هو أكثر من ذلك بكثير وإذا سألناهم كم هو بالضبط وما هو مصدركم؟) لا نجد إجابة، وإن كانت هنا إجابة قوية فلم لا نأخذ بها ونعدل القانون فالأمر بسيط، ففي كتاب تاريخ موجز للزمن لستيفن هوكنج ص 133 يذكر: (أن عدد الجسيمات الذرية يساوي 1 وأمامه 80 صفر)، وهؤلاء المعترضون لا يعترضون لما ضاعف عمر الكون مليار مرة ولما جاء بهذا الرقم المفرط لحركة جسيمات المادة.

(1) صانع الساعات الأعمى، ص 75.

طريقة ظهور هذا البروتين هو احتمال واحد للمصادفة مقابل مجموعة احتمالات تساوي (1/10)190 لوجود الله.

قال آخر: ويمكننا قراءة هذه النتيجة بطريقة ثالثة، وهي أن ظهور هذا البروتين الصغير نتيجة الفوضى هو أمر مستحيل، لأن نتيجة الاحتمال تخطت [الحد الكوني] بأربعين صفراً.. وبعبارة أخرى فإن حجم كل الكون المرئي المكون من ألف مليار مجرة.. في كل مجرة ألف مليار نجم.. مع 17 مليار عام.. مع أقصى حركة لكل جزيئاته.. كل هذا غير قادر على توليد بروتين واحد طوله 1 نانومتر .. أو جزء من مليون جزء من الميليمتر نتيجة المصادفة!

ضحك الجميع، وقال أحدهم: إن هذا وحده كاف لرمي صاحب الكتاب بالجنون لا بالعبقرية.. فدوكينز بنفسه نسف مراده من كتابه بالكامل..

قال آخر بهدوء: مع ما ذكرتم من أن قوانين الاحتمال تنقض بالكامل نظرية التطور الأعمى والعشوائي، وتنقض جوهر هذا الكتاب إلا أن الأخطاء في الكتاب لا تقف عند هذا الحد.. من ذلك مثلا قوله: (الكون الذي نعرفه اليوم بالطبع هو شظية دقيقة من الكون الفعلي)، وتوكيده لهذه الفكرة بقوله (بالطبع) تعطي صورة واضحة عن استهزاء الكاتب بالموضوعية العلمية، محاولاً تغييب الحقيقة وتمييعها والإيحاء للعامة والسذج بأن هذه الفرضيات هي حقائق.. ففرضية الكون المتعدد بكل الصور المفترضة إلى الآن هي مفهوم فلسفي افتراضي ليس له أي برهان رصدي(1) .

قال آخر: صدقت.. فالكاتب نفسه بعد عشرين عاماً من هذا الكتاب، وفي كتابه [وهم الإله] يتراجع بكل بساطة عن هذا التوكيد، ويذكر أنها مجرد [مقترح!](2)

1() انظر في الرد على هذه النظرية: مجلة العلوم عدد يوليو 2012 مقالة [الكون المتعدد]

2() وهم الإله، ص 147.

قال آخر: صدقتما، فقد وضِعت هذه الفرضية في محاولة للهروب من صدمة الفيزيائيين من يقينهم بأن احتمال ظهور نجم واحد كشمسنا من الفوضى هو محال.. كيف لا، ومركب بروتيني طوله جزء من مليون جزء من الميليمتر لا يمكن ظهوره من الفوضى ولو اجتمع الكون كله على ذلك، فقد قال [بول ديفيس] في كتابه [العوالم الأخرى]: (إن ظهور الشمس نتيجة الفوضى تساوي واحد إلى واحد وأمامه مئة مليار مليار صفر وهذا رقم معدوم بكل المقاييس)(1) .. أي أن ظهور الشمس من الفوضى هي احتمال واحد يقابله مجموعة احتمالات تساوي واحد وأمامه ألف مليار مليار صفر.. وليس ألف مليار مليار احتمال.. لوجود الله!

قال آخر: تلك الحقيقة تؤدي إلى أن الله هو يقين مطلق، ولكنهم ـ لتعنتهم وكبريائهم ـ يرفضون ذلك جملة وتفصيلاً، ولهذا يلجؤون للفلسفة والفرضيات التي لا برهان عليها للهروب من هذه النتيجة، ومن ثم الإيحاء للسذج أن هذه الفرضيات عبارة عن حقائق علمية.. مع أنه ليس سوى منطق نفسي وعاطفي وغير علمي.

قال آخر: لقد رأيت دوكينز في كتابه [وهم الإله] يتجاهل هذه النسب الاحتمالية ويضع القارئ بين خيارين.. إما الله.. وإما الأكوان المتعددة.. فيقارن بين يقين وبين فرضية! ويعتبر أن فكرة الإله معقدة وغير قابلة للفهم، لذا فلا خيار أمامه إلا الأكوان المتعددة(2).

قال آخر: عندما طالعت كتبه الإلحادية جميعا، وجدت أنه لا يبحث في كل هذه المسائل بطريقة منهجية علمية، وإنما يبحث فيها بطريقة عاطفية مجردة، فهو يستعمل كل الوسائل للهرب من الله، لا لكونه إلها، وإنما لكونه رمزا للأديان، أو للكنيسة، أو للتخلف، أو للقرون الوسطى، كما عبر عن ذلك بصراحة في

---

(1) العوالم الأخرى ص 186 لبول ديفيس.

(2) وهم الإله، ص149.

قولـه: (ثمة إغـراء بمعارضة هـذا الفـرض على الأسس العاطفية التالية.. أليس في ذلك شيء رهيب من روح العصـور الوسـطى؟) (1)، ويقـول: (إني ممتن قلبيـاً أننـا هربنـا من ضـيق عقـل كنيسـة العصـور الوسـطى) (2)..فهـل من أسـس البحث العلمي تقـديم النتيجة على المقدمة بناءً على العاطفـة والامتنـان القلـبي؟ وهـل هـذا هـو المنطـق العلمي؟ .. ثم إلا يوجـد على الأرض دين سـوى دين الكنيسة؟

قال آخر: لقد اعـترف دوكيـنز بوجـود مشـكلة بنشـأة الحيـاة على الأرض، فقد قال: (لابد من افتراض وجود التناسخ [الجينـات] لافـتراض وجـود الانتخـاب الـتراكمي، والتناسـخ يحتـاج إلى نظـام ماكينات معقـد [الخليـة]، فـإذا كـان هـذا النظـام يحتـاج للانتخـاب التراكمي فنحن أمام مشكلة).. وطرحه هذا عجيب جـدا، فمن أين أتى التناسـخ ونظـام الماكينـات المعقـد.. أو من أتت الخليـة و الشيفرات الوراثية؟

قـال آخـر: لقـد اعـترف دوكيـنز أن نظـام التشـفير، ونظـام التناسخ، وتركيب البروتي نظام مبهر وذكي، وأنه مصـمم تصـميماً خاصـاً .. والعجيب أنـه يصـر مـع هـذا أن الصـانع يتصـف بـالعمى وفقدان العقل.. مع أنه يعترف أنه من المحال أن يظهر مثـل هـذا النظام دفعة واحدة، فقوانين الاحتمال تمنع ذلـك.. وبحسـب الحـد الكوني فإن ذلك لا يمكن أن يظهر، لا دفعة واحدة، ولا بالتدريج.

قال آخر: لقد رأيته في كتابه [وهم الإله] يقدم مغالطة كبرى حين يذكر أن احتمـال ظهـور الشـيفرة الوراثيـة هـو 1 من مليـار، ويكرر ذلك عدة مرات، ويؤكد أن ذلك نتيجة حساباته المبنيـة على عدد الكواكب في العالم، وليس على ارتصاف الرموز الرقمية في الشـيفرة الوراثيـة (3)، وهـو يـرى أن هـذا رقم ممكن ومقبـول

1() صانع الساعات الأعمى، ص 199.

2() صانع الساعات الأعمى، ص 200.

3() وهم الإله، ص 140.

بنظره.. وهذا غير صحيح، فالرقم الصحيح أربعة أس مليار ونصف أو 2 أس ثلاثة مليارت أو 2 مضروبة بنفسها ثلاثة مليارات مرة.. والرقمان غير واقعيين على الإطلاق.. وهذه النتيجة تكفي المؤمنين بالله ليس لأن تصل بهم للإيمان بل لليقين، والعثرة لاتقف عند ظهور الترتيب فقط، بل بظهور فكرة التشفير والبرمجة، وبظهور هذه الرموز نفسها، والقاعدة التي يرتبط بها، وطريقة لف وجدل هذا الشريط الوراثي في الخلية، ثم بظهور [RNA]، ثم بظهور الإنزيمات و التركيب المعقد للخلية.. حتى أبسط خلية مفترضة قابلة للحياة والتطور كما يدعي.. تلك الآلة التي يتم من خلالها نجاح عمليات النسخ وصناعة البروتينات لملايين المرات خلال عمل الخلية وتصحيح كل خلل في الشيفرة الوراثية أثناء النسخ المستمر!

قال آخر: من خلال قراءتي لكتابه هذا، ولسائر كتبه عرفت أنه ـ هو وغيره من التطوريين ـ لا يملكون البرهان الرصدي لكيفية نشأة الحياة.. ولا لكيفية نشأة الشيفرات الوراثية.. ولا لكيفية نشأة النظم المعقدة التي تضمن عمل هذه الشيفرات.. ولا لكيفية بداية التطور.. ولا لكيفية تدرج التطور.. وليس لهم أي برهان رصدي عن تلك الأعين البدئية والوسيطة ولا عن كل الأعضاء الأخرى القلب والكبد.. وكل المستحاثات التي وجدت يمكن تفسيرها بسهولة كبيرة بدون نظرية التطور.

قال آخر: بل لا يوجد عندهم براهين تجريبية حول ظهور الحياة.. ولا على قدرة الطفرات على التلاعب بالشيفرة الوراثية بالدمج والإنقاص والزيادة لصنع شيفرات وراثية خلاقة وغير مسبوقة و مفيدة وبالمليارات.

قال آخر: اسمحوا لي أن أعطيكم مثالا يدلكم على بطلان فكرة التطور المتدرج بقوانين الاحتمال.. فلنفرض أنه كان لدينا عشرة ملايين نوع من الكائنات الحية.. لو أن كل نوع فقط تميز برمزين فقط من رموز الشيفرة الوراثية، لوجب أن تظهر هذه الأنواع نتيجة الفوضى باحتمال إلى احتمال يساوي حاصل ضرب رقم 2 في نفسه عشرة ملايين مرة.. أو 2 أس عشرة مليون.. وهو رقم يتخطى الحد الكوني والمستحيل بملايين المرات.. ولكن

الاختلاف هو أكثر بكثير من رمزين فقط.

قال آخـر: صـدقت .. اسـمحوا لي أن أذكـر مثـالا آخـر، يبعث السـرور في قلـوب التطـوريين، ولكنـه مـع ذلـك يهـدم مـذهبهم.. فلنفرض أن هناك تقاربا بين جينـات الشـمبانزي والإنسـان بنسـبة 98.5 بالمئة.. التطوريون يـذكرون هـذا، ويفرحـون بـه.. وبعضـهم يقول لك أن هناك كرموزوم 02 مدمج.. وبعضـهم يشـرح لـك عن مدى التوافق في كلا الجينـات والـتي تـدل على الأصـل المشـترك ويقفون بكل نشوة، ويقولـون: إنهـا الأدلـة الدامغـة على التطـور.. وربما لشغفهم أوبساطتهم أو لدهائهم يتجاوزون قيمة الفـارق بين جينات الإنسان والشمبانزي وهو واحد ونصف بالمائة..

فلنفـرض جـدلا صـحة مـا ذكـروا.. هـل تعلمـون كم يسـاوي الواحد والنصف بالمئة؟.. إنه يسـاوي اختلاف في 45 مليـون رمـز رقمي مـزدوج في الشـيفرة الوراثيـة.. وهـذا رقم مـذهل.. فحـتى تنجح الفوضـــى في تحقيـــق الضـــبط لهـــذه الملايين الخمســـة والأربعين، ويتحول الشمبانزي لإنسان نحتاج إلى احتمـال مسـاوي لاثنين مضـروبة بنفسـها 45,000,000 أو 45 مليـون مـرة، أي 2 أس 45 مليون.. وهو رقم يتجاوز العدم والمستحيل والحد الكوني بملايين المرات ..

والنتيجة أنـه لا الـزمن الطويـل، ولا التـدرج البطيء، قـادرين على تحقيق هذا الأمر من الفوضى.. مع العلم أننا نتكلم عن قفزة بسيطة بين نوعين متقاربين، حدثت ـ حسبما يذكرون ــ قبـل زمن صغير جداً نسبة للزمن المطبق بالحد الكوني.. فكيف بأحـد عشـر مليون نوع حي؟

قـال آخـر: إن قـوانين الاحتمـال تقـف دائمـاً بنسـبة تتخطى المستحيل والحد الكوني بملايين ومليارت المرات المضـاعفة ضـد ظهور المجرات والنجوم من الفوضى.. وضد ظهـور الخلايـا الحيـة والشيفرات الوراثية والبروتينات وكـل نظـام الخليـة من الفوضـى وضـد التطـور المتـدرج من الفوضـى .. وقـوانين الاحتمـال تقـف بنسبة كاملة لا نقص فيها أبداً مع احتمال أن القصد والتدبير الإلهي هو وراء ظهور كل نظم الكون المذهلة والمعقدة واللانهائية..

قال آخر: إن كتابه هذا وغيره من كتبه التي تتحدث عن هذا الموضوع من وجهة نظر قوانين الاحتمال والبراهين التجريبية والرصدية والواقع التجريبي والعملي ليس سوى أوهام وظنون.

قال آخر: دعونا من [صانع الساعات الأعمى]، وحدثونا عن [وهم الإله] ذلك الكتاب الذي أثار ضجة كبرى، فقد رأيت ما ذكره الملاحدة من تمجيده، فتعجبت لذلك، لأنني لم أجد فيه شيئا مما ذكر.. لقد قال بعضهم فيه: (عندما يتناول دوكنز نقد الأديان في كتابه [وهم الاله] فإن الله بكل عظمته وجلاله يقف وجهاً لوجه أمام عالم الأحياء على خط نار العلم والمنطق، الله يقدم ما عنده من أنبياء وكتب، ودوكنز يقدم ما عنده من أدلة وبراهيين علمية ومنطقية لا تقبل الشك في دراما علمية وعقلية رائعة تتخطى كل ما قرأت سابقاً من كتب تناولت نقد الأديان)(1)

قال آخر(2): عندما خرج الكتاب، وصاحبه ذلك التضخيم الإعلامي قام كبار رجال الفكر والعلم للرد عليه، وبيان مدى تهافته.. والمخجل أن منهم كبار علماء البيولوجيا، بل حتى من الملاحدة أنفسهم.. من الأمثلة على ذلك موقف فيلسوف العلوم والبيولوجيا المُلحد الشهير [مايكل روس]، وصاحب ترجمات كتب داروين العالمية، فقد قال عن هذا الكتاب: (كتاب وهم الإله جعلني أشعر بالخجل من كوني ملحدا، دوكينز وجماعة الملحدين الجُدد يزدرون حتى من يحاول أن يفهم الدين، إنه كطالب في السنة الجامعية الأولى يدور بفرح ويصرخ بصوت عال: (مَن خلق الخالق؟) وكأنه اكتشف مسألة فلسفية خطيرة)

قال آخر: ومما قرأته في رده عليه قوله: (ريتشارد دوكينز كارثة حقيقية، إننا نخسر المعركة.. يقصد معركة تدريس التصميم الذكي في المدارس.. إنه من السخافة بمكان والوقاحة

---

(1) النص من بعض المواقع الإلحادية العربية التي تعطي الكتاب وصاحبه مساحة كبيرة من الثناء إلى درجة التقديس.

(2) الاقتباسات الوارد هنا، وما بعدها من مقال بعنوان: [الوجه الآخر للعلم ريتشارد دوكينز في ميزان العلم والعقل والمنطق والنفس والأخلاق] من موقع [الباحثون المسلمون]، وقد ذكروا في كل محل المصادر المرتبطة به.

اللاأخلاقية أن يزعم أن النصرانية قوة للشر).. ويقول: (دوكينز ملحد وقح في جهله بالفلسفة واللاهوت وتاريخ العلم).. ويقول: (دوكينز سيفشل في أي كورس يدرس مقدمة لعلم الفلسفة أو الدين، وبفخر ينتقد مجالاً لا يعرف عنه شيئًا، لقد قلت في مكان آخر: لأول مرة في حياتي أشعر بالخجل لأجل الحجة الأنطولوجية)

قال آخر: ومن الردود الجميلة التي قرأتها عنه ما كتبه الصحفي [توم شيفرز] في جريدة التلغراف البريطانية تحت عنوان [أرجوك يا ريتشارد دوكينز، التزم الصمت، إنني أتوسل إليك كمعجب]

قال آخر: لقد اكتشفت أن تأثيره كان سلبيا على الملاحدة أنفسهم، فقد قال الملحد [بيرنارد بيكيت] في مجلة النيوساينتيست الشهيرة: (كيف أخرجني دوكينز من الإلحاد إلى اللاأدرية).. وقال الفيلسوف الملحد [توماس ناجل]: (الكتاب عبارة عن نقد ساخر، مجرد فلسفة هواة لا أكثر)

قال آخر[1]: دعونا من أحكام الغير على الكتاب، وهلم نستعرضه، لنرى بعض محتوياته، ومدى الدجل الذي يحويه.. سأذكر لكم مثالا على ذلك من فصل من فصول الكتاب.. هو الفصل الرابع.. لعله يكفي في بيان الطريقة التي يفكر بها الرجل.. أو الملحد على العموم.

نجده في بداية هذا الفصل مملوءا بالسباب والأحكام الجزافية الحاقدة على المؤمنين من غير ترو ولا تثبت ولا تحقيق.. فهو يصفهم مثلا بكونهم(لصوصا وخبثاء ذوي الألبسة الرخيصة).. ويصفهم بالعميان.. وبأنهم يختفون وراء قناع سياسي.. وبأنهم كسولين وانهزاميين وضعيفي الشخصية.. وبأنهم في منتهى الوقاحة.. وبأنهم ذوي عمى مدهش ووعيهم محدود.. وغير ذلك من الأوصاف التي تدل على أن إلحاده ليس سوى إفرازا لنفسه الممتلئة بالحقد على المؤمنين.

قال آخر: ليس ذلك هو السبب فقط في إلحاده .. هناك

[1]() استفدنا المادة العلمية هنا من مقال مطول بعنوان: نقد الفصل الرابع من كتاب [وهم الإله] للدكتور فؤاد دمشقي.

ناحية أخرى مهمة .. وهي أن معارفه عن الله الذي يؤمن به المؤمنون محدودة جدا.. فهو يعترف بعدم امتلاكه القدرة على التفريق بين الوجود والماهية.. ولهذا نراه عندما لايدرك الماهية يرفض الوجود.. وهذا منطق يشبه كل شيء إلا المنطق العلمي والعقلي.

قال آخر: هو طبعاً لا يضع قوانين الاحتمال في هذا الكتاب ويتجاهلها، بعكس ما فعل في كتابه [صانع الساعات الأعمى] حتى لايقع في الفخ .. بل إنه يصر على أنه مهما كانت النتائج الاحتمالية قاطعة في حتمية وجود القصد والتدبير وراء ظهور الأنظمة الكونية غير القابلة للإحصاء فإنه يرفضها، لأنها تؤدي إلى الله، ثم تؤدي للسؤال من خلق الله؟ .. وهذا بالنسبة له الطامة الكبرى والمعضلة التي لاحل لها، لذا يضرب بعرض الحائط كل الرياضيات والبراهين الرصدية والتجريبية اليقينية من أجل هذه المصيبة الكبرى التي يوقعه بها الوصول لله.

قال آخر: إن البديل الذي يضعه لله هو الانتخاب المتدرج الأعمى والفوضوي وغير العاقل الذي ثبت بقوانين الاحتمال والبرهان الرصدي والتجريبي استحالته.. ومع هذا يصفه بالحل المذهل بأناقته وقدرته.

قال آخر: لقد رأيته في كتابه يعود كل مرة على مثال [العين]، ويتجاهل بقية الأعضاء الأشد ضرورة للحياة كالقلب والكليتين والكبد وغيرها.. فهو في تفسير التخليق المتدرج لها يقول 10 بالمئة رؤية خير من لاشيء، ونقول له: فماذا عن القلب مثلاً، وهل 10 بالمئة قلب خير من لاشيء؟.. وعن أي تعقيد قابل للإختزال هذا الذي نراه في الأعضاء الحية بالغة التعقيد وفائقة القدرة ومتكاملة الإبداع؟

قال آخر: من العجائب التي ذكرها في الكتاب كبراهين على الإلحاد ما ذكره من أن [فكرة الإله] تمنع البحث العلمي .. فقد ذكر أنه كلما وجد المؤمنون بالله معضلة لم يعرفوا عنها شيئا ينسبونها لله، حتى يأتي العلم بحلها، وحينها يتبخر الله.. وبذلك يصبح [الله] حلا للكسولين والانهزامين وضعيفي الشخصية.. وهذا خلط عجيب بين فكرة وجود الموجود، وبين الموقف الخاطئ

منه.. فممارسة بعض الناس الخاطئة لهذه الفكرة ليس مبررا لرفضها.

قال آخر: لقد ذكرتني بحديثك هذا مقابلة أجراها دوكينز مع بعض القنوات الفضائية، وقد سأله حينها الإعلامي الأمريكي [بين شتاين] عما إذا كان يرى مانعاً من أن يكون أصل الخلية الحية الأُولى تصميماً ذكياً من عمل بعض كائنات [اليوفو] التي زارت الأرض في زمان سحيق، فقرر دوكينز مباشرة أنه لا يرى ما يمنع ذلك، بل إنه وصفها بكونها نظرية جديرة بالإهتمام.

لم يجد شتاين حينها إلا أن يعقب على جواب دوكينز بتلقائية وفطرية تامة قائلاً: (إذن لا مانع عندك من قبول فكرة التصميم الذكي عموماً، وإنما أنت تعترض على نسبتها إلى الخالق تحديداً)

قال آخر: إن افتراض كائنات ذكية، أو أكوان أُخرى، كلها تفتح السؤال المتسلسل (مَن الذي خلق تلك الكائنات الذكية؟) وهكذا.. ثم كيف لصاحب افتراض كهذا أن يَعيب على الجواب الديني، بل إن الجواب الديني أكثر منطقية وتناسقاً مع نفسه، ويمتلك دعماً نقلياً مباشراً، وهو النص المُقدس.. ويمتلك مستند عدم المعارِض، حيث لم تترك لنا تلك الكائنات تلك الدعوى العريضة، التي تُثبت قيامها بذلك.. أيضاً الجواب الديني أكثر عقلانية لعدم وجود التسلسل اللانهائي بداخله، والذي هو مستحيل عقلاً، فالتسلسل اللانهائي تضطر فرضية اليوفو للتسليم به، أو العودة للقول بالخالق الأبدي المستقل عن حدود الزمان والمكان.. فالجواب الديني يقدِّم للعاقل المُنصف ما لا تُقدمه الفرضيات الإلحادية الهاربة من فخ المعايرة الدقيقة للكون، والمعايرة الدقيقة لحظة الخلق، والتشفير في الكائنات الحية، وهي أمور تدعو كلها للتسليم بخالق واعٍ حكيمٍ قادر.

قال آخر: إن فرضية مُصمم ذكي من كون آخر أو غرباء زاروا الأرض ليس جواباً في حد ذاته، وإنما هو إرجاء المطلب المعرفي الذي يرومه السائل إلى درجة من درجات تسلسل لا نهائي لا يوصلنا إلى جواب البتة.. فما فعل المُلحد بهذا في الحقيقة سوى إضافة افتراض متهافت لعلةٍ وسيطة لا يجد العقلاء من القرائن ما يوحي، ولو من بعيد، بوجودها أصلاً.. لكنه الهروب من التكليف

الـديني إلى دين بلا قيـود ولا إلزامـات، وهـو دين اليوفـو.. أو دين الملاحدة الجديد.

قال دوكينز ذلـك ثم راح يمـد أنفـه الطويـل إلى الأرض ليحفرهـا، ويستخرج بعض الجذور منها، ثم يرميها، ويأكل بدلها بعض القـاذورات المحيطة به، وهو يقـول: لقـد اسـتمعت إلى تلـك الحـوارات بطولهـا، لكني ـ لغبائي الشديد ـ بدل أن أناقشـها في ذهـني، وأبحث عن وجـه الصواب والخطأ فيها، رحت في تلـك الليلـة أؤلـف كتابـا جديـدا لأثـير ضجة جديدة.. لقد كان هدفي ليس الحقيقة.. وإنما الضجة.

قال ذلك.. ثم استأنف حفره، وأكله.

ستيفن هوكنج:

بعـد توقـف [ريتشـارد دوكيـنز] عن الحـديث، وانصـرافه إلى الفتك بجذور الأشجار.. قام آخـر، عرفتـه من ملامحـه الـتي تشـبه ملامح [ستيفن هوكنج[1]]، وكان مثـل جميـع من في ذلـك الجنـاح صاحب ملامح خـنزير بـري، لم يبـق منـه من البشـرية غـير ملامح محدودة قليلة ممتلئة بالتشويه.

قام، ومسح التراب عن أنفه، ثم أكل بعض القاذورات، وقال: شكرا جزيلا صديقي دوكينز.. أظن أن الدور لي الآن في الحديث.. لا بأس دعوني أولا أكمـل هـذه القـاذورات العفنـة.. ثم سـأحدثكم عن كل شـيء.. وأعـدكم أنـني لن أكـذب عليكم كمـا كنت أفعـل، فزمـان الكـذب قـد راح إلى مـا لا نهايـة.. نحن الآن في زمـان المكاشفة التامة.

جلس بهدوء، وأكل القاذورات الـتي في يـده.. ثم مسح على فمه وأنفه، ثم قال: أظن أن علي أن أبدأ.. على الرغم من صعوبة الاعتراف إلا أنه لابد لي من أن أفعل.

قبـل أن أحـدثكم عن نفسـي، سـأحدثكم عن الطريـق الـذي

---

[1] () ستيفن ويليام هوكينج: (ولد في أكسفورد، إنجلترا عام 1942)، هو من أبـرز علمـاء الفيزياء النظرية على مستوى العـالم، درس في جامعـة أكسـفورد وحصـل منهـا على درجـة الشرف الأولى في الفيزياء، أكمل دراسته في جامعة كامبريدج للحصول على الـدكتوراه في علم الكـون، لـه أبحـاث نظريـة في علم الكـون وأبحـاث في العلاقـة بين الثقـوب السـوداء والديناميكا الحرارية، كما له أبحاث ودراسات في التسلسل الزمني.

اخترتـه .. طريـق الإلحـاد.. والـذي لم يكن لـه أي علاقـة بمجـال تخصصي، فقد كان في إمكاني أن أكـون عالمـا مؤمنـا مثلي مثـل نيوتن وأينشـتاين وغيرهمـا، وفلم ينقص من علمهمـا ولا شـهرتهما الإيمان.. لكن هذا ما شئت، وهكذا أردت بسـبب البيئـة الـتي كنت تحيـط بي، والـتي كـانت تملي علي مـا أقـول كمـا تملي علي مـا أفعل.

أنا لا أبرئ نفسي، فقـد كـان في إمكـاني أن أرفض مـا يملى علي.. ولكني ركبت الموجة، ثم رأيتها تتناسب مع مزاجي الممتلئ بالأحقاد.. فقلت ما قلت.. وفعلت ما فعلت.

سكت قليلا، ثم قـال[1]: في بـدايات القـرن العشـرين وعلى مـدار التـاريخ السـابق لـه كـان الملحـدون يشـعرون بزهـو عنـدما يناقشون المؤمنين، لأن النظرية الفيزيائية التي كانت سائدة وقتها هي [سرمدية الكون].. أي أنـه بلا بدايـة ولا نهايـة .. ولـذلك كـانوا يزعمون أنه ليس بحاجة لخـالق.. لكن بعـد اكتشـاف نقطـة بدايـة الكـون وانهيـار نظريـة [الكـون الثـابت] بـدأ الملاحـدة يشـعرون بالحرج..

فقد كان ذلك داعية للكثيرين للبحث عن قوة عاقلة حكيمة لا تخضع للزمان والمكان أخرجت الكون من العدم.. وهـذا مـا جعـل الكثير من العلماء الملحدين كـ [فريد هويـل] يبـذلون جهـدا كبـيرا، ومحـاولات مسـتميتة لطـرح تفسـير علمي بـديل من أجـل دحض بداية الكون غـير أنهـا ذهبت كلهـا أدراج الريـاح بعـدما ثبت علميـا حدوث الانفجار الكبيربشكل نهائي.

وهذا ما دعا إلى البحث عن بدائل أخرى تسلم بنشأة الكـون، وفي نفس الوقت تضع بدائل عن الله.. وقد جـذبني هـذا التحـدي، خاصة أني وجدت الملاحـدة قـد توقفـوا توقفـا تامـا عن أي إجابـة يدلون بها للمؤمنين الذين شعروا بزهو النصر عليهم.

في ذلك الحين.. وبالضبط في نهاية عـام 2010 خطـرت لي البدائل التي وضعتها في كتابي [التصميم العظيم].. والـذي زعمت

---

[1] اقتبسـت المـادة العلميـة هنـا من مقـال بعنـوان [الـرد على سـتيفن هـوكنج ونقـد التصميم العظيم]، د.محمد الروسي، وهو من مدونة [مختصر تاريخ الحقيقة]

فيه أن الكون ليس بحاجة لخـالق، لأنـه يسـتطيع خلـق نفسـه من العدم، وذلك من خلال [نظرية كل شيء] التي سماها النظرية إم.

أكل بعض القاذورات بهدوء تام، ثم قال: أنتم تعلمون الفرحة العظيمة التي استقبل بها الملاحدة الكتاب، والتي جعلتهم يحدثون ضجة إعلامية كبيرة حوله.. ليس فقـط لأن موضـوع الكتـاب يعيـد حرارة النقاش بين الملحدين والمؤمـنين، ولكن لأن الكـاتب .. أي أنـا .. كـان لي شـهرة عالميـة واسـعة اكتسـبت جـزءا كبـيرا منهـا بسـبب وضـعي الصـحي الفريـد.. فـأنتم تعلمـون أني كنت مصـابا بشـلل ربـاعي منـذ عـدة عقـود، ولا أتحـدث إلا من خلال برنـامج كمبيوتر.. وهذا ما جعل الكثير ينجذب لي.. لا بسـبب حجج الكتـاب القوية، وإنما بسبب التحـدي الـذي قمت بـه في مواجهـة مرضـي المستعصي..

ليس ذلك فقط، وإنما لكوني أيضا، حاولت أن أخرج الملاحدة من القمقم الـذي وضـعهم فيـه اكتشـاف بدايـة للكـون.. ولـذلك بمجـرد أن طـرحت نظريـتي صـاح الجميـع: (وأخـيرا ظهـر دارون الفيزياء)

لقـد راح حينهـا الملحـد التطـوري [ريتشـارد دوكيـنز] يقيم الأفـراح بالمناسـبة، ويعلن عن نبـوتي، وتنصـيبي كاهنـا جديـدا في هيكل [الإلحاد الجديد] .. وقد قال في تلـك المناسـبة: (لقـد طـرد دارون الإلـه من البيولوجيـا، ولكن الوضـع في الفيزيـاء بقي أقـل وضوحاً، ويُسدد هوكينج الضربة القاضية الآن!!)

وعندما منحت لي الفرصة للحديث، قلت: (تماما مثلما فسـر دارون ووالاس كيف أن التصاميم المعجـزة المظهـر في الكائنـات الحيـة من الممكن أن تظهـر بـدون تـدخل قـوة عظمى، فمبـدأ الأكوان المتعـددة من الممكن أن يفسـر دقـة القـوانين الفيزيائيـة بدون الحاجة لوجود خالق سخر لنا الكون، فبسبب قانون الجاذبية فالكون يستطيع ويمكنه أن يُنشـيء نفسـه من اللاشـيء، فـالخلق الذاتي هو سبب أن هناك شيء بدلا من لاشيء، ويفسر لنـا لمـاذا الكون موجود، وكذلك نحن)[1]

---

[1] () مختصـر تـاريخ الـزمن، سـتيفن هـوكينج، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، سلسـلة

أنتم تعلمون أن الحيلة الـتي اعتمـدتها لـذلك هي التعلـق بمـا يطلق عليه [الأكوان المتعددة]، وهي تشبه إلى حد كبير ما قام بـه أصـحاب نظريـة التطـور في علم الأحيـاء من اسـتبدال (الخلـق) بالتطور الصدفي والعشوائي في الكائنات الحية.

ولأجـل إثبـات هـذا النـوع من الصـدفة افترضـت في كتـابي [التصـميم العظيم] وجـود 10 أس 500 كـون [أي 10 وأمامهـا 500 صفر] كـون، لأهـرب من الاعـتراف بالإلـه الـذي آمن بـه من سـبقني من كبـار الفيزيـائيين كـنيوتن وأنشـتين ومـاكس بلانـك وغيرهم.

أكل بعض القاذورات بهدوء قاتـل، ثم قـال: لقـد كـان هـدفي الأكبر من كـل ذلـك هـو الهـروب من فكـرة البدايـة الكونيـة، بـأي شكل، ولهذا، فقد صـرحت في كتـابي [الكـون في قشـرة جـوز]، فقلت: (إن الفيزيائيين ينفرون غريزيا من فكرة أن يكـون للزمـان بداية أو نهاية)[1]

وبـذلك فـإن طروحـاتي في هـذا المجـال لا تعـدو طروحـات رغبوية مزاجية لا علاقة لها بالعلم ولا بالمنهج العلمي.. فدور العلم أن يكتشف الحقيقة كما هي في الواقع لا أن يفرض عليها قناعاته.

من طـالع كتـابي [التصـميم العظيم] الـذي بثثت فيـه هـذه الأفكار، سـيدرك لا محالـة هـذا المنهج الـذي كنت أكتب بـه.. لقـد قلت فيه مثلا: (طالما يوجـد قـانون كالجاذبيـة، فـالكون يسـتطيع، وسيقوم بخلق نفسه من لاشيء.. الخلق التلقائي هوسـبب وجـود شيء بدلا من لاشيء.. ليس لازما أن نقحم إلها ليبدأ عمل الكون)[2]

ولأجـل تحقيـق هـذا، فقـد فرضـت أن تموجـات الكـوانتم[3] (تـؤدي إلى خلـق أكـوان متعـددة بأعـداد كبـيرة لا يـدركها العقـل

القراءة للجميع، ص 165.

[1] الكون في قشرة جوز، النسخة العربية، طبعة عالم المعرفة صفحة 35.

[2] التصميم العظيم، ص 142.

البشري، بعضها سينكمش على نفسه وينهار على نفسه وهو في مرحلة ميكروسكوبية ضئيلة.. ولكن غيرها الكثير سيتكون ويكبر، وبالتأكيد سيصادف في أحدها وجود بيئة وقوانين تصلح لتطور الكون إلى ما هو عليه، ومن ثم نشوء الحياة وتطورها كما حدث في حالتنا، وعليه فوجودنا ليس معجزة بل مجرد أحد الإحتمالات الحادثة في الأكوان المختلفة)

وعندما سألني بعض الطلبة في بعض الجامعات عن معنى قولي هذا راحت أشرح لهم قائلا: (سيستعير الكون الطاقة اللازمة لخلق المادة من قوي الجاذبية.. وبالطبع كلامي مجرد نظرية أو فرض لايمكن اختباره، وقد تدعمه المشاهدات، لكن بالطبع لن يمكنها إثبات صحته.. إننا نعلم تماما أن بداية الكون والزمان الحقيقي هو الانفجار الكبير، وعليه فما قبل الإنفجار الكبير هو شيء خارج نطاق قوانين الفيزياء..ولكن لنفرض أن هناك زمن خيالي كان قبل الإنفجار الكبير، ولنفرض أن الكون في هذا الزمان الخيالي مغلق على نفسه فهو محدود، ولكن لانهاية له أو حد تسقط خارجه (مثل سطح الكرة).. في هذه الحالة نستطيع تطبيق قوانين الفيزياء (كقانون الجاذبية)[1]

لقد كان كلامي هذا مجرد محاولة يائسة، لإحياء (نظرية الكون الثابت) أو سرمدية الكون مرة أخرى.. وقد كانت تلك الفرضية التي طرحتها محل تساؤلات كثيرة من الطلبة إلى درجتي خرجت من القاعة، وأنا ألعن عقولهم التي تتحدى عقلي..

لقد قال لي أحدهم: ما دمت قد ربطت نشأة الكون بالجاذبية.. فمن خلق الجاذبية؟ ومن خلق قانون الجاذبية؟

حينها حاولت أن أتخلص منه، فقلت له: الجاذبية قانون حتمية .. أي واجبة الوجود.. ولا يصح أن نسأل عن سر وجوب واجب الوجود.

3() أي أقل مقدارممكن من الطاقة يمكن أن يوجد منفردا.

1() المحاضرة موجودة على موقعه على النت.

قال الطالب: لكن هذا نفس ما يقوله المؤمنون حين نسألهم عمن خلق الله.. فهم يـذكرون أنـه واجب الوجـود.. فلم ترفضـون تبريراتهم مع أنكم تستخدمونها.

حينها رحت أستعمل طريقتي التي تعودت عليها من السخرية من الدين، فقلت لـه: هـل تعلم أن أولئـك المتـدينين الـذين تـدافع عنهم يذكرون أن عمر الكون لا يعدو 4000 سنة فقـط.. (إذا هـل وضع الإله الحفريـات القديمـة الـتي عمرهـا يقـدربملايين السـنين ليخدعنا؟)[1]

ضـجت القاعـة بالضـحك، فقـال الطـالب: ولكن ليس كـل المتدينين يقولون هذا.. وحتى لو قـالوه، فلنعتـبرهم مخطـئين، ولا نحمل الله جريرة أخطائهم.

لم أشأ أن أجادله، لأني أعلم أنه من الصـعوبة الانتصـار على أمثال هؤلاء.. لذلك تركت المجال لطالب آخر، ظننت أنـه سـيقف في صـفي، لكنـه وقـف ضـدي، وقـال: لـو فرضـنا حتميـة وجـود القوانين ..فيجب أن نفهم أن القانون نفسه ماهو إلا تعبير رياضـي عن ما يحدث في الطبيعة، ولكنه لا يعمل تلقائيـا فلا بـد من وجـود مشغل له.. ولابد من وجود المادة أو الطاقة أو المجال أو الشـيء الذي ينطبق عليه القوانين، فمن أوجد كل هذا؟

قال آخر: ذلك صحيح.. فقوانين نيوتن للحركة مثلا لن تحــرك كرة البلياردو بدون وجـود لاعب يضـرب الكـرة.. ووجـود الطاولـة لتجري عليها .. فضلا عن وجود الكرة نفسها.

قال آخـر: لقـد أثبت العلم وبوضـوح أن هنـاك بدايـة للزمـان والمكان كانت مع الانفجـار الكبـير، وهـذا مـا يفهمـه كـل البشـر.. فلمــاذا نحيــد عن المثبت الواضــح لنغــرق في الخيــال العلمي، والافتراضات الخرافيـة بعـد الافتراضـات من نـوع الـزمن الخيـالي والكون المغلق على نفسه غير الواضح المعنى لمجـرد سـد فـراغ العلم فيما قبل الانفجار الكبير.

قال آخـر: لقـد ذكـرت أنت نفسـك في كتابـك [مختصـرتاريخ

---

[1] التصميم العظيم، ص43.

الـزمن] أن نظريـة الأوتـار تكـاد تتسـاوى مـع القـول بـأن الكـون محمول على ظهر سلحفاة، فكلاهما بلادليل يمكن إثباته.

قال آخر: ألاترى ـ مستر هوكنج ـ أن النظرية [إم] عمليا غـير موجودة أصلا، فلا توجد معادلة رياضية واحدة للتعبير عنها، وكل ما تفعله يا مسـتر هـوكنج هـو أنـك تبشـر أنهـا سـتحل كـل العضـل.. وسترد على كل الإشكالات..لقـد ظللت تـردد هـذا الكلام منـذ 30 عاما.. ونحن نسمع جعجعتك، ولا نرى طحينك.

قال آخر: حتى لو استطعت ـ مستر هوكنج ــ إثبـات نظريتـك نظريـا.. فسـتظل غــير قابلــه للإثبــات عمليــا، لا الآن، ولا في المستقبل، فإثباتها مستحيل.. أنت نفسك تقر بهذا، ولهذا نجـد في كتابك أمثال هذه العبارة (هذا ما أؤمن به) أو (ما أعتقده)

قـال آخـر: صـدقت.. فتأكيـد وجـود الأوتـار أو الأغشـية طبقـا للنظرية إم ـ مثلا ـ يحتاج إلى جهازمصادم جزيـئي بحجم عشـرات الآلاف من السنين الضوئية.. ولنفهم ضخامة هذا.. فإن المجموعـة الشمسية بالكامل ليست سوى يوم ضوئي واحد.. وبنـاء على هـذا نحن نحتاج إلى جهاز مصادم بحجم مجرة.. مع العلم، فإن مجرتنـا بها حوالي 4 بليون شمس كشمسـنا.. فمن أين يـا تـرى تجلب لنـا هذا الجهاز مستر هوكنج.

قال آخر: اسمعني جيدا مسـتر هـوكنج.. هـل يمكن لنظريتـك حتى لو سلمنا جدلا بتصديقها، وأنه يمكن إثباتها عمليا.. هل يمكنها أن تفسـر سـبب وجـود البشـر والحيـاة على الأرض.. اللهم إلا بالإحالة على نظرية أخرى لا تقل اهتراءا وتهاويـا [نظريـة النشـوء والإرتقاء].. ولذلك، فستبقى الحيـاة لغـزا، بـل طلسـما لا حـل لـه بعيدا عن الخالق.

قال آخر: ألا ترى ـ مستر هوكنج ـ أنـك تتنـاقض في كلامـك.. فمرة تذهب إلى أن الكون خلق من العدم، ثم لا تلبث حـتى تعـود لتحدثنا عن زمن خيالي، وقـوانين، ومن ثم تموجـات الكـوانتم، ولا أدري كيف نسمي كل هـذا عـدما؟ .. اسـمح لي مسـتر هـوكنج أن أذكر لك بأن كلامك هذا ليس خطأ فقط، بل هو متناقض أيضــا..إلا إذا كنت تقصد أن فراغ الكوانتم ليس عدما.. لكن مع ذلك من أين

أوجدته؟.. وكيف أوجدته؟

قال آخر: أنت تعلم جيدا ـ مستر هـوكنج ــ أن وجـود الأكـوان المتعددة أمـر خـرافي أو في أحسـن أحوالـه ميتـافيزيقي لا يمكن إثباته أو اختباره.. ولذلك فهـو طـرح فلسـفي مجـرد من أي دليـل علمي.. هـذا الكلام ليس من عنـدنا.. بـل درسـناه عنـد زميلـك البروفسـور [جـون بولكنجهـورن]، وهـو من كبـار علمـاء الفيزيـاء النظرية، فقد قال لنا: (إن الأكـوان المتعـددة ليسـت فيزيـاء، إنهـا في أحسن الأحوال فكرة ميتافيزيقيه، ولا يوجد سبب علمي واحـد للإيمان بمجوعة من الأكوان المتعددة.. إن ماعليه العـالم الآن هـو نتيجة لإرادة خالق يحدد كيف يجب أن يكون)

قال آخر: فلنسلم لك جدلا ـ مستر هوكنج ــ بمـا ذكـرت .. ألا يدعو هـذا إلى التسـاؤل عن المصـدر الـذي وجـد بـه هـذا النظـام المغلق الذي تزعمـه.. فمهمـا كـانت الآليـة أو القـانون أو الطاقـة أوالميكـانيزم أوالتمـوج أو النظـام أوالشـيء.. فـإن هـذه جميعـا يستدعي وجودها وجود خالق..

قال آخـر: ألا تـرى ــ مسـتر هـوكنج ــ أن الإيمـان بمعجـزات الأنبيـاء الـتي تسـخر منهـا أيسـر وأقـرب للعقـل والمنطـق ممـا تطرحه.. فأنت تـذكر أن تناسـق الكـون ونظامـه البـديع ليس دليلا على الخالق، بل مجرد صدفة ضمن الاحتمالات العديـدة.. وكلامـك هـذا يعـني أن مليـارات المليـارت المليـارات من الصـدف تتـآلف وتتآزر كل حين لصالح الإنسان.. فأي عقل يقول هذا؟ .. إنها نفس عقلية التطوريين التي ترى أنه يمكن لقرد يجلس على كمبيوتر أن يخرج بعد مليار سـنة قصـيدة لشكسـبير من ضـمن كتاباتـه.. أوأن إعصارا جارفا يمكنه أن يشتت مواقـع الخـردة كلمـا مرعليهـا منـذ آلاف السنين لينتج في مرة من المرات طائرة بوينج.

قال آخر: من الملاحظات المهمة التي خرجت بهـا من كتابـك أنك عند عرضك لاحتمال وجود الخالق، تذهب لتنفر منه باستخدام أساطير الأديان الوثنية المتسـربة للكتـاب المقـدس أو لتفسـيرات أتباعها، ثم تذكر أن ما ورد في تلك الأديان يصطدم مع العلم، وأن البـديل لـذلك ليس سـوى الفلسـفة الإلحاديـة.. وهـذا خـروج عن المنهج العلمي، لأن إثبات وجود الله شيء، والأديـان شـيء آخـر..

فيمكنـك أن تـؤمن بوجـود اللـه من غـير أن تـؤمن بـأي دين من الأديان، كما يمكنك أن تدرس الفلسفة من غير أن تكـون على أي مذهب من مذاهب الفلاسفة.

قال آخر: لقد رأيت أنك في كتابك تنقـل قصـص الخلـق عنـد شعوب العالم بداية من ديانات وثنية ربما لايدين بها أحـد الآن، في أدغال إفريقيا، وصحارى أستراليا، مرورا بـديانات لشـعوب أمريكـا اللاتينية والهنود الحمر وشعوب آسـيا.. وانتهـاء بقصـة الخلـق كمـا وردت في الكتاب المقدس.. ثم تأخذ في السـخرية منهـا، وتجعـل من تلك الدراسة الوحيدة ذريعة للقول بـأن الـدين لا أمـل فيـه ولا فائدة منه.. وأنت في خضم ذلك كلـه تنسـى دينـا يـدين بـه مليـار ونصف مليار من البشر، وهو يتوافـق مـع العقـل والعلم والفطـرة السوية بشهادة العلماء في المجالات المختلفـة.. لكنـك اختصـرت موقفـك منـه كمـا اختصـره زميلـك دوكيـنز في تلـك التصـرفات الحمقاء التي قام بها بعض أتباعـه.. فهـل خطيئـة الأتبـاع تجـر إلى الحكم على المتبوع وإلغائه؟)

أكل بعض القاذورات بهدوء تـام، ثم قـال: بعـد أن ألقى علي طلبتي وابل إشكلاتهم واعتراضاتهم، خـرجت من عنـدهم ممتعضـا قلقا.. لكني مـا إن خـرجت حـتى وجـدت دعـوة لحضـور مناقشـة علمية لكتابي عقدتها بعض القنوات المحلية.. فـذهبت، وأنـا أرجـو أن يمسـح العلمـاء والبـاحثون آثـار التشـكيكات الـتي ألقاهـا علي الطلبة.

في بداية المجلس استبشـرت كثـيرا، وشـعرت أن معنويـاتي بدأت ترتفـع، فقـد سـمعت الكثـير من الثنـاء من بعض الأصـدقاء، حـتى أن بعضـهم اعتـبرني [نـبي الإلحـاد].. لكن المشـكلة أنـني أعرفهم، وأعرف أنه لا علاقة لهم بالبحث والعلم، وإنما كانوا مثلي ومثـل دوكيـنز ميـالين للإلحـاد، ولكـل مـا يـبرره من غـير اهتمـام بالحقيقة العلمية.

ما انتهى حديثهم حتى بدأ الطرف الثاني يتحدث، وبكل قــوة، وقـد كـانوا جميعـا من العلمـاء الـذين لهم حضـورهم القـوي في المجالات العلمية المختلفة، وأهمها مجـالي.. ولـذلك كـانوا أعـرف بخبايا ما طرحته من طلبتي.

قال أحدهم، وهو يحمل كتابا بعنوان [في البدء كان هوكنج..والمنطق انتهى]، ثم شرع يشرح كيف أني في نهاية حياتي حاولت التخلص من وجود الله بأي شكل، وبأي ثمن لأبني مجدا شخصيا، ولأشبع جوع الملاحدة، وأطمئنهم بأن خطاياهم لا تشكل أي خطر عليهم..

ثم قام آخر، وقد كان من كبار الفيزيائيين في العالم، وهو البروفيسور [راسل ستانارد]، وقال: (إن فلسفة هوكنج هي تحديدا ما أعارضه، فهي كما وصلتني مثال واضح على التعالم.. فاعتبار العلم الحديث مصدر المعلومات الوحيد، وأننا لدينا فهم كامل لكل شيء هراء، بل وهراء خطير أيضا، فهو يشعر العلماء بالكبر والغرور بشكل مبالغ فيه)

قال آخر: قد يظن أحدكم بأن هوكنج جاء بالجديد علميا فلماذا نهاجمه؟.. والجواب على ذلك هو أن هذا الكتاب لم يأت بجديد علميا.. فهو يجتر معظم ماقاله في كتبه السابقة، ويتناول نظريات معروفه ومتداولة منذ زمن مثل (الأكوان المتعددة) و(نظرية الأوتار) ونسختها المطورة (النظرية إم) أو كما قال عنها [نظرية كل شيء].. ربما كان الشيء الجديد هو تصريحه بأن الكون قادر على خلق نفسه، وحشد كتابه بكلام عن تاريخ العلم والنظرات الفلسفية التي تعجب العوام تماما كما تعجبهم الرسومات الكرتونية التي ملأت الكتاب الذي يخلو تماما من المراجع العلمية، كما يخلو أيضا من أي معادلة رياضية أو فيزيائية مما يؤكد أن دعواه ليست بالفعل إلا توظيف لرغبتة الجامحة للقيام بزلزال إعلامي، بحثا عن مكانة تاريخية بغض النظر عن امتلاكه مفرداتها.

قام آخر، وهو [روجرزبنروز]، الفيزيائي الشهير الذي أثبت معي حدوث الانفجار الكبير، وقال: (على عكس ميكانيكا الكم، فإن النظرية إم لاتملك أي إثبات مادي إطلاقا)

قام آخر، وهو البروفيسور [باول ديفيز] الفيزيائي الإنجليزي، وقال: (تبقى القوانين المطروحة غير قابلة للتفسير.. هل نقبلها هكذا كمعطى خالد؟.. فلماذا لانقبل الله؟.. حسنا وأين كانت القوانين وقت الإنفجار الكبير؟.. إننا عند هذه النقطة نكون في

المياه الموحله)

قام آخر، وهو الفيزيائي وعـالم الفضـاء [مارسـيلو جليسـر]، وقـال: (ادعـاء الوصـول لنظريـة نهائيـة يتنـافى مـع أساسـيات وأبجديات الفيزياء والعلم التجريبي وتجميـع البيانـات ، فنحن ليس لـدينا الأدوات لقيـاس الطبيعـة ككـل، فلا يمكننـا أبـدا أن نكـون متأكدين من وصولنا لنظريـة نهائيـة، وسـتظل هنـاك دائمـا فرصـة للمفاجـآت كمـا تعلمنـا من تـاريخ الفيزيـاء مـرات ومـرات.. وأرى ادعـــاء بـــاطلا أن نتخيـــل أن البشـــر يمكن أن يصـــلوا لشـــيء كهذا..أعتقد ان على هوكنج أن يدع الله وشأنه)

قـام آخـر، وهـو الفيزيـائي [بيـتر ويت] من جامعـة كولومبيـا، وقال: (لست من أنصار إدخال الحديث عن اللـه في الفيزيـاء لكن إذا كان هوكنج مصرا على دخول معركة الدين والعلم فما يحـيرني هـو اسـتخدامه لسـلاح مشـكوك في صـلاحيته أو فاعليتـه مثـل النظرية إم)

قام امرأة، وهي الطبيبة والعالمة البريطانية الرائدة [سوزان جرين فيلد]، وقالت: (بالطبع يمكنهم أن يدعوا مـا يشـاؤون ، لكن عندما يستخدم طريقـة حركـة طالبـان بـأن يـدعي بـأن لديـه كـل الحقائق والإجابات فهذا يشعرني بعدم الارتياح)

قام آخـر، وهـو [ويليـام كـريج] الفيلسـوف الأمـريكي، وقـال ساخرا: (لاشيء جديد علميا في هذا الكتاب بـالمرة، ولكن نقـاش فلسفي بحت خصوصا في الثلث الأول، وهو شيء غريب إذا علمنا أن هوكنج في أول صفحة من كتابه يذكر أن الفلسفة قد ماتت)

قام آخر، وهو فيلسـوف الفيزيـاء [كـريج كالنـدر] من جامعـة كاليفورنيا، وقال ساخرا: (منذ ثلاثين عاما صـرح هـوكنج بأننـا على أعتاب نظرية كل شيء، وبحلول عام 2000 وحـتى الآن في عـام 2010 .. لاشـــيء ..لكن لايهم، فهـــوكنج رغم ذلـــك قـــرر أن يفسرسبب الوجود بالرغم من عدم وجود النظرية.. إن ما يتحـدث عنه هو مجرد حدس غير قابل للاختار أبدا)

قـام آخـر، وهـو [راسـل سـتانرد] العـالم الفيزيـائي الشـهير، وقـال: (نظريـة الأوتـار تحتـاج لمصـادم هيـدروني بحجم مجـرة

لاختبارها، وهذا غير ممكن.. حسنا لو قلنا ـ طبقا للنظرية إم ــ إن الكون خلق نفسه فمن أوجد النظرية إم؟.. ومن أوجد القوانين الفيزيائية الخاصة بها؟.. ورغم ذلك فلاتوجد لها معادلة فيزيائية حتى الآن.. أطلب منهم أن يكتبوا معادلة فيزيائية ..لن يفعلوا لانهم ببساطة لايمتلكونها)

قام آخر، وهو [دون بيج] الفيزيائي الكندي الذي كان تلميذا لدي، وشاركني في كتابة ثمان ورقات علمية، وقال: (أتفق بكل تأكيد مع القول بأن حتى لوتمكننا من الحصول على صياغة كاملة للنظرية إم، ثم ثبتت أيضا صحتها، فهذا لا يتضمن أبدا أن الله لم يخلق العالم)

قام آخر، وهو [فرانك كلوز] الفيزيائي بجامعة أوكسفورد، وقال ساخرا: (النظرية إم غير معرفة، حتى وقيل لنا أن لا أحد يعرف على ماذا يرمز الحرف (إم) ربما من كلمة ميث (أي أسطورة) إنها لا تضيف شيئا في الحديث عن الله)

قام آخر، وهو العالم [جون بترورث] الذي كان يعمل في مصادم الهادرون بسويسرا، وقال: (النظرية إم خارج نطاق العلم))

قام آخر، وهو البروفيسور [محمد باسل الطائي]، وهو أستاذ الفيزياء الكونية بجامعة اليرموك بالأردن، وقال: (قوانين الفيزياء على الحقيقة بحاجة إلى مشغل.. هذا ما نتعلمه من ميكانيك الكم، فجميع الصياغات القانونية في ميكانيك الكم تتخذ الصياغة الرياضية الإجرائية، وهذه الصياغة تخفي في مضمونها وجود المُشغل.. من جانب آخر فإن جميع الفيزيائيين الدارسين لميكانيك الكم يعلمون أن الصفة المؤسسة لميكانيك العالم وظاهرات العالم هي الصفة الاحتمالية، وليست الحتمية، أي أن نتائج فعل قوانين العالم (القياسات) ليست حتمية بل هي احتمالية.. هذه الحقيقة تغيب عن عقل واينبرغ وعن عقل هوكنج حين يتحدثون عن الله)

قام آخر، وهو [د.هاميش جونستون] محررموقع عالم الفيزياء، وقال: (توجد فقط مشكلة صغيرة، وهي ضحالة الدليل

التجريبي للنظرية إم، بمعنى آخر إن هناك عالما كبيرا يخرج بتصريح للعامة يتحدث فيه عن وجود الخالق اعتمادا على إيمانه بنظرية غير مثبته.. إن الفيزياء بحاجة لدعم العامة حتى لاتتأثر بتخفيض النفقات، وهذا سيكون صعبا جدا إذا ظنوا أن معظم الفيزيائيين يقضون وقتهم في الجدال عما تقوله نظريات غير مثبته عن وجود الخالق)

قام آخر، وهو الصحفي العلمي [جون هورجان]، وقال: (هوكنج نفسه قال باستحالة اختبار نظريته..أن تضع نظرية لكل شيء فأنت لديك لاشيء.. أن يكون خلاصة بحثه هو النظرية إم غير القابلة للإثبات ..إننا نخدع أنفسنا إن صدقناه)

قام آخر، وهو بروفيسورالرياضيات [جون لينوكس]، وقال: (إن قول أن الفلسفة قد ماتت خطير جدا خصوصا عندما لا تتوقف أنت نفسك عن استخدامها.. ولأن هوكنج لديه فهم مغلوط لكل من الفلسفة والدين، فهو يريدنا أن نختار بين الله وقوانين الفيزياء.. إن القوانين الفيزيائية لايمكن أن تخلق شيئا، فهي مجرد الوصف الرياضي للظواهر الطبيعية.. فقوانين نيوتن للحركة لن تدفع كرة البلياردو على الطاولة بدون لاعب يضربها، فالقوانين لن تحرك الكرة فضلا عن خلقها.. إن ما يقوله هو خيال علمي بحت.. من أين جاءت الخطة الكونية التي تحدث عنها هوكنج؟ إنها ليست من الكون فمن جعلها تعمل إن لم يكن الله؟.. إن محاولة العلماء الملحدين الهروب من فكرة الخالق يجعلهم يعزون الوجود لأشياء أقل مصداقية كالطاقة والقوانين أوالكتل.. بالنسبة لي كلما زاد فهمي للعلم كلما زاد إيماني بالله لتعجبي من اتساع وتعقيد وتكامل خلقه)

ثم شرح كيف آمن عمالقة العلماء عبر التاريخ بوجود خالق عظيم لهذا الكون فقال: (إسحق نيوتن بعدما اكتشف قانون الجاذبية، وألف أهم كتاب علمي في التاريخ (برينسيبا ماثيماتيكا)، قال: إنه يأمل أن يساعد أصحاب العقول أن يؤمنوا بالله.. وكانت قوانين آينشتين الرياضية مثار اندهاشه الدائم وإيمانه بوجود قوة حكيمة جبارة خلف هذا الكون.. وآلان سانداج المعروف بالأب الروحي لعلم الفلك الحديث الحائز على أرفع الجوائز قال: إن

الله هو التفسير لمعجزة الخلق)

بعد استماعي لكل أولئك الذين انتقدوني.. رحت أتأمـل فيمـا ذكـــروا.. لا في انتقـــادهم لنظريـــتي، ولا في كونهـــا لا تمت للعلم بصــلة، فقـد كنت مقتنعـا بـذلك كلـه، ولم يكن لي حاجـة في أن يـذكروه لي.. ولكـني رحت أتأمـل العـواقب الـتي تنجـر من وراء تراجعي عن تلك الطروحات الإلحادية.. وعنـدما حسـبت حسـاباتي قـررت أن أسـتمر في جنـوني إلى الآخـر.. وهـا أنـذا أدفـع ثمـرة جنوني.

قال ذلك ثم راح يمد أنفه الطويل إلى الأرض ليحفرها، ويسـتخرج بعض الجذور منها، ثم يرميها، ويأكل بدلها بعض القـاذورات المحيطـة به.

النهاية

لست أدري ما الذي حصل بالضبط بعد أن سمعت كل تلك الأحاديث من سدنة معبد الإلحاد.. ولست أدري كيف خرجت من الفندق، ولا كيف ودعني صاحبي المرشد.. ولا كيف غاب عني معلمي الجديد [معلم الإيمان]؟

كل الذي أدريه أني بعد تلك الرحلة الجميلة الممتعة إلى فندق الملاحدة، رأيت نفسي في بيتي، وعلى أريكتي، وبجانبي كل شيء تركته، لم يمس منه شيء.. ولم يتحرك شيء من مكانه.. وذلك ما جعلني أشك في عقلي، بل في كل ما حصل لي إلى درجة أنني صممت أن أقصد طبيبا نفسيا ليخبرني بالضبط عن حال الوهم والجنون التي بلغتها، والتي جعلتني أرى ما لا يرى، وأسمع ما لا يسمع.

لكني ــ بعد أن ذهبت لمحفظتي لأبحث عن بعض أوراقي ـ وجدت ما أعاد إلي وعيي، وجعلني أثني عن زيارة الطبيب النفسي، لسبب بسيط، وهو أني اكتشفت أني لست مريضا.. ولم يكن ما رأيته وهما، بل هو واقع حقيقي.. والدليل على ذلك هو كل تلك الأوراق التي سجلت فيها أحاديث أولئك الملاحدة ابتداء من البارون دي هولباخ، وانتهاء بهوكينغ.. كل أسمائهم، وكلماتهم، وما رأيته وسمعته وجدته بحروفه في تلك الأوراق.. وبخط يدي، وبمداد قلمي.

لقد رحت أقرأ تلك الأوراق حرفا حرفا، وأتعجب مما فيها.. وكم يعلم الله فرحتي بها.. لقد رحت أقبلها، وأسجد لله شكرا لأنه وفقني لكتابتها كما سمعتها بالضبط من غير زيادة ولا نقصان.

لست أدري كيف خطر على بالي حينها أولئك الشباب المساكين الذين غرقوا في أوحال الإلحاد، والذين شاهدت مشهدا لهم على تلك القناة الفضائية.

لقد قلت حينها بعزيمة لا تنثني: لا بد أن ألتقي بهم، وأعطيهم هذه الأوراق بعد أن أنقحها، وأنظمها، وأحولها إلى شكل كتاب.. وقد فعلت ذلك.. وسميته بالاسم الذي ترونه على غلاف الكتاب

لم يبق إلا أن أسأل عن المحل الذي يوجد فيه أولئك الشباب.. وكان ذلك سهلا علي، فقد وضعت القناة الفضائية ذلك الشريط الوثائقي على أرشيفها، وتركت محلا لتعليقات القراء، والاتصال بالمنتج والمخرج وغيرهما.. وقد قمت بذلك.. وطلبت منهم عنوانهم.. وما أسرع أن أعطوني إياه، فقد تصوروا أني قد تأثرت بهم، وأريد اللحاق بركبهم، فقد كانوا ـ في باطن أمرهم ـ يمارسون دعاية مجانية لموضة الإلحاد الجديد.

بعد عناء شديد في الوصول إلى الحي الذي يسكنون فيه أصابتني دهشة كبيرة، فكل من أسألهم عنهم يخبرونني أنهم في المسجد.. أريتهم صورهم.. فأخبروني أنهم بشحمهم ولحمهم في المسجد.

بعد بعض التردد، ذهبت إلى المسجد الذي ذكروه لي، وقد فوجئت أنهم هم بالفعل، وأنهم يجلسون فيه بنفس الصورة التي كانوا يجلسون بها في ذلك الشريط الوثائقي.

اقتربت منهم، وقلت: عجبا .. ألستم أنتم الذي شاهدتكم في قناة [..]؟

قالوا: نحن هم أولئك الشباب..

قلت: ولكنكم الآن في المسجد.

قال: وما المانع من ذلك؟

قلت: المانع هو إلحادكم .. ألستم أنتم الذين سخرتم من الدين ومن القرآن ومن الآذان؟

قال أحدهم، والدموع تنهمر من عينيه: بلى .. نحن هم أولئك الشباب، وأنا الذي صغت ذلك الآذان الشيطاني، وأديته.. وقد تبت إلى الله بعد أن عرفت الحقيقة، وصرت مؤذنا في هذا المسجد.

قال آخر: وأنا تبت إلى الله، ورحت أحفظ القرآن الكريم، وأنشر تعاليمه العظيمة بين الناس.

قـال آخـر: وأنـا تبت إلى اللـه.. ورحت أرد على أطروحـات الملاحدة بما آتاني الله من علمه وفضله.

قلت: فكيف حصل ذلك؟.. لقد جئت من بلاد بعيدة لأسـلمكم هذا الكتاب..

أخرجت الكتاب وأريته لهم..

لكن العجب أن أحدهم، أخـرج مثلـه بنفس عنوانـه، وقـال: لا تقلق، فلكل واحد منا مثله.

قلت: كيف ذلك .. فأنا لم أعط هذا الكتاب لأي أحد.

قالوا: ونحن لم نأخذه منك، ولا من أي أحد.

قلت: فمن أين حصلتهم عليه؟

قالوا: نحن لم نحصل عليه.. نحن كتبناه مثلما كتبته.

قلت: هل تقصد أنكم زرتم فندق الملاحدة؟

قالوا: لو لم نزره ما تمكنا من كتابته.

قلت: فأنتم تعرفون [معلم الإيمان] إذن؟

قالوا: لو لم نعرفه ما كنا في هذا المسـجد، ولمـا خرجنـا من سجون الإلحاد.

قلت: وتعرفون ذلك المرشد الذي يقـود الـداخلين إلى فنـدق الملاحدة.

ابتسم أحدهم، وقال: مـا بـك يـا رجـل.. هـل نسـيتني .. هـل نسيت مرشدك في فندق الملاحدة؟

تمعنت في ملامحه، فإذا به هو عينه، فقلت متعجبـا: هـل هـو أنت .. هل أنت المرشد؟

قال: ألم أقل لك: إنني كنت ملحدا لولا أن هداني الله.

قلت: لكن لم لا تسـارعون فتنشـروا تـوبتكم، وتحـذفوا ذلـك

الشريط الذي يسيء إليكم.

قال: لقد فعلنا كل ما في وسعنا لحذفه.. ودعونا المخرج والمنتج ليسجل توبتنا، فرفضوا جميعا.. لقد عرضنا عليهم في مقابل ذلك أن نرد عليهم ما أعطونا من أموال مقابل تلك المقابلة السخيفة، فرفضوا .. طلبنا منهم أن نضيف إليهم مالا جديدا، فرفضوا أيضا .. هم لا يريدون أن ينشروا الإيمان.. بل يريدون نشر الإلحاد، ولم يجدوا طريقا لذلك غير نشر أمثال تلك المشاهد.

قلت: فهلا وضعتم بديلا تكفرون به عما فعل بكم.

قالوا: أجل.. لابد من ذلك.. فلا يمكن لحلاوة الإيمان أن تستقر في القلب، ثم لا ينبعث عطرها ونورها إلى العالم أجمع.

هذه قصتي الأولى مع الملاحدة .. أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بها، واستفدتم منها.. وإلى اللقاء في القصة الثانية.. والتي لا تقل متعة وفائدة عن هذه القصة.